الحُبُّ

في

التَّربيَة النَّبَويَّة

هَذا الكِتابُ في أَصلِه بَحثٌ مُقَدَّم لنَيلِ دَرجَةِ الماجستير

في التَّربيَة الإسلاميَّة في جامِعَةِ مَكَّة المُكرَّمَة المَفتُوحَة

لعام ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

وبفَضلٍ من اللَّهِ حَازَ عَلَىٰ دَرجَةِ الامْتِياز

عَائشَة محمَّد سَلمان النَّجَّار

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

ⓒ عوائد الخير للنشر والتوزيع ، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
النَّجَّـار ، عَائشَة محمَّد سَلمان
الـحُـــبُّ في التَّربيـة النَّبَـويَّـة / عائشَة محمَّد سَلمان النجَّار
جدة : ١٤٣٦هـ
٤٠٠ ص ؛ ٢٤ * ١٧ سم
ردمك : ١ـ٢ـ٢ـ٩٠٥٤٢ـ٦٠٣ـ٩٧٨

١ـ التربية الإسلامية ٢ـ الحب | العنوان
ديوي ٣٧٧٠١ ٨٧٩٠ / ١٤٣٦

رقم الإيداع : ٧٨٩٠ / ١٤٣٦
ردمك : ١ـ٢ـ٢ـ٩٠٥٤٢ـ٦٠٣ـ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إهْـــــدَاء

* إلَىٰ مُصلح الإنسانيَّة وهَادِي البَشَريَّة ، سَيِّدِنا **مُحمَّـد** ﷺ ، مُربِّي المُعَلِّمينَ ومُعَلِّمِ التَّربويِّين .
* وإلَىٰ العُلَماءِ المُرَبِّينَ وَرَثَةِ الأنْبيـاءِ والمُرسَلينَ .
* وإلَىٰ والـدِي الدكـتور **مُحمَّـد سَلمـان النجَّـار** رَحِمَهُ اللَّهُ الذي تَعلَّمتُ منه الحِرصَ عَلَىٰ طَلَبِ العِلمِ مَهمَا كانت الظُّرُوف .
* وإلَىٰ جَـدِّي العلَّامَة الشيخ **مُحمَّد الحامِد** ، وزَوجِه الدَّاعِيَة الربَّانيَّـة **فاطِمَة الشَّيخ أحمَد المُراد** رَحمَهُما اللَّـهُ .
* وإلَىٰ كلِّ مَن أعانَني بإرشادٍ أو تَوجيهٍ ، ومَنْ له فَضلٌ عليَّ ، وأخصُّ بالذِّكْر الدُّكتور/ **خلـدُون الأحـدَب** ؛ لتَوجيهاتِه الحَكيمَة ، والدُّكتور/ **ريـاض جـنزرلي** ؛ لجُهُـودِه المُميَّزة خِلالَ إشْرافِه عَلَىٰ هَـٰذا البَحثِ .

أُهْـدِي هَـٰذا الكِتَـاب

سَائلَةً المولَىٰ عَزَّ وجَلَّ أن يجعله عَملًا خالصاً لِوَجهِهِ الكَريم

شُكْرٌ وتَقْدير

أخصُّ بالشُّكر والعِرفان ، والتَّقدير والامْتِنان ، والدتي الحبيبة الحنونة ، أطالَ اللَّـهُ في عُمرها ، التي لا يزال لِسَانُها رَطباً بالدُّعاءِ لي بالفَتحِ والتَّيسِير .

ولزَوجيَ الفاضل لتَشجيعِه الدائم لي ، فكان له الدعم النفسي الكبير .

ولأولادي الأحِبَّة : آمِـنَة ، وأسماء ، وحَـمزة ، وأميرتي الصغيرة سارَة ، لصَبرِهم عليَّ .

المُقَدِّمَة

تَعريفٌ بالمَوضُوع

الحمدُ للَّـه الذي أَوضَحَ لِعبادِه مَنهَجَ التَّربيَّة القَويمَة في شَرعِه ، وسُـنَّة نَبيِّـهِ ﷺ ، الذي أرسَلَه رَحمَةً للإنسانيَّة ، مُعلِّماً ومُربياً للعَالَمين ، وعَلَىٰ آلِه وأصحابه الأخيار الطيِّبين ، وبعد :

فالحبُّ كَلمةٌ صَغيرةٌ في مَبناها ، كَبيرةٌ في مَعناها ، فهو يُحلِّقُ بالمسمَّياتِ من مَدلُولاتها المادية إلىٰ أُفُقها المعنويِّ الواسِع ، ويَنقِلُ الإنسانَ من الضِّيقِ إلىٰ السَّعَة ، ومن الألَـمِ إلىٰ الأمَلِ ، ويَصنَعُ من المِحنَة مِنحَةً ، ومن السِّجنِ رَوضَة ، ويجعَلُ الصَّبرَ مُتعَة ، ويَكُونُ محفزًا للإنسَانِ ليَختَرِقَ الصِّعابَ ، ويَتجاوَزَ المُستَحيلَ ، ليُرِيَ مَحبوبَه الإخلاصَ ، والوَفاءَ ، والتَّضحِـيَةَ ، والعَطَاء .

ومن حُبِّ اللَّـهِ سُبْحانَه وتَعالَىٰ لنا أن خَلقَ الحُبَّ ، وجَعله سُـنَّةً من سُنَنه لتدبير هذا الكَوْنِ ، فهو حاجَةٌ فِطريَّة أساسِـيَّة ، له وَظيفَتُه الأزَليَّـة لاستِمرارِ الحَياةِ والوُجُودِ الإنسانيِّ ، فالإنسانُ يَحتاجُه في جميعِ مَراحلِ حَياتِه ، كَحاجَتِه للمَـاءِ والغِـذَاءِ .

فالحُبُّ يَمنَحُ المُحِبَّ طاقةً عَجيبةً ، يَتحمَّلُ فيها ويَتجمَّلُ ، ليَصلَ إلىٰ ما يُحبُّ ، فلا حياةَ بدون الحُبِّ .

والحُبُّ شَيءٌ عَظيمٌ ، به تُحَلُّ أكبرُ المَشاكل ، وتُشْفَىٰ الأسْقامُ والعِللُ ، ويُعلَىٰ البناءُ ، ويُحقِّقُ النَّماءُ والعَطاءُ ، إنْ استَقيناهُ من مَنبَعِه الفِطري الصَّحيح .

والإسلامُ لَيسَ دينَ أفكارٍ ونَظريَّاتٍ ، بلْ دينُ وَاقعٍ ، يَنبضُ بالحُبِّ والحَياةِ ، ويَسمُو بالأخلاقِ ، دينٌ يرتَقي بمَشاعِركَ نَحوَ الرِّفعَة والسُّمو لتشعُرَ بكل ما حولك :

* يُشعرُك بالزَّوج الرَّفيقِ المُؤنِس ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

* وبالوَالدينِ الكَريمَين ، قَالَ تعالَىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ (٢)

* وبالأولَادِ ثَمرَةِ الحُبِّ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ ﴾ (٣)

* وبالصَّديقِ الذي يَصحبُك ، قَالَ الرَّسُولُ الكَريمُ ﷺ : «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» (٤) ، وفي حديثٍ آخر : «الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ ، فَلْيَنظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» (٥)

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٢١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٢٣ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١١ .

(٤) «صحيح البخاري» ، للإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ لبنان ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م ، كتاب الأدب ، باب علامة الحُبِّ في اللّه عزَّ وجلَّ ، رقم الحديث ٦١٦٨ ـ ٦١٦٩ ـ ٦١٧٠ ، ص ١١٠٧ .

(٥) انظر : «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين» ، للإمام النووي ، ط ٢ ، دار الغد العربي ، رقم الحديث : ٣٦٥ ، ص ٢١٠ ، رواه أبوداود في «الأدب» ، والترمذي في «الزهد» .

* وبالحَبيب القَريب ، والبَغيض البَعيد : «**أَحْبِبْ حَبيبَكَ هَوْناً مَا ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا ، وأَبْغِضْ بَغيضك هونًا ما ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا**» (١)
* وبالمجتمع الإنساني المتحاب المترابط : «**أنْ تُحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تُحِبُّهُ لِنَفْسِكَ**» (٢)
* وبالبيئَةِ والجماد ، قَالَ ﷺ : «**أُحُدٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ**» (٣)

فالحُبُّ بَلسَمُ الحَياة ، وباب دخول الجنَّة في الآخرة ، وقد جاءَ في الحَديثِ الشريف : «**لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا ، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُم**» (٤) .

وقد ابتدأنا سُبْحانَه وتَعالَىٰ بحبِّه ، وحبانا بإنعامه وفضله ، فقال تَعالَىٰ في سورة المائدة : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ ، في الآية الكريمة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ (٥)

---

(١) «رَشُّ البَرَد شرح الأدب المفرد» ، د. محمد لقمان السلفي ، دار الداعي للنشروالتوزيع ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٢٧هـ : رُوِيَ هذا الحديث موقوفاً علىٰ سيدنا عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ص ٧٣٧ ، رقم الحديث : ١٣٢١ ، وقال عن الحديث صاحب الكتاب : حسن لغيره موقوف ، أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» ٤٨٤ ، والبيهقي في «الشعب» ٦٥٩٣ من طرق عن عليٍّ موقوفاً .

(٢) نص الحديث : «لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفسِه» صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب الإيمان ٨ ـ باب «أنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنفسه» ، ص ٢٠ ، رقم الحديث : ١٣ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب المغازي ، باب «أُحُدٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّه» ، نص الحديث : «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّه» ، ص ٧١٤ ، رقم الحديث : ٤٠٨٣ .

(٤) «صحيح مسلم» ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، دار إحياء التراثالعربي ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ ـ ١٩٦٥م ، ج١ ، كتاب الإيمان ، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، ص ٧٤ ، رقم : ٥٤ .

(٥) سورة المائدة ، الآية : ٥٤ .

ولو لا فضلُ اللّـه عَلَينا ما سَجدَ ساجِدٌ ، ولا عَبدَ عابدٌ ، قَالَ تعالَىٰ : ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ (١)

ومن حبِّه سُبْحانَه ورحمته بنا ، أن أَرسَلَ لنا الرَّسُولَ الخاتَم ﷺ رسُولًا كريمًا من أنفسنا ، ومن طَبيعَتِنا البَشريَّة نَفسِها ، مُعلِّمَ الإنسانيَّة وهَادِي البَرِيَّة بالحُبِّ والرَّحمَة ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ (٢)

وقَالَ تعالَىٰ : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (٣)

فكَانَ من صُلبِ دَعوَتِه ﷺ الحُبُّ والرَّحمَةُ والحَنانُ ، والعَطفُ واللُّطفُ والإحْسَانُ .

ولقد جسَّدت سِيرَتُه العَطِرَة ـ قَولًا وفِعلًا ـ مِنْهاجاً لنا للحُبِّ في حَياتِه كُلِّها ، في عَلاقَتِه مع اللّـهِ سُبْحانَه وتَعالَىٰ ، وفي طَاعَته وعِبادَته له ، وفي صَلاتِه الطَّويلَة التي هي تَواصُلٌ وصِلَةٌ مع حَبيبِه : «أفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً» (٤)

وفي حُبِّه لرسالَتِه وتَفانيه لأجلِهَا ، ونَشْرِها بالحُبِّ والرَّحمَةِ ، لا بالجَبَرُوتِ والقَسوَةِ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ (٥)

---

(١) سورة النور ، الآية : ٢١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧ .

(٤) «صحيح البخاري» ، كتاب الرقاق ، باب الصبر عن محارم اللّـه ، ص ١١٥٦ ، رقم الحديث : ٦٤٧١ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

وفي عَلاقَتِه مع أَهْلِه وعَشيرَتِه والمُسلِمينَ وغَيرِهم ورَحمَتِه وإشْفاقِه عَليهم، ومع الجَمادات والحَيوانات ..

فبَنىٰ الإنسانيَّة، وجَمعَ القُلوب بالحُبِّ والإحسَانِ، وفَتحَ قُلُوبَ العِبادِ، فدَانَت له البِلَادُ، وانتَشرَ الأمنُ والحُبُّ والخَيرُ والسَّلامُ.

وعَاشَ ﷺ حياةً مِلؤُها الحُبُّ والرِّفْقُ والرَّحمَةُ بمَنْ حَولَه، ولَـمْ يَغِبْ عَنهُ الحُبُّ في أَحلَكِ المَواقِفِ شِـدَّةً وحَزماً، حَتَّىٰ في أوقاتِ اللِّقـاءِ مع العَدُوِّ ممَّا يُؤكِّد لنا أهميَّة هذا المَفهُومِ. وكَانَ شِعارُه أنَّ الرِّفْقَ ما وُضِعَ في شَيءٍ إلَّا زَانَه، وما نُزِعَ من شَيءٍ إلَّا شَانَه.

لذا فقد حوَّلَ الحُبَّ من إطارِ الفِكرِ إلىٰ الفِعلِ والمُمارَسَةِ والسُّلُوكِ، فكَانَ بذَلكَ المَثَلَ الأَعلىٰ، وقد اعترَضَتهُ كَثيرٌ من العَقباتِ في حياته الشخصية، مع أَهْلِ بَيتِه وزَوجاتِه وغَيرَتِهنَّ عَليه، وبين أصحابِه، وفي مَسيرَتِه الدَّعويَّة، فكَانَ نَهجُه ﷺ في التَّعامُل مع كل ذلك بالحُبِّ والتَّفاهُم، بعيداً عن القَسوَةِ والعُنف.

لقد كَانَ ﷺ الزَّوجَ المُحِبَّ الوَفيَّ الحَنُونَ، والوَالِدَ الشَّـفِيقَ كَالأُمِّ الرَّؤُومِ، والصَّاحِبَ المُخلِصَ الوَفيَّ الوَدُود، والقائدَ الرَّؤُوفَ الرَّحيمَ لأُمَّته إلىٰ يوم الدِّين، فكانت مَدرسَةُ الحُبِّ المُحَمَّديَّة الرَّائدَةَ، التي باتَت مِشعَلَ هِدايَةٍ أَضاءَ الكَونَ للعالَمين، ولها يَعُودُ الفَضلُ في إعدادِ الإنسَانِ المُسلِم مُنذُ نَشأَته الأُولىٰ، وإصْلَاحِه باللُّطفِ والقُدوَةِ الحسَـنَةِ، لتَصُوغَه بشَكلٍ سَليمٍ وتُشعِرَهُ بمَسؤُوليَّة الأَمَانَة، والقِيام بأَعْباءِ الاستِخلَافِ وعُمْرانِ الأَرضِ وِفْقَ مَنهَجِ اللَّـهِ، فصَاغَت لنَا جِـيلًا فَريداً مُتَوازِناً، ونَمُوذَجاً رائعَاً للإنسَانِ

المُسلِمِ المُحِبِّ للخيرِ . ذَلكَ النَّمُوذَج الذي تكادُ صُورَتُه تَغيبُ بسَببِ كَثرَةِ التَّشْويهِ الذي يُوجَّه لَه اليَومَ ، والتَّشْويشَ الذي يَعبَثُ بشَخصِيَّته ، ممَّا أصبَحَ حاجِزاً بَينَه وبَينَ العَوْدَةِ إلىٰ قِيَمِ السِّـيرَةِ العَطِرَةِ .

والذي نراه اليوم في أوجه كثيرة ، فقد افتقدنا الحُبَّ الصَّحيحَ مع أهلنا وأصدقائنا ومجتمعنا ، وجَعلَ بَعضُهُم الحُبَّ رَمزًا للمُيُوعَةِ والاستِخفَافِ ، ومَفهُوماً للأنانيَةِ والاستِمْتاع بالمَلَذَّاتِ العابرَة ، وتَحوَّلَ من الفِطرَةِ الطَّاهِرَةِ إلىٰ المادِّية وحَسْب . ولا سَبيلَ لاستِرجَاعِ تِلكَ الشَّخصيَّة المُسلمَة التي بَناها ﷺ إلَّا باتِّباعِ نَهجِه في إصلَاحِه وتَربيَتِه للرَّعيلِ الأوَّلِ ، الذين نَهلُوا من المَنبَعِ الصَّافي للأخْلَاقِ المُحَمَّديَّة ومن سِيرَتِه الزَّكـيَّة ، وإعادَةِ تَجسيدِ هَذهِ الصُّورَةِ مُجدَّداً في واقِعِنا المُعاصر ، وإنْزالِها عَلَىٰ واقعِ النَّاسِ عَلَىٰ ضَوءِ هَديهِ ﷺ ، فالسِّيرَةُ العَطِرَةُ في رِعايَةِ المُسلِم وتَزكيَتِه هي السَّبيلِ إلَىٰ بناءِ الإنسَانِ النمُوذَج ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴿٢﴾ ﴾ (1) .

والتَّعامُل مَع السِّيرَةِ المُحَمَّديَّة العطِرَة يتطَلَّبُ رُؤيَةً ورَوِيَّةً ، رؤيَةً مُبصرَةً تُحدِّدُ مَواطِنَ الاقْتِداءِ به ﷺ ، ورَوِيَّةً من خِلَالِ دِراسَةِ البيئَةِ المُتوافِرَة والظُّروفِ المُحيطَة .

فالحُبُّ رُوحُ الدِّين ، وأصْلُ العَلاقَاتِ الفِطْرِيَّةِ السَّليمَة ، فبِالحُبِّ نَحيا ونَسعَدُ ، وبالحُبِّ نَتواصَلُ ونُصلحُ ، وبالحُبِّ نُوصِلُ رَسائِلَنا السَّامِيَة ، فهَذا هُو مَنهَجُه ﷺ ، ومن هذا المُنطَلَقِ تَبدَأُ فِكرَةُ هَذا المَوضُوعِ .

---

(٩٩٩) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

تَـمـهـيد

جاءَ هَـٰذا الكِتابُ في خَمسَةِ فُصُـولٍ :

الفَصلُ الأوَّل : الحُبُّ والتَّربيَـة .

كان فَصلًا تَمهيدياً تكلَّمتُ فيه عن مَفهُومِ الحُبِّ والتَّربيَـة ، وعَلاقَةِ الحُبِّ بالتَّربيَـةِ ، وعن أصَالَةِ الحُبِّ .

وأَبرَزتُ صُوراً من الحُبِّ الحالي المُعاصِر ، ومن ثَمَّ تكلَّمتُ عن ضَرورَةِ إعادَةِ الفَهمِ والتَّجديدِ لحُبٍّ أصِيلٍ مُعاصِرٍ يَجمَعُ بَينَ ثَوابِتِ الدِّينِ وأحدَثِ النَّظَريَّاتِ التي تَدعَمُ الحُبَّ في مَسيرَةِ التَّربيَـة والتَّواصُلِ في العَلاقَاتِ الاجتماعيَّة .

الفَصلُ الثَّـاني : أشكالُ ومَهاراتُ الحُبِّ في التَّربيَـة النَّبـوِيَّة .

تكلَّمتُ فيه عن مَكانَةِ الحُبِّ في حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وأنَّ الحُبَّ أسَاسٌ في عَلاقَتِه مع الخَالِقِ سُبْحانَه وتَعالَىٰ ، ومع الخَلقِ أجمَعِينَ . ثُمَّ أَخذتُ صُوَراً من الحُبِّ في حَياتِه الخاصَّةِ مع أهْلِه ، وفي حَياتِه العَامَّة ، ومع أصْحابِه في إرْشَادِهِم وتَزكِيَتِهم ، أو مع مَنْ يَدعُوهُم إلَىٰ الإسلَامِ . ومن ثَمَّ تَحدَّثتُ عن مَهاراتِ التَّربيَـة النَّبـوِيَّة في تكوينِ مُجتَمَعٍ يَحوِي مِلَلًا شتَّىٰ في تَعايُشٍ وسَلامٍ ، إضافَةً إلَىٰ بِناءِ الفَردِ بِناءً ذاتيّـاً مُحكَماً .

الفَصلُ الثَّـالث : مَفاتيحُ الحُبِّ وثَمَراتِه في التَّربيَـة النَّبَـوِيَّة .

تَحدَّثتُ فيه عن مَفاتِيحِ القُلوبِ في التَّربيَـة النَّبَـوِيَّة لكَسبِ الأفرادِ . فكَانَ من ثَمراتِها أنَّها أَنتجَت نَوعيَّة فذَّة من القادَةِ ، وصاغَت مُجتَمعاً قادَ العالَـمَ .

الفَصلُ الرَّابع : ضَوابِطُ الحُبِّ عند الرَّسُولِ ﷺ .

عَرَضتُ فيه مِيزَانَ الحُبِّ الصَّحيحِ المُتوازِن في التَّربيَـة النَّبَـوِيَّة : عاطِفَةً بِلَا ضَعفٍ ، وحَزمٍ بَعيدٍ عن القَسوَةِ والعُنفِ .

الفَصلُ الخَامِس : الحُبُّ النَّبَـوِيُّ والوَاقِعُ المُعاصِر.

جَعلتُه لِنَماذِجَ من الحُبِّ النَّـبَوِيِّ في صُـوَرٍ شَتَّىٰ ، ورَبطـتُهُ مع الواقعِ المُعاصِر .

الفصل الأول

الحُبُّ والتَّربيَـة

وفيه ثَلاثَةُ مَباحِث :

المَبْحَثُ الأَوَّلُ : تعريفَـــات .

المَبْحَثُ الثَّـاني : عَـلاَقَـةُ الحُبِّ بالتَّربيَـة .

المَبْحَثُ الثَّالِثُ : الحُبُّ بين الأَصَـالَةِ والمُعـاصَرَة .

المَبحَثُ الأوَّل : تَعريفَـــات .

* الحُبُّ لُغَـةً واصطِلاحاً
* درجَاتُ الحُبِّ
* العَلاقَة الاعتقاديَّة والتَّكوينيَّة بين الحُبِّ والخَوْفِ والرَّجاءِ
* التَّربيَـةُ لُغَـةً واصطِلاحاً

المَبحَـثُ الأوَّل
تَعـريفُ الحُـبِّ

الحُبُّ لُغَـةً :

جاء في مُعجَم «الوَسيط» : الحُبُّ : الوِدَادُ والمَيلُ إلىٰ الأشخاصِ أو الأشياءِ العَزيزَة أو الجَذَّابَة أو النَّافِعَة ، ويُقالُ في التَّرحيبِ : حُبًّـاً وكَرامَةً .

والمَحبَّـةُ : المَيلُ إلىٰ الشَّيء السَّـار .

تَحَـابُّوا : أَحَبَّ بَعضُهُم بَعضاً ، وفي الحديث : «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**» ، تَحَبَّبَ إليه : تودَّدَ وأظهر الحبَّ (١) .

وجاء في «مُختار الصِّحاح» : (حَ بَ بَ) : حَبَّـةُ القَلبِ سُوَيْداؤُهُ ، وقِيلَ : ثَمَرَتُه ، و(الحُبُّ) المَحبَّـة ، وكَذَا (الحِبُّ) ، و(الحِب) أيضاً الحَبيبُ . و(الاسْتِحبَابُ) كَالاسْتِحْسَانِ ، و(اسْتَحَبَّهُ) ، أي : آثَرَهُ واختَارَهُ ، ومنه قَولُهُ تَعالَىٰ : ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (٢) .

وجاء في «لِسَانِ العَرَب» : (حَبَبَ) الحُبُّ نَقيضُ البُغْضِ ، والتَّحَبُّبُ

---

(١) «المعجم الوسيط» ، الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م ، مكتبة الشروق الدولية ، جمهورية مصر العربية ، انظر : «حرف الحاء» الحبُ والمحبة والتحاب ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ١٧ .

«مختار الصحاح» ، للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر الرازي ، مكتبة لبنان ـ بيروت ، ١٩٨٩م ، انظر : «باب الحاء» ، مادة (ح ب ب) ، ص ١٠٥ .

إظهَارُ الحُبِّ . والحُبُّ الوِدَادُ ، وكَذلكَ الحِبُّ بالكَسرِ ، والحِبَابُ بالكَسرِ يَعني أيضًا المحُابَّة والمُوادَّة والحُبُّ ، والحِبُّ تأتي بمعنى المَحبُوبِ ، كَانَ زَيْدُ بنُ حَارِثَة رَضِيَ اللهُ عَنهُ حِبُّ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، أي : محبُوبه ، وكَانَ رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يُحِـبُّـهُ كَثيراً (١) .

وقِيلَ : اشتِقاقُه من اللُّزُوم والثَّبـاتِ ، يُقالُ : أَحبَّ البَعيرُ وهو أنْ يَبرُكَ فَلا يَقُومُ ، فكَأنَّ المُحِبَّ لا يَبرَحُ بقَلبِه عن ذِكْرِ محبُوبِه .

وقِيلَ : إنَّه مَأخُوذٌ من الحِبَّة بكَسرِ الحَاء ، وهي بُذورُ الصَّحرَاءِ ، ممَّا لَيسَ بِقُوتٍ ، فسُمِّيَ كَذلكَ لأنَّه لُبَابُ الحَياةِ ، كَما أنَّ الحَبَّ لُبَابُ النَّبَـاتِ (٢) .

يَتَّضحُ ممَّا سَبقَ أنَّ الحُبَّ في مَعـناهُ اللُّغَـويِّ هو الـمَـيلُ إلىٰ الشَّـيءِ وإيثَـارُه واستِحسَانُه ، والثَّباتُ عَلَيه .

الحُبُّ اصطِلاحاً :

الحُبُّ : اسمٌ لصَفاءِ المَودَّة ؛ لأنَّ العَربَ تَقُولُ لصَفَاءِ بَياضِ الأسنانِ ونَضارَتِها حَبَبُ الأسنانِ . وأنَّ هذه الكَلمَة مَأخُوذَةٌ من حَبَّةِ القَلبِ ، وهِيَ سُوَيْدَاؤُه ، فسُمِّيَت المحَبَّةُ بذَلكَ لوُصُولِها إلىٰ حَبَّةِ القَلبِ (٣) .

---

(١) حديث الحِب : «صحيح البخاري» ، كتاب الحدود ، باب : كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان ، ص ١٢٠٧ ـ رقم الحديث : ٦٧٨٨ .

(٢) «لسان العرب» ، لابن منظور ، دار المعارف طبعة جديدة ومحققة ، الناشر : ١١١٩ كورنيش النيل ، القاهرة ج.م.ع ، المجلد الثاني ، ج٩ ، باب الحاء ، ص ٧٤٢ ـ ٧٤٥ .

(٣) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ، لابن قيم الجوزية ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ لبنان ، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م ، ص ٢٠ .

وقَالَ الإمَامُ القُشَيرِيُّ في رِسالَتِه : المَحَبَّةُ حَالَةٌ شَرِيفَةٌ ، شَهِدَ الحَقُّ سُبْحانَهُ بها للعَبدِ ، وأخبَرعن مَحبَّتِه للعَبدِ ، فالحَقُّ سُبْحانَهُ يُوصَفُ بأنَّه يُحِبُّ العَبدَ ، والعَبدُ يُوصَفُ بأنَّه يُحِبُّ الحَقَّ سُبْحانَهُ .

وقَد ورَدَ في رِسالَتِه أيضاً تَعريفاتٌ عِدَّة لَطيفَة في الحُبِّ والمَحبَّةِ ، منها :

الحُبُّ : هو الخَشَباتُ الأربَعُ التي تُوضَعُ عَلَيها الجَرَّةُ ، فسُمِّيَت المحَبَّةُ حُـبَّاً لأنَّه يَتحَمَّلُ عَن مَحـبُوبِه كُلَّ عِزٍّ وذُلٍّ .

والحُبُّ : مُعانَقَةُ الطَّاعَةِ ،ومُبايَنَةُ المُخالَفَة ،ومُواطَأَةُ القَلبِ لِـمُـراداتِ الرَّبِّ .

والمحَبَّـةُ : إيثَارُ المَحبُوبِ علىٰ جَميعِ المَصحُوبِ ، ومُوافَقَةُ الحَبيبِ في المَشهَدِ والمَغِيبِ .

وورَدَ عن الجُـنَيدِ أنَّ المحَبَّـةَ : إفْراطُ المَيلِ بِلَا نَيل (١) ؛ لأنَّ كُلَّ مَحبَّـةٍ كَانَت لِغَرَضٍ زَالَت تِلكَ المَحبَّـةُ بِزوالِ الغَرَضِ .

وقَالَ الإمَامُ البَيضاويُّ عن المحَبَّـةِ : هي مَيلُ النَّفسِ إلىٰ الشَّيءِ لكَمالٍ أُدرِكَ فيه بحَيثُ يَحمِلُها علىٰ ما يُقَرِّبُها إلَيه ، كَما أنَّ المحَبَّـةَ تُفسَّرُ بإرادَةِ الطَّاعَة (٢) .

ويَقُولُ الإمَامُ ابنُ حَزم الأندَلُسيِّ عن الحُبِّ (٣) : هو استِحْسانٌ رَوْحانيٌّ وامتِزاجٌ نَفسَانيٌّ .

---

(١) انظر في ذلك كله : «الرسالة القشيرية في علم التصوف» ، لأبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري ، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ١٤٢٦هـ ، ص ٣١٨ ـ ٣٢١ .

(٢) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ، المعروف بـ «تفسير البيضاوي» ، والتفسير على هامش المصحف ، المطبعة العثمانية ، استنبول ١٣٠٥هـ ، ص ٧١ .

(٣) «طوق الحمامة في الألفة والألاف» ، للإمام أبي محمد عَليِّ بن حَزم الأندلسي ، مكتبة عرفة بدمشق . انظر : «الكلام في ماهية الحب» ، ص ٧ ـ ١٠ .

وقَالَ فيه أيضاً : هو دَاءٌ عِياءٌ وفيه الدَّوَاءُ ، وهو مَقامٌ مُستَلَذٌّ وعِلَّةٌ مُشتَهاةٌ ، يُزَيِّنُ للمَرءِ ما كَانَ يَأنَفُ ، ويُسَهِّلُ عَلَيه ما كَانَ يَصعُبُ عِندَه حَتَّىٰ يُحِيلَ الطَّبائعَ المُركَبَّـة .

ويُعرِّفُ فَضيلَةُ الشَّيخِ الدكتُور عَبدُ اللَّـهِ عَلْوَان الحُبَّ أنَّه : شُعُورٌقَلبيٌّ ، وانْبِعاثٌ وِجدانِيٌّ ،يَنجَذِبُ به قَلبُ المُحِبِّ تجاهَ مَحبُوبِه بحَماسَةٍ وعاطِفَةٍ وبِشْرٍ [1] .

فالحُبُّ هو الذي يُطَهِّرُ القُلُوبَ ، ويُهَذِّبُ الطِّباعَ ، ويُرَبِّي النُّفوسَ ،فتَتَوَطَّدُ العَلائقُ علىٰ حُسنِ الظَّنِّ ، وتَتآلَفُ القُلُوبُ علىٰ تَبريرِ المَواقِفِ ، وسَترِ المَعايِبِ [2] ، والحُبُّ مِثلُ الحَبِّ ، يَأتِي بنَبتَـةٍ يُضاعِفُها اللَّـهُ كَيفَ شَاءَ لِـمَـنْ شَـاء [3] .

مِمَّا سَبَق يتَّضِحُ لنَا أنَّ الحُبَّ هو : الشُّعُورُ الوِجدَانِيُّ الذي يَأسِرُ المُحِبَّ ويُهذِّبُ طِباعَه ، ويُوَلِّدُ فيه اجتهاداً لطاعَةِ المَحبُوبِ وتَلبِيَةِ رَغباتِه بكُلِّ رِضىٰ ، ويَحجُبُه عن الوُقُوعِ فيما لا يَرضَاهُ ، فَلا يَبقَىٰ لَهُ هَوَىً إلَّا هَوَىٰ مَحبُوبِه .

---

(١) «الإسلام والحب» ، عبد اللَّـه ناصح علوان ، سلسلة بحوث إسلامية هامة (٢٤) ، دار السلام للطباعة والنشروالتوزيع والترجمة ، الإصدار الأول ، ص ٨ .

(٢) «رياض أنسنا في زهراء حُبِّنا» ، كتاب مجتمع الإيمان (٣) ، محمود فؤاد الطباخ ، شركة دار العلم للطباعة والنشر ، جدة ، ص ١١ .

(٣) «الحب في القرآن الكريم» ، صاحب السمو الملكي الأمير الغازي بن محمد بن طلال الهاشمي ، دار الرازي للطباعة والنشر ، سنة النشر ٢٠١٠م ، ص ٢٩ .

دَرجاتُ الحُبِّ

اختلَفَ العُلَماءُ في تَرتيبِ أسماءِ الحُبِّ وتَفصيلِه ، فمِنْهُم مَنْ اعتَبَرَ أنَّ لَه دَرجَاتٍ ومَراتِبَ ، وأَوردَ لِذَلكَ مَعانيَ وتَعريفَاتٍ ، كَالثَّعالبيِّ في «فِقهِ اللُّغَةِ وأسرَارِ العَربيَّـة» ، ومنهم مَنْ اعتَبرَ ذَلكَ مُسمَّياتٍ أُخرَىٰ للحُبِّ ، وزَادَ عَليها بعَشَراتِ الأسماءِ والاشتِقَاقَاتِ ، وتَعريفَاتٍ وتَفصِيلاتٍ ، كابنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة في «رَوْضَةِ المُحبِّين» .

وقد رَأيتُ أن أُدرِجَ أبرزَ المَراتِب والأسماء للحُبِّ ، وذلك بالجمعِ بَينَ الثَّعالِبيِّ وابنِ قَيِّم الجَوزيَّة ، مع مَصادِرَ أُخرَىٰ علَىٰ النَّحوِ التَّالي :

المحَـبَّـةُ [1] : وحَقيقَتُها أنْ تَهَبَ كُلَّكَ لِـمَـنْ أَحبَبتَهُ ،فَلا يَبقَىٰ لَكَ مِنكَ شَيءٌ .

الـهَــوَىٰ [2] : هو مَيلُ النَّفسِ إلَىٰ الشَّيءِ ، وسُمِّيَ هَوَىٰ لأنَّه يَهوِي بِصاحِبِه إلَىٰ النَّارِ ، وأكثَرُ ما يُستَخدَم في الحُبِّ المَذمُوم : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [3] . وقد يُستَعمَلُ الهوَىٰ في

(١) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ، مرجع سابق ، من ص ٢١ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٣) سورة النازعات ، الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

الحُبِّ المَمْدُوحِ استِعمالًا مُقيَّـداً ، ومنه قَولُ الرَّسُولِ ﷺ : «**لَا يُؤمِنُ أحدُكُم حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِـمَا جِئتُ بِهِ**» (١) .

الكَلَف (٢) : شِـدَّةُ الحُبِّ ، ويُقالُ : كَلِفْتُ بهذا الأمر أي أُولِعتُ به ، فأنا كَلِفٌ به .

العِشْقُ (٣) : هو اسمٌ لِـمَا فَضُلَ عن المِقدَارِ الذي اسمُهُ الحُبُّ ، وهو فَرطُ الحُبِّ .

الوَصلُ (٤) : اعتَبرَهُ ابنُ حَزم الأندَلُسيّ من وُجُوهِ العِشقِ ، وقَالَ فيه : إنه الحَظُّ الرَّفيعُ والمَرتَبةُ العَالِيَة ، بَلْ هُو الحَياةُ المُتجَدِّدَةُ والسُّرُورُ الدَّائمُ ، وهُو الصَّفَاءُ الذي لا كَدَرَ فيه . انتهىٰ كَلامُه رَحِمَهُ اللهُ . وتِلكَ هِيَ الصَّلاةُ التي هِيَ صِلَةٌ وتَواصُلٌ بَينَ العَبدِ وربِّه كَما قَالَ عليه : «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُم النِّسَاءُ وَالطِّيبُ ، وجُعِلَتْ قُـرَّةُ عَيْنِي في الصَّلَاةِ**» (٥) .

---

(١) انظر كتاب «السُّـنَّة» ، للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني ، ومعه «ظلال الجنة في تخريج السُّـنَّة» ، بقلم محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ، ص ٥ ـ ١٢ ، باب ما يجب أن يكون هَوىٰ المرءُ تَبعاً لِـما جاء به النَّبيُّ ﷺ» ، رقم الحديث (١٥) ، قال عنه الألباني : إسناده ضعيف ، وانظر أيضاً «الأربعون النووية» ، و «الفوائد التربوية» ، للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ، إعداد عبد الرحمن صالح بن حلي ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ط٣ ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م ، رقم الحديث : ٤١ ، قال عنه الإمام النووي : حديث صحيح ، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح .

(٢) انظر : «فقه اللغة وأسرار العربية» ، لأبي منصور الثعالبي ، دار الفكر العربي بيروت ، مطابع بيروت ، يوسف بيضون ، ١٩٩٩م ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، وانظر «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ، لابن قيم الجوزية ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

(٣) نفس المرجعين السابقين ، «فقه اللغة» للثعالبي ، ص ١٣٦ ، و «روضة المحبين» ، لابن قيم الجوزية ، ص ٢٥ .

(٤) «طوق الحمامة» ، لابن حزم الأندلسي ، مرجع سابق ، باب الوصل ، ص ٥٦ .

(٥) «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ» ، للقاضي عياض اليحصبي ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م ، ص ٩٤ .

الشَّغَفُ (١) : هُو أنْ تَبلُغَ المحبَّـةُ شِغَافَ القَلبِ ، أي غِلَافَ القَلبِ ، وهُو جِلدَةٌ رَقيقَةٌ دُونَه كَالحِجَابِ ، يُقَالُ شَغَفَهُ الحُبُّ أي بَلَغَ شِغَافَه ، وورَدَ في القُرآنِ الكَريمِ قَولُهُ تَعالَىٰ : ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ (٢) ، والمَعنَىٰ أنَّ حُـبَّهُ دَخلَ الجِلدَةَ حَتَّىٰ أَصَابَ القَلبَ (٣) .

الجَـوَىٰ (٤) : فَسَّرَهُ الثَّعالِبيُّ بالهَوَىٰ البَاطِن ، وابنُ القَيِّم بالحُرْقَة .

الـوُدُّ (٥) : خَالِصُ الحُبِّ وأَلطَفُه وأَرَقُّه ، وهُوَ من الحُبِّ بِمَنزلَةِ الرَّأفَةِ من الرَّحمَة ، والوِدُّ والوَدُّ والوُدُّ المَودَّةُ ، يَقُولُ اللَّـهُ عزَّ وجَلَّ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ (٦) . أي : يُحِبُّهُم ويُحَبِّبُهُم إِلَىٰ النَّاس (٧) . وقد وَرَدَ في تَفسيرِ الوَدُودِ مِنْ قَولِه تَعالَىٰ : ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ (٨) ، أي : فَاعِلٌ بِهِم من اللُّطفِ والإحْسَانِ والتَّوَدُّدِ ما يَفعَلُ المَرءُ بِمِنْ يُحِبُّـهُ ويَوَدُّه (٩) . ومنه الوِدَادُ وهُو صَفْوُ المَحبَّـةِ ، وخَالِصُهَا ولُبَابُها .

(١) «فقه اللغة» ، للثعالبي ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ ، و «روضة المحبين» ، لابن قيم الجوزية ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .
(٢) سورة يوسف ، الآية : ٣٠ .
(٣) تفسير الخازن المسمى «لباب التأويل في معاني التنزيل» ، للإمام علاء الدين البغدادي الشهير بالخازن ، ومعه تفسير البغوي المسمى «معالم التنزيل» ، للإمام الحسين بن مسعود الفرَّاء البَغوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ، انظر : تفسير الآية تفسير الخازن ٣/ ٣٦٧ .
(٤) «فقه اللغة» للثعالبي ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ ، و «روضة المحبين» لابن قيم الجوزية ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .
(٥) «روضة المحبين» لابن قيم الجوزية ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .
(٦) سورة مريم ، الآية : ٩٦ .
(٧) «تفسير الفاتحة الكبير» ، للإمام أحمد بن عجيبة ، دار الحاوي للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ، في تفسير الودود جَلَّ جَلالُه ، ص ٢٥٧ .
(٨) سورة هود ، الآية : ٩٠ .
(٩) «رياض أنسنا في زهراء حبنا» ، محمود الطباخ ، مرجع سابق ، ص ٣٣ ـ ٣٥ .

و «الـوَدُودُ» : مِنْ أسماءِ اللَّـهِ تعالَىٰ ، وفي معناهُ قَوْلَانِ : أحَدُهُما أنَّ الوَدُودَ : الحَبيبَ ، والثَّاني أنَّه الوَادُّ لِعبَادِه ، أي : المُحِبُّ لَهم [(١)] .

الشَّوقُ [(٢)] : هو سَفَرُ القَلبِ إلَىٰ المَحبُوبِ ، وقَد وَرَدَ في السُّـنَّة أنَّه ﷺ كانَ من دُعائِه : «**اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْـمَـوْتِ ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ ، وَشَوْقاً إِلَىٰ لِقَائِكَ**» [(٣)]

التَّـيْمُ : هُو التَّعَـبُّدُ [(٤)] ، ويَعنِي أنْ يَستَعبِدَهُ الحُبُّ ، يُقَالُ : تَيَّمَه الحُبُّ إذا عَبَّدَهُ وذَلَّـلَهُ ، فَهُوَ مُتَـيَّم .

فالتَّعَـبُّدُ [(٥)] : هُو غَايَةُ الحُبِّ وغَايَةُ الذُّلِّ والخُضُوعِ للمَحبُوبِ ، يُقَالُ : عَـبَّدَهُ الحُبُّ ، أي ذَلَّـلَهُ ، وطَريقٌ مُعَـبَّدٌ بالأَقدَامِ أي مُذَلَّل ، وكَذلكَ المُحِبُّ قَد ذَلَّـلَهُ الحُبُّ ووَطَّأَهُ ، ولا تَصلُحُ هَذه المَرتَبَةُ لأحَدٍ غَيرِ اللَّـهِ عَزَّ وجَلَّ ، فالعَبدُ هو الذي ذَلَّـلَهُ الحُبُّ والخُضُوعُ لِـمَحبُوبِه ، فمَحبَّـةُ العُبوديَّة هِي أَشرَفُ أنوَاعِ المحبَّـةِ ، ولا مَنزلَةَ له أَشرَفُ منها ، وقد ذَكرَ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ أحَبَّ الخَلقِ إلَيه رَسُولَهُ مُحمَّداً ﷺ في أَشرَفِ المَقَامَاتِ مَقامِ الإسْرَاءِ بقَولِه

(١) «مدارج السالكين في شرح منازل السائرين» ، للإمام ابن قيم الجوزية ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م ، المجلد الثالث ، انظر : فصل مراتب المحبة ، ص ٢٥ .

(٢) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ، لابن قيم الجوزية ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٣) «كتاب السُّـنَّة» ، للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني ، ومعه «ظلال الجنة في تخريج السُّـنَّة» ، بقلم محمد ناصر الدين الألباني ، مرجع سابق ، ٩٢ ـ (باب في ذكر مسألة نبينا ﷺ ربه تبارك وتعالى لذة النظر إلى وجهه شوقًا إلى لقائه ...) ، رقم ٤٢٤ ، ص ١٨٥ ، وقال عنه الألباني : حديث صحيح .

(٤) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» ، لابن قيم الجوزية ، مكتبة السوادي للتوزيع ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م ، جدة ، انظر : فصل(٩٤) التَّتيُّم آخرمراتبالحب،ص ٤٣٧ – ص ٤٣٨ .

(٥) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ، ابن قيم الجوزية ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ : ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ (١)

وفي حَديثِ الشَّفاعَةِ (٢) إذَا كَانَ يَومُ القِيامَةِ وتَدافَعَ أُولُو العَزم الشَّفاعَةَ الكُبرَىٰ يَقُولُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم : «**ائتُوا مُحَمَّداً ﷺ عَبداً قَد غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ**» ، فنَالَ ﷺ ذَلكَ بِكَمالِ العُبوديَّة للَّـهِ ، وكَمالِ مَغفِرَةِ اللَّـهِ لَه ، فأشْرَفُ صِفَاتِ العَبدِ صِفَةَ العُبُوديَّة ، وأَحَبُّ الأَسْماءِ إِلَىٰ اللَّـهِ سُبْحانَهُ الاسمُ المَسبُوقِ بالعُبودِيَّة ، كَعَبدِ اللَّـهِ وعَبدِ الرَّحمَـٰنِ ، كَما وَرَدَ ذَلكَ فِي السُّـنَّةِ النَّبَـوِيَّة (٣) .

الخِـلَّـة (٤) : هي تَوحِيدُ المحبَّـةِ ، والخَليلُ هُو الذي تَوحَّدَ حُـبُّه لَمحبُوبه ، وهي رُتبَةٌ لا تَقبَلُ المُشارَكَة ، لِذَا اخْتُصَّ بها من سائرِ العَالَمينَ الخَليلَانِ إبْراهِيمُ ومُحمَّدٌ صَلَوَاتُ اللَّـهِ وسَلَامُه عَليهِما ، لَكِنْ مَزيَّةُ الخِلَّة وخُصُوصيَّة المحبَّـةِ حاصِلَةٌ لنبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ حَبيبِ اللَّـهِ ، بما دَلَّت عَلَيه الآثارُ الصَّحيحَةُ المُنتَشِرَة المُتلَقَّاةِ بالقَبُولِ من الأُمَّة (٥) .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١ .

(٢) الحديث كاملًا في صحيح مسلم ، ج ١ ، كتاب الإيمان ، باب (أدنى أهل الجنة منزلة فيها) ، ص ١٧٥ ، رقم الحديث : ١٩٣ .

(٣) انظر : «الجامع الكبير» ، للترمذي ، ط١، سنة النشر : ١٩٩٦م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، حقَّقه وخرَّجه : د. بشَّار عوَّاد معروف ، المجلد ٤ ، باب (ما جاء في ما يستحب من الأسماء) ، ص ٥٢٠ ، رقم الحديث : ٢٨٣٣ .

(٤) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» ، ابن قيم الجوزية ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٥) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، انظر فصل (تفضيله المحبة والخلة) ، ص ١٣٦ .

أمَّا الغَزاليُّ في إحْيائِه [(١)] كان له رَأيٌ في مُسمَّياتِه وتَقسيماتِه لدَرجَاتِ الحُبِّ ، فقد خَصَّصَ المحَبَّـةَ بمَحَبَّـةِ اللَّـهِ ، إذ أنَّها أرقَىٰ أنواعِ المحَبَّـةِ ، والغَايَةُ القُصوَىٰ من المَقامَاتِ ، والذِّروَةُ العُليَا من الدَّرجَاتِ ، وأنَّ المَقصُودَ بالمحَبَّـةِ المُواظَبةُ عَلَىٰ الطَّاعَةِ ، فما بَعدَ إدْرَاكِ هَذهِ المحَبَّـةِ مَقامٌ إلَّا وهُو ثَمرَةٌ مِنْ ثِمارِهَا وتابِعٌ مِنْ تَوابِعِها .

فالإنسانُ مَفطُورٌ عَلَىٰ حُبِّ الكَمالِ والجَمالِ والبَقاءِ ، وأصلُ هَذا كُلِّه هو اللَّـهُ ، والمَعنَىٰ الكَامِلُ للحُبِّ هُو اللَّـهُ ، فهُو المُستَحِقُّ وَحدَهُ للحُبِّ ، وهُوَ المَحبُوبُ لِذاتِه ، ولا مَحبُوبَ سِواهُ ، ومَنْ لَـمْ يَعرِفْ حُبَّ اللَّـهِ لَـمْ يَعرِفْ الحُبَّ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [(٢)]

فمَحبَّةُ اللَّـهِ هي الدَّرجَةُ الأُولَىٰ ، ثم يَتبَعُها دَرجَةُ الشَّوقِ ، ثم الأُنسُ ، ثم الرِّضَا ، فتِلكَ المحَبَّـةُ هي الشَّجرَةُ الوَارِفَةُ التي أثمَرت هَذه المُسَمَّياتِ .

وفي مَعنَىٰ الشَّوقِ قَالَ الغزاليُّ : الشَّوقُ لا يَعرفُه مَنْ لا يَعرِفُ المحَبَّـةَ للَّـهِ ، فهُو يُنكِرُ حَقيقَتَه ، إذ لا يُتصَوَّرُ الشَّوقُ إلَّا لَمحبُوبٍ ، والشَّوقُ والاشتِيَاقُ لرُؤيَتِه .

والأُنسُ أنَّ القَلبَ يَأنَسُ بالانفِرَادِ والخُلوَةِ معَ اللَّـهِ ، والأُنسُ يُلازِمُه التَّوَحُّشُ مِنْ غَيرِ اللَّـهِ .

(١) «إحياء علوم الدين» ، للإمام أبي حامد الغزالي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ج٤ ، باب (المحبة والأنس والشوق والرضا) ، ص ٣١١ ، ٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٦٥ .

والرِّضَا قَالَ عَنهُ : مِنْ ثِمَارِ المحَبَّـةِ ، وهُوأَعلَىٰ مَقامَاتِ المُقرَّبينَ ، وهُو يُورِثُ رِضْوَانَ اللَّـهِ تَعالَىٰ كَما قَالَ تعالَىٰ : ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (١) .

والحُبُّ يُثمِرُ الرِّضَا بِأفعَالِ الحَبيبِ ، وذَلكَ مِنْ وَجهَين :

أحَدُهُما : الذُّهُولُ عَن الألَـمِ ، فإذَا كَانَ القَلبُ مُستَغرِقاً بِأمرٍ مِنْ الأُمُورِ لَـمْ يُدرِكْ ما عَداهُ ، كَالمُحارِبِ في حالِ غَضبِه أو خَوفِه ، تُصيبُه جُرحٌ وهو لا يُحِسُّ بِألَـمِ ذَلكَ لشُغلِ قَلبِه .

وأمَّا الوَجهُ الثَّـاني : فَهُوأنْ يُحِسَّ به ويُدرِكُ ألَـمَهُ ولكنَّه رَاضياً به بعَقلِه وإنْ كَانَ كَارِهاً بطَبعِه ، ومَهمَا أصَابَته بَلِيَّـة مِنْ اللَّـهِ تعالَىٰ كَانَ لَه يَقينٌ بأنَّ ثَوابَه الذي ادَّخَرهُ اللَّـهُ لَه فَوقَ ما فَاتَه ، فيَرضَىٰ به ويُحبُّه ويَشكُرُ اللَّـهَ عَلَيه .

(١) سورة التوبة ، الآية : ٧٢ .

العَلاقَةُ بَينَ الحُبِّ والخَوفِ والرَّجَاء

إنَّ المَحبَّـةَ هي أصلُ العِبادَة وأساسُها ، فلو بَطُلَت [1] المحبَّـةُ ، لَبطُلَت جميعُ مَقاماتِ الإيمانِ والإحسانِ ، ولَتعطَّلَت مَنازِلُ السَّيرِ إلىٰ اللَّـهِ تَعالَىٰ ، فالمحبَّةُ رُوحُ كُلِّ مَقامٍ ومَنزِلَةٍ وعَملٍ ، فإذَا خَلا منها فَهو مَيِّتٌ لا رُوحَ فيه .

فَهي حَقيقَةُ الإخْلَاصِ ، بَلْ هِي نَفْسُ الإسْلَام ، فإنَّه الاستِسلَامُ بالذُّلِّ والحُبِّ والطَّاعَةِ للَّـهِ ، فمَنْ لا محبَّـةَ له لا إسْلَامَ له البَـتَّة . بَلْ هِيَ حَقيقَةُ شَهادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّـهُ ، فـ «الإلَـهُ» : هُو الذي يُؤلِّـهُـهُ العِبَادُ حُبّاً وذُلّاً ، وخَوْفاً ورَجَاءً ، وتَعظيماً وطَاعَةً له ، فأَصْلُ «التَّـأَلُّـهِ» التَّعَـبُّد ، والتَّعَبُّد آخِرُ مَراتِبِ الحُبِّ ، فكَمالُ المحبَّـةِ العُبُوديَّة .

والقَلبُ في سَيرِه إلىٰ اللَّـهِ بمَنزِلَةِ الطَّائِرِ ، المحبَّـةُ رَأسُـهُ ، والخَوفُ والرَّجَاءُ جَناحَاهُ ، فمَتَىٰ سَلِمَ الرَّأسُ والجَناحَانِ أجَادَ الطَّائرُ الطَّيَرانَ ، ومَتَىٰ فُقِدَ الجَناحَانِ ، فَهُو عُرضَةٌ لكُلِّ صَائدٍ وكَاسِرٍ . ومَتَىٰ قُطِعَ الرَّأسُ ـ المحبَّـةُ ـ ماتَ الطَّائرُ [2] .

وفي تَفسيرِ آيَةِ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ [3] ، يَقولُ الإمَامُ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعالَىٰ : ذَكَرَ اللَّـهُ عَزَّ وجَلَّ في هَـٰذه

(١) «مدارج السالكين في شرح منازل السائرين» ، للإمام ابن قيم الجوزية ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م ، المجلد الثالث ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) «مدارج السالكين في شرح منازل السائرين» ، للإمام ابن قيم الجوزية مرجع سابق ، المجلد الأول ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٥٧ .

الآية المَقامَاتِ الثَّلاثَة : الحُبَّ وهُو ابْتِغَاءُ القُربِ إليه ، والتَّوسُّلَ إليه بالأعمالِ الصَّالحَةِ ، والرَّجَاءَ والخَوفَ (١) .

فالرَّجاءُ والخَوفُ بهما يَطيرُ المُقرَّبونَ إلىٰ كُلِّ مَقامٍ محْمُودٍ ، ومَطِيَّتانِ بهما يُقطَعُ في طَريقِ الآخِرَة كُلُّ عَقبَةٍ كَؤُودٍ ، فإنْ كَانَ مَا يَنتَظِرُه العَبدُ مَكرُوهاً سُمِّيَ خَوفاً ، وإنْ كَانَ محْبُوباً سُمِّيَ رَجاءً ، ولا يَقُودُ إلىٰ قُربِ الرَّحمَـٰنِ ورَوْحِ الجِنَانِ إلَّا الرَّجَاءُ ، ولا يَصُدُّ عَن نَارِ الجَحِيمِ والعَذابِ الأليمِ إلَّا سِياطُ التَّخويفِ ، لكِنَّ الحُبَّ أعلَىٰ المَقامَينِ ـ الخَوفِ والرَّجاء ـ فقَد أَوحَىٰ اللَّـهُ تَعالَىٰ إلىٰ دَاوُدَ عليه السلام : إنَّ أَوَدَّ الأَودَّاءِ إليَّ مَنْ عَبَدَني بِغَيرِ نَوالٍ لَكِنْ لِيُعطِيَ الرُّبُوبيَّـةَ حَقَّها (٢) . ذلكَ لأنَّ الخَوفَ والرَّجَاءَ مَبنيَّـانِ عَلَىٰ حُظُوظِ النَّفسِ ، فالخَائفُ إنَّما يَخافُ عَلَىٰ نَفسِه ، والرَّاجي إنَّما يَرجُو المَنفَعةَ لِنَفسِه ، بِخلَافِ المحَبَّـةِ فإنَّها مِنْ أَجلِ المَحبُوبِ ولَيسَت لِعِوَضٍ (٣) . قَالَ يَحيَىٰ بنُ مُعاذٍ في ذَلكَ : «مِثقَالُ خَردَلٍ مِنَ الحُبِّ أَحَبُّ إليَّ مِنْ عِبادَةِ سَبعِينَ سَنَةٍ بِلَا حُبٍّ» (٤) .

---

(١) انظر : موسوعة «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ» ، إعداد مجموعة من المختصين ، دار الوسيلة للنشروالتوزيع ، جـدة ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م ، ٤/ ١٣٧٦ ، من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في التوسل ، رقم : ١٠ .

(٢) انظر : «إحياء علوم الدين» ، الغزالي ، مرجع سابق ، ٤/ ٣٢٣ .

(٣) انظر : «نبيُّ الهدىٰ والرحمة» ، بقلم الدكتور/ عبد المجيد البيانوني ، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ ، جـدة ، المملكة العربية السعودية ، ص ٤٩٠ .

(٤) «إحياء علوم الدين» ، الغزالي ، مرجع سابق ، ٤/ ٣١٣ .

والمُحِبُّ بِدايةً يَسيرُ بِسُلُوكِه إلَىٰ اللَّـهِ بالانقِيادِ إلَيه بِزِمامٍ بَينَ الخَوفِ والرَّجاءِ ، فَالخَوفُ المَحمُودُ الصَّادِقُ مَا حَالَ بَينَ صَاحِبِه وبَينَ مَحارِمِ اللَّـهِ عَزَّ وجَلَّ ، والرَّجاءُ الحَقيقيُّ المَحبُوبُ هو الذي يَبعَثُ صَاحِبَه عَلَىٰ المُواظبَةِ والقِيامِ بمُقتَضَىٰ العُبوديَّة والإيمان [1] .

فالعُبوديَّةُ الكَامِلَةُ هي الخَوفُ والرَّجاءُ المُفضِيَانِ للمَحبَّـةِ والرِّضَا ، لِنَيلِ مَا يُحبُّـهُ المَحبُوبُ ويَرتَضيهِ .

(١) «إحياء علوم الدين» ، الغزالي ، مرجع سابق ، ٤/ ١٤٩ ـ ١٥٠ .

تَعريفُ التَّربيَـة

التَّربيَةُ لُغَـةً :

جَاءَ في «لِسانِ العَربِ» : الرَّبُّ هُو اللَّـهُ عَزَّ وجَلَّ ، رَبُّ كُلِّ شَيءٍ ومَالِكه ، وفُلانٌ مُربِّي ، أي : مُجمِّعٌ يَربِّي النَّاسَ ويَجمَعُهم ، والرَّبيبَةُ الحاضِنَةُ ، لأنَّها تُصلِحُ الشَّيءَ وتَقُومُ به وتَجمَعُهُ .

والرِّبابَةُ : الجِلدَةُ التي تُجمَعُ فيها السِّهامُ . ورَببتُ القَومَ ، أي : سُسْتُهُم ، وكُنتُ فَوقَهُم ، ويَقُولُ ابنُ الأنبَاريُّ أنَّ مَعنَىٰ الرَّبِّ يَنقَسِمُ عَلَىٰ ثلاثَةِ

أَقسام : يَكُونُ الرَّبُّ المَالِكُ ، ويَكُونُ الرَّبُّ السَّـيِّدَ المُطَاعَ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ (١) ، أي : سَـيِّدَه خَمراً ، ويَكُونُ الرَّبُّ في مَعناها الثَّالثِ المُصلِح ، رَبَّ الشَّيءَ إذَا أَصلَحَه .

وقِيلَ : الرَّبُّ بمَعنَىٰ التَّربيَـة ، وأَرَبَّ فُلانُ بالمَكَانِ ، أي : أَقَامَ به فلَمْ يَبرَحْهُ .

ورَبَّبها ، أي : نَمَّـاها وزَادَها وأَتَمَّها وأَصلَحَها .

ورَبَّهُ يَربُّه ، أي : تكفَّلَ بأَمْرِه ، ورَببتُ الأمرَ أَصلَحتُه ومَتَّنتُه (٢) .

وجَاء في «مُختارِ الصِّحاح» : (الرَّبُّ) اسمٌ من أسماءِ اللَّـهِ تعالَىٰ ، ولا يُقَالُ في غَيرِه إلَّا بالإضَافَة .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٤١ .

(٢) «لسان العرب» ، مرجع سابق ، باب الراء ، انظر : (ربب) .

و(رَبَّ) وَلدَه من باب رَدَّ ، و(رَبَّـبه) و(ترَبَّـبه) أي رَبَّاه [(١)] .

وجاء في «الكَشفِ والبَيان» للثَّعلَبي ، أنَّ الرَّبَّ تأتي بمَعنَىٰ المَالِك ، والصَّاحِب والرَّاعِي ، والمُصلحِ للشَّيء [(٢)] . ومَعنَىٰ يُربِّبُ النَّاسَ أي يُعلِّمُهُم ويُصلِحُهُم فيَقُومُ بأمرِهِم . ففي قَولِه تَعالَىٰ : ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [(٣)] ، وَردَ في تَفسيرِ «الربَّانيِّين» : أنَّهم هُم الذين جَمعُوا مع العِلمِ البَصائِرَ بِسيَاسَةِ النَّاسِ ، وهُم أربَابُ العِلمِ سَمَوا به لأنَّهم يَربُّونَ العِلمَ ويَقُومُونَ به ، ويَربُّونَ المُتعلِّمينَ بصِغَارِ العُلُومِ قَبلَ كِبارِهَا ، وكُلُّ مَنْ قَام بإصلَاحِ الشَّيءِ وإتْمامِه فقَد رَبَّـهُ يَرُبُّـه ، وقد رُويَ عن عَليِّ بنِ أبي طالِب رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنَّه قَالَ عَن الرَّبَّـانيِّ : هُو الذي يُربِّي عِلمَهُ بعَمَلِه [(٤)] .

ممَّا سبَقَ يتَّضحُ لنَا أنَّ مَفهُومَ التَّربيَةِ لُغَةً ، هُو : تَنشِئَةُ الفَردِ وإصلَاحُه مع التَّكفُّلِ بحُسنِ القِيامِ بِه ، والمُداوَمَةِ المُتضمِّنَة للنَّماءِ والزِّيادَة ، مَع الحِفظِ والرِّعايَة . وذَلكَ في كُلِّ ما يَتعلَّقُ بجَوانِب الإنسانِ المُتعدِّدَة : العَقيدَة ، والعِبادَة ، والأخْلَاق ، والعَقلِ ، والصِّحَة .

---

(١) «مختار الصحاح» ، مرجع سابق ، (ربب) .

(٢) «الكشف والبيان» ، للثعلبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ١/ ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ .

(٤) انظر قول الإمام عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ في هذه الآية : «تفسير الخازن» ، للإمام علاء الدين البغدادي ، ومعه «تفسير البَغوي» ، للإمام الحسين الفرَّاء البَغوي ، مرجع سابق ، آل عمران ، تفسير البَغوي ، ١/ ٤٨٣ ، آية ٧٨ ـ ٧٩ .

التَّربيَةُ اصْطِلاحاً :

تَعدَّدت تَعريفاتُ التَّربيَة وتَنوَّعَت بعَدَدِ الباحِثينَ فيها ، أهمُّها :

الربُّ في الأَصلِ التَّربيَة ، وهو إنْشاءُ الشَّيء حَالاً فحَالاً إلَىٰ حَدِّ التَّمامِ (١) .

والتَّربيَة أيضاً : تَبليغُ الشَّيءِ إلَىٰ كَمالِه شَيئاً فشَيئاً ، أي : مُتَدرِّجاً أو مُتَرتِّباً (٢) ، وتَبليغُ الشَّيءِ إلَىٰ كَمالِه يَستَلزِمُ حِفظَه (٣) . فلا بُدَّ إذًا من الإمْهَالِ والتَّدرُّجِ والرِّعَايَةِ والحِفظِ للوُصُولِ إلَىٰ ذَلكَ .

وقَالَ ابنُ حَجَر : التَّربيَة هِيَ القِيَامُ عَلَىٰ الشَّيءِ وإصْلاَحُه (٤) .

ويَقُولُ مُحمَّد قُطب : هي مُعالجَةٌ للكَائنِ البَشَريِّ مُعالجَةً شَامِلَةً لا تَترُكُ منه شَيئاً ، ولا تَغفُل عن شَيءٍ : جِسمِه وعَقلِه ورُوحِه ، حَياتِه الماديَّة والمَعنويَّة ، وكُلِّ نَشاطِه عَلَىٰ الأرضِ (٥) .

وفي تَعريفٍ آخَر للتَّربيَة : هي رِعايَةُ نُمُوِ الإنسَانِ في جَوانبِه الجِسميَّة

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» ، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز ، الناشر : نزار مصطفى الباز ، ج ١ ، كتاب الراء .ص ٢٤٥ .

(٢) «حاشية الشهاب» المسماة «عناية القاضي وكفاية الراضي» على تفسير البيضاوي ، محمد بن أحمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي ، دارصادر ، بيروت ، ١/ ٨٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٤) ورد هذا التعريف عن كتاب البيان ، سلسلة تصدر عن مجلة البيان ، نحو تربية إسلامية راشدة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ، الرياض ، رقم الإيداع ٥٩/ ١٤٢٧هـ ، محمد بن شاكر الشريف ، ص ١٣ .

(٥) «منهج التربية الإسلامية» ، محمد قطب ، دار الشروق ، ط٧ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ١/ ١٩ .

والعَقليَّة واللُّغَويَّة والانْفعاليَّة والاجتِماعيَّة والدِّينيَّة ، وتَوجِيهِها نَحوَ الإصلاحِ والوُصُولُ بها إلَىٰ الكَمالِ [1] .

ووَردَت عِدَّةُ تَعاريفٍ للتَّربيَة [2] لعُلَماءَ تَربَويِّين غَربيِّينَ ، نُورِدُ منها :

التَّربيَـةُ : هي الحَياةُ نَفسُها ولَيسَت إعداداً لحَياةِ المُستَقبَل ، وهِيَ تَستَمِرُّ مَادَامَ الإنسَانُ حَـيَّاً ولا تَتوَقَّفُ ؛ لأنَّ المُجتَمعَ دَائمَ التَّغييرِ والتَّطويرِ (جون ديوي) .

كَما أنَّها : عَمليَّةٌ تَمتَدُّ من المَهدِ إلَىٰ اللَّحدِ (روسو) .

وهِيَ : جَميعُ مَا نَقُومُ به من أجلِ أنفُسِنا ، ومَا يَقُومُ به الآخَرُونَ من أجلِنَا ، بُغيَةَ الاقتِرابِ من كَمالِ طَبيعَتِنا (جون ميل) .

ويقُولُ الدكتُور مُصطَفَىٰ أبو سعد : التَّربيَةُ فَنٌّ وعِلمٌ ، والمُربِّي النَّاجِحُ مَنْ يَفقَهُ هَذا العِلمَ ويُتقِنُ مَهاراتِه ، ويُبدِعُ في فُنُونِه [3] .

يتَّضِحُ ممَّا سَبَقَ أنَّ المَقصُودَ بالتَّربيَة تَنشئَةُ الفَردِ وإعدَادِه علىٰ نَحوٍ مُتكَامِلٍ ، لا تَترُكُ منه شَيئاً ولا تَغفُل عن شَيءٍ ، أخلَاقِه ، عِبادَتِه ، عَوَاطِفِه ، في إطَارٍ كُلِّيٍ يَستَنِدُ إلىٰ التَّوجِيهِ مَمزُوجاً بالعَاطِفَة .

---

(١) «علم نفس النمو» (الطفولة والمراهقة) ، د. حامد عبدالسلام زهران ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٩٠م ، ص ١٠ .

(٢) «كتاب الأمة» : سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن مركز البحوث والدراسات ، قطر ، عنوان الكتاب : «تعامل الرسول ﷺ مع الأطفال تربوياً» ، د. حصَّة بنت محمد الصغير ، الطبعة الأولى ، ذو القعدة ، ١٤٢٩هـ ، تشرين الثاني ٢٠٠٨م ، الدوحة ، دار الكتب القطرية ، ص ٣٣ .

(٣) «التربية الإيجابية للطفل من خلال إشباع الحاجات النفسية للطفل» ، د. مصطفى أبوسعد ، مركز الراشد ، الكويت ، ط٤ ، رمضان ١٤٢٥هـ ، نوفمبر ٢٠٠٤م ، ص ١ .

المَبحَث الثَّـاني

عَلاقَةُ الحُبِّ بالتَّربيَة

* مَفهُومُ الحُبِّ باعتبارِهِ سُلُوكاً في العَلاقاتِ الإنسـانيَّة .
* أهَمـيَّةُ الحُبِّ .
* دَوْرُ الحُبِّ الفَعَّـال في التَّربيَـة .
* التَّربيَـةُ والحُبُّ في القُرآنِ والسِّـيرَة .

المَبحَثُ الثَّـاني
عَلاقَةُ الحُبِّ بالتَّربيَة

يُمكِنُ توضيحُ عَلاقَةِ الحُبِّ بالتَّربيَّةِ من خِلالِ التعرُّفِ عَلَىٰ مَفهُوم الحُبِّ باعتِبارِه سُلُوكاً في العَلاقَاتِ الإنسانيَّة ، وأهميَّةُ الحُبِّ للنَّفسِ البشريَّة ، ثُمَّ دَورُ الحُبِّ في التَّربيةِ .

مَفهومُ الحُبِّ باعتبارِهِ سُلُوكاً في العَلاقاتِ الإنسانيَّة

الحُبُّ عاطِفَةٌ فيَّاضَةٌ ، أَودَعَها اللَّـهُ في النَّفسِ البَشريَّة ، وهو لَيسَ عِباراتٍ جَميلَةٍ ومُنمَّقَةٍ فحَسْب ، يَسكُبُها المُحِبُّ في أُذُنِ مَنْ يُحبُّه ليُعَـبِّرَ له عن شُعُورِه نَحوَه ، بلْ لا بدَّ من تَحويلِ هَذا الشُّعورِ إلىٰ سُلُوكٍ وعَمَلٍ يؤدِّىٰ يَدُلُّ عَلَيه ؛ لأنَّ هَذه العَواطِفُ والمشَاعِرُ لا يُمكِنُ رَصدُها بالعَينِ المُجرَّدَةِ ، وإنَّما يُمكِنُ رُؤيَةُ أثَرِها من خِلَالِ انعِكَاسِ هَذه المشَاعِرِ عَلَىٰ السُّلُوكِ الظَّاهِر . والسُّلُوكُ الظَّاهِرُ هُو الأسَاسُ في العَلاقاتِ الإنسانيَّة ، وهَذا مَعنىٰ الحُبِّ السُّلُوكِيِّ ، أي تَحويلُ الحُبِّ والوُدِّ من شُعُورٍ إلَىٰ سُلُوكٍ وفِعْلٍ [1] .

وقد وَرَدَت شَواهِدُ كَثيرَةٌ في القُرآنِ الكَريمِ والسِّيرَةِ النَّبويَّة الشَّريفَةِ ، تُبيِّنُ

(١) «في بيتنا مكار كيف نتعامل مع حاجات الأبناء» ، د. إبراهيم الخليفي ، أستاذ علم النفس التربوي ، دار إقرأ للنشروالتوزيع ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ، ص ٣١ .

لنا مَعنىٰ الحُبِّ السُّلوكِيِّ الذي تتحوَّلُ فيه المشَاعِرُ إلَىٰ مُمارَسَةٍ يراهَا المُتلقِّي ، من ذَلكَ قَولُه تَعالَىٰ : ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ (١) ، والمَعنَىٰ : إنْ كُنتُم صَادِقِينَ في ادِّعَاءِ مَحبَّـةِ اللَّـهِ ، مُنقادِين لأوَامِره ، مُطِيعِينَ له فاتَّبِعُوني ، فإنَّ اتِّباعِي من مَحبَّـةِ اللَّـهِ تَعالَىٰ وطاعَتِه (٢) .

فصِدقُ مَحبَّـةِ العَبدِ لربِّه لا تكُونُ بدَعوَىٰ القَلبِ واللِّسانِ فقَط ، فكَمْ مِنْ مُدَّعٍ للحُبِّ وسُلوكُهُ يُكَذِّبُ دَعواهُ ، فعَلامَةُ صِدقِ المَحبَّـةِ سُلُوكٌ يُقدِّمُه العَبدُ ، ألا وهو طاعَةُ اللَّـهِ ورَسُولِه ﷺ .

ومن هَدي السِّيرَةِ النبويَّة يُعلِّمُنا ﷺ مَفهُومَ الحُبِّ السُّلُوكيِّ العَمَليِّ في أحادِيثَ كَثيرَة ، منها : **«تَهادُوا تَحابُّوا»** (٣) ، وحديث **«لا تَدخُلُونَ الجَـنَّةَ حَتَّىٰ تُؤمِنُوا ، وَلَا تُؤمِنُوا حَتَّىٰ تَحابُّوا ، أَوَلا أَدُلُّكُم عَلَىٰ شَيءٍ إذَا فَعَلتُمُوهُ تَحابَبْتُم؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَينَكُم»** (٤) ... فالهَدِيَّةُ والسَّلَامُ سُلُوكَانِ عَمليَّانِ من أَسبابِ المَحبَّـةِ .

والقُرآنُ الكَرِيمُ والسُّـنَّةُ النَّبَويَّة مَليئانِ بمِثلِ هَذه الشَّواهِد وغَيرِها ، وكُلُّها تُؤكِّدُ أنَّ الحُبَّ المُرادَ إشَاعَتُه هُو المُمارَسَةُ العَمليَّةُ ، والسُّلوكُ الظَّاهِرُ الفِعليُّ

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

(٢) «تفسير الخازن» ، للإمام علاء الدين البغدادي ، ومعه «تفسير البَغَوي» ، للإمام الحسين الفرَّاء البَغَوي ، مرجع سابق ، آل عمران ، تفسير الخازن ١/ ٤٣٧ .

(٣) «رش البرد شرح الأدب المفرد» للإمام البخاري ، الشيخ الدكتور محمد لقمان السلفي ، مرجع سابق ، ٢٦٩ ، باب قبول الهدية ، ص ٣٣٠ ، رقم الحديث : ٥٩٤ .

(٤) «صحيح مسلم» ، ج١ ، كتاب الإيمان ، باب (بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ..) ، ص٧٤ ، رقم ٥٤ .

الجَليُّ أمَامَ المَحبُوبِ ، فيَفهَمُه عَقلُه ويَرتَاحُ لَه ، ويُحوِّلُه قَلبُه إلَىٰ رَصيدٍ عَاطِفيٍّ جَيَّاشٍ ، فيَتُوقُ المَحبُوبُ إلَىٰ رَدِّ الجَميلِ ، بأدَاءِ فِعلٍ جَميلٍ وسُلُوكٍ يَعكِسُ مَشاعِرَهُ ، وما استَقرَّ في قَلبِه من تَصديقٍ لِوُدِّ مَنَ وَصَلَهُ وأحَبَّه (١) .

فَالحُبُّ الحَقيقِيُّ سُلُوكٌ يَعكِسُ المَشاعِرَ ، وهو عَطاءٌ ، وارتِقَاءٌ شَخصِيٌّ ، يَعلُو بِالمُحِبِّ ، وتَسمُو فيه رُوحُه بَعيداً عن المَردُودِ المَاديِّ (٢) ، سِوَىٰ نَيلِ رِضَا المَحبُوبِ والقُربِ منه ، وهو المُغَذِّي لِـمُعظَمِ الحَاجَاتِ (٣) . وهَذا ما يَجعَلُه مُتجَدِّداً مُتَواصِلًا ، يَحدُوهُ التَّضحيَةُ والكِفَاحُ والصَّبرُ .

---

(٦٥) «في بيتنا مكّار» ، للدكتور إبراهيم محمد الخليفي ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .
(٦٦) موقع الدكتور : ميسرة طاهر (التربية بالحب) .
(٦٧) «في بيتنا مكّار» ، للدكتور إبراهيم محمد الخليفي ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

أَهَميَّـةُ الحُبِّ

الحُبُّ من أنبَلِ العَواطفِ الإنسانيَّة الكَريمَة ، التي أَودَعَها اللَّـهُ في الفِطرَةِ السَّويَّة ، مَغرُوسٌ في النَّفسِ البَشَريَّة ، إذا غُذِّيَ أَسعَدَ الإنسانَ ، وإذا لَـمْ يُلَبَّىٰ شَعُرَ المَرءُ بالحِرمَانِ ، وهو جُزءٌ لا يَتجَزَّأ من صِحَّةِ النَّفسِ والبَدَنِ والذَّوقِ والإيمانِ ، لَكنَّه يَحتاجُ إلَىٰ إشْبَاع باستِمْرار ؛ لأَنَّه يَمَسُّ الوُجُودَ الإنسانيَّ في صَميمِه ، وهُو غِذاءُ الرُّوحِ وزَادُها ، وقَد جَبلَ اللَّـهُ تعالَىٰ الإنسانَ عَلَىٰ البَحثِ عَنهُ من مَنابِعِه المُختَلِفَة لِيَتزَوَّدَ به .

لَقَد خَلقَ اللَّـهُ سُبحانَهُ الإنسانَ ، وأَودَعَ في نَفسِه حاجَاتٍ أَساسِيَّة هي من دَوافِعِ السُّلُوكِ الإنسانيِّ ، وقَد صَنَّفَها أُستَاذُ الإرشَادِ النَّفسيِّ الأمريكيُّ (وليام جلاسر) أنهَّا خَمسُ حَاجاتٍ أساسِيَّة تُولَدُ مَع الإنسَانِ ، واحِدَةٌ منها تَختَصُّ بالحاجَاتِ العُضويَّة للإنسَانِ ، وهيَ المَأكَلُ ، والمَشرَبُ ، والرَّاحَةُ البَدَنيَّة ، والنَّومُ..الخ ، وغَيرُها من الأنشِطَة العُضويَّة الفِطرِيَّة ، وحَاجَاتٍ أَربَع أُخرَىٰ ، وهي : الحَاجَةُ للانتِماءِ والمحبَّـةِ ، والحاجَةُ للتَّقديرِ ، والحاجَةُ للحُريَّةِ والمُشارَكَةِ في القَرارِ ، والحاجَةُ للرَّاحَةِ النَّفسيَّةِ وإلَىٰ الوُجُودِ في بيئَةٍ تَقبَلُ الفَردَ وتُشَجِّعُه [1] ، وكُلُّها حاجَاتٌ نَفسِيَّة .

ولا بُدَّ من إشبَاعِ هَذهِ الاحتِياجَاتِ بنَوْعَيها بوَسائل سَليمَة ، كَي يَتوازَنَ الفَردُ ، وإنَّ عَدمَ إشباعِ هَذه الاحتِياجاتِ يُؤدِّي إلَىٰ فُقدَانِ تَوازُنِ الفَردِ أو اختِلَالِه .

(١) «في بيتنا مكَّار» ، للدكتور إبراهيم محمد الخليفي ، مرجع سابق ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

ولَكنْ ما الفَرقُ بَينَ الحاجَاتِ العُضوِيَّةِ والحاجَاتِ النَّفسِيَّة؟

إنَّ عَدمَ إشْبَاعِ الحاجَاتِ العُضوِيَّة حَتماً يُؤدِّي إلَىٰ المَوتِ ، أمَّا إذا لَـمْ يَتمَّ إشبَاعُ الحاجَاتِ النَّفسِيَّة أو أُهمِلَت ، فذَلكَ يُؤدِّي إلَىٰ رَواسِبَ نَفسِيَّة لها عُمقٌ كَبيرٌ وأثَرٌ عَلَىٰ تكوينِ الشَّخصِيَّة الإنسَانيَّة ، وعَدَمِ استِقرارِها ، ويَبدُو هذا الأثَرُ من خِلَالِ سُلُوكِ الفَردِ ، سَعادَتِه وراحَتِه واطمِئنانِه ، كَما يَبدُو أثناءَ تَعامُلِه مع غَيرِه .

إنَّ الحُبَّ الإنسانيَّ ضَرُوريٌّ لأنَّه يُؤدِّي إلَىٰ شُعُورِ الفَردِ بالانتِماءِ والاتِّحادِ مع أَقرانِه ، ولا يُمكِنُ لَه أنْ يَعيشَ بدُونِه .

وهو مَطلُوبٌ لِذاتِه ؛ لأنَّه يَبعَثُ في النَّفسِ الشُّعُورَ بالرِّضَا ، ويُعطِينا القُدرَةَ عَلَىٰ تَطويعِ الصِّعابِ ، وتَقبُّلِ البيئَةِ المُحيطَةِ ، ويَحثُّنا عَلَىٰ بَذلِ الجُهدِ للرُّقيِّ .

وهو مَطلُوبٌ لأغراضٍ أُخرَىٰ ، مِثلَ زِيادَةِ فعَاليَةِ الإنسَانِ في إعمَارِ الكَونِ . ذَلكَ أنَّ العَملَ المُرتكِزَ عَلَىٰ الحُبِّ هو فِعلٌ أَرقَىٰ بطَبيعَتِه من مِثلِه المُرتكِزَ عَلَىٰ الوَاجِبِ . فالحُبُّ يَجعَلُ من السَّهلِ الوُصُولَ إلَىٰ الهدَفِ [1] .

إنَّ الحُبَّ سِرٌّ عَجيبٌ ، يَتعَدَّىٰ ذَاتَ الفَردِ . وهو أَعظَمُ قُـوَّةٍ دافِعَةٍ ، وعاطِفَةٌ مُحرِّكَةٌ وطاقَةٌ باعِثَةٌ [2] .

---

(١) «التربية بالحب» ، موقع د. ميسرة طاهر ، مرجع سابق .

(٢) «نبي الهدىٰ والرحمة» ، د. عبدالمجيد البيانوني ، دراسة منهجية معاصرة للشخصية النبوية ، ط١ ، ١٤٢٩هـ ، ص ٤٨٩ .

دورُ الحُبِّ الفعَّـالِ في التَّربيَـة

الحُبُّ والعَطفُ من أهمِّ دَعائم وأساسيَّاتِ التَّربيةِ القَويمَةِ، ومِفْتاحُ التَّربيةِ الصَّحيحَة يَبدَأُ بالوُدِّ والحَنانِ، ليَنتَهِي بالتَّعليمِ والتَّوجيه والإفْهَامِ.

فَفي عَمليَّة التَّربيةِ لا يَتعامَلُ المُرَبِّي مع مادَّةٍ جامِدَةٍ لها قَوانِينُها الضَّابِطَة، التي تَصدُقُ وتَتحَقَّقُ في مُختلَفِ الأوْضاعِ، فلا تَتأثَّر بالأَزمِنَة والأَمكِنَة، بَلْ يَتعامَل مع كَائنٍ حَيٍّ وهُو الإنْسانُ، صَاحِبُ الرُّوح، والقَلب، والفِعْلِ، والجَسَدِ. وهو بهَذا يَختلِفُ عَن المادَّة الجامِدَة اختِلافاً كُلِّـيّاً، فَلا يُمكِنُ ضَبطُ كَثيرٍ من أُمُورِه بقَوانينَ ثابِتَة تُطَبَّق عَلَىٰ جَميعِ الأفرادِ، بَلْ كُلُّ فردٍ له مَفاتِحُهُ، وخَصائِصُهُ، ومَيِّزاتُه، وظُروفُه الخاصَّة، فإذَا لَـمْ تَقُم التَّربيةُ عَلَىٰ التَّفاعُلِ والانفِعَالِ بَينَ جِهَةِ الإرسَالِ (المُربِّي) والاستِقبَالِ (المُتَلَقِّي) أصبَحَت عَمليَّةً مَيِّـتَةً لا رُوحَ فيها، ولا حَياةَ، ولا نَمـاءَ، و لا يَكادُ يَترَتَّبُ عَلَيها أثَرٌ ذُو فَاعِليَّة أو فائدة[1].

وهَـٰذا التَّفاعُلُ بَينَ المُرَبِّي والمُتَلَقِّي إمَّا أنْ يَكُونَ تَفاعُلًا سَلبيّـاً، أو تَفاعُلًا إيجابيّـاً، فالتَّفاعُلُ السَّلبيُّ عِندَما يَتعامَلُ المُرَبِّي مع المُتَلَقِّي أو المُخطِئ بخُشُونَة وقَوانينَ صارِمَة ليَفرِضَ سَيطَرتَه بعُنفٍ وقَسوَةٍ، حَتَّىٰ لا تُخدَش هَيبَتُهُ ووَقارُهُ، ويتَّخِذُ مع المُتَلَقِّي لإصْلَاحِه وتَربيَتِه أُسلوبَ الإكراه والإرغام لا التَّفاهم والوُد والإقناع، وهُو سُلُوكٌ يُؤدِّي إلَىٰ قَمعِ المُتَلَقِّي ومَسح شَخصيَّتِه الإنسَانيَّة، ويَبعَثُ في النَّفسِ البَشريَّةِ في كَثيرٍ من الأحيانِ النُّفُـورَ والكُرهَ، وآثَارُه السَّلبيَّة الهَدمُ لا البِنَاءُ، وإطفَاءُ رُوحِ الإبدَاعِ والعَطَاءِ، وذَاكَ هُو المُرَبِّي السَّلبِي.

(١) «التربية بالحب»، موقع د. ميسرة طاهر، مرجع سابق.

أمَّا التَّعاطُفُ مع المُتلَقِّي أو المُخطِئ، والفَصلُ بينَ السُّلُوكِ والشَّخص، وأنَّ المَنبُوذَ هُو الفِعلُ لا الفَاعِلُ، وإظهَارُ الوُدِّ واللُّطفِ وعاطِفَةِ الحُبِّ في التَّعامُلِ مع الفَردِ، فذَلكَ سُمُوٌّ في التَّعامُلِ مع الشَّخصيَّة الإنسانيَّـة، ويُشعِرُها بالاحتِرامِ والقَبُولِ، وبالتَّالي التَّقدِير. ومَنْ يُشبعْ تَقديرَهُ يَكُنْ سَعيداً مُهَيَّأً لكُلِّ أحوالِ الخَيرِ، مُنقَاداً نَحوَ الحَقِّ، مُحِبّاً لِـمَنْ يُقَدِّرُه، حَريصاً للإنْصَاتِ لَه، واتِّبَاعِ نَصائِحِه وتَوجيهاتِه، وهَذا هُو المُرَبِّي الإيجَابيُّ الفعَّالُ (١).

فهُو الذي يُشَجِّعُ ويُدعَمُ ليَكُونَ مَصدَرَ مُتعَةٍ، لا مَصدَرَ ألَـم؛ لأنَّ الإنسَانَ بطَبعِه يَميلُ إلَىٰ المُتعَة ويَبتَعِدُ عن كُلِّ ما يُسَبِّبُ لَه ألَمـاً. ويُنسَبُ لأفلاطُونَ (٢) قَولٌ عَن الحُبِّ وعَلاقَتِه بالتَّربيةِ: «الحُبُّ عَامِلُ خَلقٍ وإبْدَاع، بَلْ هُو عَامِلُ تَربيَةٍ وتَهذيبٍ، والتَّربيةُ لَيسَت شَيئاً آخَرَ غَيرَ الحُضُورِ الدَّائمِ للحُبِّ».

ويَقُولُ الدُّكتور إبراهيم الخُليفي عن الحُبِّ وتَأثيره الفَعَّالِ والبَنَّاءِ في العَمليَّـة التَّربَويَّة للأبنَاءِ: «الحُبُّ لَه وَجْهَانِ؛ حُبٌّ يَتوجَّهُ للإنسَانِ مِنْ غَيرِه مِمَّن حَولَه، فيَأخُذَهُ ويَستَمتِعُ بِه، وحُبٌّ يُوجِّهُهُ الإنسَانُ إلَىٰ مَنْ يَعتَقِدُ أنَّه يَستَحقُّ حُبَّه ووَلاءَهُ مِمَّن هم حَولَه أو عَلَىٰ صِلَةٍ بِه.

والحُبُّ هو الصَّمغُ والغِراءُ الذي يَربِطُ الفَردَ رَبطاً مُحكَماً بالقِيَم المُهدَاةِ. ومن أبرَزِ نَتائج الحُبِّ السُّلُوكِيِّ الانتِماءُ للنِّظَام والوَلاءُ لَه، والانْصِياعُ الطَّوْعيُّ لقَوانينه، وإنَّ البيئاتِ التَّربَويَّة التي تُبادِرُ إلَىٰ إشْبَاع حاجَاتِ الأبنَاءِ العاطِفيَّة، لا تَتوقَّعُ ظُهورَ المُفاجَآتِ، أو الإحْبَاطَاتِ الوَالديَّة فيها، بلْ حَتَّىٰ

(١) «الحاجات النفسية للطفل»، د. مصطفى أبوسعد، مرجع سابق، ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٢) موقع «الحوَّاء» www.balgh.com.

المُراهَقَة سَتكُونُ مَرحَلةً عَاديَّةً وتَمرُّ بسَلام ، لأنَّهم يَعيشُونَ في كَنَفِ مَنْ ثَبتَ لَهم يَقيناً أنَّه يُحِبُّهم ويُقَدِّرُهم فتَطمَئنُّ نُفُوسُهم . فيُعطُونَ الوَلاءَ للقِيَم والمُثُلِ التي زُرِعَت فيهم . فالحُبُّ والاهتِمامُ الذي قدَّمَه المُربِّي للأبناءِ ، شَكَّلَ صَمغَ القِيَمِ وغِراءَها ، الذي يَضمَنُ انتِماءَ الأبنَاءِ للبيئَةِ التَّربَويَّةِ التي نَشَؤُوا فيها (١) .

ومن الدَّهشَةِ في الحَياةِ العَمليَّة أنْ نَجدَ كَثيراً من النَّاسِ يَدينُونَ بمُعتَقَداتٍ هَزيلَةٍ ، ويَعبُدُونَ الشَّجرَ والنَّارَ والحَجرَ والبَقَرَ .. وما ذَلكَ إلَّا لأنَّ المُربِّينَ كَانُوا يَعزِفُونَ بشَكلٍ مُستَمرٍّ عَلَىٰ وَتَرِ الحُبِّ . فيَنشَأُ المُتلَقِّي فيهم غَالِباً مُحبّاً لذَلكَ المُجتَمعِ ، مُوالِياً لِـمَا يَدينُ به ، مُلتَزماً بقِيَمِه ومُعتَقداتِه بلْ مُنافِحاً عنها . فأُشبِعَت الحاجَاتُ العَاطِفيَّة ، والتَّقديرُ والاحتِرَامُ الذي وُجِّهَ لَه ، وأُشبِعَت مَعها الحاجَاتُ النَّفسيَّةُ ، فيُعطِي المُتلَقِّي الوَفاءَ لذَاكَ المُجتَمع ، وذَلكَ بالوَلاءِ للقِيَم والمُعتَقَداتِ التي يَدينُ بها ، وفي هذا المَعنَىٰ يَقُولُ ﷺ : «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**» (٢) .

فَما أعطَاهُ الأبَوانِ من حُبٍّ ورِعايَةٍ للمَولُودِ ونَشأَ عَلَىٰ ذَلكَ ، مَكَّنَهُما من تَغييرِ فِطرَتِه السَّويَّةِ التي فَطرَهُ اللّـهُ عَليها ، كَما جَاءَ في الحَديثِ الشَّريفِ .

وكَمْ تَكُونُ دَهشَتُنا أكبَرُ عِندَما نَرَىٰ بَعضَ القِيَم والمُعتَقَداتِ الصَّحيحَةِ غَيرَ مَورُوثَة ، بَلْ عَلَىٰ النَّقيضِ من هَذا ، يَتمرَّدُ الفَردُ عَلَىٰ مَنْ ربَّاهُ وعَلَىٰ مُجتَمعِه وقِيَمِه ومُعتَقَداتِه وأفكَارِه ، وغَالِباً ما يَكُونُ ذَلكَ بسَببِ فَشَلِ إيصَالِ العَمليَّةِ التَّربَويَّةِ بينَ المُربِّي والمُتلَقِّي .

---

(١) «في بيتنا مكّار» ، الخليفي ، مرجع سابق ، ص ٣١ ـ ٣٤ .

(٢) انظر : «صحيح البخاري» ، كتاب الجنائز ٩٢ ، باب ما قيل في أولاد المشركين ، ص ٢٤٠ ، رقم الحديث : ١٣٨٥ .

فالحُبُّ مُؤسِّسُ الوَلَاءِ ، فعِندَما يُحِبُّنا أبناؤُنا فإنَّهم سَيَحرِصُونَ عَلَىٰ مُحاكَاتِنا ، وتَقليدِ سُلُوكيَّاتِنا ، وذَلكَ لأنَّ المُحِبَّ لِـمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ [1] .

إذاً الحُبُّ شَرطٌ أَسَاسيٌّ للتَّربيةِ النَّاجِحَة من المُرَبِّي المُؤثِّر النَّاجِح ، كَما أنَّه جُزءٌ لا يَتجَزَّأ منها ، وأَهَميَّـتُه في التَّربيةِ كَالمُلَاطِ في البِنَاءِ .

فالحُبُّ والتَّوجِيهُ مُتلازِمانِ في العَمليَّة التَّربَوِيَّةِ كَدَفَّتي قارِبٍ ، ولا نَستَطيعُ فَصلَ أحدِهما عن الآخَرِ أو الاستِغنَاءَ عَنهُ ، لأنَّ لكُلٍّ منهما دَورُه الفَعَّالُ المُكَمِّلُ للآخَرِ . فالحُبُّ يُضيءُ للتَّوجِيهِ مَسارَهُ ويُسَهِّلُ دربَهُ ، والتَّوجِيهُ يُوجِّهُ الحُبَّ للمَسارِ الصَّحيحِ ويُشَذِّبُهُ .

وإنَّ مُعظَمَ مَشاكِلِ الشَّبابِ والشَّابَّاتِ الذين يُعانُونَ من عُنفٍ ، أو جَهلٍ ، أوكَسَلٍ وبَطالَةٍ ، أواتِّكَاليَّةٍ مَقيتَةٍ ، أو لا مُبالَاةٍ وعَدمِ الشُّعُورِ بالمَسؤُوليَّة ، أو تَعصُّبٍ طَائفِيٍّ ، أو ظُلمٍ تَعسُّفِيٍّ ، أو تَقليدٍ للغَربِ ، سَببُه الرَّئيسيُّ نَقصٌ في التَّربيةِ الإسلَاميَّة السُّلوكيَّةِ المُتوازِنَة ، التي تَجمَعُ بَينَ التَّوجِيهِ القَويم والعاطِفَةِ السَّديدَةِ ، سَواءٌ في البَيتِ أو المَدرَسَةِ أو الشَّارِعِ أو العَمَلِ.. فلَوْ تَعامَلَ مَنْ هُم في عِدادِ المَسؤُوليَّة بِما تُمليهِ عَليهم التَّربيةُ الإسلَاميَّةُ الصَّحيحَةُ ، لأَسهَمنا في حَلِّ مُعظَمِ هَذه المَشاكِلِ ، بَلْ تَهميشِهَا وتَجميدِها ، ونَقَلنَا الكَثيرَ من شَبابِنَا من السَّلبيَّةِ إِلَىٰ الإيجابيَّةِ الفَعَّالةِ ، لا أنْ نَختَرِعَ حُلُولًا نَظريَّةً تَزيدُ الطِّينَ بِلَّةً .

(١) «في بيتنا مكّار» ، الخليفي ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

التَّربيَـةُ والحُبُّ في القُـرآنِ والسِّـيرَةِ

في القُرآنِ الكَريم آياتٌ كَثيرَةٌ تَجمَعُ بينَ التَّربيةِ والحُبِّ ، وعَلَىٰ المُربِّي أنْ يَتَّصِفَ بالرَّحمَةِ ، واللُّطفِ في التَّعامُلِ ، ويَنشُرَ رِسالَتَه بالحُبِّ ، قَالَ تعالَىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ (١) .

نُلاحِظُ هُنا ارتباطَ لَفظِ الجَلالَةِ بالرَّحمَـٰنِ والرَّحِيم ، وهُما اسمانِ مُشتقَّانِ من الرَّحمَةِ ، فتَربيَةُ الحَقِّ لهذه العَوالِـمَ ، وقِيامُه بها وإمْدادُها بالإيجادِ إنَّما هي رَحمَةٌ منه سُبْحانَهُ وإحسَانٌ ، لذَلكَ ذَكَر وَصفَهُ بالرَّحمَةِ مُتَّصِلاً بذِكرِ التَّربيةِ فقَالَ تَعالَىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ (٢) .

وأيضاً نَجدُ ارتباطَ لَفظِ الجَلالَةِ بالرَّحمَةِ والوُدِّ في قَولِه عَزَّ وجَلَّ : ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ (٣) .

بَلْ نَجدُ في مَواضِعَ أُخرَىٰ أنَّه في امتِنانِه عَلَىٰ عِبادِه المُربِّينَ المُصلِحينَ ، قَدَّمَ ـ بِما اختَصَّهُم به ـ الرَّحمَةَ عَلَىٰ العِلم ، ومَا ذَاكَ إلَّا لأهَميَّتِها ، قَالَ تعالَىٰ : ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ (٤) .

وامتَدحَ اللّـٰهُ تَعالَىٰ الرَّسُولَ والمُربِّي الأوَّل ﷺ في مُحكَم بيانِه بقَولِه تَعالَىٰ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (٥) ، ولَـمْ يَقُلْ له إنَّكَ عَلَىٰ إيمانٍ عَظيمٍ ، مُشِيداً بعَظيمِ أخلاقِه الرَّفيعَةِ في نَشرِ الدَّعوَةِ .

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية : ٢ .

(٢) «تفسير الفاتحة الكبير» للإمام أحمد بن عجيبة ، مرجع سابق ، ص ١٩٤ .

(٣) سورة هود ، الآية : ٩٠ .

(٤) سورة الكهف ، الآية : ٦٥ .

(٥) سورة القلم ، الآية : ٤ .

وقَد أَثنَىٰ سُبْحانَهُ عَلَىٰ لُطفِ نَبيِّهِ ﷺ وابتِعادِه عن الغِلْظَةِ بقَولِهِ تعالَىٰ : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١) ، في إشَارَةٍ قُرآنيَّةٍ إلَىٰ إحدَىٰ أَهَمِّ صِفاتِ المُربِّي النَّاجِح .

فكَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ نَمُوذَجاً عَمليّاً في مَنهَجِ التَّربيَةِ بالحُبِّ ؛ لأنَّ الرِّسَالَةَ لَـمْ تنزلْ لِتُطبَّق قَسْراً أو قَهْراً ، أو لِتَطبيقِ الأحكَامِ الشَّرعيَّةِ في الحَلالِ والحَرامِ .. بَلْ كانَت قائمَةً عَلَىٰ علاقَةٍ نَفسيَّةٍ وشُعُورٍ عَميقٍ بَينَ النَّبيِّ ﷺ حامِلِ هذه الرِّسَالَةِ وبَينَ النَّاسِ ، عَلاقَةُ حُبٍّ ووُدٍّ تَربطُهُم بمُعلِّم البَشَريَّةِ وهَادِي البَرِيَّةِ في حُبِّهِ الكَبيرِ وتَربيَتِه الحَليمَةِ الحَكيمَةِ ، بالحِوَارِ والرَّحمَةِ لجَميعِ مَنْ حولَه ، فقَد كَانَ يَفيضُ حُبّاً وحَناناً ، ويَشعُّ عَطفاً وإحْسَاناً . حَتَّىٰ إذَا مَا أَرادَ الإرْشَادَ والتَّوجِيهَ ، كَانَ لَه رَصيدٌ عَاطِفيٌّ كَبيرٌ في قَلبِ المُتلَقِّي ، وقَبُولٌ تَامٌّ مِنهُ لِـمَا يُوَجِّهُهُ إلَيه .

يَقُولُ أَنَسُ بنُ مَالك رضي الله عنه : «**خَدمتُ النَّبيَّ ﷺ عَشرَ سِنينَ ، فَمَـا قَالَ لِي : أُفٍّ ، وَلَا : لِـمَ صَنعتَ؟ وَلَا : أَلَا صَنعْتَ**» (٢) .

فلَم يُعنِّفْهُ أو يُوبِّخْهُ أو يُؤنِّبْـهُ يوماً عَلَىٰ أيِّ تَصرُّفٍ صَدرَ مِنهُ طِيلَةَ عَشرِ سَنَواتٍ .

إنَّه لَسُلُوكٌ رَاقٍ من خَيرِ مُرَبٍّ ومُعَلِّمٍ مُرشِدٍ ، وأَبٍ مُوَجِّهٍ مُصلِحٍ ، صَلَّىٰ اللَّـهُ عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ بالحُبِّ ، قَائدِ البَرِيَّةِ وهَادِي البَشَرِيَّة .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٥ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الأدب ، ٣٩ ـ باب حسن الخلق والسخاء ، ص ١٠٨٧ ـ رقم الحديث : ٦٠٣٨ .

المَبحَثُ الثَّـالثُ
عَلاقَـةُ الحُبِّ بالتَّربيَة

* تَعريفُ الأصَالَة والمُعاصَرَة .
* الحُبُّ في القُرآنِ والسُّـنَّة .
* الإسلَامُ والعاطِفَةُ الجِنسـيَّة .
* الإسلَامُ والحُبُّ المُعاصِر .
* الإسلَامُ يُهَذِّبُ الحُبَّ .
* الحُبُّ الأَصيلُ المُعاصِر .

المَبحَثُ الثَّالثُ

تَعريفُ الأصَالَة والمُعاصَرَة

الأصَالَةُ من أَصْل و(أَصْلُ) الشَّيءِ أي لَه أَصْلٌ ثَابِتٌ يُبنَىٰ عَلَيه .

ورَجُلٌ أَصيلٌ : ثَابِتُ الرَّأي ومُحكَمُه ، وتَعنِي أيضاً : عَاقِلٌ . و(الأصْلُ) : أَسفَلُ الشَّيءِ ، ويُقَالُ : إنَّ النَّخلَ بأرْضِنَا لأَصِيلٌ أي هُو بِهِ لا يَزالُ ولا يَفنَىٰ (١) .

ونَعنِي بمَفهُومِ الحُبِّ في الأَصالَةِ ، أي : عَرضُ الحُبِّ مِنْ أَصلِهِ الأَصيل ومِيزانِه الصَّحيح (القُرآنُ والسُّـنَّة) .

أمَّا المُعاصَرَة فهي من العَصْرِ ، و(العَصْرُ) يَعنِي الدَّهْرُ (٢) ، أي : الوَقتُ والزَّمَنُ ، ونَقصِدُ بالمُعاصَرَة في بَحثِنا هَذا ، مَفهُومَ الحُبِّ في وَقتِنَا الحَالي الذي نَعيشُهُ .

(١) انظر : «المعجم الوسيط» ، مرجع سابق ، باب (ألف صاد) ، ومختار الصحاح (أ ص ل) .

(٢) انظر : «المعجم الوسيط» ، (ع ص ر) ، و «مختار الصحاح» (ع ص ر) ، مرجعين سابقين .

الحُبُّ في القُرآنِ والسُّـنَّة

الحُبُّ حاجَةٌ أَساسيَّةٌ مُتغلغلَةٌ في أعْماقِ النَّفسِ البَشريَّة ، مَصدَرُهُ من بَارئ النَّفسِ وخَالِقِها ، واللَّـهُ ـ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ ـ وَضَعه في الفِطرَةِ لِـمَا لَه من وَظيفَتِه الأَصْليَّة لاستِمرارِ الوُجُودِ الإنسانيِّ والحَياةِ ، إذْ لا طَعمَ للحَياةِ ولا سَعادَةَ بدُونِ الحُبِّ في الدُّنيا والآخِرَة ، لكنَّ الكَثيرَ من الغَربيِّينَ يَدَّعِي أنْ لا مَكَانَ للحُبِّ في الإسلَامِ ، ويَتَّهِمُ المُسلِمينَ بالجَفَاءِ والقَسوَةِ ، مع أنَّ الإسلَامَ دينٌ يَنبِضُ بالحِسِّ والمشَاعِرِ ، ويَفِيضُ بالحُبِّ والرِّفْقِ والإحْسَانِ ، ويُثبِتُ ذَلكَ القُرآنُ الكَريمُ والسُّـنَّةُ المطَهَّرَة .

فقد وَرَدَت كَلمَةُ الحُبِّ في القُرآنِ الكَريم بشَكلٍ مُباشِرٍ في أكثَر مِنْ سَبعينَ آيَةٍ تَأكيداً لأَهَميَّةِ هَذا المَفهُوم وارتباطِه بالحَياةِ ، وآيَاتٍ أُخرَىٰ كَثيرَة بشَكلٍ غيرِ مُباشِرٍ تَتناوَلُه من خِلَالِ الحَثِّ عَلَىٰ مَعاني الرَّحمَةِ والموَدَّةِ والعِشْرَةِ بالمَعرُوفِ .

فبالرَّحمَةِ خلقَ اللّـهُ الإنسَانَ بقَولِه سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ (1) .

وبالحُبِّ ابتَدَأهُم بقَولِه جَلَّ وعَلَا : ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ في آية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ (2) ، وفي آية :

(1) سورة الرحمن ، الآية : ٤ .

(2) سورة المائدة ، الآية : ٥٤ .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [1]، يَقُولُ الإمَامُ الغَزاليُّ في «الإحْيَاءِ» : هي دَليلٌ عَلَىٰ إثباتِ الحُبِّ وإثباتِ التَّفاوُتِ فيه [2] .

وأيُّ كَرامَةٍ وأيُّ شَرَفٍ حينَما تُوصَفُ به عَلاقَةُ المُؤمِنِ باللَّـهِ ورَسُولِه ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [3]، فحُبُّ العَبدِ للَّـهِ طَاعَتُه والانقِيادُ لَه ، والمُسارَعَةُ إلى مَرضَاتِه ، والقِيامُ بأمْرِه ، والإكثَارُ من ذِكْرِه [4]، لأنَّ الطَّاعَةَ ثَمرَةُ الحُبِّ .

أمَّا محبَّـةُ اللَّـهِ لِعبادِه ، إذَا تَعلَّقَت بعُمُوم النِّعَم تُسمَّىٰ رَحمَـةً ، وإذَا تَعلَّقَت بخُصُوصِها تُسمَّىٰ محبَّـةً ، ومَعناهَا : إحْسَانٌ مَخصُوصٌ يَلقَىٰ اللَّـهُ العَبدَ بِه ، وحَالَةٌ مَخصُوصَةٌ يُرَقِّـيهِ إلَيها [5]، وقِيلَ : إحْسَانُه إلَيهِم ، وإرادَتُه الجَميلَ بِهِم والثَّناءُ عَلَيهِم [6] .

وفي مُكافَأةِ المُؤمنِينَ يَقُولُ جَلَّ وعَلَا : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾ [7]، والوُدُّ كَما مَرَّ مَعَنا : هُو أَخلَصُ الحُبِّ وأَلطَفُه ، وذَلكَ فيما بَينَهُم وبَينَهُ ، وفيما بَينَهُم وبَينَ عِبادِه [8] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٥ .

(٢) «إحياء علوم الدين» ، للغزالي ، مرجع سابق ، ج٤ ، كتاب المحبة والأنس والشوق والرضا ، ص ٣١٢ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

(٤) «تفسير الفاتحة الكبير» ، لابن عجيبة ، مرجع سابق في تفسير اسم الوَدُود جَلَّ جَلَالُه ، ص ٢٧٥ .

(٥) «الرسالة القشيرية» ، مرجع سابق ، انظر : ص ٣١٨ ، و ٣١٩ بتصرف .

(٦) «تفسير الفاتحة الكبير» ، لابن عجيبة ، مرجع سابق في تفسير اسم الوَدُود جَلَّ جَلَالُه ، ص ٢٧٥ .

(٧) سورة مريم ، الآية : ٩٦ .

(٨) نفس المرجع السابق في تفسير اسم الوَدُود جَلَّ جَلَالُه ، ص ٢٧٥ .

وفي آياتٍ أُخرَىٰ تبيَّنَ أنَّ مِنْ صِفَاتِ المَوْلَىٰ عزَّ وجلَّ : ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [(١)] ، أي : أنَّه يَوَدُّ المُؤمِنينَ ويَوَدُّونَه .

وفي قَولِه سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [(٢)] ، حُبٌّ يُوَحِّدُ الشُّعُوبَ ، فحَيثُما التَقَوْا هُم إخْوَةٌ في اللَّـهِ ، يَربِطُ بينَهُم رِباطُ الإسْلامِ القَائِمِ عَلَىٰ التَّحابِّ والتَّرابُطِ ، تَجمَعُهُم أُخُوَّةُ الإسلامِ عَلَىٰ غَيرِ قَرابَةٍ ولا تَعارُفٍ سَابِقٍ ، يُعينُ قَوِيُّهم ضَعيفَهُم ، وكَبيرُهُم صَغيرَهُم ، ويَتبادَلُونَ الاحتِرامَ والتَّوقِيرَ بما تَقتَضِيهِ هَذه الأُخُوَّة ، تتكَافَأُ دِماؤُهُم ، ويَقُومُ بِذِمَّتِهِم أَدناهُم ، وهُم جَمْعٌ عَلَىٰ مَنْ عَادَاهُم . ويَتعامَلُونَ مع بَعضِهِم بالحُسنَىٰ والمَعرُوفِ قَالَ تعالَىٰ : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [(٣)] ، وذَلكَ للتَّأكيدِ عَلَىٰ الوُدِّ وانْتِشارِه بينَ أفْرادِ المُجتَمَع [(٤)] .

ويقول اللَّـهُ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [(٥)] ، حَيثُ إنَّهم لَـمْ يَكُونُوا بُنْياناً مَرصُوصاً إلَّا لأنَّهم غَيرُ مُتَنازِعينَ ولا مُتَناحِرينَ ، بَلْ مُتَوادُّونَ مُتَحابُّونَ مُتَراحِمُونَ .

فَعِندَما تَتَّحِدُ القُلُوبُ تَتوَحَّدُ الصُّفُوفُ ، وتُصبِحُ كَالبُنْيانِ المُحكَمِ المَرصُوصِ

---

(١) سورة البروج ، الآية : ١٤ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٠ .

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٤ .

(٤) «منهج التربية الإسلامية» ، محمدقطب ، ط٤ ، دارالشروق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٥) سورة الصف ، الآية : ٤ .

وتَظفَرُ بالنَّصرِ ، وعِندَما تتنافَرُ القُلوبُ في اللَّاشُعُور يُعْرِضُ الفَردَ مُبتَعِداً ، وينأىٰ بِجانِبه ، فتَكُونُ صُفُوفاً مُتراخِيَةً هَزيلَةً مُتَخلخِلَةً تَبُوءُ بالفَشَلِ .

وفي القُرآنِ العَزيزِ أنَّه سُبْحانَهُ خَلقَنا من نَفسٍ واحِدَةٍ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (١) ، إشَارةً أنَّه لا عَداءَ ولا كُرهَ ، بَلْ أُخُوَّةٌ إنْسانيَّة سامِيَة راقِيَة في بِناءِ المُجتَمَعِ الإنسانيِّ ، يَجمَعُنا أَصلٌ واحِدٌ .

وجَعلَ ـ سُبْحانَهُ ـ مِنْ أَسمَىٰ آياتِه وأَعظَمِها الأُلفَةَ والمودَّةَ بينَ الزَّوْجَينِ المُكوِّنَينِ نَواةَ المُجتَمَعِ الأُولَىٰ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٢) .

وفي عَلاقَةِ الفَردِ بأهْلِه وأُسرَتِه ، جَعلَ ـ سُبْحانَهُ ـ الحُبَّ حِمايَةً لَها وحِرصاً عَلَيها ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (٣) ، وقَالَ تَعالَىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ (٤) .

وكَما خَلقَ اللَّـهُ الحُبَّ لِيُطَيِّبَ العَيشَ به في الدُّنيا ، طَيَّبَ العَيشَ به في الآخِرَة بقَولِه تَعالَىٰ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾ (٥) .

ولَو تَتبَّعنا الآياتِ القُرآنيَّة عن الحُبِّ ومَعانِيه لوَجدنا الكَثيرَ مِنْ ذلِكَ .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١ .

(٢) سورة الروم ، الآية : ٢١ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٢٣ .

(٤) سورة التحريم ، الآية : ٦ .

(٥) سورة الحجر ، الآية : ٤٧ .

والسِّيرَةُ النَّبويَّة الشَّريفَة أيضاً تعبُقُ بشَواهِدَ جَمَّة ، تُؤكِّدُ الحُبَّ ومَفهُومَه الوَاسع وأهميَّته وارتباطَه بالإيمانِ ، قَالَ ﷺ : «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَـانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْـمَـرْءَ لَا يُحِـبُّهُ إِلَّا للَّـهِ ..**» (١) .

وأيضاً في قَولِه ﷺ : «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» (٢) .

وحَديثُ : «**تَرَىٰ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْـجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَىٰ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْـجَسَدِ بِالسَّـهَرِ والْـحُمَّىٰ**» (٣) .

حَتَّىٰ الصَّاحِبُ الذي تُحِبُّه ، وتتمَنَّىٰ أنْ تكُونَ مَعَه ولا تُفارِقُه ، قَالَ فيه الرَّسُولُ ﷺ : «**الْـمَـرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» (٤) ، وذَلكَ لنُعيدَ النَّظرَ في تِلكَ العاطِفَة السَّامِيَة ، ونَضَعَها في مِيزانِها الصَّحيح ، ويُوضِّحُ لنَا هَذا المَفهُومَ أيضاً حَديثٌ آخَر : «**الْـمَـرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**» (٥) .

ومن الصُّوَرِ النَّبويَّةِ العَمليَّةِ ، في غَزوَةِ أُحُد ، عِندَما استُشهِدَ الصَّحابيَّانِ الجَليلَانِ ، عَبدُ اللَّـهِ بنُ عَمرُو وَالِدُ الصَّحابيِّ جَابِرِ بن عَبدِ اللَّـهِ ، وعَمرُو

(١) الحديث بأكمله في صحيح البخاري ، مرجع سابق ، كتاب الإيمان ٩ ـ باب حلاوة الإيمان ، ص ٢١ ، رقم الحديث : ١٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ، كتاب الإيمان ، ٨ ـ باب أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ص ٢٠ ، رقم الحديث : ١٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب رحمة الناس والبهائم ، ص ١٠٨٤ ، رقم الحديث : ٦٠١١ .

(٤) نفس المرجع السابق ، كتاب الأدب ، ٩٦ ـ باب علامة الحب في اللّـه عَزَّ وجَلَّ ، ص ١١٠٧ رقم الحديث : ٦١٦٨ ، ٦١٦٩ ، ٦١٧٠ .

(٥) انظر : «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ» ، للإمام النووي ، ط٢ ، دار الغد العربي ، رقم الحديث : ٣٦٥ ، ص ٢١٠ .

بنُ الجَمُوح ، قَالَ ﷺ : «**ادْفِنُوا هَـٰذَيْنِ المُتَحَابَّـيْنِ في الدُّنْيَـا في قَـبْرٍ وَاحِدٍ**» (١) ، لِـمَا بينَهُما من المحبَّـةِ والصَّفاءِ (٢) !! وتَقديراً لِتلكَ العَاطِفَةِ النَّبيلَة ، ألَا وهي المحبَّـةُ في اللَّـهِ .

وعِندَما حَدَّثَ أحَدُ الجُلُوسِ النَّبيَّ ﷺ أنَّه يُحِبُّ فُلاناً في اللَّـهِ ، قَالَ لَه ﷺ : «**أَأَعْلَمْتَهُ؟**» ، قَالَ : لا ، قَالَ ﷺ : «**أَعْلِمْهُ**» ، فلَحِقَ به وأَخبَرَه (٣) ، ومَا ذَاكَ إلَّا تَوضِيحاً عَمَليّـاً لمنهَجِ الرَّسُولِ ﷺ في نَشرِ ثَقافَةِ الحُبِّ وتَرسِيخِها في المُجتَمعِ المُسلِم .

---

(١) «الطبقات الكبرى» ، محمد بن سعد بن منيع الزهري ، تحقيق الدكتور : علي محمد عمر ، ط١ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ٣/ ٥٢١ .

(٢) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، (٥) التربية القيادية ، منير الغضبان ، دار الوفاء ، ج.م.ع ، المنصورة ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، الجزء الثاني ، ص ١٤٥ .

(٣) «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ» ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ ، رقم الحديث : ٣٨٣ ، وانظر : «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ ، باب إذا أحب الرجل أخاه فليعلمه ، الحديث رقم : ٥٤٢ـ٥٤٣ .

الإسلَامُ والعَاطِفَةُ الجِنسِيَّة

الإسلامُ لا يَمنَعُ الحُبَّ بين الجِنسَين بظُروفٍ صِحيَّةٍ صَحيحَة ، ليَكُونَ حُبًّا آمِناً مُثمِراً رَاسِخاً ، فالعَاطِفَةُ بينَ الجِنسَين لها جُذورٌ في الكِيانِ الإنسَانيِّ ، وهي قَويَّةٌ تَملَأُ العَقلَ والقَلبَ ، لأنَّ لها أَخطَرَ مَهمَّةٍ في الوُجُودِ ، وهو أَنْ تُحقِّقَ للوُجُودِ جَمالَه وكَمالَه بالجِنسِ البَشَرِيِّ ، لِيَتِمَّ حِفظُ أشرَفِ مَخلُوقٍ عَلَىٰ وَجهِ الأرضِ وتَناسُلُه وبَقاؤُه .

من أجلِ هَذا نَجدُ القُرآنَ الكَريمَ قد وَضَعَها في ذِروَةِ النِّعَم التي مَنَّ اللَّـهُ بها عَلَىٰ عِبادِه ، فقد جاءَ التَّعبيرُ عَنها قَبلَ الحَديثِ عن مُقوِّماتِ الحَياةِ جَميعِها في تَسلسُلِ الآياتِ القُرآنيَّة من سُورَةِ الوَاقِعة ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ [1] ، فحاجَتُه لهذا الحُبِّ أعظَمُ من حاجَتِه للطَّعام والشَّراب والنَّار ومَنافِعها أيضاً ، فبعدَ تِلكَ الآيَةِ أتَتْ الآياتُ في قَولِه تَعالَىٰ : ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾ ، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨﴾ ، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١﴾ [2] . فحاجَةُ الإنسانِ للحُبِّ الجنسيِّ تَتقدَّمُ ـ أحياناً ـ عَلَىٰ الحَاجاتِ الأُخرَىٰ التي لا تَقُومُ الحَياةُ إلَّا بها ، فهذه الأُمُورُ الثَّلاثَة : الـمَاءُ ، والكَلأُ ، والنَّـارُ ، التي تُعتَبرُ من مُقوِّماتِ الحَياةِ . إذْ تأتي العاطِفَةُ الجِنسِيَّة في سِياقِ الآيَاتِ قَبلَها جَميعاً [3] . فَالجِنسُ في ذَاتِه دَافِعٌ من دَوافِعِ الفِطرَة ، وهو نَوعٌ من الحُبِّ الذي تَكتَمِلُ به الحَياةِ الإنسَانيَّة الزَّوْجيَّة ، فرَسُولُ

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٥٨ .

(٢) سورة الواقعة ، الآيات : ٦٣ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٣) «إليك أبتها الفتاة المسلمة» ، منير محمد الغضبان ، مكتبة المنار الزرقاء ، الأردن ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ١٢١ .

اللَّـهِ ﷺ يَقُولُ : «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» (١) . كَما أَنَّ طَرِيقَةَ الإِسلَامِ في مُعالجَة الجِنس كطَريقَتِه في مُعالجَةِ كُلِّ الدَّوافِعِ التي خَلقَها اللَّـهُ ، لا تُكبَتُ ، ولَا تُعطَّلُ ، ولا يُغلَقُ الطَّرِيقُ دُونَها : «..**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ!!**» ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّـهِ! أيَأتِي أحَدُنا شَهوَته ويَكُونُ لَه فيها أَجرٌ؟! قَالَ ﷺ : «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**» (٢) .

فالارتِواءُ العاطِفِيُّ وعُنفُ الحُبِّ قُربَىٰ وزُلفَىٰ من اللَّـهِ ، والخلوَةُ تَتمُّ بِسترٍ من اللَّـهِ ، وثَمرَةُ اللِّقَاءِ مُبارَكَةٌ طَيِّـبَةٌ تَرعَاها وتَكلَؤُها عَينُ اللَّـهِ ورِعَايَتُه (٣) .

فالحُبُّ في الإِسلَامِ يَختَلفُ عن أيِّ حُبٍّ ، فهُو حُبٌّ يَتحَلَّىٰ بالالتِزامِ والإِخلَاص والحَياءِ الفِطرِيِّ ، لِذَا قَالَ ﷺ : «**لَـمْ نَرَ لِلْمُتَحَابِّينَ مِثْلَ النِّكَاحِ**» (٤) ، وما ذَاكَ إِلَّا حِفاظاً عَلَىٰ قُدسِـيَّةِ الحُبِّ ، كَي لا يَكُونَ نَزوَةً عابِرَةً سَهلَةَ المَنالِ سَهلَةَ الانقِطَاعِ ، تَبُوءُ بالإِثم والأَلَـم والتَّبعاتِ ، ولا يُصبِحُ زَبَداً رَابياً يَذهَبُ جُفاءً ، فكَانَ هَذا المِيثَاقُ الغَلِيظُ «الزَّوَاجُ» سِياجاً يَصُونُ الحُبَّ .

---

(١) انظر : «الطبقات الكبرىٰ» ، لابن سعد ، مرجع سابق ، ج١ ، ذكر ما حُبِّب إلى الرسُولِ ﷺ من النساء والطيب ، ص ٣٤٢ ، وانظر أيضاً : «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ» ، للقاضي عياض اليحصبي ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٢) رواه مسلم ، ج٢ ، كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ، ص ٦٩٧ـ٦٩٨ ، رقم الحديث : ١٠٠٦ .

(٣) «إليك أيتها الفتاة المسلمة» ، مرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٤) «سنن ابن ماجة» ، محمد بن يزيد القزويني أبوعبد اللَّـه بن ماجة ، المحقق : فؤاد عبدالباقي ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، ١/ ٥٩٣ ، رقم الحديث : ١٨٤٧ .

كَما أنَّ الحُبَّ في الإسلَام يتَّسِمُ أيضاً بالإيجابيَّة والبُعدِ عن السَّطحِيَّة ، فليسَ شَرطاً أنْ تُحِبَّ المَظهَرَ الجَميلَ ، ولَكِنْ حَتْماً أنْ تُحِبَّ الرُّوحَ الأَخَّاذَة ، والذَّاتَ الرَّائعَةَ الخَـلَّابَة . ففي حَديثِ الأُلفَةِ والمحبَّـةِ وتَناسُبِ الأَروَاحِ يَقُولُ ﷺ : «**الأَرْوَاحُ جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَـا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، ومَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**» (١) .

أي ما يُسَمَّىٰ في عَصرِنا الحالي التَّوافُق النَّفسي أو التَّجاذُب بَينَ الأشبَاهِ .

وقد أَوْلَىٰ الرَّسُولُ ﷺ عِنايَةً خَاصَّةً أيضاً بالحُبِّ بَينَ الأَزوَاجِ وحَقِّه في أنْ يَكُونَ الرَّابطُ الأَسَاسيُّ لبيتِ الزَّوجيَّة ، وقِصَّةُ (بَريرَة) خَيرُ مِثالٍ لذَلكَ : (بَريرَة) الأَمَةُ المَملُوكَة ، التي زَوَّجها سَيِّدُها من عَبدٍ رَقيقٍ يُدعَىٰ (مُغيثاً) ، فلَمَّـا اشتَرتْها (عائشَةُ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأعتَقَتها صَارَ من حَقِّها فَسخُ عَقدِ الزَّواجِ أو إقرارُه ، وقد اختارَت (بَريرَةُ) الفَسخَ ، ولكنَّ الزَّوجَ يُحِبُّها بلْ ويَعشَقُها ، قَالَ ابنُ عَـبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : كَأنِّي أنظُرُ إلَيه يَطُوفُ خَلفَها يَبكِي ودُمُوعُه تَسيلُ عَلَىٰ لِحيَتِه .

وقد قَالَ النَّبيُّ ﷺ في ذَلكَ : «**يَا عَـبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ ، وَبُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً؟**» ، فتَوسَّطَ النَّبيُّ ﷺ عِندَ (بَريرَة) رَأفَةً وشَفَقَةً بحَالِ العَاشِقِ ، قَائلاً لها : «**لَوْ رَاجَعْتِهِ!**» قَالَت : يَارَسُولَ اللَّـهِ أتَأمُرُني؟ قَالَ : «**إِنَّمَـا أَشْفَعُ**» ، قَالَت : فَلا حَاجَةَ لي فيهِ (٢) .

فأيُّ سَماحَةٍ في هذه الشَّفاعَة ، وأيُّ سَماحَةٍ في تَقبُّـلِ رَدِّها! وأيُّ قَرارٍ خَطيرٍ اتَّخَـذَ

(١) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ٤٠١ ، باب الأرواح جنود مجندة ، ص ٤٩٧ ، رقم الحديث : ٩٠٠ ـ ٩٠١ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الطلاق ، باب خيار الأمة تحت العبد وباب شفاعة النَّبيِّ ﷺ في زوج بريرة ، ص ٩٧٠ ، رقم الحديث : ٥٢٨٠ ـ ٥٢٨١ ـ ٥٢٨٢ ـ ٥٢٨٣ .

بأناةٍ حِينَ اعترَفَ بحَقِّ القَلبِ في السِّيادَةِ والاخْتيارِ ، وقدَّمه على حَقِّ الشَّفاعَة ، وشَفاعَةُ مَنْ؟ شَفاعَةُ مَنْ لا تُرَدُّ شَفاعَتُه ، ولكنَّها الأَرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَة [١] .

حَتَّىٰ المُبالَغَة في المَشاعر حُبّاً وبُغضاً لها سَندٌ في الشَّريعَة الغَرَّاءِ ، فقَد رُويَ عن الإمَام عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقُوفاً أنَّه قَالَ : «**أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمَاً مَا ، وأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا**» [٢] .

وتَأكيداً عَلَىٰ أَهَميَّة الحُبِّ وخُطُورَة غِيابه جَعلَهُ مِفتَاحاً لِدُخُولِ الجَنَّة كَما وَردَ مَعنا سَابقاً الحَديثُ : «**لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**» [٣] .

وفي حَنينِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبَطحَاء مَكَّةَ وحِجارَتِها مع أَنَّها من الجَمادَاتِ ، مِثالٌ حَيٌّ عَلَىٰ الحُبِّ الكَبيرِ الذي يَحمِلُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَينَ جَوانِحه ، ففَاضَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ حَولَه : «**وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيرُ أَرضِ اللَّهِ ، وأَحَبُّ أَرضِ اللَّهِ إِلَىٰ اللَّهِ ، ولَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**» [٤] .

بَلْ إِنَّ في تَقرُّبِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ اللَّه وعِبادَتِه دُعاءُه الخَالِصُ للَّهِ : «**اللَّهُمَّ إِنِّي**

---

(١) عالم المعرفة ، «الحب في التراث العربي» ، العدد : ٣٤ ، د. محمد حسن عبد اللّه ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب أحبب حبيبك هوناً ما ، ص ٧٣٧ ، برقم ١٣٢١ ، وقد ذكر : أن الإمام أحمد أخرجه في فضائل الصحابة (٤٨٤) ، والبيهقي في الشُّعَب (٦٥٩٣) وغيرهم عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَوقُوفاً .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) «سنن الترمذي» ، الجامع الكبير ، ط١ ، سنة النشر ١٩٩٦م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، حققه وخرجه : د. بشار عواد معروف ، المجلد ٦ ، حديث فضل مكة : أبواب المناقب ، باب فضل مكة ، ص ٢٠٧ ، رقم الحديث : ٣٩٢٥ ، وانظر أيضاً : خاتم النبيين ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، الجزء الأول ، ص ٥١٧ .

أَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ، والعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وأَهْلِي ، ومِنْ الـمَاءِ البَارِدِ» [(١)] .

وهذا تأكيدٌ عَلَىٰ تَحقيقِ العُبودِيَّة التي هي قِمَّةُ وذِروَةُ الحُبِّ للَّـهِ .

من هُنا يَتبيَّنُ لنا أنَّ الحُبَّ في الإسلام بمَفهُومِه الأصيل مُرتَبطٌ به ارتِباطَ الثَّمرَةِ بالشَّجرَةِ ، وارتِباطَ الفَرعِ بالأَصلِ ، ومُلازِمٌ له مُلازَمَةَ الظِّلِّ للشَّيءِ ، فهُو جُزءٌ لا يَتجزَّأ منه ولا يُفارِقُه ما لَـمْ تُحدِثْ هذه الأُمَّةُ في أمرِها شَيئاً تَستوجِبُ بسَبَبِه أنْ تَتحوَّلَ عَنها نِعمَةُ الحُبِّ تِلكَ ، فيُسَلِّطُ اللَّـهُ عَلَيها العَداوَةَ والبَغضَاءَ عُقُوبَةً ، فالحِرمانُ من الحُبِّ وغِيابِه تَهديدٌ إلـٰهيٌّ لِـمَنْ يُخالِفُ أَمرَه سُبْحانَهُ ، كَما حَدَّثَنا القُرآنُ الكَريمُ في ذَلكَ عَن النَّصارَىٰ وغَيرِهم من الأُمَمِ ، ومَنْ يَقتَدِي بِهِم ، كَيفَ كَانَ عِقابُهُم بأَنْ سُلِبُوا هَذه النِّعمَة العَظِيمَة لإدْبارِهم وتَنكُّبِهم عن الصِّراطِ المُستَقيم [(٢)] ، قَالَ تعالَىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [(٣)] .

فقَد جَعلَ سُبحانَهُ الحُبَّ قَائماً بَينَ أفرادِ هذه الأُمَّة ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [(٤)] ، وفي آيَةٍ أُخرَىٰ قَالَ تَعالَىٰ : ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [(٥)] ، والأُخُوَّةُ مَحـبَّةٌ وتَعاضُدٌ .

---

(١) «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين» ، مرجع سابق ، ص ٥٨٨ ، رقم ١٤٨٨ ، رواه الترمذي في كتاب الدعوات .

(٢) «رياض أنسنا في زهراء حبنا» ، محمود فؤاد الطباخ ، مرجع سابق ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ١٤ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية : ٦٣ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

الإسـلَامُ والحُبُّ المُعَـاصِر

أمَّا مَفهُومُ الحُبِّ في العَصرِ الحَديثِ فهُو لا يُعبِّرُ بصِدقٍ عن هَذه العاطِفَة النَّبيلَةِ الكَريمَةِ ، فقَد ظُلِمَ وضُيِّعَ وأُسِيءَ استِخدامُه ، فكَانَ بَينَ إفْراطٍ وتَفريطٍ ، ذَلكَ أنَّ الصُّورَ الشَّائعَةَ من الغَربِ تَعتَمدُ إطْلَاقَه بِلَا قُـيُودٍ ولا ضَوابِطَ ، وتَجعَلُه مُرتَبطاً بالمَصلَحَةِ والـمَادَّةِ ، وذَاكَ هُو الإفْراطُ . فغَدا سِلعَةً بَخسَةً مَعرُوضَةً في أرخَصِ الأسْوَاقِ من قِبَلِ أَصحابِ النُّفُوسِ المَريضَةِ ، لتَخدِمَ أغْراضاً دَنيئَةً وأهْوَاء مَريضَة ، لَيسَ فيه مِيزَانٌ لدِينٍ أو خُلُقٍ أو مَبدَأٍ أو فِطرَةٍ سَوِيَّةٍ ، مَملُوءٌ بالفِسقِ والمُجُونِ والخَلاعَةِ ، بَعيدٌ عن البَراءَةِ والطُّهرِ ، مُتحَلِّلٌ من كَثيرٍ من القِيَم ، ويَمسُّ الفِطرَةَ النَّظيفَةَ العَفيفَةَ ، ويُصَوِّرُها قُـيُوداً تَحدُّ من الإباحِـيَّة البَهيمِـيَّةَ المُنتَشِرَة .

فكَانَت الإساءَةُ إلَىٰ هذا المَعنَىٰ الرَّاقِي «الحُبِّ» حِينَ استُعمِلَ لغَيرِ مَا خُلِقَ لَه ، فأدَّىٰ ذَلكَ في كَثيرٍ من الأَحيانِ إلَىٰ تَناسِيهِ والتَّفريطِ فيه . وبَاتَ ذِكرُ الحُبِّ عِندَ بَعضٍ من دُعَاةِ الفَضيلَةِ لا يَعنِي إلَّا ذَاكَ المَفهُومَ الخَاطِئَ الوَضِيعَ ، بَلْ وغَدا يُخجَلُ من ذِكرِ اسْمِه ، وكَأنَّه مَنقَصَةٌ ومَذَمَّةٌ ، وضَعَةٌ ومَذَلَّـةٌ ، فغَابَ ذِكرُه عن البُيُوتِ . وهَـٰذا خَطأٌ جَسيمٌ ، وابتِعَادٌ عن الصَّوابِ ، لأنَّنا لَوْ نَظَرنا إلَىٰ حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ وتَعامُله الكَريم ، لَعَلِمْنا أنَّ الحُبَّ من شِيَم الكَمالِ ، فلَمْ يَخْلُ يَوماً نَهجُهُ من الحُبِّ والحَنانِ ، والمَشَاعِرِ الإنسَانيَّـة ـ كَما سَيمُرُّ مَعنا

لاحِقاً ـ قَوْلاً وفِعْلاً ، سَواءٌ في بَيتِه أو مُحيطِه . بحُـبِّهِ الشَّديدِ وتَوَدُّدِه لعَائشَةَ ، وحَنانِه ورِقَّـتِه لأوْلادِه وأحْفَادِه ، وحَفاوَتِه وإكْرَامِه وحُـبِّه لأصْحابِه ، بَلْ حَتَّىٰ مَع مَنْ هُو لَيسَ للحُبِّ أهْلٌ .

فَعِندَما اخْتَفىٰ الحُبُّ من حَياةِ أُولئِكَ اخْتَفىٰ دَورُهُ الفَعَّالُ بَينَ الأزْوَاجِ في الحَياةِ الزَّوجِـيَّة والحَياةِ الأُسَريَّة ، وبَينَ الآبَاءِ والأبْنَـاءِ . وهَـٰذا الغِيَابُ أثَّر عَلَىٰ تِلكَ البُـيُوتِ المُسلِمَة وأَحدَثَ فيها هِزَّةً من الدَّاخِلِ ، بجَفافِ هَـٰذا المَنبَعِ ، ممَّا أدَّىٰ إلَىٰ الجَفاءِ في العَلاقَاتِ بَينَ الأزْوَاجِ و بَينَ الآبَاءِ والأبْناءِ ، وأصْبحَ كَثيرٌ من البُيُوتِ خَاويَةً عَلَىٰ عُرُوشِها ، وغَدَت العَلاقَةُ التي تجمَعُ بين الأفرادِ مُمِلَّةً جَافَّةً ، خَالِيَةً من المَشَاعِرِ .

إنَّ هَـٰذا المَفهُومَ لَـمْ يُحسِنْ استِخدامَه الكَثيرُ مِنْ أهْلِ الفَضيلَة ، فسَـارَعَ استِخدامَه دُعَاةُ السُّوءِ والرَّذيلَة . الأمْرُ الذي دَفعَ شَريحَـةً واسعَةً من المُجتَمعِ للبَحثِ عَن نِداءِ الفِطرَةِ الطَّبيعِيَّة وبَريقِ هَـٰذه الكَلمَة من البيئاتِ المُلَوَّثَة والأماكِنِ المَوْبُوءَةِ ، بنَعيقِ كُلِّ ناعِقٍ من المُزَيِّنينَ والمُستَغِلِّينَ لذَلكَ الفَراغِ العَاطِفيِّ والحاجَةِ الفِطريَّة المُلِحَّـة .

صُوَرٌ من الحُبِّ الفَاسِـد

من أشكَالِ الغَوْغائيَّـة التي اقتَحمَت الحُبَّ في عَصرِنا ، ما يُسَمَّىٰ عِيدَ الحُبِّ (فَلنتَاين) ، الذي هو رَمزٌ لفَسادِ الحُبِّ والعِشقِ ، وانحِرافِه عن مَسارِه الصَّحيحِ ، وسَببُ ذَلكَ هُو الخُوَاءُ العاطِفيُّ والرُّوحِيُّ الذي يَعيشُهُ أُولئِكَ .

إنَّ الحُبَّ موجُودٌ مَع وُجُودِ الإنسَانِ بنوْعَيه الفَاسِدِ والصَّالِح ، ولَكنَّ الفَاسِدَ منه في العَصرِ الحَديثِ شَاعَ وانتَشرَ ، وبَدأ يَزحَفُ من المُجتَمعاتِ اللَّادينيَّة إلىٰ المُجتَمعاتِ التي ابتَعدَت عن المَنهَجِ الرَّبَّانيِّ ، وإلىٰ النُّفُوسِ الضَّعيفَةِ . وقد ذَكرَ القُرآنُ الكَريمُ صُوَراً مُتنوِّعَة من أنواعِ هَـٰذا الفَسادِ في الحُبِّ :

حُبُّ النَّفسِ ـ الحُبُّ الفِرعَونيُّ النَّرجَسيُّ ـ والذي يتَّصِفُ بحُبِّ الذَّاتِ والتَّكبُّرِ عَلَىٰ الحَقِّ : ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [1] ، ويتَّسِمُ بالأنانيَّةِ والعَنجَهِيَّة والتَّضلِيلِ : ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [2] . والمَنِّ والأذىٰ وطَلبِ المُقابِلِ : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [3] . فهَـٰذا حُبٌّ طَاغٍ ، أَوْدَىٰ بهَلاكِ مُجتَمعٍ بأكمَلِه ، المُجتَمعُ الفِرْعَونيِّ الذي أطَاعَ فِرْعَوْنَ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ [4] .

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٥٢ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٥١ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية : ١٨ .

(٤) سورة طه ، الآية : ٧٩ .

والحُبُّ غيرُ الشَّرعيِّ الذي زَيَّنَـه الشَّيطانُ لامْرأةِ العَزيزِ تجاهَ النَّبيِّ يُوسُفَ عليه السلام ، وقد صَوَّرَ القُرآنُ الكَريمُ لنَا ذَلكَ بدِقَّةٍ ، صُورَةَ الشَّابِّ الوَسيمِ العَفيفِ الذي يتَعرَّضُ للإغْوَاءِ من ذَاتِ مَنصِبٍ وجَمالٍ ، فيَستَعصِمُ ويَقُولُ إنِّي أخَافُ اللّـهَ ، فيُعاقَبُ مَظلُوماً ، ويَصبِرُ إلَىٰ أنْ تَظهَرَ بَراءَتُه وعِفَّـتُه ، ويَظهَرَ مَعها حِفظُهُ وعِلمُه [1] .

وأيضاً من الأمثِلَةِ الأُخرَىٰ للحُبِّ الفاسِدِ تِلكَ العَلاقَةُ الشَّاذَّةُ التي تَعافُها الفِطرَةُ السَّويَّةُ ، ما يُسَمَّىٰ في عَصرِنا الحَالي (العَلاقَةُ المِثْلِـيَّة) ، فتَمَّ تَدنيسُ الحُبِّ بهَـٰذا الشُّذُوذِ . وذَكرَ لنا سُبحانَهُ مِثالاً في ذَلكَ عن قَومِ لُوطٍ ، وكَيفَ أنَّه عَاقَبَهُم بأنْ أنْزَلَ العَذابَ بقَريَتِهِم ، وجَعلَ عَالِيَها سَافِلَها .

(١) «الحب في التراث العربي» ، مرجع سابق ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

الإسلامُ يُهـذِّبُ الحُبَّ

إنَّ الإسلامَ يُهذِّبُ الحُبَّ ، ويُوجِّهُه للفِطرَةِ السَّويَّة ، فِطرَةَ اللَّـهِ التي فَطرَ النَّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لخَلقِ اللَّـهِ ، بَلْ ويَحُثُّ عَليه ـ كَما رَأينا سَابقاً ـ ويَجعَلُه عِبادَةً يَتقرَّبُ فيها المُسلِمُ إلَىٰ ربِّه ، لِيَكُونَ الحُبُّ طَاهِراً مُثمِراً مُستَظِلاً في وَاحَةِ الإسلام ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (١) . ولَكنَّه يَرفَعُ من مُستَوىٰ هَـٰذه العاطِفَة ، ليَكُونَ أداؤُها عَلَىٰ طَريقَةِ الإنسَانِ ، لا عَلَىٰ طَريقَةِ الحيَوانِ . يَقُومُ بهَا كَيانُ الإنْسانِ كُلُّه بما فيه من عَواطِفَ وأفْكَارَ ومشَاعِرِ وإشْراقَاتٍ رُوحِيَّة ، لتَكُونَ الطَّاقَةُ في مُستَواهَا الأعلَىٰ التي يَتحَقَّقُ بها خَيرُ الفَردِ والمُجتَمَعِ كُلِّه (٢) .

ولَكنْ إنْ خَلَت الرُّوحُ من حُبِّ اللَّـهِ ، وخَلَت النُّفوسُ من الحُبِّ السَّويِّ ، ودُنِّست الفِطرَةُ ولُوِّثَت ، انحَرفَ الحُبُّ عن مَنهَجِه القَويمِ وأصبَحَ وَباءً يَفتِكُ بصَاحِبِه والمُجتَمَعِ بأسْرِه .

فالحُبُّ في الإسلَامِ عاطِفَةٌ جَيَّاشَةٌ وعَلاقَةٌ رائعَةٌ مُستَمرَّةٌ ، ولَه مَعانٍ واسِعَة غَنيَّـة وثَريَّة ، وألْوان جَميلَة مُتعَدِّدَة : بَينَ العَبدِ وربِّه ، وبَينَ الفَردِ وأهْلِه ، وبَينَ المُسلِمينَ في المُجتَمَعِ الإسلَاميِّ ، وفي العَلاقَاتِ الإنسَانيَّـة في المُجتَمَعِ الإنسَانيِّ ، إذ أنَّه لا يَعتَمِدُ عَلَىٰ البُعدِ المَادِّيِّ فقط ، بلْ عَلَىٰ

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .

(٢) «منهج التربية الإسلامية» ، محمد قطب ، ٢/ ٢١٩ .

التَّضحِيَةِ والعَطَاءِ دُونَ انتِظارِ رَدٍّ أو مُقابِلٍ . وهَـٰذا ما جَسَّدَتهُ لنا السِّيرَةُ العَطِرَةُ من حُبِّ الرَّسُولِ ﷺ ، وعُبودِيَّتِه لرَبِّه بقَولِه : «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا!!**»[1] .

وهَـٰذا خِلَافٌ للحُبِّ بمَفهُومِه المَادِّيِّ البَحْت في المادِّيَّـة المُعاصِرَة ، فَهو ضَعيفٌ هَزيلٌ مُرتَبطٌ بأسبابٍ مَادِّيَّة يَزُولُ بزَوالِها ؛ لأَنَّه قائمٌ عَلَىٰ المادِّيَّـة البَحتَة من شَهَواتٍ للمَالِ والجنسِ ، حَيثُ غَلبَت عَلَيه الأنانيَّةُ والمَصلَحَةُ الفَرديَّة ، وحُبُّ الشَّهَواتِ وجَعْلُها غَايَةً . ممَّا أدَّىٰ إلَىٰ انْحِطاطِ هَـٰذا المَفهُومِ الفِطرِيِّ الجَميلِ المَقرُونِ بالإخْلَاصِ والإيثَارِ . فابتَعدَ المُجتَمَعُ المَادِّيُّ عن السَّعادَةِ والسَّكينَةِ والاستِقرَارِ .

والإسلَامُ لا يُنكِرُ هَذه الشَّهَواتِ .. بلْ يُؤكِّدُ أنَّها مَغرُوسَةٌ في أَصلِ الفِطرَةِ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ** ﴾[2] .

وهَذه الآيَةُ الكَريمَةُ تُوضِّحُ لنَا أنَّ هُناكَ مَيلاً فِطْريًّا طَبيعيًّا ، وحُـبًّا للارتِباطِ بَينَ الجِنسَينِ ، وللإنْجابِ ، وللمَالِ بأنْواعِه ، وللمَراكِبِ المُتنوِّعَةِ (كالسَّـيَّاراتِ) في عَصرِنا ، وللأَرَاضي والمزَارعِ ..

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الرقاق ، باب الصبر عن محارم اللّـه ، ص ١١٥٦ ، رقم الحديث : ٦٤٧١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤ .

ولَكنْ هَلْ يَكُونُ هَذا المَيلُ هُو غَايَتُنا في الحَياةِ ، نَسكُنُ إِلَيهِ ونَقِفُ عِندَهُ؟ أو لَيسَ إلَّا لإمْتاعِ النَّفسِ وإِشْبَاعِ الغَريزَة؟

إنَّ الإنسانَ يَدُورُ في فَلَكِ هذه الشَّهَواتِ الدُّنيويَّة المُباحَة ، ولَكنْ هَذه الدُّنْيا لَيسَت دَارَ قَرارٍ ، وإنَّما محطَّةٌ للوُصُولِ إِلَىٰ دَارِ الاستِقرارِ . وذَاكَ المَيلُ وتِلك المحبَّـةُ امتِحانٌ ، فإمَّا أنْ تُوظَّفَ في خَيرٍ وتكُون وَسيلَةً لغَايَةٍ سامِيَةٍ ، فتَرقَىٰ به إِلَىٰ أعلَىٰ عِليِّين . أو تُوظَّفَ في الشَّرِّ وتكُون غَايَةً يَعيشُ لأجْلِها تُبرِّرُها أيَّ وَسيلَةٍ ، وتَطغَىٰ عَليها الأنانيَةُ والمَصلحَةُ الفَرديَّة فتَهْوي به إِلَىٰ أسفَلِ سَافِلِينَ .

إنَّ المَيلَ الذي أَودَعَه اللَّـهُ فينا لهذه الشَّهَواتِ ما أَودعَه إلَّا لنَرقَىٰ به إليه عَزَّ وجَلَّ ، ونَتعامَلُ مع هَذه الشَّهَواتِ تَعامُلَ المُستَخدِمِ لا تَعامُلَ العَاشِقِ ، يَتعدَّىٰ نَفعُ الفَردِ لخِدمَةِ الأُمَّـة وإنْشَـاءِ حَضارَةٍ والنُّهُوضِ بها ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (١) ، فإنْ كَانَ هَدفُه ذَلكَ فَهي عِبادَةٌ يُثَابُ عَلَيها. وقد زَجرَ القُرآنُ الكَريمُ ونَهَىٰ عَن هَذه المُيُولِ السَّلبيَّة والتَّعلُّقِ المادِّيِّ والرُّكُونِ إِلَىٰ مَتاعِ الدُّنيا بقَولِه سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ : ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (٢) .

(١) سورة هود ، الآية : ٦١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٢٤ .

فالحُبُّ في الإسلام قَائمٌ ما قَامَت الدُّنيا لا نِهايَةَ لَه ، ويَدُومُ حَتَّىٰ بانقِطَاع الأسبَابِ المادِّيَّة بلْ ويَترسَّخُ مَع مُرورِ الزَّمَنِ ، لأنَّه باقٍ ببَقاءِ الإيمانِ والصِّلَةِ باللَّـهِ ، الإيمانُ الذي يُعطِي العَزيمَةَ والصَّبرَ والمُثابرَةَ ، ويَشحَذُ الهِمَمَ لتَجديدِ أوَاصِر الحُبِّ الفِطريِّ السَّويِّ بينَ أطرَافِه المُختَلِفَة في المُجتَمَعِ الإنْسانيِّ .

وهَـٰذا التَّوجِيهُ يُؤدِّي إلَىٰ إيجادِ الشَّخصيَّة المُتوازنَة التي تَسعَىٰ لتَحقيقِ الخِلافَةِ في الأرْض ، مُستَفيدَةً ممَّا سَخَّرَهُ اللَّـهُ لها في هَـٰذا الكَونِ ، ضِمنَ مَفهُوم تَعبُّديٍّ خاضِعٍ للَّـهِ ـ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ ـ ممَّا يُؤدِّي إلَىٰ إصْلاح الفَردِ من دَاخِلِ ذاته ، وإعادَةِ بنائِه من صَميم وِجدَانِه تَطبيقاً لقَوْلِه عَزَّ وجَلَّ : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (١) . وقَولُ الرَّسُولِ ﷺ : «**لَيْسَ بخَيْرِكُمْ مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ ، ولَا آخِرَتَهُ لدُنْيَاهُ حَتَّىٰ يُصِيبَ مِنْهُمَا جَمِيعاً ، فَإِنَّ الدُّنْيَا بَلَاغٌ إِلَىٰ الآخِرَةِ ولا تَكُونُوا كَلًّا عَلَىٰ النَّاسِ**» (٢) .

وذَلكَ لتَحقيقِ المَفهُومِ الكَاملِ للعُبوديَّة (٣) .

فالحُبُّ من المَشَاعِرِ الفِطريَّة المُتأصِّلَةِ في كَيانِ الإنسَانِ ، لا انْفِكَاكَ مِنهُ ولا غِنَىٰ عَنهُ (٤) .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٧ .

(٢) «فيض القدير شرح الجامع الصغير» ، العلامة المناوي ، ط٢ ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ـ لبنان ، ٥/ ٣٦٤ ، رقم الحديث : ٥٧٩٤ .

(٣) «أهداف التربية الإسلامية وغايتها» ، د. رياض جنزرلي ، جدة ، الدار السعودية للنشر ، ط١ : ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ، ص ٢٨ .

(٤) «الإسلام والحب» ، د عبد اللَّـه ناصح علوان ، مرجع سابق ، ص ٧ .

الحُبُّ الأَصِيلُ المُعاصِر

ونَحنُ إذ نُؤكِّدُ عَلَىٰ تَأصيلِ الحُبِّ من القُرآنِ والسُّـنَّة حِفاظاً عَلَىٰ يَنبُوعِه الصَّافي حَتَّىٰ لا يَختلِطَ بأوْشَابِ الغَربِ المُعاصِر . الذي غَيَّر وحَرَّفَ وبَدَّلَ ، وشَوَّهَ المَعاييرَ الثَّابتَة للحُبِّ في الإسلام ، وجَعلَ منها زَمَناً غَابراً وعُصُوراً جامِدَةً لا بُدَّ من تَحديثِها . ونَظرَ للحُبِّ نَظرَةً ساقَتهُ إلَىٰ التَّغييرِ الكَامِلِ للفِطرَةِ الصَّحيحَةِ .

الأمرَ الذي يُحتِّمُ عَلَينا في هَذا العَصرِ ـ ويُعَدُّ ذَلكَ وَاجباً شَرعِيَّـاً للارتِقَاءِ ـ أنْ نُكامِلَ بَينَ الأصَالَةِ والمُعاصَرَةِ لِـمَفهُوم الحُبِّ . وذَلكَ من خِلَالِ رُؤيَةٍ جَديدَةٍ ، أو مَا يُسَمَّىٰ بالفِكْرِ التَّجديدِيِّ . ويَشمَلُ : «تَجديدَ الفَهمِ والفِقهِ فيه ، وهَذا هُو التَّجديدُ الفِكريُّ ، وتَجديدَ الإيمانِ وهُو التَّجديدُ الرُّوحِيُّ ، وتَجديدَ العَمَلِ والدَّعوَةِ وهو التَّجديدُ العَمليُّ» (١) .

وذَلكَ بأنْ نُعيدَ اليَومَ للحُبِّ مَعناهُ الصَّحيح الذي عاشَه رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ في بَيتِه ومُجتَمعِه ، وانتهَجه في سُلوكِه التَّربَويِّ . ورَبَّىٰ عَليه الرَّعيلَ الأوَّلَ بمَفهُوم يَتلاءَمُ مَع جَميع العُصُورِ ، ولا يَتعارَضُ مع مَنهَج الإسلام في الحُبِّ . تَحقيقاً لقَولِه ﷺ : **«الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»** (٢) .

(١) «منهجية التربية الدعوية» ، محمد أحمد الراشد ، دار المحراب للنشر والتوزيع ، فان كوفر ـ كندا ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ط٣ ، ص ١٥٥ .

(٢) «الجامع الكبير» ، للترمذي ، مرجع سابق ، المجلد الرابع ، أبواب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، ص ٤١٧ ، رقم الحديث : ٢٦٨٧ .

وذَلكَ من خِلَالِ الاستِفَادَة من أحدَثِ النَّظريَّاتِ النَّفسِـيَّة والتَّربَويَّة، التي تُفعِّلُ الحُبَّ في التَّعامُلِ والتَّربيَةِ والإصلَاحِ السُّلُوكِيِّ، ونُسَمِّيه (الحُبَّ الأَصِيلَ المُعاصر)، شَجرَةٌ طَيِّـبَةٌ أصْلُهَا ثَابِتٌ (الأصَالَةِ) وفَرعُهَا في السَّماءِ (المُعاصَرَة)، تُؤتي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بإذْنِ رَبِّها.

فالحُبُّ الذي يَجمَعُ بينَ الفِطرَةِ السَّويَّة وتَطويرِ العَوامِلِ المُساعِدَة يَكُونُ مَنهَجاً حَضاريَّاً ثَريَّاً مُتميِّزاً. ثم نَدفَعُ بهَذا المَنهَجِ ليَشُـقَّ طَريقَهُ المُمَـيَّز عن سَـائرِ الطُّرُقِ في وَقتِـنا المُعاصر، ليَرفَعَ من مُستَوىٰ التَّعامُل والذَّوْقِ والإصْلَاحِ والحَياةِ، وهـٰذا ما يَنفَعُ النَّاسَ والمُجتَمَع.

الفصل الثاني

أشكالُ ومَهاراتُ الحُبِّ في التَّربيَةِ النَّبويَّةِ

تَمهـــــيد .

نَعيمُ الحُبِّ في رَوْضَةِ الحَبيبِ المُصطَفى ﷺ .

المَبْحَثُ الأوَّلُ : صُورٌ من التَّربيَةِ بالحُبِّ في حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ ، (وفيه ثَمان مَطالِب) .

المَبَحثُ الثَّـانيُ : مَهارَاتُ التَّربيَةِ بالحُبِّ وفَنُّ التَّخاطُبِ وِفْقَ الهَدي النَّبويِّ ، (وفيه تِسْعُ مَطالِب) .

تَـمـهـيـد

كَانَ الحُبُّ في حياة الرَّسُولِ ﷺ قاعِدةً راسِخةً وسُلُوكاً ثابتاً أصيلاً مَمزُوجاً بطَبيعَتِه، مُتأصِّلاً في فِطرَته، مُلازِماً له في عِبادَتِه وخُلُقِه وسُلُوكِه، وأدَبِه وشَمائِله، فهُو سِمَةٌ بارِزَةٌ في حَياتِه الخاصَّة والعامَّة وفي السِّلم والحَربِ. فكَانَ ﷺ واحَةً وارِفَةً تَتفَجَّرُ عطفاً وحَناناً، ورَحمَةً ووُداً ورِقَّةً. تَسري رُوحُه في كُلِّ شَيء حَولَه، فأحَالَ صَحارَىٰ القُلُوبِ إلَىٰ جِنانٍ تَفيضُ بالحُبِّ والحَنانِ.

وقَبلَ أنْ نَستَقِي صُوَراً من ذَاكَ المَنهَلِ العَذبِ، ونَعيش مع هَديِه ﷺ وتَأصِيلِه للحُبِّ في مَنهَجِه التَّربَويِّ، لا بُدَّ لنَا من وَقَفاتٍ نَتحَدَّثُ فيها عن واقعِ الحُبِّ في حَياتِه ﷺ وكَيفَ كَانَ.

نَعيمُ الحُبِّ في رَوْضَةِ الحَبيبِ المُصطَفىٰ ﷺ

الحُبُّ في حَياةِ سَيِّدِ البَشَرِيَّة إحسَاسٌ صَادِقٌ ، ومَشَاعِرُ فَـيَّاضَة ، ورَحمَةٌ دَائِمَة وعَطفٌ شَامِلٌ ، وعَطاءٌ مُتدَفِّقٌ ، وشَبابٌ مُتجَدِّدٌ لا يَعرِفُ الهَرَمَ ، وشِفَاءٌ وصَفاءٌ ، ورِقَّـةٌ ونَقَـاءٌ ، يَبذُلُه ﷺ بسَخاءٍ .

أحبَّ اللَّـهَ فعَبدَهُ فكَانَ سَـيِّدَ العَابِدينَ ، يُؤدِّي عِبادَتَه عَلَىٰ أكمَلِ وَجْه ، تَأديَةَ مُحبٍّ مَفطُورٍ لا مُكلَّفٌ مَأمُورٌ ، وفي مُناجَاتِه يُسمَعُ وَجيبُ قَلبِه ، ونَشيجُ صَدرِه ، وبُكاؤُه وتَضرُّعُه .

فكَانَ طَبعُهُ الأُنسَ باللَّـهِ ، وأُنسُهُ بالخَلقِ عارِضٌ تَرفُّقًا ببَدَنه ﷺ . وكَانَ حُبُّه للَّـهِ يَستَغرِقُه إلَىٰ حَدٍّ كَانَ يَخشَىٰ منه ﷺ ـ في بَعضِ الأحوَالِ ـ أنْ يَسريَ إلَىٰ قَالَبِه فيَهدِمَهُ ، لِذَا كَانَ يَربِتُ بيَدِه عَلَىٰ عائشَةَ ويَقُولُ : «**كَلِّمِينِي يَا عَائِشَةُ**» لتَشغَلَهُ بكَلامِهَا عن عَظيم ما هُو فيه ، لقُصُورِ طاقَةِ قَالَبِه عنه . ثُمَّ إنَّه كَانَ لا يُطيقُ الصَّبرَ مع الخَلقِ إذَا جالَسَهُم ، فإذَا ضَاقَ صَدرُهُ قَالَ لِـمُـؤذِّنه : «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**» . يَنتَظِرُ الصَّلاةَ إلَىٰ الصَّلاةِ ، ليَقِفَ بين يَدَي رَبِّه ويَعُودُ إلَىٰ قُرَّةِ عَينِه [1] .

ومن فَرطِ حُبِّه لرَبِّه أحبَّ الكَونَ وكُلَّ مَخلُوقَاتِ اللَّـهِ التي يَرىٰ فيها جَمالَ الخَالِق ، فأفَاضَ الحُبَّ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ حولَه .

أحبَّ رِسالَتَه فأدَّاها عَلَىٰ أكمَلِ وَجْه . وأرَادَ أنْ يُوحَّدَ اللَّـهُ فلا يُعبدُ سِواهُ ،

(١) «إحياء علوم الدين» ، مرجع سابق ٣/ ١٠٩ .

وأنْ يدخُلَ النَّاسُ في دِينِ اللَّـهِ أفْواجاً . فتحمَّلَ في ذَلكَ الأذَىٰ والسُّخريَةَ والاستِهْزاءَ والتَّكذيبَ لِذَاتِه وشَخصِه ﷺ من بَعضِ السُّفَهاءِ كأبي لَهبٍ وأبي جَهلٍ وعُتبَةَ ابنِ أبي مُعَيط .. وغَيرِهم .

ورغم ذَلكَ ، ظَلَّ المَعينَ الذي يَفيضُ بالحُبِّ الإنسانيِّ والرَّحمَةِ والشَّفقَةِ دفَّاقًا حَتَّىٰ عَلَىٰ مَنْ آذاهُ ، وهو قادِرٌ عَلَىٰ الانتِقام . فقد قَالَ ـ والأمَلُ يملأُ قَلبَه : **«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخرِجَ اللَّـهُ مِنْ أَصْلَابِهِم مَنْ يَعْبُدُ اللَّـهَ عَزَّ وجَلَّ ولَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»** (١) .

وعندما كَسرَ المُشركُونَ رُباعِيَّـتَه ، وشَجُّوا رَأسَه الشَّريفَ تَوَجَّه إلَىٰ رَبِّه يُناجيه : **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»** ، دَعَا لَهم ، وأظهَرَ الرَّحمَةَ والشَّفقَةَ عَلَيهم بقَولِه : **«قَوْمِي»** ، ثم اعتَذرَ من رَبِّه عن جَهلِهِم ، فقَالَ : **«إنَّهم لَا يَعْلَمُونَ»** .

وفي فَتح مَكَّةَ وبعدَ النَّصرِ المُؤزَّرِ والتَّمكِينِ خَطبَهُم قَائلاً : **«لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءِ»** (٢) .

ومِنْ أجْلِ حُبِّه للَّـهِ ونَيلِ رِضَاهُ أحبَّ الخَلقَ فأحْسَنَ إلَيهِم ، وبَرَّهُم ووَدَّهُم ، فالخَلقُ عِيَالُ اللَّـهِ وأحَبُّهُم إلَىٰ اللَّـهِ أحسَنُهُم خُلُقاً وأنفَعُهُم لعِيالِه (٣) .

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب بدء الخلق ، ص ٥٦٩ ، رقم الحديث : ٣٢٣١ .

(٢) القصتين من كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ» ، للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي ، مرجع سابق ، ص ٧٥ ـ ٧٨ .

(٣) حديث : «سَأَلَ أُنَاسٌ مَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللَّـهِ إلَىٰ اللَّـهِ تعالَىٰ؟ قال ﷺ : «أَحْسَنُهُم خُلُقًا» ، وفي رواية أُخرىٰ قالَ ﷺ : «أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» ، «الترغيب والترهيب من الحديث الشريف» للإمام عبد العظيم المُنذِري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، رقم الحديث : ٢٥ ، ص ٣٩٤ ، رقم الحديث ٢٢ .

ومِنْ حُبِّه ﷺ لهم أرَادَ أنْ يُنَجِّيهم من النَّارِ ، وأَرهَقَ نَفسَهُ الشَّريفَةَ في ذَلكَ ، فعَاتبَهُ رَبُّه بقَوْلِه سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾ (١) وفي قَولِه تَعالَىٰ أيضاً ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ ﴾ (٢) .

إنَّه لتَناسُبٌ وتَوافُقٌ في أرقَىٰ مُستوَياتِه بين الرِّسالَةِ والرَّسُولِ ، حَيثُ لا يَتحمَّلُ هَذا العِبْءَ إلَّا مُحِبٌّ ورَؤُوفٌ وشَفيقٌ ورَحيمٌ ، طُبعَ وِجدانُه وذَوقُه عَلَىٰ الحُبِّ ، وصِيغَ قَلبُه الكَبيرُ وجُبلَت فِطرَتُه عَلَيه ؛ لأنَّ الحُبَّ يَأخُذُ بصاحِبِه إلَىٰ تَحمُّلِ أكثرَ الأمُورِ مَشقَّةً وأصعبَها في ابتِهاجٍ وغِبطَةٍ .

ومع أهْلِه ﷺ نَراهُ زَوجاً مُحبّاً وَدُوداً لَطيفَ المَعشَرِ ، يَرأفُ بِهِنَّ ويُحسِنُ إليهِنَّ ، بَسَّاماً ضَحُوكاً ، يُمازِحُهُنَّ ، ويُلاطِفُهُنَّ ، ويُداعِبُهُنَّ ، ويُوسِعُهُنَّ نَفقَتَه ، ويُعِينُهُنَّ في حَوائِجِهِنَّ ، تَلَطُّفاً بِهِنَّ وإيناساً لَـهُنَّ لِكَريمِ عِشرَتِه وعَظيمِ رَأفتِه ورَحمَتِه .

وبِهَـٰذا أخبَرَتنا زَوجُهُ السَّيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنها في مَواقِفَ كَثيرَة ومُتعدِّدَة ، كَيفَ كَانَ يَسمُرُ مَعَها تُحدِّثُه ويُحدِّثُها ، ويُشارِكُها ما تُحِبُّ ، ويَدعُو لها صَديقَاتِها لِيَلعَبْنَ مَعَها (٣) .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٣ .

(٢) سورة فاطر ، الآية : ٨ .

(٣) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب النكاح : باب حسن المعاشرة مع الأهل ، ص ٩٥٣ ، الأحاديث المروية في ذلك ، رقم ٥١٨٩ ، ٥١٩٠ ، وانظر أيضاً : «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها أن الرسول ﷺ في مهنة أهله يكون ، ص ٣٠١ ، رقم الحديث : ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، وحديثها أيضًا رَضِيَ اللهُ عَنها : «كُنْتُ أَلْعَبُ بالبَنَاتِ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَلْعَبْنَ مَعِي ، فَكَانَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ يَنْقَمِعْنَ مِنْهُ ، فَيُسَرِّبُهُنَّ إِلَيَّ فَيَلْعَبْنَ مَعِي» ، ص ٢١٠ ، رقم الحديث : ٣٦٨ .

ونَراهُ أباً مُحبَّاً مَليئاً بالرَّحمَةِ والشَّفقَةِ واللُّطفِ والحَنانِ لأبْنائِه وأحْفادِهِ ومَنْ تبنَّاهُ . ومَنْ ذَا الذي يُحسِنُ لمَوالِيهِ خيراً مِنْ إحسَانِه ﷺ لزَيْدِ بنِ حَارثَة أو ابْنِه أُسامَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؟ فإذَا بَلغَ البرُّ بالضُّعفاءِ من القُوَّةِ مَبلَغَ الحُبِّ الأَبويِّ ، فتِلكَ هي ذَروَةُ الحُبِّ التي لا شَيءَ فَوقَها .

ويَظهَرُ حُبُّهُ للضُّعَفاءِ بخِطابه لخادِمِه إذَا أبطأ ، فكَانَ أقرَبَ إلَىٰ المُلاطَفَةِ والمُمازَحَةِ منه إلَىٰ العِقابِ ، فعِندَما أرسَلَ خادِمَه أنَسـاً في حاجَةٍ ، وانحرَفَ إلَىٰ صِبيَةٍ يَلعَبُونَ ، ما زَادَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ حينَما رَآهُ يَلعَبُ إلَّا أنْ قَبضَ ثيابَه من وَرائِه وهو يَضحَكُ ويَقُولُ له : «**يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**» (١) .

وفي صُحبَتِه لأصحابه يَحرِصُ عَلَىٰ جَبرِ القُلُوبِ ، وتَطييبِ الخَواطِرِ ، وتَوَخِّي المُواسَاةِ ، وتَجنُّبِ الإساءَةِ . يتَفقَّدُهُم كِباراً وصِغاراً ، ويَسألُ عَنهُم ، ويَتحدَّثُ إلَىٰ ذَوي القَدرِ والعَامَّةِ من النَّاسِ ، فَلا يُحِسُّ صَغيرُهُم أنَّ أحَداً أَكرَمَ عَلَيه مِنهُ ، ولا يَشعُرُ كَبيرُهُم أنَّه غَفُلَ عَنهُ .

فكَانَت الآصِرَةُ التي تَجمَعُ بين قَلبِه وتِلكَ القُلُوبِ في نِطَاقِ الأُسرَةِ الإنْسانيَّة الوَاحِدَة : يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَه ، ويَشعُرُ بِهِم ويَشعُرُونَ به (٢) .

وفي الحَربِ ، لا يَغيبُ الحُبُّ أو أثَرُهُ بَينَ صَليلِ السُّيوفِ وصَهيلِ الخُيُولِ ، فهو الذي يُعطي المُؤمنينَ القُوَّةَ ، ويَشحَذُ هِمَمَهُم ، ويُؤَجِّجُ عَواطِفَهُم ، إذْ

---

(١) «صحيح مسلم» ، ج٤ ، كتاب الفضائل : باب كان رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ أَحسَنَ النَّاسِ خُلُقاً ، ص١٨٠٥ ، رقم الحديث : ٢٣١٠ .

(٢) «عبقرية محمَّد» ، عبَّاس محمود العقاد ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ط ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ١٤١ .

يَقُولُ ﷺ : «**لَأُعْطِيَنَّ هَـٰذِهِ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّـهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ**» (١) ، حيثُ لَـمْ يَربطْ ﷺ بينَ مَنْ يُفتحُ عَلَىٰ يَدَيه وشِدَّةِ بَأسِه ، ورِبَاطَةِ جَأشِه ، وقُوَّةِ شَكيمَتِه ، وفُتُـوَّةِ عَزيمَتِه ؛ لأَنَّ ذَلكَ مُندرجٌ تَحتَ مَنْ تَمَّ الفَتحُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، ولكنَّه ﷺ رَبطَ الفَتحَ والنَّصرَ بِالحُبِّ ، حُبِّ اللَّـهِ لِلعَبدِ وحُبِّ العَبدِ للَّـهِ .

الحُبُّ الذي يُمُدُّ صاحِبَه قُـوَّةً وعَزيمَةً ، ويَأخُذُ بيَدِ صاحِبِه ليَختَرِقَ الصِّعَابَ بسُرُورٍ وسَعادَةٍ ، ولا أسمَىٰ ولا أرْقَىٰ مِنْ تِلكَ المَكانَةِ المَرمُوقَةِ «**يُحِبُّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ**» فقَد بَاتَ الجَيشُ بأكمَلِه ـ كُلُّ فَردٍ فيه ـ يَتمَنَّىٰ أنْ يَكُونَ هُو ذَاكَ .

حَتَّىٰ أنَّ عُمرَ بنَ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : «مَا أَحْبَبتُ الإمَارَةَ إلَّا يومَئذٍ! فَتَسَاوَرْتُ (٢) لَـهَا رَجَاءَ أَنْ أُدْعَىٰ لَـهَا» .

فكَانَ عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُو مَنْ حَازَ وفَازَ بهَـٰذا اللَّقَبِ (٣) .

وفي غَزوَةٍ أُخرَىٰ ، وفي تِلكَ المَوَاقِفِ الرَّهِيبَةِ التي يَكادُ المَرءُ يَنسَىٰ فيها أُمَّهُ وأَبَاهُ! لَـمْ يُنسِهِ ﷺ ذَلكَ المَوقِفُ مِنْ أنْ يُصغِيَ لحاضِنَتِه ومُرَبِّيَـتِه أُمِّ أَيمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، ويَعطِفُ عَلَيها لِـحُبِّه لهَا ، فلَطَالَـمَا نَادَاهَا «**يَا أُمَّـه**» . وهِيَ لا

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب المغازي ، ص ٧٣٦ ، الحديث رقم : ٤٢١٠ .
(٢) وَثَبتُ مُتطلِّعاً .
(٣) انظر أيضًا في حديث الراية وشرحه «رياض الصالحين» ، مرجع سابق ، ص٨٣ ، رقم الحديث : ٩٤ ، والمرجع نفسه ، ص١٢٧-١٢٨ ، رقم الحديث : ١٧٥ .

تَدري كَيفَ تَدعُو للرَّسُولِ ـ بِلُكْنَتِهَا الأعْجَميَّة : سَبَّتَ اللَّـهُ أقدَامَكُم ـ لَـمْ تُنسِهِ رَهبَةُ ذلكَ المَوقِفِ أنْ يُقبِلَ عَليها بعَطفٍ وشَفَقَةٍ مُداعِباً لَها بلُطْفٍ : «اسْكُتِي يَا أُمَّ أَيْمَنَ فَإنَّكِ عَسْرَاءُ اللِّسَانِ» (١) ، وكَأنَّها تَرتيبُ سَيِّدِ الفُصَحاءِ عَلَىٰ تلكَ اللُّكنَةِ البَريئَة (٢) .

ومن الحُبِّ الكَبيرِ والحَنانِ والعَطفِ الذي مَلأَ قَلبَه ، أنَّه اشْتَاقَ إلى إخْوانِه الذين يَأتُونَ آخِرَ الزَّمَانِ ، الذين آمَنُوا به ولَـمْ يرَوْهُ . ومِنْ حُبِّه أيضاً لأُمَّتِه جَمعاءَ وشَفقَتِه عَلَيها أنَّه مَا خُيِّرَ بينَ أمْرَينِ إلَّا أخَذَ أيْسَرَهُما ما لَـمْ يَكُنْ إثْمـاً (٣) .

هَـٰذا هُو القَلبُ الكَبيرُ الذي مُلِئَ حُبّـاً وبَشَاشَةً وعَطْفاً ، شَمِلَ كُلَّ مَنْ أَحَاطَهُ وأَحَاطَ بِه ﷺ .

ولَقَد تَجاوَزَ حُبُّه ﷺ البَشَرَ لِيَصِلَ إلَىٰ الحَيواناتِ والجَماداتِ ، فكَانَ يُقرِّبُ الإناءَ للقِطَّةِ لتَشرَبَ ، ويُوصي بالإحْسَانِ لتِلكَ المَخلُوقَاتِ الضَّعيفَةِ ، ويُواسِي في مَوْتِ طائرٍ كَانَ يَلهُو بِه أَخُو خَادِمُه (٤) .

ويَقُولُ عن جَبَلِ أُحُدٍ : «هَـٰذَا جَبَلٌ يُحِـبُّنَا ونُحِـبُّهُ» (٥) .

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ، مرجع سابق ، ١٠/ ٢١٤ .

(٢) «عبقرية محمَّد» ، عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص١٤٠ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب المناقب ، ص٦٢٧-٦٢٨ ، رقم الحديث : ٣٥٦٠ ، من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها : «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ بَينَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَـمْ يَكُنْ إِثْمـاً» .

(٤) «رش البر د شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، ص١٦٠ ، حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ : «يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» ، رقم : ٢٦٩ .

(٥) «صحيح البخاري» ، كتاب المغازي ، باب أُحُد يُحِبُّنا ونُحِبُّه ، ص٧١٤ ، رقم الحديث : ٤٠٨٣ ـ ٤٠٨٤ .

ويُطلِقُ عَلَىٰ الجَمادَاتِ والحَيوانَاتِ أسماءَ خَاصَّةٍ بها ، فكانَت له قَصعَةٌ يقُالُ لها : (الغَرَّاء) ، وسَيفٌ اسمُه : (ذُو الفِقَار) ، ودِرعٌ يُسَمَّىٰ : (ذَاتِ الفُضُولِ) ، وقَضيبٌ يُقالُ لَه : (المَمشُوقُ) ، ولَه حِمَارٌ سَمَّـاهُ (عُفَيْرًا) ، وبَغلَةٌ اسمُهَا (دَلدَل) ، وفَرَسُهُ (الوَردُ) ، وناقَتُه (القَصْواءُ) ﷺ ، وتَسميَةُ الأشياءِ بأسماءٍ خاصَّة يَعني الأُلفَةَ والموَدَّةَ والحُبَّ التي تَجعَلُها أَشبَهَ بالأحياءِ المَعرُوفينَ المُمَيَّزين بَينَ مَنْ يُماثِلُهُم ، كَما يَتمَيَّزُ الأَحْبابُ بالوُجُوهِ والمَلامِحِ والأَلْقَابِ [1] .

هَـٰذه المحَبَّـةُ الإنسانيَّة وتِلكَ الرَّحمَةُ والرِّقَّـةُ هي الحِلْيَةُ البَاطِنَةُ لسَـيِّدِ البَشريَّة ، عاشَهَا وأفاضَها عَلَىٰ كُلِّ مَنْ حَولَه ، وسَرَت للجَماداتِ فحَنَّ إلَيه الجِذْعُ وسَمعَ أَنينَهُ ، ونَطقَتْ بَينَ يَديه الحَيوانَاتُ فشَكَا إلَيه البَعيرُ مَا يَلقَاهُ من مَالِكِه ، وأظَلَّه حَمامُ مَكَّةَ يومَ فَتحِها ، فلَمْ يَشكُرِ اللَّـهَ فحَسْب بَلْ دَعَا لَها بالبَرَكَةِ [2] .

فالتَفَّت القُلُوبُ حولَه ، وتَحوَّلَ الحِقدُ والكُرهُ في قَلبِ القُسَاةِ شَوْقاً وحُبّـاً لَه ﷺ .

هَكَذا كَانَ يَحيَا الحُبُّ في كَيانِ سَـيِّدِ البَشَريَّة بأَصدَقِ مَعانيه ، وتَسكُنُ الرَّحمَةُ في فُؤادِه بأبهَىٰ حُلَلِها . والحُبُّ والرَّحمَةُ هُما لُبُّ التَّربيَةِ والأخلاقِ والإحسَانِ .

---

(١) «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق شَرف المصطفىٰ» ، للإمام عبدالكريم بن هوازن القشيري ، دار البشائر الإسلامية ، ط١ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ، ٣/ ٢٩١ـ٢٩٢ـ٢٩٦ ، و «هذا الحبيب يامحبُّ» ، أبوبكر الجزائري ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ لبنان ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ، ص٣١٩ ـ ٣٢٠ ، في أسماء الخيل والسلاح والإبل.. و «عبقرية محمَّد» ، ص٨١ ـ ٨٢ .

(٢) انظر في شكاية البعير للنَّبيِّ والحمام الذي أظله في «الشفا» ، للقاضي عياض اليحصبي ، مرجع سابق ، ص١٩٠ .

المَبحَثُ الأوَّل

صُورٌ من التَّربيَةِ بالحُبِّ في حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ

وفيـه ثمـان مَطَالِب :

المطلَبُ الأوَّلُ : الحُبُّ العَاطِفيُّ .

المطلَبُ الثَّـــانيُ : حُبُّ الوَفَــاءِ .

المطلَبُ الثَّـــالِثُ : حُبُّ التَّقديرِ والإكْـرام .

المطلَبُ الرَّابِــعُ : الدَّعْــوَةُ بالحِكْمَـة .

المطلَبُ الخَـامِسُ : التَّعليمُ والنَّصيحَةُ بالمُلاطَفَةِ والحُبِّ .

المطلَبُ السَّـادِسُ : الإقْنَــاعُ بالحِـوَارِ والحُـبِّ .

المطلَبُ السَّــابِعُ : تَغييرُ السُّلُوكِ والإصْلَاحُ بالحُـبِّ .

المطلَبُ الثَّـــامِنُ : الحِـلْمُ والتَّغَــاضي .

المطلَبُ الأوَّل

الحُبُّ العَاطِفيُّ

الحُبُّ المُفعَمُ بالعاطِفَةِ هو تِلكَ المشَاعِرِ المُتَدفِّقَة والأحاسيسُ المُرهَفَة التي تَتوقَّدُ في نَفسِ صاحِبها فيُعبِّرُ عنها بسُلُوكٍ إيجابيٍّ تجاهَ مَنْ يُحِبُّ .

والمُتأمِّلُ في سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ يجدُ أنَّه بالرَّغم من انشغالِه بأعباءِ الرِّسَالَةِ والجِهَادِ والكِفَاحِ المُستَمِرِّ لتَغييرِ العَقيدَةِ وإقامَةِ مُجتَمَعٍ وصِناعَةِ أُمَّةٍ ، يَرَىٰ العَطفَ والحَنانَ أصْلاً في تَعامُلِه مَع أزوَاجِه وبَناتِه ، وأحفَادِه وأصْحابِه ، والخَلقِ أَجمَعين . فقَد أَوْدَعَ اللَّـهُ فيه العاطِفَةَ الحَـيَّةَ ، والحِسَّ المُرهَفَ ، والشَّفافيَةَ الرَّاقِيَةَ ، وهَـٰذا من مَظاهِرِ تَكامُلِ شَخصيَّتِه ﷺ ، واستيعابِها لكُلِّ خِصَالِ الخَـيرِ .

فقَد كَانَ ﷺ شَيخاً قَارَبَ السِّتِّينَ يَومَ بَكَىٰ عَلَىٰ قَبرِ أُمِّهِ بُكَاءَ مَنْ لا يَنسَىٰ ، مُلتَفِتاً إِلَىٰ تِلكَ البُقعَةَ المَهجُورَةَ حَيثُ مَضجَعُ أُمِّه ، يَرنُو إِلَيها بقَلبِه عَلَىٰ تَطَاوُلِ الآمَادِ وتَنائي الأَبعَادِ [1] .

ويَتَّضِحُ هَـٰذا المَعنَىٰ أكثَر في حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ الزَّوجِيَّة والأُسَـرِيَّة ، حَيثُ لَـمْ يَعرف البَشَـرُ حُبَّاً أَسْمَىٰ وأَروَعَ من الحُبِّ الذي تَأَلَّقَ في بَيتِ النُّبُـوَّةِ ، وأَصَّلَهُ ﷺ بأجمَلِ وأطهَرِ صُورَةٍ .

---

(١) «تراجم سيدات بيت النبوة» ، للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، دار الحديث القاهرة ـ طبعة جديدة محررة ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م ، ص١٢٧ ، و «عبقرية محمد» ، للعقاد ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

فقَد كَانَت حَياةُ الرَّسُولِ ﷺ الزَّوجـيَّة ـ مَع زَوجاتِه جَميعِهنَّ ـ حافِلَةً بحُسنِ التَّعامُلِ ، واللُّطفِ والبرِّ ، والتَّرَفُّقِ بهنَّ ، تَسودُها العاطِفَةُ الجَيَّاشَةُ الصَّـادِقَةُ .

وجَسَّدت عَلاقَتُه ﷺ مع أُمِّ المُؤمنينَ عائشَةَ ـ ذَاتِ الشَّخصيَّةِ المَرِحَة المَليئَة بالحَيَويَّة والنَّشاطِ واللُّطفِ ـ قِصَّةَ حُبٍّ راقيَةٍ وتَفاعُلٍ عاطِفيٍّ مُتوهِّج قَلَّ مَثيلُه . والصُّورَةُ المُتكامِلَةُ لعَلاقَةِ الزَّوجَينِ المُتحابَّينِ مَبنيَّةٌ عَلَىٰ الحُبِّ والانسِجامِ العاطِفيِّ المُتبادَلِ ، والنَّشاطِ والحَيويَّةِ في الحَضَرِ والسَّفَرِ .

وهُو انسِجامٌ أَصيلٌ في الهَدي النَّبَويِّ ، يُفَعِّلُ الجانِبَ العاطِفيَّ بينَ الزَّوجَينِ ، ويَغرِسُ بُذُورَ المحبَّـةِ بَينَهُما ، لتَمتَدَّ أزهارُ الوُدِّ والرَّحمَةِ ، فتُضفِي عَلَىٰ الأُسرَةِ الأُنْسَ والسَّكينَةَ . ويَتَّضِحُ لنا ذَلكَ من خِلالِ لَطائفَ نَبويَّة انتهَجها ﷺ ، نُورِدُ منها :

أوَّلاً : مُجاراةُ المُحِبِّ للمَحبُوبِ :

فقَد كَانَ ﷺ يُتابِعُ عائشَةَ فيما تُحِبُّ ، ويُؤثِرُها مَا لَـمْ يَكُنْ ذَلكَ محظُوراً ، وقد تَزوَّجَ النَّبيُّ عائشَةَ ولَكنَّه لَـمْ يَرضَ أنْ تُنتزَعَ الصَّبيَّةُ المَرِحَةُ من مَلاهِي حداثَتِها ، أو يُثقِلَ كَاهِلَها بأعباءِ الزَّوجيَّة ، فكَانَ يُشارِكُها لَهوَها في بَساطَةٍ وأُلفَةٍ مُحبَّبَةٍ ، ويَأتيها [1] بصُويحِباتِها يَلعبنَ مَعها . ويُشارِكُها مَا تُحِبُّ ، فيُناديها لتُطِلَّ عَلَىٰ نَفرٍ من الحَبَشَةِ يَلعبُونَ الحِرابَ ويَستُرُها بثَوبِه ، فتَضعُ خَدَّها عَلَىٰ خَدِّه ورَأسَها عَلَىٰ عاتِقِه بدَلَالٍ وتِيهٍ ، ليَعرِفَ النَّاسُ قَدرَهَا عِندَه ، ويُمهِلُها حَتَّىٰ تكُونَ هِيَ

(١) «تراجم سيدات بيت النبوة» ، مرجع سابق ، انظر : عائشة حبيبة المصطفىٰ ، ص ١٩٨ .

مَنْ يَنصَرِفُ (١) ، مُراعِياً حَداثَةَ سِنِّها ، ويُنادِيها بالشُّقَيْراءِ (٢) ، والحُمَيْراءِ (٣) ، ويَا عَائِشُ (٤) ، تَرخِيماً لاسْمِهَا ودَلالاً ، ويُسابِقُهَا ، ويَسيرُ مَعَهَا لَيْلاً يَتبادَلانِ الحَديثَ في ضَوْءِ القَمَرِ لِيَطْوِيَ عَنها كَآبَةَ السَّفَرِ (٥) .

كَم هي عَلاقَةُ وُدٍّ راقيَةٌ وحُبٌّ صادِقٌ ، التي تَجعَلُ الزَّوجَ يُبادِرُ من نَفسِه بما يُحِبُّ الآخَرُ ويَهوَىٰ ، مُستَمتِعاً بذَلكَ ، حَريصاً عَلَىٰ إدخالِ الفَرَحِ والتَّرفيهِ عَلَىٰ قَلبِ الآخَرِ بألوَانٍ شَتَّىٰ . إنَّها شَاعِرِيَّةٌ راقِيَةٌ وحِسٌّ مُرهَفٌ ، وهو ما يُسمَّىٰ في عَصرنا الحاضِر بـ (الرُّومانسيَّة الدَّائمَة) ، وهي العَلاقَةُ التي تُظَلِّلُها المشَاعِرُ ، وتُحيطُها الأَحاسِيسُ ، وقد فَسَّرَ خَبيرُ العَلاقاتِ الإنسانيَّة الغَربيُّ (جُون جراي) الرُّومانسيَّة بالنِّسبَةِ للمَرأةِ : أنْ يَفعَلَ الرَّجُلُ أشياءَ من أجْلِها دُونَ أنْ تُضْطَرَّ إلَىٰ طَلَبِها منه ، ولَوْ كَانَت هذه الأشياءُ صَغيرةً ، فذَلكَ يَدُلُّ عَلَىٰ اهتمامِه بها وتَفهُّمِه مَشاعِرَها ، وتَقديرِه لها ولِـما تُحِبُّ . فبذَلكَ يُلَبِّي حاجَةَ المَرأة الرُّومانسيَّة بشَكلٍ مُباشِرٍ ويُدخِلُ السَّعادَةَ عَلَىٰ قَلبِها . فالمَرأةُ تحتاجُ أنْ تَشعُرَ أنَّها مُمَيَّزةٌ ومُدلَّلَةٌ من أجْلِ أنْ تَتفتَّحَ ، ويَنمُو الحُبُّ بداخِلِها .

كَما أنَّ الفَهمَ الصَّحيحَ للاختِلَافِ في أُسلُوبِ التَّفكيرِ والمَشاعِرِ بَينَ الرَّجُلِ والمَرأةِ يَضمَنُ حَلَّ كَثيرٍ من المشَاكِلِ بَينَهُما . فالمَرأةُ لا تَحتاجُ الدَّعمَ الماديَّ فقَط،

(١) «صحيح مسلم» ، ج١ ، كتاب صلاة العيدين : باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ، ص ٦٠٧ ، رقم الحديث : ٨٩٢ . وانظر في «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، دولة الكويت ، اللجنة التربوية ، ٢/ ٤١٩ .

(٢) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد ، مرجع سابق ١٠/ ١٢٢ .

(٣) نفس المرجع السابق ١٠/ ٧٨ .

(٤) «صحيح البخاري» ، فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، الحديث رقم : ٣٧٦٨ .

(٥) «صحيح البخاري» ، باب القرعة بين النساء إذا أراد سفراً ، الحديث رقم : ٥٢١١ .

بلْ تحتاجُ إلىٰ الدَّعم العاطِفيِّ أيضاً (١) . وهـٰذا ما كَانَ يَفعلُهُ سَيِّدُ الرِّجَالِ وقُدوتُنا في كُلِّ مِثالٍ .

وكانَت السَّيِّدَةُ عائشَةُ تُدرِكُ محبَّةَ النَّبيِّ ﷺ وتَفَهُّمه لها واهتِمامَهُ بها ، وتَبادُلَهُ تِلكَ العاطِفَة وتُحبُّهُ حُبّاً شَديداً ، فقَد كَانَ ﷺ يُتابعُها فيما تُحبُّ ويُؤثِرُها ممَّا جعلَها هي أيضاً تُتابعُهُ علَىٰ مَا يُحِبُّ وتُؤثِرُهُ ، ففي لَيلَةٍ كَانَ يَنامُ عِندَها قَالَ لَها ﷺ : «ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ رَبِّي» ، قَالَت : واللَّـهِ إنِّي لَأُحِبُّ قُربَكَ وأُحِبُّ مَا يَسُـرُّكَ ..» الحَديث (٢) .

ثانيـاً : الاستِماعُ العاطِفيُّ وفَنُّ الإنْصَاتِ :

الإنْصاتُ هُو فَنٌّ يُنصتُ فيه المُستَمعُ بأُذُنِه وكَيانِه ومَشاعِرِه مُتفاعِلاً مع المُتكلِّم مُهتَمّاً بما يَقُولُ ، وفي حَديث أُمِّ زرع الطَّويلِ ، الذي تحدَّثَت به السَّيِّدَةُ عائشَةُ للرَّسُولِ ﷺ حَيثُ تَصِفُ فيه كُلُّ واحِدَةٍ من النِّسَاءِ زَوجَها وخُلُقَه مَعَها ، كَانَ ﷺ مِثالاً حَيّاً فَريداً لفَنِّ الإنْصَاتِ ، فقَد أَنصَتَ لَها بكُلِّيته وباهتِمامٍ وتَركيزٍ مع ما لَدَيه من مَشاغِل ، ولَـمْ يُقاطِعْها بكَلِمَةٍ أو يَستَخِفَّ بحَديثِها أو مَشاعِرِها ، إنَّه لَقِمَّةُ التَّقديرِ والاحترامِ والذَّوقِ الرَّفيع منهُ ﷺ لِزَوجِه .

ثُمَّ يَقُولُ لَهَا في نِهايَةِ القِصَّةِ بكُلِّ اهتِمامٍ ومَوَدَّةٍ وتَفاعُلٍ : «**كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ**» (٣) ، زَادَ في روايَةِ الهَيثَم بن عَدِي : «في الأُلْفَةِ والوَفَاءِ لا في الفُرقَةِ والجَلاءِ» ، وزَادَ الزُّبَيريُّ : «**إلَّا أنَّه طَلَّقَهَا وأنَا لَا أُطَلِّقُكِ**» (٤) .

---

(١) «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» ، جون جراي ، مكتبة جرير ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، ص١٥ ، ٩١ ، ٩٢ .

(٢) «الترغيب والترهيب» ، للحافظ المنذري ، مرجع سابق ، ٢/ ٣٧٢ ، رقم الحديث : ١٣ .

(٣) الحديث بطوله في صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، باب حسن المعاشرة مع الأهل ، ص٩٥٣ ، رقم الحديث : ٥١٨٩ .

(٤) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ، ابن حجر العسقلاني ، دار مصر للطباعة ، ط١ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م ، ج٩ ، كتاب النكاح ، ص٢٤٤ .

فقَد كَانَ هَـٰذا الزَّوجُ ـ أبو زَرع ـ ذَا فَضلٍ ، سَخِيًّا كَرِيمَ الخِصَالِ ، لَطِيفَ المَعْشَرِ ، يُكرِمُ أهْلَه ولا يَدَّخِرُ دُونَهُم شَيئاً .

ونَجدُ أنَّه بَعدَ أكثَر من ألفٍ وأربَعمائة عام ، يَطرَحُ أحَدُ خُبَراءِ الأُسرَةِ الغَربيِّينَ نَظريَّاتٍ جُزئيَّةٍ ، مُماثِلَة للنَّهجِ النَّبوِيِّ في فَنِّ التَّواصُلِ العاطِفيِّ بَينَ الزَّوجَينِ ، ويُشَارُ إلَيه عَلَىٰ أنَّه أحدَثُ وأهَمُّ مَرجِعٍ عَلَىٰ مُستَوىٰ العَالَـم في هَـٰذا المَجالِ .

يَقُولُ (جُون جراي) خَبيرُ العَلاقاتِ الإنسانيَّة : «قَد يَكُونُ الرَّجُلُ مُنفَصِلاً وغائباً عاطِفيًّا وهو بالمنزِلِ ، لأنَّه لا يُجيدُ الاستماعَ للمَرأةِ ، فقد يَلتَقطُ مَجلةً ويَبدأُ بالقِراءَةِ عِندَما تَتحَدَّثُ إلَيه . ولَكنْ عِندَما يَتعَلَّمُ الرَّجُلُ فَنَّ الإنْصَاتِ لمَشاعِرِ المَرأةِ ، وتَفسيرَها بأُسلُوبٍ صَحيحٍ ، يُصبحُ التَّواصُلُ بَينَهما أمْراً سَهلاً ، وعِندَما يُجيدُ ذَلك ويُعطِيها الفُرصَةَ لكَي تُعبِّرُ عن مَشاعِرِها دُونَ أنْ يَستَجيبَ بطَريقَةٍ سَلْبيَّةٍ ، فإنَّ المَرأةَ لا تُقدِّرُ ذَلكَ فقَط ، بَلْ تَزدادُ انجِذاباً إلَيه [1] ، ويَزدَهِرُ الحُبُّ بَينَهُما» .

الذَّكَاءُ العاطِفيُّ في تَفهُّمِ شُعُورِ المَحبُوبِ :

إنَّ القُدرَةَ عَلَىٰ استِشفافِ الحالَةِ المِزاجيَّة والوِجْدانيَّة لَدَىٰ الآخَر تَدُلُّ عَلَىٰ تَفهُّم الزَّوجِ لانفِعالاتِ ومَشاعِرِ وعَواطِفِ زَوجَتِه ، وعَلَىٰ عُمقِ المُستَوَىٰ العاطِفيِّ بَينَهُما .

وقد ضَربَ لنَا ﷺ أَروَعَ الأمثِلَة في هَـٰذا المُستَوىٰ الرَّاقي من التَّناغُم والذَّكاءِ العاطِفيِّ في استِشفَافِ الحالَةِ المِزاجيَّة لزَوجِه :

(١) «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة» ، مرجع سابق ، ص٩٧ ، ١٣٦ ، ١٥٥ .

ففي حَديثِ عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها أنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قالَ لَها يوماً : «**إنِّي لأَعْلَمُ إذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً ، وإذَا كُنْتِ عليَّ غَضْبَىٰ**» ، قَالَت : مِنْ أَينَ تعرفُ ذَلكَ؟ فقَالَ : «**أَمَّا إذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فَتَقُولِي : لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ ، وَإذَا كُنْتِ غَضْبَىٰ فَتَقُولِي : لَا وَرَبِّ إبْرَاهِيمَ**» ، فتَقُولُ عائشَةُ بِأَلْمَعِيَّةٍ : أَجَلْ واللَّـهِ يا رَسُولَ اللَّـهِ مَا أَهْجُرُ إلَّا اسْمَكَ (١) .

إنَّ هَـٰذا التَّفاهُمَ والتَّناغُمَ يُسهِمُ في تَعميقِ الحُبِّ والتَّفاعُلِ بَينَ الزَّوجَينِ لِيَصِلَ إلَىٰ أعلَىٰ مُستَوياتِه ، وهُو ما يُميِّزُ الزِّيجاتِ والأُسَرِ النَّاجِحَة المُتَوافِقَة .

إظهارُ الحُبِّ العاطِفيِّ وتَرجَمتُه إلَىٰ سُلُوكٍ عَمَليٍّ :

وقد كَانَ هَـٰذا واضِحاً جَليّاً في تَعامُلِ الرَّسُولِ ﷺ مع السَّيِّدَةِ عائشَةَ ، حيثُ كَانَ يَتعمَّدُ أنْ يَشرَبَ من مَوضعِ فَمِها ، تَقُولُ السَّيِّدَةُ عائشَةُ : «**كُنْتُ أَشْرَبُ وأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ أُناوِلُهُ النَّبيَّ فيَضَعُ فَاهُ عَلَىٰ مَوضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ ، وأَتَعَرَّقُ العَرْقَ (٢) وأَنَا حَائِضٌ ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبيَّ فيَضَعُ فَاهُ عَلَىٰ مَوضِعِ فِيَّ**» (٣) .

وسَيأتي تَفصيلٌ أكثَر لهذا البَندِ في المَبحَثِ الثَّاني من هَـٰذا الفَصلِ في المَطلَبِ التَّاسِعِ : «إعْلَانُ الحُبِّ» .

---

(١) «صحيح البخاري» ، باب غيرة النساء ووجدهن ، ص٩٦٠ ، رقم الحديث : ٥٢٢٨ .

(٢) العرْق بالسكون : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم وهبره وبقي على العظم لحوم رقيقة طيبة وفي هذا إظهار محبة الزوج ومودته ويقال عَرَقْتُ العظم وتعرّقته إذا أخذت اللحم عنه بأسنانك نهشًا . انظر : لسان العرب ، مرجع سابق ، باب القاف ، فصل العين .

(٣) «صحيح مسلم» ، ج١ ، كتاب الحيض : باب جواز غسل المرأة رأس زوجها ، ص٢٤٤ ، رقم الحديث : ٣٠٠ .

إنَّ هَذه العاطِفَةُ السَّاميَةُ وتِلكَ المحَبَّـةُ والتَّآلُفُ والامتِزاجُ ، في قَلبِ الرَّسُولِ وقَلبِ زَوجِه الطَّاهِرَة ، هي شَمسٌ تُرسِلُ أشِعَّتَها في حَياةِ الأزْواجِ المُحبِّينَ كَي يَستَضيئُوا بضِيائِها ، ويَستَدفِئُوا بدِفْئِها ، ولَكنْ غَفُلَ أو تَغافَلَ الكَثيرُ عَنها في أيَّامِنا هَذهِ وعَن الاهتِمامِ فيما يُحبُّه الآخَرُ ، مِمَّا أدَّىٰ إلَىٰ البُرودِ العَاطِفيِّ بَينَ الزَّوجَينِ وفَسادِ العَلاقَةِ بَينَهُما .

وهَذه الصُّوَر من بَيتِ النُّبوَّةِ ، فيها وَمَضاتٌ لَطيفَةٌ لتَعليمِ الأُمَّةِ وتَوجيهِ الأجْيَالِ في مُجاراةِ الزَّوجَة فيما تُحبُّ وتَهوَىٰ ، ما لَـمْ يَكُنْ إثْماً ، تَأسِّـياً بالهادِي الحَبيبِ ، ومُلاطَفَتِها ومُراعاةِ مُقتَضَىٰ حالِها أيّـاً كَانَ نَفسيَّاً أو اجتِماعيَّاً أو عُمريَّاً بما يُصلِحُ شَأنَها .

وقد اكتَملَ نُموُّ السَّـيِّدَةِ عائِشَةَ ونَضجَت شَخصيَّـتُها وتَدرَّجَت بَينَ عَينَي المُصطَفىٰ ﷺ من صَبيَّةٍ تَلهُو وتَمرَحُ إلَىٰ أفقَه نِساءِ الأُمَّة ، تُسأَلُ عن أدَقِّ الأُمُورِ فتُجيبُ عَنها ، إنَّها لَعَمرِي ثَمرَةُ التَّربيَةِ بالحُبِّ .

ونَجدُ في عَصرِنا الحَالي أنَّ الكَثيرَ من الأزْوَاجِ لا يَعرِفُونَ الحَاجاتِ العاطِفيَّة الأسَاسيَّة التي يَحتاجُها الطَّرَفُ الآخَرُ ولا يَهتَمُّونَ لذَلكَ ، فيَمُوتُ الحُبُّ علَىٰ أعتَابِ الزَّواجِ ، وتُصبِحُ العَلاقَةُ الزَّوجيَّة سَطحِيَّةً جافَّـةً يَكتَنِفُها البُرودُ ، ويُسَيطِرُ عَلَيها المَلَلُ والكَآبَةُ ، وتَفقِدُ الحَياةُ الأحاسِيسَ واللَّهفَةَ والشَّوْقَ ، مِمَّا يُؤدِّي إلَىٰ دَمارِ كَثيرٍ من البُيُوتِ لجَفافِ تِلكَ العاطِفَةِ التي مَنَحَها اللَّـهُ سُبْحانَهُ بسَخاءٍ للجَميعِ .

فالحُبُّ ـ في طَاعَةِ اللَّـهِ ـ رَأسُ مَالِ الحَياةِ الزَّوجيَّة ، وفي ظِلّه تتلاشَىٰ كَثيرٌ من المُشكِلَاتِ ، ولا يُستَثقَلُ عَمَلُ وعِبءُ ومَسؤُوليَّاتُ الحَياةِ لكِلَا الزَّوجَينِ . ويُسَرِّي عَنهُما بأنَّ كُلًّا منهما يَعتَني بصَاحِبه ويُراعِي مَشاعِرَه ، ليَغرِفَا من الحُبِّ ويَسعَدا بِه .

وكَم من المُجحِفِ أنْ نبحَثَ عن الحُبِّ عِندَ مَنْ يَزعُمُ أنَّ الزَّواجَ لابُدَّ أنْ تَسبقَهُ عَلاقَةٌ عاطِفيَّة يَبنِى علَيها العُشَّ السَّعيدَ! مع أنَّنا نرىٰ في بيتِ النُّبوَّةِ مِنْ أوَّلِ يوم أقَامَت السَّيِّدَةُ عائشَةُ فيه مع النَّبيِّ ﷺ يومَ عُرسِها (١) حِينَ أعطَاها قَدحَ اللَّبَنِ الذي أُهدِيَ إليه بَعدَ أنْ شَرِبَ مِنهُ لتَشرَبَ مِنهُ ، لإزالَةِ الحاجِزِ النَّفسيِّ ، وبناءِ جِسرِ المودَّةِ ، وكَانَ هَكَذا حَتَّىٰ آخِرَ يَومٍ في حَياتِه ﷺ .

إنَّها عَلاقَةٌ عاطِفيَّةٌ مُتجَدِّدَة بَينَهُما مَليئَةٌ بالشَّوْقِ واللَّهفَةِ ، لَـمْ تَخفُتْ جذوَةُ الحُبِّ يوماً فيها ، كَانَت تَفهَمُ نَظرتَهُ وإشَارَتَهُ عِندما رَأتهُ –وهُوَ مُستَنِدٌ إلَىٰ صَدرِها آخِرَ يوم في حَياتِه ﷺ يومَ وَفاتِه ـ يَنظُرُ إلَىٰ سِواكٍ في يَدِ أخِيها عَبدِ الرَّحمَـٰنِ يَستَنُّ به ، فعَلِمَت أنَّه يُريدُه (٢) ، فكَانَ آخِرَ عَهدِها به وعَهدِه بها أنْ اختَلطَ رِيقُه الشَّريفُ بريقِهَا ، ومَاتَ ﷺ ، ورَأسُهُ الشَّريفُ بَينَ سَحْرِهَا ونَحرِهَا ، ودُفِنَ في حُجرَتِها ، لتَحكِيَ للعَالَمِ قِصَّةَ حُبٍّ طَاهِرٍ نَمُوذَجيٍّ خَالِدٍ .

تِلكَ هي صُورَةٌ حَـيَّةٌ عن الحُبِّ المُفعَمِ بالعاطِفَةِ في حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ .

---

(١) «تراجم سيدات بيت النبوة» ، مرجع سابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) حديث السواك رواه البخاري في صحيحه : كتاب الجمعة باب من تسوَّك بسواك غيره ، ص ١٥٩ ، الحديث رقم : ٨٩٠ .

وانظر «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، اللجنة التربوية ، مكتبة الكويت الوطنية ، ط١ ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ، ٢/ ٤٠٨ .

المطلَبُ الثَّـاني

حُبُّ الوَفَـاءِ

الوَفاءُ ضِدُّ الغَدرِ ، ووَفَىٰ الشَّئُ وُفِـيًّا ، أي : تَمَّ وكَثُر (١) .

وقَالَ الرَّاغِبُ : الوَافي الذي بَلَغَ التَّمامَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ (٢) .

وهُو ذِروَةُ سَنامِ الأخلاقِ ، ومن أعظَم الشَّمائِلِ الإنسانيَّة الرَّفيعَة والنُّفوسِ الكَريمَة الشَّريفَة ، التي تُذكَرُ ولا تُنسَىٰ ، وهو يَدُ المَعرُوفِ فيمَنْ أحسَنَ إلَيها وتُبادِرُ بالإحسانِ . وهذا ما يَزيدُ من تَماسُكِ المُجتَمَع ، ويُعزِّزُ الخِصَالَ الحَميدَة في صُفُوفه ، ويُشَجِّعُ عَلَىٰ فِعلِ الخَيرِ ، ويَجعَلُ الأفرادَ عَلَىٰ قَلبِ رَجُلٍ واحِدٍ . وكَانَ ﷺ سَـيِّدَ الأوْفِياءِ في تَعامُلِه كُلِّه مع المُسلِمينَ وغَيرِهم ، وَفِـيًّا بالعَهدِ ، وفيما يَلي سَنستَعرِضُ بَعضاً من صُوَرِ وَفَائِه :

قِصَّةُ السَّـيِّدَةِ خَديجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :

مَلأَت السَّـيِّدَةُ خَديجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَياةَ الرَّسُولِ ﷺ وكَيانَه وشُعُورَه ، فكَانَت مِلْءَ سَمعِه وبَصَرِه . تِلكَ المَرأةُ التي عَرَفَت رَبَّها ، وعَرَفَت رِسَالَتَها ، وعُرِفَتْ بِرَجاحَةِ عَقلِهَا ، فاستَضَاءَ قَلبُها بِنُورِ النُّبـوَّة المُحمَّديَّة ، وكَانَت أوَّلَ مَنْ آمَنَ عَلَىٰ الإطْلَاقِ .

(١) «مختار الصحاح» ، مرجع سابق ، مادة : وفىٰ ، ص ٦٤٤ .

(٢) موسوعة «نضرة النعيم في مكارم أخلاق سيد المرسلين» ، إعداد مجموعة من المختصين ، مرجع سابق ٨/ ٣٦٣٨ .

عَرفَت عِظَمَ المَسؤُوليَّة التي أُلقِيت عَليها ، فَما فتِئَتْ تَقِفُ بِجوارِ زَوجِها ﷺ وتَحنُو عَليه مَا أَقَامَ مَعهَا ، وتُلقِي السَّكينَةَ في قَلبِه ، وتُسَرِّي عَنهُ بِأَمَلٍ مُرتَقَبٍ ومُستَقبَلٍ زَاهِرٍ . تُرسِلُ قَلبَها في إِثْرِه إِذَا غَابَ عَنها ، وتُسانِدُه بكُلِّ مَا أُوتِيَتْ مِنْ حَنانٍ ومَالٍ ، لا تَدَّخِرُ دُونَهُ شَيئاً .

وكَانَ سَببُ وَفاتِها مَا عَانَتْه من ظُروفِ الحِصارِ والاضْطِّهادِ في الأعْوَامِ الثَّلاثَة في شِعْبِ أبي طَالِب مع زَوجِها ، وقَد لَجؤُوا فيها إِلَىٰ أَكلِ وَرَقِ الشَّجَرِ والجُلُودِ (١) .

وقَد بَذلَت في هَذه المِحنَة مَا أَبقَىٰ لها الزَّمَنُ من طَاقَةٍ في عَامِها الخَامِسِ والسِّتِّينَ ، فلَمْ تَتحمَّل هَـٰذا الإِنْهاكِ وقد عَلَتْ بها السِّـنُّ وناءَتْ من هذه الأثقَالِ ، فما لَبِثَت بَعدَ خُروجِها من المُقاطَعَةِ قَليلاً إِلَّا وارتَقَت إِلَىٰ الرَّفيقِ الأَعلَىٰ رَضيَ اللَّـهُ عَنهَا وأَرْضَاهَا (٢) .

كَانَ ﷺ مِثالاً حَـيَّاً في حُـبِّه لزَوجِه المُخلِصَة خَديجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا وردِّ الجَميلِ لَها ، ومُقابَلَةِ وَفائِها بوَفاءٍ أعظَمَ مِنهُ ما دَامَ حَـيَّاً ، في حَياتِها وبَعدَ مَماتِها .

تُوفِّيَت السَّـيِّدَةُ خَديجَةُ حَقاً لَكِنَّها بَقِيَت حَيَّةَ مَاثِلَةً في حَياتِه ﷺ ، فَما يَسيرُ إِلَّا وطَيفٌ منها يَتبَعُه ، وما يَسرِي إِلَّا وسَنا مُشرِقٌ منها يُبدِّدُ مِنْ حَولِه حَالِكَ الغَوَاشِي (٣) .

---

(١) «تراجم سيدات بيت النبوة» ، بنت الشاطئ ، مرجع سابق ، ص ١٧٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٧٣ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

من الطَّبيعيِّ أنْ نرَىٰ حُبَّ الرَّجُلِ ووفاءَهُ لزَوْجه في حياتها ، ولَكِنْ أنْ يمتدَّ ذَلكَ الحُبُّ وتِلكَ المَشاعِر بَعدَ وَفاتِها ـ مع تَعدُّد أزوَاجه ـ لِسَنواتٍ وسَنَواتٍ وكأنَّها تَعيشُ مَعَه! إنَّه قِمَّةُ الوَفاءِ ، يَتذَكَّرُ الوُدَّ الذي بَينَهُما ويُزجي مَناقِبَها وفَضلَها أبداً ما عَاشَ ، مَا يَفتأ يَقولُ ﷺ عَنها : «**إنِّي رُزِقْتُ حُـبَّها**» (١) .

وكَانَ يَصِلُ كُلَّ ذِي قَرابَةٍ لَها ، وكُلَّ صَديقَةٍ كَانَت تُحِبُّها ، ولا يَسمَحُ لأحَدٍ بِمَسَاسِ شَخصِهَا أو ذِكْراها ولَوْ كَانَ مِنْ أحَبِّ النَّاسِ إليه ، أو أقْرَبِ المُقَرَّبينَ منه حَتَّىٰ ولَوْ بِكَلِماتٍ.. حَقّـاً إنَّه رَمزُ الوَفاءِ .

وقد غَارَت(٢) أُمُّ المُؤمِنينَ عائشَةُ (مع أنَّها لَـمْ تُدرِكْهَا ولَـمْ تَرَهَا قَطُّ(٣)) من تِلكَ التي سَبقَتها إلَىٰ قَلبه ﷺ ، وظَلَّتْ بَعدَ مَوْتِها حَيثُ كَانَت في قَلبِه ، فقَالَت لَه ذَاتَ مَرَّة : «**مَا تَذكُرُ مِن عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيشٍ ، حَمْراءُ الشِّدْقَينِ ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ ، قَدْ أبْدَلَكَ اللَّـهُ خَيْراً مِنْهَا**» (٤) ، فغَضِبَ ﷺ ثُمَّ قَالَ : «**لَا واللَّـهِ ، مَا أَبْدَلَنِي اللَّـهُ خَيْراً مِنْهَا ، آمَنَتْ بِي إذْ كَفَرَ النَّاسُ ، وصَدَّقَتْنِي إذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، ووَاسَتْنِي فِي مَالِـهَا إذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، ورَزَقَنِي اللَّـهُ وَلَدَهَا وحَرَمَنِي وَلَدَ غَيْرِهَا**» (٥) .

---

(١) «صحيح مسلم» ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم : باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، ص ١٨٨٨ ، رقم ٧٥ .

(٢) «صحيح البخاري» ، باب غيرة النساء ووجدهن ، ص ٩٦٠ ، رقم الحديث : ٥٢٢٩ .

(٣) «صحيح مسلم» ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم : باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، ص ١٨٨٨-١٨٨٩ ، رقم ٧٥- ٧٦ .

(٤) «صحيح البخاري» ، كتاب مناقب الأنصار رضي الله عنهم ، باب : تزويج النبيِّ ﷺ خديجة رضي الله عنها ، ص ٦٦٦-٦٦٧ ، رقم الحديث : ٣٨٢١ .

(٥) «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» ، للإمام العلامة أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٦-١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م ، ٢/ ٥٠٩ .

وقد وَردَ عن الرَّسُولِ ﷺ أنَّه لَـمْ يَغْضَبْ لِنَفْسِهِ قَطُّ إلَّا أنْ تُنتَهكْ محارِمُ اللَّـهِ ، ولَكِنْ هَـٰذِه الـمَرَّةَ غَضِبَ! وبِالرَّغم من حُـبِّه الشَّديدِ لـ «عائشَةَ» حيثُ لَـمْ تَحظَ بَينَ زَوجاتِه بمِثلِ مَا حَظِيَت به مِنْ حُبٍّ ، غَضِبَ مِنْها لانْتِهَاكِ حُرمَةِ وعَظَمَةِ هَـٰذا الحُبِّ ، فحُبُّه ﷺ لـ «خَديجَةَ» أعْظَمُ .

وفي أَسرَىٰ بَدر لا يَكادُ يَلمَحُ قِلَادَةً لخَديجَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعَثَتْ بها ابنتُه زَيْنَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِفداءِ زَوْجِها الأسِيرِ (أبي العَاصِ بنِ الرَّبيعِ) ، حَتَّىٰ يرِقَّ قَلبُه ﷺ رِقَّةً شَديدَةً ، وتُثيرُ في قَلبه الشُّجُونَ والذِّكرَياتِ ، فهي قِلادَةُ الحَبيبَةِ التي لَـمْ يَنْسَها ، ولَنْ يَغيبَ عَنه طَيفُها ، إنَّ لَها ذِكْرَىٰ ثَمينَة ونَفيسَة في قَلبِه وقَلبِ ابْنَتِه ، التي أَهدَتْها إيَّاها أُمُّها «خَديجَةُ» لَيلَةَ زِفَافِها ، وقَد أَرسَلَتْها «زَينَبُ» وهِيَ أَثمَنُ ما عِندَها فِداءً لِزَوْجِها . فقَالَ ﷺ : **«إنْ رَأَيْتُم أَنْ تُطلِقُوا لَـهَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا إِلَيْهَا مَتَاعَهَا فَعَلْتُمْ»** ، قَالُوا : نَعَم يا رَسُولَ اللَّـهِ [(١)] .

فرَدَّها ﷺ لابْنَتِه حُبًّا ووَفَاءً لزَوجَتِه الحَبيبَةِ الوَفـيَّة ؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّها سَتكُونُ عِندَ أحَدِ المُسلِمينَ تُباعُ وتُشتَرَىٰ كَأيِّ ذَهَبٍ لا قِيمَةَ لَه إلَّا سِعْرُه [(٢)] ، ولَكنَّها عِندَ الرَّسُولِ ﷺ وابْنَتِه أغْلَىٰ وأسمَىٰ من أنْ تُباعَ وتُشتَرَىٰ ، فَهِي تَحمِلُ في طَيَّاتِها ذِكرَىٰ وعَبَقِ الحَبيبَة .

ويَومَ فَتحِ مَكَّةَ وبَعدَ أنْ مَضَىٰ عَلَىٰ وَفاتِها أكثَرَ مِنْ عَشرِ سَنَواتٍ حافِلَةٍ بأحْداثٍ عِظَام ، اختارَ ﷺ مَكانَ إقامَتِه في مَكَّةَ إلَىٰ جِوارِ القَبرِ الذي ثَوَتْ فيه زَوجُهُ أمُّ المُؤمِنينَ الأُولَىٰ ، حَيثُ أمَرَ ﷺ : أنْ تُركَّزَ رَايَتُه بالحُجُونِ [(٣)] ،

(١) «الطبقات الكبرى» ، لابن سعد ، مرجع سابق ، حديث القلادة ١٠/ ٣٢ .

(٢) «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، اللجنة التربوية ، مرجع سابق ، ١/ ٤١٩ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب المغازي ، باب : أين ركز النبي ﷺ رايته يوم الفتح؟ ص ٧٤٥ ، رقم الحديث : ٤٢٨٠ .

وأقَامَ في قُـبَّةٍ ضُربَت له هُناكَ ، تُؤنِسُه رُوحُها ، وتَصحَبُه وهو يَطُوفُ بالكَعْبَةِ ، ويُحطِّمُ الأصنامَ ، لا يَشغَلُهُ فَرَحُه بالنَّصرِ أنْ يَلتَفِتَ بَينَ الآوِنَةِ والأُخرَىٰ إلَىٰ الدَّارِ التي كَانَت تَضمُّهما ، يَتذكَّرُ كَيفَ نَهلَ مِنْ نَبعِ الحُبِّ والحَنانِ الذي تَزوَّدَ به لِذَاكَ الجِهَادِ المُضنِي الطَّويلِ (١) .

فالسَّـيِّدَةُ «خديجة» رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا لَـمْ تَعِشْ إلَىٰ الوَقتِ الذي مَنَّ اللَّـهُ به عَلَىٰ رَسُولِه بالفَتحِ المُبينِ ، لِذَا أرادَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أنْ يُشيرَ إلَىٰ فَضلِ تِلكَ المَرأةِ العَظيمَةِ في مُسانَدتِه في الدَّعوَةِ ، فهي المُؤمِنُ الأُولَىٰ التي آثَرهَا اللَّـهُ بدَوْرٍ عَظيمٍ في حَياةِ المُصطفَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ .

لِذَا نَصبَ الرَّايَةَ عَلَىٰ قَبرِ خَديجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا وَفاءً لَهَا ، وإعْلَاماً لِفَضْلِهَا ، وسَبْقِهَا في الإسْلَامِ (٢) .

كَم هُوَ جَميلٌ أنْ تَقِفَ الزَّوجَةُ بِجانِبِ زَوجِهَا في جَميعِ ظُروفِه ، فذَاكَ يَشُدُّ مِنْ أَزْرِه وعَزْمِه للمُضِيِّ قُدُماً نَحوَ هَدفِه ، وأنْ يَذكُرَ لها ذَلِكَ في حاضِرِه ، ويَتذَكَّرُ فَضلَها وصَنيعَهاَ مَعَه عَلَىٰ مُرُورِ الأيَّامِ ولا يَنساهُ ، فذَلكَ يُوطِّدُ علاقَتَهما ، ويُدِيمُ الوُدَّ والإحْسَانَ بَينَهُما ، ويَجعَلُ المَعرُوفَ مِلْءَ قَلبَيْهِما .

فَليَكُنْ الوَفاءُ بَينَنا جَميعاً شِعَاراً نَعيشُ بِهِ في وَاقِعِنا ، ونُحْيِي هَـٰذا الحُبَّ المُحمَّديَّ المُقدَّسَ .

وفي مَواقِفَ أُخرَىٰ مَع غَيرِ المُسلِمينَ نَرَىٰ نَصاعَةَ هَـٰذا الخُلُقِ وسُمُوَّ النَّفسِ

(١) «تراجم سيدات بيت النبوة» ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

(٢) موقع موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية http://www.nabulsi.com سيرة الصحابيات الجليلات ، أمهات المؤمنين ، سيرة السيدة خديجة بنت خويلد .

المَطبُوعَةِ عَلَيه ، حَيثُ عَرفَ ﷺ جَميلَ (أبَا البُختَرِيِّ بنَ هِشَام) ، الذي كَانَ قَد أكَفَّ القَومَ عَن رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وهو بمَكَّةَ ، وكَانَ لا يُؤذِيهِ ولا يَبلُغُ عَنه شَيئاً يَكرَهُه . وهو من الذين سَعَوا في نَقضِ صَحيفَةِ المُقاطَعَةِ الظَّالِـمَةِ ، فحَفِظَ لَه ذَلكَ ﷺ فلَمَّا كَانَ يَومَ بَدرٍ كَانَ النَّهيُ من الرَّسُولِ الكَريم ﷺ عن قَتلِه [١] ، مع أنَّ أبَا البُختَرِيَّ خَرجَ مَعَ الجَيشِ الذي يَبغِي قِتَالَ المُسلِمِينَ .

فبِالرَّغم من أنَّه في هَـٰذه المَواطِنِ يَتمَنَّىٰ المَرءُ أنْ يُنزِلَ أكبَرَ خَسارَةٍ في عَدُوِّه ، وهَذه أوَّلُ مَعركَةٍ يَخُوضُها المُسلِمُونَ ليُرُوا عَدُوَّهُم منهم البَأسَ والشَّكيمَةَ ، وهَـٰذا الرَّجُلُ أحَدُ صَناديدِ قُرَيش! تَأتي الأوَامِرُ من سَـيِّدِ الأوْفِياءِ أنَّ مَنْ لَقِيَ أبَا البُختَرِيَّ فَليَحِدْ عَنهُ ، حَيثُ لَـمْ يَغِبْ عَنهُ رَغمَ تِلكَ الظُّرُوفِ أنَّ لَه يَداً بَيضَاءَ .

فَإذَا كَانَ لا يَنسَىٰ ﷺ ذَلكَ لأعدائه فكَيفَ مَع مَنْ أحَـبَّه ، إنَّه سُلُوكٌ رَاقٍ ومُؤَثِّرٌ أصَّلَهُ لنَا ﷺ . .

فَلا يَمنَعُ الاخْتِلَافُ العَقائديُّ بَينَنا وبَينَ مَنْ لا يَدينُ بدِينِنا أنْ نَحفَظَ الجَميلَ ، ونَرُدَّهُ لَه مَهما طَالَت الأيَّامُ ومَهْما كَانَت الظُّرُوفُ .

وكَانَ ﷺ يَبعَثُ لـ (ثُوَيْبَةَ) مَوْلَاةِ أبي لَهَبٍ التي أَرضَعَتهُ الأيَّامَ الأُولَىٰ من حَياتِه في مَكَّةَ بصِلَةٍ وكِسْوَةٍ ، فلَمَّـا فَتحَ مَكَّةَ سَألَ عَنها وعَنْ ابْنِها (مَسرُوحٍ) ، فأُخبِرَ أنَّهما مَاتَا ، فسَألَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قَرابَتِها؟ فَقِيلَ لا أحَد [٢] .

(١) «الرحيق المختوم» ، بحث في السيرة النبوية ، للشيخ صفي الرحمن المباركفوري ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م ، من روائع معركة بدر ، ص ٢٠١ .

(٢) «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ» ، للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي ، مرجع سابق ، ص ٨٨ .

مَع أنَّه صَاحِبُ الفَضلِ عَلىٰ أصْفيائه جَميعاً بما هَداهُم به من نُورِ العَقلِ ونُورِ البَصيرَةِ ، كَانَ يَذكُرُ فَضلَهُم ويُشِيدُ بذِكْرِهم ، فقد قَالَ عن أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : «**إنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاس عليَّ في صُحبَتِه وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلًا غيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ ، لَا يَبْـقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إلَّا سُدَّ إلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ**» (١) . وعن الأَنْصارِ مَا فَتِئَ يَلهَجُ بالثَّناءِ عَلَيهم حَتَّىٰ في آخِرِ أيَّامِه ، ومَع مَا بِه مِنْ أَلَـمٍ في مَرَضِ المَوتِ ، فكَانَت آخِرُ خُطبَةٍ له أنْ أوْصَىٰ بِهم جَميعاً خَيراً . فقَد أصْبَحُوا قِلَّةً بَينَ هَـٰذا العَدَدِ الهَائِلِ من الذين دَخلُوا الإسلَامَ فقَالَ فيهم : «**يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ إنَّكُمْ أَصْبَحْتُمْ تَزِيدُونَ ، والأَنْصَارُ عَلَىٰ هَيْئَتِهَا لَا تَزِيدُ ، وَإِنَّهُم عَيْبَتِي (٢) الَّتِي آوَيْتُ إِلَيْهَا ، فَأَكْرِمُوا كَرِيمَهُمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِم**» (٣) .

هَـٰذه بَعضٌ من الصُّوَرِ التي تُحرِّكُ المَشَاعِرَ ، وهُنَاكَ كَثيرٌ من المَوَاقِفِ التي تَهُزُّ الوِجْدَانَ .

فَحَرِيٌّ بنا أنْ نُوقِظَ هَـٰذا المَعنَىٰ المُغَيَّب ، ونُسَلِّطَ الضَّوْءَ عَليه ، ونَستَلهِمَ جَمالَه في واقِعِنا ، ونَردَّ الفَضلَ لأَهْلِه ما استَطَعنا إلَىٰ ذَلكَ سَبيلاً ، فهَـٰذا من وَفائنا لِرَسُولِنا وحَبيبِنا ﷺ وهَـٰذا هُو الوَفَاءُ الذي عَلَّمَهُ سَيِّدُ البَشَريَّة إلَىٰ النَّاسِ أجْمَع .

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب : سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر ، ص ٦٤١ ، رقم الحديث : ٣٦٥٤ .

(٢) أي مَوضِعَ السِّـرِّ .

(٣) «خاتم النبيين» ، محمد أبوزهرة ، مرجع سابق ، انظر : ج٢ ، الوداع ، ص ١٢١٧ ، وانظر أيضاً في «صحيح البخاري» ، كتاب مناقب الأنصار ، ص ٦٦٣ ، أحاديث في محبة الرسول ﷺ للأنصار والوصاية بهم .

المطلَبُ الثَّالث

حُبُّ التَّقديرِ والإكْـرام

ليسَ في المودَّةِ الإنسانيَّة أبهَىٰ ولا أجمَلَ من حُبِّ الإكْرام والتَّقدير . فهُو يَدلُّ علَىٰ غايَة المحبَّـةِ واللُّطفِ ، وسَلامَةِ الذَّوْقِ ، ومَتانَةِ الخُلُقِ ، والوَفاءِ والإكْرامِ .

وقد تجلَّىٰ هَـٰذا في خُلُقِ الرَّسُولِ الكَريم ﷺ ، فكَانَ مِثالاً عالياً في ذلك بَينَ صَفوَةِ خَلقِ اللَّـهِ . من ذَلكَ حَفاوَتُه بالشَّيْماءِ رضي الله عنها أُختُه من الرَّضاعَةِ ، ابنَةُ (حَليمَةَ السَّعديَّة) ، والتي كانَت تُربِّي النَّبيَّ ﷺ مع أُمِّها ، حيثُ إنَّ النَّبيَّ أقَامَ في بَني سَعْد عِندَ مُرضِعَتِه حَليمَة السَّنواتِ الأُولَىٰ من حَياتِه ، وقَد تَركَت هذه السَّنَوات في نَفسِه الكَريمَة أجمَلَ الأثَرِ وأبْقاهُ ، وبَقيَتْ حَليمَةُ وأهْلُ بَيتِها وعَشيرَتُها مَوضِعَ محَبَّة النَّبيِّ وإكرامِه طُوالَ حَياتِه ﷺ .

ففي يَوم هَوازِن (١) بَعدَ أنْ ظَفرَ المُسلِمُونَ بالسَّبي والغَنائم ، كَانَت (الشَّيْماءُ بنتُ الحارِث السَّعْديَّة) فِيمَن أُخِذَ من السَّبي ، فلمَّـا انتَهت إلَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، قَالَت يا رَسُولَ اللَّـهِ إنِّي أُختُكَ من الرَّضاعَة ، فعَرفَها بعَلامَةٍ ، فأكْرَمَها وبَسطَ لها رِداءَه وأجْلَسَها عَليه ، وخَيَّرَها في أنْ تبقَىٰ عِندَه مُكرَّمةً محُبَّبَةً أو يُمَتِّعُها وتَرجِعُ إلَىٰ قَومِها ، فاختارَت قومَها ، فمَنَّ علَيها وأمْتعَها وردَّها إلَىٰ قومِها (٢) .

(١) غزوَة حُنَين .

(٢) «هذا الحبيب يا محب» ، لأبي بكر الجزائري ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م ، الناشر : مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ص ٢٦٧ ، وانظر : «الرحيق المختوم» ، للمباركفوري ، ص ٣٨٤ ، و «الشفا» ، للقاضي عياض ، ص ٨٧ .

فلَمْ يَتوقَّفْ إكرامُ النَّبيِّ ﷺ للشَّيْماءِ بأنْ أَطلَقَها فحسْب، بل أكرَمَها وهَشَّ لها وبَشَّ، وتَحوَّلت من ذُلِّ السَّبْي، لتَتشرَّفَ بالجُلُوسِ إلَىٰ جِوارِه آمِنةً مُطمَئنَّةً، وأكْرَمَ جميعَ قَوْمِها، وقد شَملَ ذَلكَ بَني سَعْد وهَوازِنَ كُلَّها، فبَنُو سَعْد من هَوازِن. وقد وَفَدَت عَلَيه هَوازِنُ مُسلِمَةً لِـمَا رَأتْ من إكْرامِهِ وتَقديرِه.

وكَانَ مع وَفدِ هَوَازِن عَمٌّ لَه من الرَّضَاعَةِ اسمُه: أبو بَرْقَان، فتَقديراً وإكْراماً لهذا العَمِّ من الرَّضَاعَةِ تَشفَّعَ النَّبيُّ ﷺ إلَىٰ المُسلمينَ أنْ يردُّوا السَّبْيَ من نِساءٍ وأبْناءٍ. واشتَرىٰ ﷺ السَّبْيَ ممَّنْ أبوا أنْ يردُّوهُ إلَّا بمالٍ، ورَدَّ السَّبْيَ جَميعَهُم بَعدَ أنْ كَساهُم قِبطيَّةً قِبطيَّةً (١).

هَلْ هُناكَ في سِجلِّ المَوَدَّةِ الإنسانيَّة أجمَلُ من هَذا الوَفاءِ والتَّقديرِ والإكْرام! بالرَّغم مِنْ بُعدِ العَهدِ؟ فقَد جَاوزَ السِّتِّينَ من عُمرِه الشَّريفِ ﷺ عِندَ هَذهِ الحادِثَة. إنَّه وَفاءٌ ما بَعدَهُ وَفاءٌ، وإنَّها لَفتَةٌ كَريمَةٌ مِنْ رَسُولٍ أَكْرَمٍ.

كَما ضَربَ لنا رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ المَثَلَ الأَعلَىٰ في التَّقديرِ والإكْرامِ لِذَوِي المَكانَة والشَّأنِ، وذَلكَ في تَعامُلِه الرَّاقي مع السَّيِّدَةِ (صَفيَّة بِنتِ حُيَيِّ بنِ أَخطَب) رَضِيَ اللهُ عَنها. فبَعدَ أنْ اصْطَفاهَا لِنَفسِه عَرضَ عَلَيها الإسلَامَ فأسْلَمَت، فأعْتَقَها، وجَعلَ عِتْقَها صَداقَها، وتَزوَّجَها.

(١) «الرحيق المختوم»، للمباركفوري، ص ٣٨٨، و «عبقرية محمد»، للعقاد، ص ٨١، والحديث في «صحيح البخاري»، رقم ٤٠١٨ ـ ٤٠١٩، مراجع سابقة.

وقَد رَوىٰ الإمامُ البُخاريُّ في قِصَّةِ زَواجِها [1] أنَّ أَنَسَ بنَ مَالك حَدَّث قَائلاً : «.. **فَاصْطَفَاهَا النَّبيُّ ﷺ لِنَفْسِهِ ، فَرَأَيْتُ النَّبيَّ ﷺ يُحَوِّي لَـهَا وَرَاءَهُ بعَبَاءَةٍ ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ ، وتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلىٰ رُكْبَتِهِ حَتَّىٰ تَرْكَبَ**» . لِنَنظُرَ إلىٰ هَـٰذا التَّقديرِ والإكْرَامِ لِصَفِيَّةَ منه ﷺ ، حَيثُ إنَّه :

أوَّلاً : كَانَ ﷺ قَادِراً على أنْ تَكُونَ سَرِيَّة يَتسَرَّىٰ بها ، ولَكنَّه رَفعَ مِنْ شَأْنِها وتَزوَّجَها ، حَيثُ لَـمْ تَمنَعْ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ عَداوَةُ أبيها الشَّديدَة للَّـهِ ولِرَسُولِه مِنْ أنْ يَحفَظَ لَـها مَكانتَها ويَزيدَ سِيادَتَها ، فَهِيَ ابْنَةُ سَـيِّدِ اليَهُودِ وسَـيِّدَةُ قُرَيْظَةَ وبَنِي النَّضِيرِ في اليَهُوديَّة ، فغَدَتْ سَـيِّدَةَ بيتِ النُّبُوَّةِ أُمًّا للمُؤمِنينَ بَعدَ أنْ أسْلَمَت .

ثانيـا : كَمْ هُوَ جَميلٌ هَـٰذا الرُّقِيُّ والتَّقديرُ ، فقَد طَوَىٰ لَـها عَباءَتَه ووَضَعَها خَلفَه لتَجلِسَ عَلَيها السَّـيِّدَةُ صَفِيَّة ، ووَضَعَ ﷺ رُكبَتَه لِتَصْعَدَ عَلَيها [2] إكْرَاماً لَـها ، حتى يُشْعِرَهَا بمَكَانَتِها وقَدرِها عِندَه .

حَقًّـاً إنَّه لَغَايَةُ اللُّطفِ والإكْرام ، والذي يُسَمَّىٰ في عَصرِنا فَنَّ الذَّوْقيَّـاتِ (الإيتكيت) والتَّعامُل بَينَ الأزْواجِ ، لِيَسِيرَ مَركَبُ الحَياةِ الزَّوجيَّة بمَودَّةٍ وهَناءٍ ، حَيثُ يُظهِرُ الزَّوجُ حُـبَّه واهتِمامَه بزَوْجِه بتَهيئَةِ مَكانِ الجُلُوسِ ، وفَتْحِ بَابِ السَّـيَّارَةِ لَـها والحِرْصِ عَلىٰ راحَتِها .

(١) «الأحاديث في «صحيح البخاري» ، كتاب المغازي ، حديث رقم : ٤٢٠٠ ، وحديث ٤٢٠١ ، وحديث رقم : ٤٢١١ ، ص ٧٣٥- ٧٣٧ ، وانظر أيضًا : «الرحيق المختوم» ، للمباركفوري ، ص ٣٤٤ .
(٢) «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، اللجنة التربوية ، مرجع سابق ، ٢/ ٣٢٦ .

وقد أورَدَت كُتُبُ السِّـيَر أنَّها قابَلَت هَـٰذا التَّصرُّفَ الرَّاقي بتَصَرُّفٍ مِثلِه ، حَيثُ تَروِي عن نَفسِها رَضِيَ اللهُ عَنهَا أنَّها أَعظَمَت ذَلكَ وأكْبَرَتْهُ ، فلَمْ تَضَعْ قَدَمَها عَلَىٰ رُكبَتِه بَلْ وَضَعَتْ رُكبَتَها عَلَىٰ رُكبَتِه [1] لِتَصعَدَ .

جَميلٌ أنْ يَرفَعَ كُلُّ زَوجٍ مِنْ شَأنِ صَاحِبِه بِألْوانٍ جَميلَةٍ مُختَلِفَة من التَّواضُعِ والتَّقديرِ ، ويُقابِلُه الطَّرَفُ الآخَرُ بالمَوَدَّةِ والاحتِرامِ ، إنَّه نَسيجٌ من المحَبَّـةِ والإكْرَامِ .

(١) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، ٧- التربية القيادية ، جيل الحديبية ، منير الغضبان ، ج٤ ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، ص ٤٨٣ .

المطلَبُ الرَّابع
الدَّعْوَةُ بالحِكْمَة

الحِكمَةُ في الدَّعوَة : تَعنِي الطُّرُق والصِّيَغ ، والأُسلُوبُ المَناسِب الذي يَتوَصَّل به الدَّاعِي إلَىٰ إبْلاَغِ الحَقِّ إلَىٰ المَدعُوِّين ، وتَبصِيرِهِم بما يَنفَعُهُم ودَفعِ ما يَضُرُّهُم (١) .

وقد جَعلَت الدَّعوَةُ الحِكْمَةَ صُورَةً من صُوَرِ التَّربيَةِ بالحُبِّ ؛ لأَنَّ الحِكمَةَ أُسلُوبٌ رَاقٍ من أسَاليبِ الرِّفْقِ واللِّينِ والبُعدِ عن التَّعنُّتِ والتَّعنِيفِ ، وهَذا ما يُؤدِّي إلَىٰ تَقريبِ وِجْهَاتِ النَّظَرِ وتَأليفِ القُلُوبِ .

وقَد تَجلَّت حِكمَةُ الرَّسُولِ ﷺ خِلالَ دَعوَتِه في مَواطِنَ كَثيرَة ، سَنتَناوَلُ أبرَزَها ، مِنْها مَا كَانَ مَع الخُصُوم ، ومنها مَع الجَاهِلِ مِنْ غَيرِ الخُصُوم . ولنَا في القِصَّتَينِ التَّاليتَينِ مِثالٌ نُوضِّحُ فيه الحِكمَةَ النَّبويَّةَ في التَّربيَةِ لنَستَضيءَ بِهَديِها :

أَتَىٰ (عُتبَةُ بنُ رَبيعَة) مُمَثِّلاً لِـمُشْـرِكي قُرَيش ـ وهو رَجُلٌ رَزينٌ هادِئٌ ـ بَينَ يَدَي الرَّسُولِ ﷺ فقَالَ للرَّسُولِ :

يا ابنَ أخِي ، إنَّكَ مِنَّا حَيثُ قَد عَلِمْتَ مِنْ السِّطَا (٢) في العَشِيرَة والمَكَانِ في النَّسَبِ ، وإنَّكَ قَد أَتيتَ قَوْمَكَ بأمْرٍ عَظِيم ، فَرَّقْتَ جَماعَتَهُم ، وسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلاَمَهُم ، وعِبْتَ بِهِ آلِـهَتَهُم ودِينَهُم ، وكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِم ،

(١) «مفهوم الحكمة في الدعوة» ، د.صالح بن عبد اللّـه بن حميد ، بحوث ودراسات إسلامية للشباب (٤) ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ، ص ٢٦ بتصرف .
(٢) الشَّـرَف .

فاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكَ أُمُوراً تنظُرُ فيها لعلَّكَ تَقبلُ مِنْها بعضَها ، فقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ**» .

فعَرضَ عَلَيه عُتبَةُ الشَّرَفَ والمَالَ والسِّيادَةَ.. ، وقَالَ لَه ما قَالَ ، حَتَّىٰ إذا فرغَ عُتبَةُ من كَلامِه ، ورَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يستَمعُ منه دُونَ مُقاطَعَتِه ، قَالَ لَه : «**أَوَ قَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟**» ، قَالَ : نعَم ، قَالَ ﷺ : «**فَاسْمَعْ مِنِّي**» ، قَالَ : أَفعَلُ ، فأخَذَ ﷺ يقرَأُ عَليه آياتٍ من سُورَةِ فُصِّلَت ، فَألقَىٰ عُتبَةُ يَدَيهِ وراءَ ظَهْرِهِ مُعتَمِداً عَليهما وهو يَستَمِعُ مُنصِتاً حَتَّىٰ انتهَىٰ الرَّسُولُ إلَىٰ السَّجدَةِ ، فسَجدَ ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : «**قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ فَأَنْتَ وَذَاكَ**» ، فقَامَ عُتبَةُ إلَىٰ أَصحَابِه ، فقَالَ بَعضُهُم : نَحلِفُ باللَّـهِ لَقَد جاءَكُم أبُوالوَليدِ بوَجْهٍ غَيرِ الذي ذَهَبَ بِه .

فطَلَبَ مِنهُم عُتبَةُ أَنْ يَدَعُوا الرَّسُولَ وشَأنَه ، قائلاً لهم : إنْ تُصِبهُ العَربُ فقَد كُفيتُمُوهُ بغَيرِكُم ، وإنْ يَظهَرْ عَلَيكُم فعِزَّهُ عِزُّكُم ، فَأَبَـوا وقَالُوا لَه : سَحَرَكَ يا أَبا الوَليد بلِسَانِه (١) .

هذه القِصَّةُ كُلُّها دُرُوسٌ وعِبَرٌ في الدَّعوَةِ بالحِكمَةِ تَجلَّت في حِوارِ الرَّسُولِ ﷺ مع عُتبَة ، جَعلَت منه حِواراً ناجِحاً بكل ما تَضمَّنَته مَقاييسُ النَّجاحِ المُتصوَّرَة ، فالرَّسُولُ ﷺ راعَىٰ في حِوارِه ما يَلي :

(١) «هذا الحبيب يا محب» ، لأبي بكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ٦٩ ، «فقه السيرة» ، محمد الغزالي ، خرج الأحاديث : محمد ناصر الدين الألباني ، الندوة العالمية للشباب ، ص ١٠٧ ـ ١٠٩ ، «الرحيق المختوم» ، للمباركفوري ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

* احترامُ الطَّرفِ الآخر مع أنَّه مُشرِكٌ مُعادٍ ، فكَانَ الرَّسُولُ يُناديه يا أبَا الوَليدِ مُبدِياً اهتمامَه به .

* الهُدوءُ في الحِوَارِ ، فلَوْ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ أجابَه مُغضَباً : وَيْحَكَ يا أبا الوَليدِ جِئتُكُم بالحَقِّ لأُنقِذَكُم من النَّارِ إلىٰ الجَنَّةِ وتُكذِّبُونَني وتُبارِزُونَنِي بالعِداءِ! لانْتقَلَ الغَضبُ إلىٰ عُتْبَةَ ولَـما استمرَّ الحِوَارُ ، ولَـمْ يتحقَّق النَّجاحُ الذي تَمَّ . فإنْ يَكُنْ المَرءُ علىٰ حَقٍّ فلا يَعنِي أنْ يَصرُخَ ويَغضَبَ ، بَلْ يَثبُتُ مُتَّزِناً ، هادِئاً ، واثِقاً مُطمَئِناً .

* أحْسَنَ ﷺ (1) مَهارَةَ الإنْصاتِ ، واستَمَعَ مُهْتماً مُنْتَبِهاً لِـما يَقُولُ (عُتبَةُ) ، مع أنَّ ما يَقُولُه باطِلٌ ، ويَستَدعِي المُقاطَعَة والصَّدَّ ، فلَمْ يُقاطِعْهُ ﷺ بلْ مَنحَهُ فُرصَةً أُخرىٰ لإضافَةِ أيِّ شَيءٍ رُبَّما نَسيَه أو غَفلَ عَنه ـ «**أَوَ قَد فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ**» ـ فهَذا خُلُقٌ رَفيعٌ ، وأدَبٌ جَمٌّ ومَهارَةٌ فائقَةٌ ، في الحِوَارِ مع الخُصُوم وغَيرِهِم ، يُعطِي انطِباعاً للمُستَمِع بأنَّه مَحلُّ اهْتِمامٍ ، فيَطمَئِنَّ قَلبُه ويُبادِلُ الطَّرَفَ الآخَرَ بنَفسِ الاهْتِمامِ والإنْصاتِ (2) ، وإنَّ مِنْ أبْرَزِ مُعوِّقاتِ الحِوارِ الاستِخْفافُ بالطَّرَفِ الآخَرِ وتَسفِيهه ، والسُّخرِيَةِ مِنهُ أو مِنْ آرائِهِ . فحُسْنُ الإصْغاءِ عَامِلٌ هَامٌّ جِداً للتَّواصُلِ الفَعَّالِ بَينَ المُتحاوِرِينَ ، يُؤدِّي إلىٰ الشُّعُورِ بالارتياحِ والتَّقَبُّلِ ، ويُكسِبُ احتِرَامَ الطَّرَفِ الآخَرِ .

(1) «كيف تحاور» ، أ.د/ طارق بن علي الحبيب ، ط15 ، مؤسسة الجريسي للنشر والتوزيع ، 1427هـ / 2006م ، ص 64 ، وانظر : «مهارات الاتصال» ، تحرير : د. نوح الشهري ، ط1 ، دار حافظ ، 1431هـ ، مهارات الإنصات ، ص 38-136 .

(2) «في أصول الحوار» ، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ط5 ، عام 1419هـ / 1998م ، ص 16 .

وأحْسَنَ ﷺ العَرضَ ، فلَمْ يُدافِعْ ، ولَـمْ يُخطِّئهُ ، ولَـمْ يَعجَلْ عَلَيه ، فهُو رَسُولٌ ، عَرضَ رِسالَتَه بكَلِماتِ المُرسِلِ وهُو اللَّـهُ جَلَّ وعَلَا ، لِيَعرِفَ مُحدِّثُه حَقيقَةَ الرِّسالَةِ والرَّسُولِ ، فهُو يَحمِلُ كِتاباً من الخَالِقِ إلَىٰ الخَلقِ ، وقد عُلِمَ عَنه ﷺ صِفَةَ العَقلِ والرَّزانَةِ لَدَىٰ مُحاوِرِه ، فقدَّرَ لَه ذَلكَ ، وارْتَقَىٰ بحِوَارِه مَعَه إلَىٰ كَلِماتِ اللَّـهِ ، فكَانَت نِهايَةُ الحِوَارِ بهَذِهِ الحِكْمَةِ البَالِغَةِ من الرَّسُولِ ﷺ أنْ اكْتَسَبَ المَوَدَّةَ والاحتِرامَ من الطَّرَفِ الآخَرِ ، «فعِزَّهُ عِزُّكُمْ» ، ولَوْلا عَفَنُ الجَاهِلِيَّةِ لأسْلَمَ أبُو الوَليدِ . فنُلاحِظُ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ هُو مُبدِعُ ما يُسَمَّىٰ في العَصرِ الحَديثِ بـ (مَنهَج فَنِّ الإصْغَاءِ والحِوَارِ الهَادِئ) ، وذَلكَ بأُسلُوبٍ عِلميٍّ فَعَّالٍ ، وهُو هَامٌّ جِداً مَع مَنْ يُخالِفُنا الرَّأيَ ، والذي مِنْ أهَمِّ مَزاياهُ ما يَلي :

- يُنبِئُكَ بما يَجري حَولَك ، ويَجعَلُكَ أكثَرَ تَمكُّناً .
- يُعطيكَ فُرصَةً للتَّفكيرِ ، ويَزيدُ من قُوَّتِكَ .
- يُساعِدُكَ عَلَىٰ النَّفاذِ إلَىٰ نُفُوسِ وقُلُوبِ الآخَرينَ .
- يُكْسِبُكَ الاحتِرَامَ .
- يَمتَصُّ غَضبَ الآخَرينَ ، ويَمنَحُكَ حُبَّهُم .

وقد وَرَدَ عنه ﷺ أنَّه كَانَ أرَقَّ ما يَكُونُ في حِوارِهِ ، وأفسَحَ ما يَكُونُ صَدراً لمُخالِفيهِ ، فقَد كَانَ يُحاوِرُ صَناديدَ الكُفْرِ ، فَلنُوسِعْ صُدُورَنَا ونَسمَعْ آرَاءَ مَنْ حَولَنا وإنْ خَالَفُونَا .

وفي قصَّةِ الأعْرابيِّ الذي بَالَ في المَسجِدِ ، فَثارَ إلَيه النَّاسُ ليَقعُوا به ، فقَالَ لَهم رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**دَعُوهُ وَأَهْرِقُوا عَلَىٰ بَوْلِهِ ذَنُوباً مِنْ مَاءٍ ، فَإنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبعَثُوا مُعَسِّرِينَ**» (١) . فَما كَانَ من الأعْرابيِّ إلَّا أنْ قَالَ : اللَّهُمَّ ارحَمنِي ومُحمَّداً ولَا تَرحَمْ مَعَنا أحَداً ، فضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ وقَالَ لَه : «**لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعاً**» (٢) .

هَذه القِصَّةُ إنْ دَلَّتْ عَلَىٰ شَيءٍ فإنَّها تَدلُّ عَلَىٰ تَربيَتِه الحَكيمَة ﷺ بالحُبِّ ، وعَدمِ التَّعجُّلِ والهُدوءِ في التَّعامُلِ ، مَع مُراعَاةِ عُقُولِ ومُستَوىٰ فَهمِ المَدعُوينَ .

في بِدايَةِ القِصَّةِ استَنكَرنا هَـٰذا الفِعلَ من الأعْرابيِّ ، ولَوْ كُنَّا مع الصَّحابَة لبَادَرنا إلَىٰ الإنْكَارِ مِثلَهُم ، ولَرُبَّما أشَدَّ مِنهُم . ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ بِحكْمَتِه في الدَّعوَةِ وحِلمِه في التَّصرُّفِ مع أخْطاءِ الآخَرينَ لَـمْ يَتعَجَّلْ عَليه ، فكَانَ مَنهجاً في فَنِّ التَّعامُلِ مَع الطَّرَفِ الآخَرِ .

فكَانَت النَّتيجَةُ النَّجاحَ التَّامَّ للدَّاعِيَةِ الرَّاقِي ، والاستِجابَةَ القَويَّة المُتفاعِلَةَ مِنْ المَدعُو ، حَيثُ قَالَ : اللَّهُمَّ ارحَمْنِي ومُحمَّداً .

فَالنُّفُوسُ مَجبُولَةٌ عَلَىٰ حُبِّ مَنْ يُحسِنُ إلَيها ، ويَتلَقَّاهَا باللِّين ، ويَسعَىٰ لَها في المُحيَّا . وصَاحِبُ التَّرويضِ النَّاجِح هو الذي يُبصِّرُ تِلكَ النُّفُوسِ مَا يَنفعُها

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١٠٨٤ ، رقم الحديث : ٦٠١٠ .

(٢) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١١٠٠ ، رقم الحديث : ٦١٢٨ ، وانظر : «مناحل الشفا ومناهل الصفا» بتحقيق كتاب «شَرف المصطفىٰ» ﷺ ، أبي القاسم القشيري ، مرجع سابق ، ٤/ ٥١٧-٥١٨ .

سَواءٌ بِالقَولِ أو بالتَّعامُلِ بتَرفُّقٍ ولُطفٍ وسَعَةِ صَدرٍ مع مُراعَاةِ المَدخَلِ الحَسَنِ والمُناسِبِ لنُفُوسِهِم ، لأنَّ النَّاسَ مُتَبايِنُونَ في طَبائِعِهِم ، مُختَلِفُونَ في مُدرَكاتِهِم ، وفي عِلمِهِم وجَهْلِهِم وذَكائِهِم ، وأعْمَـارِهِم وأَمزِجَتِهِم ومَشاعِرِهِم ، أو في مُيُولِـهِم واتِّجاهاتِهِم ، وفي هُدوئِهِم وفي غَضَبِهِم [1] .

فَالحِكمَةُ من الدَّاعِي تَتطَلَّبُ رَوِيَّةً بأنْ يَصِلَ إلىٰ عَقلِ المَدعُو بعدَ أنْ يَملِكَ قَلبَه ، وإذَا لَـمْ يَستَطِعْ الدَّاعِي أنْ يَملِكَ قَلبَ المَدعُو انغَلَقَ عَقلُهُ ، ورَفَضَ رَفضاً تَامّاً ما يُدعَىٰ إلَيه ، فَرجُلُ الحِكمَةِ والدَّعوَةِ والفِطنَةِ ، يَتخَـيَّرُ المَدخَلَ الأنْسَبَ لتِلكَ النُّفُوسِ المُختَلِفَة ، والعُقُولِ المُتبايِنَة ، ويُحسِنُ الحِوَارَ والعَرضَ ، ويَحتَرِمُ الطَّرفَ الآخَرَ ومَشاعِرَهُ . ويَعذُرُ للجَاهِلِ جَهلَهُ ، فعِندَما يَبدَأُ الحِوارَ بلُغَةٍ هَادِئةٍ وَدُودَةٍ ، تَكُونُ نِهايَته المَوَدَّةُ والاحتِرامُ والتَّوفيقُ ، فمَنْ لانَتْ كَلمَتُه وَجَبَتْ مَحبَّـتُه .

فَكيْفَ نُقابِلُ جَهلَ النَّاسِ ومُنكَراتِهِم؟ هَلْ نُعالِـجُـها بالحُبِّ والحِكمَةِ واللِّـينِ والتَّقَـبُّلِ وسَعَةِ الصَّدرِ لنُخرِجَهُم من الظُّلماتِ إلىٰ النُّورِ ، ومن الجَهلِ إلىٰ العِلمِ ، أم نَجهَلُ فَوقَ جَهلِ الجَاهِلينَ؟!

(١) «مفهوم الحكمة في الدعوة» ، د.صالح بن حميد ، مرجع سابق ، ص٢٠ - ٢١ .

المطلَبُ الخامِس
التَّعليمُ والنَّصيحَةُ بالمُلاطَفَةِ والحُبِّ

لقَد كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ من الحُبِّ والرَّأفَةِ والرَّحمَةِ وحُبِّ اليُسْرِ والرِّفْقِ بالمُتَعلِّمينَ في الذِّرْوَةِ المُثلَىٰ والخُلُقِ الأعلَىٰ. فأيُّ مُعلِّمٍ أثَّرَ في البَشَريَّة تأثِيرَهُ؟ فقَد تقَبَّلَ النَّاسُ ـ علَىٰ اختلَافِ ألوَانِهم وألسِنَتِهم ـ دينَه وأحَبُّوا شَريعَتَه، واتَّخذُوهُ القُدوَةَ الحَسنَةَ في سَائرِ شُؤُونِ الحَياةِ، مَنْ لِهَـٰذا العَمَلِ العَظيمِ سِوَىٰ هَـٰذا الرَّسُولِ الكَريم النَّبيِّ المُربِّي العَظيم (١).

لقَد كَانَت لِرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ أسَاليبُ لَطيفَةٌ مُتعَدِّدَةٌ للتَّوْجيهِ والنَّصيحَةِ والإرشَادِ، منها أنَّه يُثِيرُ الشَّوْقَ في المُتعَلِّم قبلَ أنْ يُلقِي عَليه العِلمَ أو النَّصيحَةَ. وللتَّشويقِ أسَاليبُ كَثيرةٌ .. أهَمُّها: الجَذبُ العَاطِفيُّ نَحوَ المُعَلِّم والتَّلطُّفُ بالمُتعلِّم (٢)، فذَلِكَ شَكلٌ من أشكَالِ التَّربيَةِ والتَّعليم بالحُبِّ، حَتَّىٰ يَكُونَ تَلَقِّي المُتعَلِّم من المُعَلِّم أوْثَقَ وأتَمَّ.

فعَنْ مُعاذِ بن جبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ أخَذَ بيَدِه يَوماً ثمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ، واللَّـهِ إنِّي لأُحِبُّكَ**»، فقَالَ له مُعَاذُ: بأبي أنتَ وأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّـهِ، وأنَا واللَّـهِ أُحِبُّكَ. قَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبَادَتِكَ**».

---

(١) «الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم»، بقلم الشيخ عبد الفتاح أبوغدة، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط٢، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ٢١، ٢١٧.

(٢) «نبي الهدى والرحمة»، للدكتور عبد المجيد البيانوني، مرجع سابق، ص ١٧٤.

وفي آخِرِ الحَديثِ أنَّ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَوْصَىٰ بها مُعاذَ الصَّناجيَّ، وأَوْصَىٰ بها الصَّناجيُّ أبا عَبدِ الرَّحمَـٰنِ، وأَوْصَىٰ بها أبو عَبدِ الرَّحمَـٰنِ عُقْـبَةَ بنَ مُسلِمٍ (١).

ففي أَخْـذِ الرَّسُولِ ﷺ يَدَ مُعاذٍ إيناسٌ وتَنبيهٌ، ويَعنِي ذَلكَ:

* أنَّ اللَّمسَةَ الحانيَةَ تُظهِرُ مَدَىٰ حُبِّ المُعلِّمِ النَّاصِحِ، واهْتِمامِه وحِرصِهِ بالمُتَعَلِّمِ، فتُسْرِي في قَلبِ المُتَعَلِّمِ السَّكينَةَ والسُّرُورَ.
* وهَـٰذا ما أَشارَ إِلَىٰ أَهمِيَّتِه عُلَماءُ النَّفسِ في العَصرِ الحَديثِ والتَّربَويُّونَ، إذْ أنَّ هَـٰذا المَنهَجُ هُو من أهَمِّ وَسائِلِ التَّربيَةِ بالحُبِّ (٢).
* وهَـٰذه اللَّمسَةُ الحانيَةُ، لَمسَةُ الحَنانِ في التَّعليمِ تُؤدِّي إِلَىٰ حُبِّ المُعلِّمِ والانتِباهِ لِـمَا يَقُولُ نَتيجَةَ التَّواصُلِ الجَسَديِّ بَينَ المُعلِّمِ والمُتعَلِّمِ.

وتُثيرُ انتِباهَ المُخاطَبِ نَتيجَةَ اهْتِمامِ المُعلِّمِ النَّاصِحِ بالمُتَعَلِّمِ المُصْغِي، فيُلْقِي المُتَعَلِّمُ إلَيه سَمعَهُ وبَصرَهُ وقَلبَهُ، فيَكُونُ أَوْعَىٰ لِـمَا يَسمَعُ وأَذْكَرَ (٣).

كَلمَةُ «**واللَّـهِ إنِّي أُحِبُّكَ**» من الحَديثِ، فيها تَحريكٌ للمَشاعِرِ، وجَذبٌ عاطِفيٌّ نَحوَ المُعلِّمِ فيَكُونُ تَلَقِّي المُتَعَلِّمُ منه أَوثَقَ وأَتَمَّ، واطمِئنانٌ تامٌّ للمُعَلِّمِ،

(١) «الترغيب والترهيب»، مرجع سابق، ج٢، الترغيب في آيات وأذكار بعد الصلوات المكتوبات، ص ٤٥٤، رقم الحديث: ١٣.

(٢) موقع د. ميسرة طاهر، التربية بالحب، مرجع سابق، وسائل التربية بالحب: لمسة الحب.

(٣) «الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم»، الشيخ عبد الفتاح أبوغدة، مرجع سابق، ص ١٧٦.

مِـمَّا يُفضي إلىٰ حُسنِ القَبُولِ الجَالِبِ لِـمُمايَلَةِ القُلُوبِ ، حَتَّىٰ تَشرَعَ إلىٰ الطَّاعَةِ وتُذعِنَ بالمُوافقَةِ (١) .

وتَظهَرُ آثارُ النَّصيحَةِ عَلىٰ المَنصُوحِ بالالتِزامِ بها والمُداوَمَةِ عَلَيها والنُّصحِ لِغَيرِهِ بها .

فخَيرُ وَسيلَةٍ للتَّعليم بأنْ تَكُونَ النَّصيحَةُ مُغلَّفَةً بغِلَافِ العَطفِ والحُبِّ والحَنانِ ؛ لأنَّ المحبَّـةَ تُغذِّي الأرْوَاحَ والقُلُوبَ ، فيَكُونُ قَبُولُها أسرَعَ وأرْسَخَ . ويَتقبَّلُها المَنصُوحُ بقَبُولٍ حَسَنٍ ، ويَعلَمُ مَدَىٰ حِرصِ النَّاصِحِ عَلىٰ مَصلَحَتِه . وتَنتَشِرُ المحبَّـةُ والموَدَّةُ وحُبُّ الخَيرِ بَينَ النَّاسِ ، وبذَلِكَ يَتحقَّقُ الكَمالُ الإنسانيُّ (٢) . عَلىٰ عَكسِ الفَظاظَةِ والغِلظَةِ في النُّصحِ والتَّعليمِ والتي تُؤدِّي إلىٰ فَسادٍ أكبَرَ، وإلىٰ جَفاءِ القُلُوبِ ، وانْهيارِ العَلاقَاتِ الاجتِماعيَّة .

وفي حَديثِ مُعاوِيَةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ ، الذي كَانَ يُصلِّي مَع رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فعَطَسَ رَجُلٌ مِنْ القَومِ ، فقَالَ لَه : «يَرحَمُكَ اللَّـهُ» ، فرَماهُ القَومُ بأبْصارِهِم ، فقَالَ : «وَاثكْلَ أُمِّيَاه ، مَا شَأْنُكُمْ تنظُرُونَ إليَّ؟» فجَعَلُوا يَضرِبُونَ بِأيْدِيهِم عَلىٰ أفْخاذِهِم ، يَقُولُ : «فَلَمَّـا رَأَيْتُهُم يُصَمِّتُونَنِي سَكَتُّ ، فَلَمَّـا صَلَّىٰ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ دَعاني ، فبِأبي هُوَ وأُمِّي ، مَا رَأَيتُ مُعَلِّماً قَبلَهُ

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٢) موسوعة «نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ» ، إعداد مجموعة من المختصين ، مرجع سابق ، ج٨ ، انظر : فوائد المحبة ، ص ٣٣٥٦ .

ولا ضَرَبَني ولا شَتَمَني ، ولا بَعدَهُ أحسَنَ تَعليماً مِنهُ ، فوَاللَّـهِ ما كَهَرَني (١) ، قَالَ ﷺ : «**إنَّ هَـٰذِهِ الصَّلَاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ والتَّكْبِيرُ وقِرَاءَةُ القُرْآنِ**» (٢) .

إنَّ أخطَرَ مَراحِلِ الدَّعوَةِ هي مَرحَلةُ البِدايَةِ التي يَتأسَّسُ فيها المَدعُو ، ويَأخُذُ انْطِباعاً عن الدَّعوَةِ ورِجالِـها ، وفيها يَتحَدَّدُ مَصيرُهُ أيَنطَلِقُ أم يَتنَحَّىٰ . فالمَدعُو بطَبيعَتِه بَعيدٌ عن الالتِزامِ ، يَحتاجُ إلى مَنْ يَأخُذُ بيَدِه برِفْقٍ وحَنانٍ .

وقَد رَسَمَ لنَا ﷺ المَنهَجَ الذي نُعامِلُ به أمثَالَ (مُعاوِيَةَ السُّلَميِّ) باللِّينِ والوُدِّ والرَّحمَةِ ، مِـمَّا أُعجِبَ به مُعاوِيَةُ ، وقَدَّرَ ذَلكَ في شَخصِ الدَّاعِيَةِ الأعظَمِ ﷺ .

---

(١) نَهَرني .

(٢) «صحيح مسلم» ، ج١ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ، ص ٣٨١ ، رقم الحديث : ٥٣٧ .

المطلَبُ السَّـادِس
الإقْنَـاعُ بالحِوَارِ والحُبِّ

بمَنظُورِ عِلمِ الاتِّصالِ الحَديثِ يُمكنُ القَولُ إنَّ الحِوارَ [1] :

هُو تلكَ العَمليَّة الاتِّصاليَّة التي يَتفاعَلُ خِلاَلَها طَرفَا عَمليَّةِ الحِوارِ «المُرسِلُ» و«المُستَقبِلُ» أو«المُحاوِرُ» و«المُحاوَرُ» ، ذِهْنيّاً ، ونَفسيّاً ، وسُلُوكيّاً ، من خِلَالِ تبادُلِ الحَديثِ ، أو طَرحِ التَّساؤُلاتِ وتَقديمِ إجاباتٍ عَلَيها ، لتَحقيقِ أَهْدافٍ مُحدَّدَةٍ .

إنَّ الحِوارَ بَينَ الأشْخاصِ المَبنِيَّ عَلَىٰ الصَّراحَةِ ، والذي يُغَلِّفُهُ الاحترامُ والتَّقديرُ لَهو حِوارٌ رَاقٍ ، وما أجمَلَ العَلاقَةَ التَّربَويَّةَ عِندَما تَقُومُ عَلَىٰ الحُبِّ والمُباسَطَةِ والقَناعَةِ والاحترامِ ، فتَكُونُ بذَاكَ قَد جمَعَت التَّربيَةَ مِنْ أطْرَافِها ، وتِلكَ هي تَربيَةُ نَبيِّنا ﷺ .

فيَومَ أُعطِيَت غَنائِمُ حُنَينٍ للمُؤلَّفَةِ قُلُوبُهم ، ولَـمْ يُعْطَ الأنْصَارُ شَيئاً مِنْها وما تَزالُ وجُوهُهُم مُعفَّرَةً بغُبارِ الغَزوَةِ مع الرَّسُولِ ﷺ وَجَدُوا في أنْفُسِهم ، وغَضِبُوا ، وشَعُرُوا أنَّهم أصْبَحُوا قِلَّةً وَسَطَ هَـٰذا العَدَدِ الهَائِلِ مِنْ الجَيشِ والنَّاسِ ، حَتَّىٰ قَالَ قَائِلُهُم : «لَقِيَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ قَوْمَهُ» .

وأَخبَرَ سَعدُ بنُ عُبادَةَ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ بذَلكَ ، فقَالَ لَه ﷺ : «**فَأَيْنَ أَنْتَ يَا سَعْدُ**» ، قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : «أنَا مِنْ قَوْمِي» ، قَالَ ﷺ : «**فَاجْمَعْ قَوْمَكَ لِي**» ،

(١) «مهارات الاتصال» ، د. نوح الشهري ، مرجع سابق ، مفهوم الحوار ، ص ١٠٦ .

فجمَعَهُم ، فأتاهم رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ فقالَ : «**مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟! أَلَـمْ آتِيكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللَّـهُ بِي؟ وفُقَرَاءَ فَأَغْنَاكُمُ اللَّـهُ بِي؟ وَأَعْدَاءَ فَأَلَّفَ اللَّـهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِي؟**» ، قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّـهِ ، ولِلَّـهِ ولِرَسُولِهِ المَنُّ والفَضْلُ ، فقَالَ : «**أَلَا تُجِيبُونِي؟**» ، قَالُوا : بِمَاذَا نُجِيبُكَ؟ ، فقَالَ ﷺ : «**وَاللَّـهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَصَدَقْتُمْ : أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ ، وَعَائِلاً فَوَاسَيْنَاكَ ، أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَىٰ إِسْلَامِكُمْ!**» .

ثُمَّ خَتَمَ بكَلِماتٍ خَالِداتٍ فقَالَ ﷺ : «**أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّـهِ إِلَىٰ رِحَالِكُمْ؟** ، **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْـهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَسَلَكَتْ الأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ ، وَأَبْنَـاءَ أَبْنَـاءِ الأَنْصَارِ**» ، فبَكَىٰ القَوْمُ حَتَّىٰ أَخضَلُوا لِحَاهُم بالدُّموعِ ، وقَالُوا : رَضِينا بِرَسُولِ اللَّـهِ قَسماً وحَظًّا ، وتَفرَّقُوا وعَادُوا إِلَىٰ رِحَالِهِم (١) .

فهَلْ هُنَاكَ أَرْقَىٰ مِنْ هَـٰذا الحِوارِ التَّربَوِيِّ النَّبَوِيِّ ، الذي يَشعُّ عَدلاً وحُـبّاً ووُدّاً ولُطْفاً من قَائِدٍ يُذَكِّرُ بالفَضلِ ، ويُقِرُّ به أيضاً . تِلكَ هي مِشْكَاةُ النُّبوَّةِ التي نَستَقِي منها دُرُوساً أهَمُّها :

(١) «هذا الحبيب يا محب» ، لأبي بكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢ .

* حُريَّةُ إبْداءِ الرَّأي ، فقَد رَبَّاهُم سَـيِّدُ البَشَرِ عَلَىٰ الشَّجاعَةِ ، فلَمْ يَمنَعهُم تَوقِيرُهُ واحتِرامُهُ ـ رَغْمَ أنَّه نبيٌّ ـ أنْ يُراجِعُوهُ .
* فَهِمَ مِنهُم واستَنطَقَ غَضبَهُم ، ثُمَّ أوْضَحَ لَـهُم [1] .
* لَـمْ يَلُمْ الرَّسُولُ ﷺ سَعداً لعَدَمِ رَدِّهِ عَلَىٰ الأنْصارِ .
* لَـمْ يَسأَلْ عَنِ الشَّخصِ الذي قَالَ : (لَقِيَ رَسُولُ اللَّـهِ قَوْمَه) ، ومَعنَىٰ ذَلكَ أنَّه لَـمْ يُحابِ ﷺ لقَومِه بدَافِعِ العَصبيَّة .
* سَألَ ﷺ سُؤالاً عَامّـاً «**أَيْنَ أَنْتَ مِنْهُم؟**» ، وجَعلَ الحَديثَ للجَميعِ ليُواجِهَ المُشكِلَةَ من أساسِهَا [2] .
* لِنَنظُرَ إلَىٰ تَدرُّجِ الرَّسُولِ ﷺ في الحِوارِ : فقَبلَ أنْ يُوضِّحَ ﷺ السَّببَ في عدَمِ إعْطَائِهِم ، وَضَعَ نَفسَهُ في مَكانِهِم مُقَدِّراً ما يَجيشُ في صُدُورِهِم ليُجِيبَ عَنهُ ، فَأوْضَحَ مَزاياهُم وفَضلَهُم وتَضحِياتِهِم التي قَدَّمُوهَا للإسلَامِ وللرَّسُولِ ، وهَـٰذا إقْرارٌ عَمَليٌّ مَنطُوقٌ منه ﷺ ، وأنَّ ذَلكَ عِندَه لَـمْ ولَنْ يَنسَاهُ .
* خَتمَ حِوارَهُ مَعهم بإعطَائِهِم أشْرَفَ وِسَامٍ ، بأنَّهم الأَعلَىٰ كَعْباً في الإسلَامِ ، لذَلكَ أوْكَلَهُم إلَىٰ إسلامِهِم ثُمَّ أعطَاهُم الجَوائِزَ : «**أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَعُودَ النَّاسُ بِالشَّاةِ ..**» ودَعا بالرَّحمَةِ لهم ولأبنَائِهم وأحفَادِهم .

لقد تَمَّ عِلاجُ هذه المُشكلَة بالحُبِّ الرَّاسِخِ الذي زَرعَهُ ﷺ في قُلُوبِهم ورَبَّاهُ فِيهِم ، فاستَنَدَ عَلَيه ثَابتاً مُطمَئنّـاً ، وأزَالَ مَا عَلَقَ من غَبشٍ حَولَه ، ولَوْ

---

(١) «كيف تحاور» ، أ.د.طارق بن علي الحبيب ، مرجع سابق ، ص ٤٦ .

(٢) «في أصول الحوار» ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، مرجع سابق ، انظر : ص ١٧ .

كَانَ هَـٰذا الأمرُ في غَيرِ التَّربيَةِ النَّبويَّةِ وجَيشِ النُّبوَةِ ، وفي غَيرِ مِيزانِ اللَّـهِ ، لأحدَثَ هَـزَّةً عَنيفَةً وفِتنَةً داخِلَ الجَيشِ وتَفرَّقَ شَملُهُ ، وما كَانَت تَقُومُ لَه قائمَةٌ بعد ذَلكَ (١) .

أَلا ما أَروَعَ هَـٰذا الحُبَّ في تِلكَ النُّفُوسِ الشَّامخَةِ ، التي أَعطَت الدُّنيا لتَكْسِبَ سَـيِّدَها بِلا نِزاعٍ ، إنَّ كَلمَةَ الحَقِّ لا تُجاوِزُ الأسماعَ إِلَىٰ القُلُوبِ إلَّا إذَا تَوجَّهَت إِلَىٰ تِلكَ القُلُوبِ بحُبٍّ وحِكمَةٍ واتِّزانٍ (٢) .

هَـٰذه هي التَّربيَةُ النَّبويَّةُ التي وَظَّفَت الحُبَّ ، فتَربَّىٰ فيها جيلٌ فَريدٌ يَحمِلُ رِسالَةً عَظيمَةً ، تِلكَ التَّربيَةُ الفَذَّةُ التي تَسمَحُ للنَّفسِ أنْ تُنطِقَ ذَاتَها وتُعبِّرَ عن مَكنُوناتِها (٣) ، لأنَّها لَنْ تَستَقِرَّ إنْ لَـمْ تُعَبِّرْ عَمَّـا يَعتَلِجُ في داخِلِها ، ليَعيشَ الحُبُّ آمِناً مطمَئنَّاً هَادِئاً هَانِئاً بَينَ خَلَجاتِها .

إنَّ الحِوارَ ضَرورَةٌ تَربَويَّةٌ ، لِذَا كَانَ حَريَّاً بالآباءِ ومَنْ هُم في عِدادِ المَسؤُوليَّة من مُديرِينَ وغَيرِهِم أَلَّا تَكُونَ عَلاقَتُهُم سُلطَويَّةً في تَربيَتِهِم لِـمَنْ تَحتَهُم ؛ لأنَّ التَّسلُّطَ فيه إلغَاءٌ للطَّرَفِ الآخَرِ ، وانتِقاصٌ من قَدرِه ، وإمَاتَةٌ لرُوحِ الإبْدَاعِ فيه ، واضْمِحْلالٌ لمَشاعِرِ الحُبِّ التي يَحمِلُها تجاهَه ، بلْ يَجبُ إعطاءُ الفُرصَةِ للطَّرفِ الآخَرِ المُخالِفِ كَي يُخرِجَ كُلَّ ما لَدَيه بغَضِّ النَّظرِ عَن عَدَمِ التَّوافُقِ مَعَه .

---

(١) «فقه السيرة النبوية» ، منير الغضبان ، ط٤ ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، المملكة العربية السعودية ، وزارة التعليم العالي جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، انظر : ص ٥٨٣ .

(٢) «كيف تحاور» ، د. طارق الحبيب ، مرجع سابق ، انظر : ص ٦٩ .

(٣) «نحو نفس مطمئنة واثقة» ، د.طارق الحبيب ، ط١ ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م ، ص ١٤ .

أَهَمـيَّةُ الحِــوارِ [1] :

* وَسيلَةٌ لتَبادُلِ الآراءِ وتَقريبِ وِجهَاتِ النَّظَرِ للوُصُولِ إِلَىٰ الحَقِّ .
* تَقويَةُ الرَّوابِط الاجتماعيَّة وتَعميقَها وتَحقيقُ التَّعارُفِ والتَّآلُفِ والثِّقَةِ بالآخَـرينَ ، فمُعظَم أسبابِ تَفكُّـكِ العَلاقَاتِ الاجتماعيَّـة والأُسَـريَّة والزَّوجيَّة هو الافتِقارُ إِلَىٰ الحِوارِ والمُناقَشَة .
* الحِوارُ ضَرورَةٌ تَربويَّةٌ ، فهُو من أحسَنِ الوَسائلِ المُوَصِّلةِ إِلَىٰ الإقنَاعِ ، وتَغييرِ الاتِّجاهاتِ والسُّلوكِ إِلَىٰ الأحسَنِ ، وتَتجَلَّىٰ أَهَميَّـتُه في دَعمِ النُّموِّ النَّفسيِّ ، والتَّخفيفِ من مَشاعِرِ الكَبتِ ، وتَحريرِ النَّفسِ من الصِّراعَاتِ والمشَاعِرِ العِدائيَّـةِ والمَخاوِفِ والقَلَق .
* الحِوارُ فيه تَرويضٌ للنُّفوسِ عَلَىٰ قَبُولِ النَّقدِ واحتِرامِ آراءِ الآخَرينَ ، وإِذْكَاءِ رُوحِ الشُّورَىٰ .
* الحِوارُ طَريقٌ آمِنٌ لإيجادِ حُلُولٍ للقَضايا المُختَلِفَة ، فهُوَ يُبلورُ ويُبرزُ أَنْقَىٰ وأَذْكَىٰ ما تُنتِجُه العُقُولُ من آراءٍ لحَلِّ القَضايا والمُشكِلَاتِ الأُسَريَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والثَّقافيَّة والتَّعليميَّة .

فبالحُبِّ والحِوارِ وحُريَّةِ التَّعبيرِ والإقناعِ نَتخَلَّصُ من الآثَارِ السَّلبيَّةِ في النَّفسِ ، ونَستَبدِلُها بالوُدِّ والرِّضَا والوِئامِ ، حَتَّىٰ لا تكُونَ عَلاقَةَ خُنُوعٍ دُونَ اقتِناعٍ ، وخَوفٍ دُونَ احتِرامٍ .

---

(١) «مهارات الاتصال» ، د. نوح الشهري ، مرجع سابق ، أهمية الحوار ، ص ١٠٩-١١٠ .

المطلَبُ السَّـابع
تَغييرُ السُّـلُوكِ والإصْلَاحُ بالحُبِّ

ما أَجملَ مُمارَسَةَ حَقِّ التَّعبيرِ عن الرَّأي، وحُريَّةَ التَّعبيرِ عن الانفِعَالاتِ، دُونَ رَهَبٍ أو خَوْفٍ.

وقَد سَبقَ لنَا في المَطلَبِ السَّابقِ أنْ تَحدَّثنا عن أنَّ النَّفسَ لَنْ تَستَقِرَّ وتَطمَئنَّ، إلَّا إذَا عَبَّرت عن حاجَاتِها وانفعَالاتِها لِـمُرَبٍّ أو أَبٍ أو مُرشِدٍ يُوثَقُ بِهِ.

ولنَنظُرْ إلَىٰ تَربيَةِ الرَّسُولِ ﷺ في ذَلكَ.

رَوَىٰ أبو أُمامَةَ البَاهِلِيُّ أَنَّ فتىً شَابّاً أَتَىٰ النَّبيَّ ﷺ (١)، فقَالَ: يا رَسُولَ اللَّـهِ، ائذَنْ لي بالزِّنَا، فأَقبلَ القومُ علَيه فزَجرُوهُ، وقَالُوا: مَهْ مَهْ، فقَالَ ﷺ: «**ادْنُهْ**»، فدَنَا منه قَريباً، قَالَ فجلسَ، فقَالَ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**» قَال: لَا واللَّـهِ جَعلَني اللَّـهُ فِدَاءَكَ، قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**»، قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟**» قَالَ: لَا واللَّـهِ يا رَسُولَ اللَّـهِ جَعلَني اللَّـهُ فِدَاءَكَ، قَالَ ﷺ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِم**»، قَالَ ﷺ: «**لِأُخْتِكَ؟.. لِعَمَّتِكَ.. لِخَالَتِكَ..**» والشَّابُّ يُجيبُ في كُلِّ واحِدَةٍ: لَا، جَعَلَني اللَّـهُ فِدَاءَكَ، فوَضَعَ يَدَهُ ﷺ عَلَيه، وقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»، قَالَ الرَّاوي: فلَمْ يَكُنْ الفتَىٰ بَعدَ ذَلكَ يَلتَفِتُ إلَىٰ شَيءٍ.

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها»، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، سنة النشر ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، طبعة جديدة ومنقحة، المجلد الأول، ص ٧١٢، رقم الحديث: ٣٧٠.

العَجَبُ كُلُّ العَجَبِ بِدايَةً أنْ يَنطِقَ ذَاكَ الشَّابُّ ـ وهُو مِنْ خَيرِ القُرُونِ ـ مُعبِّراً عن ذَاته دُونَ خَوفٍ أمَامَ هَيبَةِ النَّبيِّ ﷺ [1] ، وعَلَىٰ الملأ . هَلْ كَانَ ذَلكَ إلَّا طَمعاً في سَعَةِ قَلبِ النَّبيِّ وحُبِّهِ وشَفقَتِه ورَحمَته؟ ومِنْ ثَمَّ حُبُّ الشَّابِّ نَفسُه للنَّبيِّ ﷺ ممَّا جَعلَه يحتَارُ بَينَ حُبِّهِ للرَّسُولِ ﷺ وعَدمِ مخالَفتِه ، وحاجَتِه المُلِحَّة التي تتأجَّجُ في ذَاتِه ، ثُمَّ غَلَبَ حُبُّ النَّبيِّ ﷺ عَلَىٰ قَلبِه فهَدَاهُ اللَّـهُ إلَىٰ الحَقِّ .

ولنَنظُرْ إلَىٰ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم فإنَّهم بِحُكمِ بَشَرِيَّتِهم ، زَجرُوهُ ، فهَلْ أَحجَمَ عَن الأمْرِ بزَجْرِهِم له؟ .

ولنَنظُرْ إليه ﷺ كَيفَ أَدناهُ منه وقَرَّبَه ، وفي تَقريبِ الأجْسَامِ عُطفٌ وتَواصُلٌ وفَتحٌ للقُلُوبِ ، فلَمْ يُذكِّرْهُ بآيَاتِ الوَعِيدِ أو آياتِ التَّقوَىٰ ، ولَـمْ يُؤنِّبْهُ أو يُعنِّفْهُ أو يُوبِّخْهُ ، بَلْ حاوَرَهُ بتَلطُّفٍ وأناةٍ مخاطِباً رُوحَهُ وعَقلَهُ ؛ لأنَّ المُجتمَعَ يَعيشُ فيه الفَردُ بَينَ أُمٍّ وبِنْتٍ وأُختٍ وعَمَّةٍ وخَالَةٍ ، فرَكَّزَ ﷺ عَلَىٰ المَواضِعِ التي تُحرِّكُ الوِجْدانَ مَع العَقلِ ، وتَستَجيشُ الفِطْرَةَ السَّليمَةَ ، فقَبَّحَ ﷺ هَـٰذا الفِعلَ في نَفسِه ، حَيثُ إنَّه انتِهَاكٌ للأَعْراضِ والحُرُماتِ ، وصَارَ يَسأَلُهُ بهُدُوءٍ أَترضَاهُ .. أَترضَاهُ .. والشَّابُّ في كُلِّ مَرَّةٍ يَنفي.. ويَنفِي.. ويُتبِعُ ذَلكَ بالتَّعبيرِ عَن حُـبِّهِ للنَّبيِّ ﷺ : جَعلَني اللَّـهُ فِداءَكَ .

فقَد جَعلَه النَّبيُّ ﷺ يُقِرُّ بأنَّ هَـٰذا الفِعلَ مَرفُوضٌ في صُورٍ شَتَّىٰ .

(١) «نحو نفس مطمئنة واثقة» ، د.طارق الحبيب ، مرجع سابق ، ص ١٤ ، ١٥ .

ثُمَّ أَوصَلَهُ في نهايَةِ هَـٰذا الأَمْرِ إلَىٰ رَفضٍ ونَفي مَا كَانَ يَطلُبُ فِيه الإذْنَ (١) .

إنَّها المُحادَثَةُ والمُوازَنَةُ العَقليَّة (٢) الهادِئَة والمُحاكَاةُ النَّفسيَّة التي تَدقُّ جَرسَ العاطِفَةِ مَع أجْرَاسِ العَقلِ المُتلاحِقَة .

ومِن ثَمَّ يُنهي ﷺ الحِوَارَ باللَّمسَةِ الإيمانيَّـة الأبويَّـة الحانيَـةِ ، فيَمسَحُ بيَدِهِ الشَّريفَةِ عَليه ، مَع دُعَاءٍ حَنُونٍ يَحمِلُ بَينَ طَيَّـاتِه الحُبَّ والخَيرَ والتَّثبِيتَ لَه .

انتَهىٰ الحِوارُ ، واقتَنعَ الشَّابُّ وامتَنعَ . وهَـٰذا فَنٌّ رَفيعٌ من فُنُونِ الحِوارِ ، ولَونٌ رَائعٌ من ألوَانِ التَّربيَةِ النَّبويَّة ، والمنهَجِ النَّفسيِّ التَّابعِ لَه ، لتَنسَجِمَ حاجَاتُ النَّفسِ مع حاجَاتِ الرُّوحِ ، وتَعيشَ بإيمانِها وسُلُوكِها مُطمَئنَّةٌ ، فَلا يَكُونُ بَينَهُما تَصادُمٌ ولا تَضادٌّ .

وعَلَىٰ الدَّاعيَة أنْ يَعتَني بهَـٰذا الجانبِ لِـمَا لَه من تَأثيرٍ عَظيمٍ عَلَىٰ الآخرينَ ، فلا بُدَّ أنْ يَحترِمَ عُقُولَ المَدعُوينَ وتَفكِيرَهُم ، ويَنزلَ في حِوارِهِ مَعَهُم إلَىٰ المُستَوىٰ الذي هُم فيه ، ومِنْ ثَمَّ يَتدرَّجُ بالصُّعودِ إلَىٰ الهدَفِ الذي يُريدُ ، فإنَّ للعَقلِ وقَناعَتِه أثَرٌ كَبيرٌ في تَوجِيهِ السُّلُوكِ ـ مَع عَدَمِ إهمَالِ أثَرِ القَلبِ

(١) «مقومات الداعية الناجح» ، د.علي بن عمر بن أحمد بادحدح ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ص ٩٣ .
(٢) «الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم» ، للشيخ عبد الفتاح أبوغدة ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

وعَاطِفَتِه أثناءَ الحِوار ـ حَتَّىٰ يَقوىٰ تَأثيرُهُ ، ويَتمَكَّنَ تَعبيرُهُ في النُّفُوسِ ، ويُكَوِّنَ انْسِجاماً رائعاً بَينَ الرُّوحِ والنَّفسِ في تَآلُفِهما لِزيادَةِ قُوَّةِ الإيمانِ والطَّاعَةِ حِسَّاً وسُلُوكاً .

فعَلَىٰ القِيادَةِ الدَّاعيَة النَّاصِحَة في عَصرِنا الحَالي أنْ تَكُونَ نَمطاً من الأدَاءِ العاطِفيِّ قَبلَ أنْ تكُونَ أيَّ شَيءٍ آخَر ، فالقيادِيُّ المُسلِمُ يَتعامَلُ مَع القُلُوبِ لا الجَوارِحِ ، يَمُدُّها بالحُبِّ ، ويَتعامَلُ مَع العُقُولِ فيَطرَحُ عَلَيها الفِكرَةَ الطَّارفَةَ ، ويَمُدُّها بالمُحاكَاةِ والمُناظَرَةِ السَّويَّةِ فيَدخُلُ مَدخَلَ صِدقٍ .

وعَلينا ألَّا نَنسَىٰ أنَّ أصلَ أَمرِنا الدَّعَويِّ قائمٌ عَلَىٰ مَحبَّةِ النَّاسِ والعَطفِ عَلَىٰ العُصَاةِ والفُسَّاقِ ، ومُحاوَلةِ انتِشَالِهم مِمَّا هم فيه ، لا العُبُوسُ في وُجُوهِهم أو تَركُهُم لشَياطِينِهم ، إنَّ كُلَّ واحِدٍ من هَؤلاءِ فيه وَمَضاتٌ إيجابيَّةٌ فلِماذَا لا نُوَسِّعُ صُدورَنا؟ خُصُوصاً أنَّ التَّوتُّرَ واستِهلاكَ النَّفسِ أسَفاً عَلَىٰ أمثَالِ هَؤلاءِ لا يُوجِدُ حَلَّاً تِلقائياً لمُشكِلَتِهم ، بلْ عَلينا أنْ نُوجِدَ دَواءً من أزهارِ أرضِهِم نَفسِها ، بنَظَرٍ تَخطيطِيٍّ دَقيقٍ ، نُوَفِّرُ لَهم جَوَّاً يُصلِحُهُم من قِبَلِ أنفُسِهم ، فيَتناوَشُونَ التَّوبَةَ من قَريبٍ (١) .

---

(١) «منهجية التربية الدعوية» ، محمد أحمد الراشد ، مرجع سابق ، ص ٢١٥ ، ٣٧٢ بتصرف .

المطلَبُ الثَّـامن

الحِـلْمُ والتَّغاضِي

إنَّ الحِلمَ والتَّغاضي والتَّوجيهَ غَيرَ المُباشِر[1] ، شَكلٌ من أشْكَالِ التَّربيَةِ الحَديثَةِ بالحُبِّ المُفعَمِ بالوُدِّ والعاطِفَةِ .

إنَّ الدَّاعيَةَ الحَقَّ يَنظُرُ إلَىٰ المَدعُو نَظرَةَ الطَّبيبِ إلَىٰ مَريضِه ، يَرحَمُهُ ويُشفِقُ عَلَيه لعِلمِه بخُطُورَةِ دائه ، لذَا فهُو يَتلَطَّفُ في عِلاجِه ، وإنْ رَأىٰ منه عُزُوفاً عن الدَّواءِ لصُعُوبَتِه أو مَرارَتِه هَالَهُ الأمرُ ، وتَفنَّنَ بكُلِّ الطُّرُقِ والوَسائلِ لتَوصِيلِ الدَّواءِ إلَيه ، وإقنَاعِه بضَرُورَةِ تَناوُلِه ، ولا يَترُكُه وشَأنَه . وفي السِّيرَةِ النَّبويَّةِ الرَّائعَةِ أعْظَمُ وأروَعُ الأمْثِلَةِ في ذَلكَ[2] .

يَقُولُ الصَّحابِيُّ خَوَّاتُ بنُ جُبَيْر رَضِيَ اللهُ عَنهُ : كُنتُ رَجُلاً شَاعِراً في الجاهِليَّـةِ ، وكُنتُ أتَغزَّلُ في شِعري بالنِّساءِ ، وأُسَامِرُهُم به ، ثُمَّ مَنَّ اللَّـهُ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ عليَّ بالإسلامِ ، وكُنتُ في المَدينَةِ مع رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فخَرَجنا مَعه في سَفرٍ من أسْفَارِه ، وأنَا حَديثُ عَهْدٍ بالإسْلَامِ ، فنَزَلنا مَرَّ الظُّهْرانِ ، قَالَ : فخَرجْتُ من خِبائي ، فإذَا أنا بنِسْوَةٍ يَتحَدَّثنَ ، فأعْجَبْنَني ، فرَجَعتُ فاستَخرَجتُ عَيْبَتي ، فاستَخرَجتُ منها حُلَّةً فلَبِستُها وجِئتُ فجَلَستُ مَعهُنَّ ، وخَرجَ

---

(١) «التوجيه غير المباشر وأثره في التربية تغيير السلوك» ، بحوث ودراسات إسلامية للشباب (٣) ، د. صالح بن عبد اللَّـه بن حميد ، إمام الحرم المكي ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤١٥هـ ، ص ١٥ .

(٢) «مقومات الداعية الناجح» ، د.علي با دحدح ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ من قُبَّتِه فقَالَ : «**أبَا عَبْدِ اللَّـهِ مَا أَجْلَسَكَ مَعَهُنَّ؟**» ، فلَمَّـا رَأيتُ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ هِبتُهُ واختَلَطتُ ، قُلتُ : يا رَسُولَ اللَّـهِ جَملٌ لي شَرَدَ ، فأنا أبْتَغي له قَيْداً ، فمَضَىٰ واتَّبَعتُه ، فألْقَىٰ إليَّ رِدَاءَهُ .. فأقْبَلَ والمَاءُ يَسيلُ من لِحيَتِه علَىٰ صدرِهِ ، فقَالَ : «**أبَا عَبْدِ اللَّـهِ مَا فَعَلَ شِرَادُ جَمَلِكَ؟**» ثُمَّ ارتَحَلنا فجَعلَ لا يَلحقُني بالمَسِيرِ إلَّا قَالَ : «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أبَا عَبدِ اللَّـهِ مَا فَعَلَ شِرَادُ ذَلِكَ الجَمَلُ؟**» ، فلَمَّـا رَأيتُ ذَلكَ تَعجَّلتُ إلَىٰ المَدينَةِ ، واجْتَنَبتُ المَسجِدَ والمُجالَسَةَ إلَىٰ النَّبيِّ ﷺ فلَمَّـا طَالَ ذَلكَ تَحيَّنتُ سَاعَةَ خَلوَةِ المَسجِدِ ، فَأتَيتُ المَسجدَ فقُمتُ أُصَلِّي ، وخَرجَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ من بَعضِ حُجَرِهِ فَجْأةً ، فَصلَّىٰ رَكعَتَينِ خَفيفَتَينِ ، وطَوَّلتُ رَجَاءَ أنْ يَذهَبَ ويَدَعَني ، فقَالَ : «**طَوِّلْ أبَا عَبْدِ اللَّـهِ مَا شِئْتَ أنْ تُطَوِّلَ فَلَسْتُ قَائِماً حَتَّىٰ تَنْصَرِفَ**» ، فقُلتُ في نَفسي : واللَّـهِ لَأعتَذِرَنَّ إلَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ولَأُبْرِأَنَّ صَدرَهُ ، فلَمَّـا قَالَ : «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أبَا عَبدِ اللَّـهِ مَا فَعَلَ شِرَادُ ذَلِكَ الجَمَلُ؟**» ، فقُلتُ : والذي بَعثَكَ بالحَقِّ مَا شَرَدَ ذَلكَ الجَملُ مُنذُ أسلَم ، فقَالَ ﷺ : «**رَحِمَكَ اللَّـهُ**» ـ ثلاثاً ـ ثُمَّ إنَّ ذَلكَ الصَّحابيَّ لَـمْ يَعُدْ لِشَيءٍ مِمَّا كَانَ (١) .

إنَّ الصُّورَةَ السَّابِقَةَ تُظهِرُ لنا فَنَّ التَّنويعِ في التَّوجِيهِ النَّبويِّ الرَّائعِ ، المَليء

(١) «معجم الطبراني الكبير» ، للحافظ سليمان بن أحمد الطبراني ، حققه وخرّج أحاديثه : حمدي عبد المجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ٤/ ٢٠٣ ، رقم الحديث : ٤١٤٦ .

بالوُدِّ ، واللُّطفِ ، والحِلْم ، والتَّغاضي المُؤقَّتِ وِفْقَ خُطَّةٍ مُحكَمَةٍ مَع استِخدَامِ المُزَاحِ المُحَبَّبِ من أجلِ التَّربيَةِ . بَعيداً عن المُواجَهَةِ والإحْراجِ المُباشِرِ .

فالحِوارُ المُباشِرُ إنَّما يَكُونُ لِكَسبِ العُقُولِ والقُلُوبِ مَعاً . فَما عَسانا أنْ نَجنِي من إحْراجِ الآخَرينَ (١) بمُواجَهتِهم بأخطائِهم!

فكَسبُ القُلُوبِ أهَمُّ من كَسبِ المَواقِفِ ، لذَلكَ فإنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ المُرَبِّي والمُعَلِّمُ الأوَّلُ لَـمْ ينهَرْهُ أو يَزْجُرْهُ أمَامَ النِّسَاءِ ؛ لأنَّ المُواجَهَةَ إذَا كَانَت أمَامَ الآخَرينَ تكُونُ أشَدَّ إيلاماً ، وأغْوَرَ جُرحاً ، وأشَدَّ وَقْعاً ، فتَمتَلِئُ القُلُوبُ غَيظاً وحَنَقاً . عِلماً أنَّ رَفضَ أمرٍ لَيسَ رَفْضاً لِذَاتِ الآخَرِ (٢) ، وذَلكَ مَا أَظهَرَهُ ﷺ فقَد فَصلَ بَينَ الفِعْلِ والشَّخصِ ، وهَـٰذا تَماماً مَا تَدعُو إلَيه أحْدَثُ النَّظريَّاتِ التَّربَويَّة في عَصرِنا الحَديثِ لِتَعديلِ السُّلُوكِ السَّلْبيِّ ، فقَد تَوَقَّفَ الرَّسُولُ ﷺ عِندَ فِعلِه ، ولَكنْ لَـمْ يَرفُضْ ذَاتَه ، وحَفِظَ لَه كَرامَتَه وكِبْرياءَهُ ، وتَلطَّفَ به كَوْنُهُ حَديثُ عَهْدٍ بالإسْلَامِ ، وأبْقَىٰ الوُدَّ والبَشَاشَةَ والابتِسَامَ .

ذَلكَ التَّوجيهُ الرَّقيقُ أَوْصَلَ هَـٰذا الصَّحابيَّ إلَىٰ نَفسِه فزَكَّاهَا ، وذَاتِه فبَناهَا ، واعْتَذَرَ إلَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فتَحقَّقَ المَعنَىٰ والهَدفُ بالتَّوجِيهِ النَّبويِّ الرَّائعِ .

«التَّعامُلُ مَع الأخْطَاءِ فَنٌّ .. فلِكُلِّ بَابٌ مِفْتاحٌ .. ولِلقُلُوبِ دُرُوبُ ..» .

---

(١) «كيف تحاور» ، د. طارق الحبيب ، مرجع سابق ، انظر : ص ٧٠ .

(٢) «نحو نفس مطمئنة واثقة ، د. طارق الحبيب ، مرجع سابق ، انظر : ص ٦٦ .

المَبحَثُ الثَّـاني

مَهاراتُ التَّربيَـةِ بالحُبِّ وفَنُّ التَّخاطُبِ وِفْقَ الهَدْيِ النَّبَـوِيِّ

سَنتَناوَلُ في هَـٰذا المَبحَثِ إبْداعَاتِ ومَهارَاتِ النُّبُوَّةِ في تَوظيفِ الحُبِّ والوُدِّ، بكَفاءَةٍ وجَودَةٍ عاليةٍ لبِناءِ الشَّخصيَّةِ المُسلِمَةِ النَّموذَجيَّةِ الواقِعيَّةِ، المُتَعايِشَةِ والمُتَفاعِلَةِ مع مُحيطِها لكَسبِ قُلُوبِ الآخَرينَ ونَفعِهِم، وتَبادُلِ المحَبَّـةِ الصَّادِقةِ مَعَهم، وسَيكُونُ ذَلكَ في تِسعِ مَطَالِب :

المطلَبُ الأوَّل : **فَـنُّ التَّعـايُـش .**

المطلَبُ الثَّـاني : **غَرسُ الثِّقَةِ بالنَّفسِ وتَقديرُ الذَّاتِ .**

المطلَبُ الثَّـالث : **التَّحفيزُ والتَّشجيعُ والإيحَاءُ .**

المطلَبُ الرَّابـع : **التَّسامُحُ والإغْضَاءُ عَن الهَفَوَاتِ والأخْطَاءِ : (الفَصلُ بَينَ السُّلُوكِ والشَّخصِ) .**

المطلَبُ الخامِس : **الانشِغَالُ بهُمُومِ الأصْحَابِ .**

المطلَبُ السَّادِس : **إكْرَامُ الأصْحَابِ عن طَريقِ الاهْتِمامِ بصِغَارِهِم .**

المطلَبُ السَّـابع : **إيقَـادُ شُعلَةِ الحُبِّ لإصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ .**

المطلَبُ الثَّـامن : **التَّعْـريضُ .**

المطلَبُ التَّاسـع : **إعْـلَانُ الحُبِّ .**

المطلَبُ الأوَّل

فَـنُّ التَّعـايُـشِ

جاءَ في المُعجَم الوَسيطِ (١) : العَيْشُ مَعنَاهُ الحَياةُ ، وكُلُّ مَا يَقُومُ بها مِنْ مَطعَم ومَشرَبٍ ودَخْلٍ ، وعَايَشَهُ : عَاشَ مَعَه ، وتَعايَشُوا : عَاشُوا على الأُلفَةِ والموَدَّةِ ، ومنه التَّعايُشُ السِّلمِيُّ .

والتَّعايُشُ نَوعٌ من التَّعارُفِ والتَّعاوُنِ لتَوطِيدِ العَلاقاتِ الإنسانيَّة ، وقَد خَلقَ اللَّـهُ النَّاسَ ليَتَعايَشَ بَعضُهُم مَع بَعضٍ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ (٢) .

وفَنُّ التَّعايُش لا يُتقِـنُه إلَّا مَنْ يَملِكُ الحُبَّ للآخَرينَ ويَعطِفُ عَلَيهم ، ويَسعَىٰ لمُسَاعَدتِهم ، وعَونِهم ، ونَجدَتِهم .

فاللَّـهُ خَلقَنا أجْناساً وألْواناً وقَبائلَ وشُعُوباً ، مُختَلِفينَ في لُغَاتِنا وعَاداتِنا .. ، من أجْلِ أنْ نَتعارَفَ ونَتعايَشَ ، وهَـٰذه الآيَةُ تَدلُّ عَلَىٰ تَقديرِ الاختِلافِ والاعترافِ بالتَّعدُّديَّة بَينَ الأفْرادِ . فالتَّعارُفُ لَيسَ مَقصُوراً عَلَىٰ الاسم والقَبيلَةِ ، وإنَّما هُو خِطَابٌ للبَشريَّةِ في تَبادُلِ المَعارِفِ والعُلُوم والمَحاسِنِ والفَضائلِ .. ، والتَّوصُّلِ إلَىٰ مُستَوياتٍ أخْلاقيَّةٍ في الحِوَارِ والاتِّفاقِ عَلَىٰ أُسُسِ العَيشِ والتَّصالُحِ (٣) والمَودَّةِ ،

(١) «المعجم الوسيط» ، مرجع سابق ، (عاش) ص ٦٣٩ ـ ٦٤٠ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

(٣) «صحيفة الوسط البحرينية» ، العدد ٢٥٣٤ ، الجمعة ٢٢ شعبان ١٤٣٠هـ ، الموافق ١٤ أغسطس ٢٠٠٩م ، انظر مقالة عن التعايش الحضاري ، للشيخ سلمان بن فهد العودة .

لتَحقيقِ مَعنَىٰ التَّعايُشِ قَوْلاً وعَمَلاً بَينَ أبناءِ الوَطَنِ الوَاحِدِ وأبنَاءِ الأُمَّةِ الوَاحِدَةِ ، وأبناءِ الوِحْدَةِ الإنسَانيَّةِ بَينَ الشُّعُوبِ والأفرادِ ، لبناءِ حَضارَةٍ إنْسَانيَّة مُزهِرَةٍ .

المُجتَمَعُ المدَنيُّ المُتَعايِشُ :

دخل رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ المَدينَةَ المُنوَّرَة ، وكَانَ سُكانُّها مَزيجاً إنْسَانيّاً اجتماعياً عَقائدِياً مُتنوِّعاً : من مُهاجِرينَ أوَائلَ وأنْصارٍ (أَوْسٍ وخَزْرَج) ، ويَهُودٍ (أَوْسٍ وخَزْرَج) ، وضِعَافِ إيمَانٍ ، ووَثَنيِّينَ ، ومُنافِقينَ ، وأقَامَ فيها دَولَةَ الإسْلَامِ تمكيناً لدِينِ اللَّـهِ . وكَقائدٍ للدَّولَة الإسلَاميَّة لَـمْ يُجبِرْ أحداً من سُكَّانِها غيرِ المُسلِمينَ من يَهُودٍ وغيرِهِم عَلَىٰ الدُّخُولِ في الإسلَام [1] ، ولَـمْ يَطلُبْ ﷺ من إحدَىٰ الفِئاتِ غَيرِ المُسلِمَةِ مُغادَرَة المَدينَةِ ، بَلْ وَضعَ ﷺ لسُكَّانِها جميعاً صَحيفَةَ عَهْدٍ ومِيثَاقاً للتَّعايُشِ المُشتَرَكِ في مجالاتِ الحَياةِ كَافَّةً ، ليُحَقِّقَ للجَميعِ السِّلْمَ والأمْنَ والهُدوءَ والمُوادَعَةَ ، ويُقِيمَ أوَاصرَ المحبَّـةِ والموَدَّةِ والتَّعاوُنِ فيما بَينَ فِئاتِ المُجتَمَعِ الجَديدِ . وأبقَىٰ لليَهُودِ مَكانَتَهُم وما في أيديهم ما دَامُوا مُحافِظينَ عَلَىٰ العَهدِ ولَـمْ ينقُضُوهُ ، لهم ما للمُسلِمينَ من حَصانَةٍ واحْترامٍ ، وعَلَيهم ما عَلَىٰ المسلِمينَ ، بشَرطِ عَدم الاتِّصالِ بالأعْداءِ أو نُصرَتِهِم أو إيوائِهم . فأصبَحَتْ المَدينَةُ وَحدَةً مُتكامِلَةً اقتِصاديّاً واجتِماعيّاً وسِياسياً ، تَعيشُ فيها الأطرافُ المُختلِفَةُ جَنباً إلى جَنبٍ ، لا يَعتَدي فيها أحَدٌ على أحَدٍ ، وتَركَ الحُريَّةَ لكُلِّ فَردٍ في اختيارِ عَقيدَتِه .

---

(١) «سيدنا محمَّد ﷺ نبيُّ الرحمة ورَسُولُ الهدىٰ» ، للأستاذ محمد محي الدين ، جمهورية مصر العربية ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة التعريف بالإسلام ، سلسلة السيرة النبوية الشريفة ، (الكتاب الخامس) ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ، ص ٦٥ .

هَـٰذا النِّظامُ العامُّ الذي أسَّسَهُ ـ وهو أوّلُ مَنْ أسَّسَ ذَلكَ ـ ﷺ أساسُهُ التَّعايُشُ السِّلمِيُّ ، وهو ما يُسَمَّىٰ السِّلمَ الأهْلِيَّ بَينَ سُكَّانِ الدَّولَةِ الوَاحِدَةِ ، وبالمُصطَلَحِ الحَديثِ : (المُوَاطَـنَة) [1] ، والتي تَعنِي تَحديدَ العَلاقَةِ بَينَ الفَردِ والدَّولَةِ وِفْقَ قَانُونِ تِلكَ الدَّولَة ، وبِما تَتضَمَّنُه تِلكَ العَلاقَةُ من وَاجِباتٍ وحُقُوقٍ في تِلكَ الدَّولَة [2] .

وهَـٰذا أكثَرُ ما نَحتاجُ إلَيه في وَاقِعِنا الحَالي ، فالمُسلِمُونَ اليَومَ يَعيشُونَ مَع مُختَلَفِ الطَّوائفِ والمِلَلِ والنِّحَلِ والعَقائدِ ، وهُم في أشَدِّ الحاجَةِ إلَىٰ مَفهُومِ التَّعايُشِ مع الآخَرِ وتَقَبُّلِه ، سَواءٌ فيما بَينَهُم كمُسلِمِينَ مُتَّفِقِينَ في الأصُولِ مُختَلِفِينَ في الفُرُوعِ ، أو مَع غَيرِهِم من غَيرِ المُسلِمينَ لتَحقيقِ تَكامُلِ الحَضاراتِ وازدِهارِها .

وقد اقتَضَت حِكمَةُ اللَّـهِ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ أنْ تَختَلِفَ آراءُ النَّاسِ في صَغيرِ الأُمُورِ وكَبيرِها سَواء الأُمُور الدِّينيَّة أو الدُّنيَوِيَّة ، وما ذَاكَ إلَّا لأنَّهُم خُلِقُوا مُختَلِفِينَ في الفَهمِ والعِلمِ والخَصائصِ والمَلَكاتِ والمَزايَا الشَّخصيَّة لِكُلِّ فَردٍ .

وفَنُّ التَّعايُشِ هو إيجادُ مِسَاحَاتٍ مُشتَرَكَةٍ مع الأطْرَافِ المُختَلفَة بمَودَّةٍ واحتِرام . وذَلكَ مع وُجُودِ فَرقٍ في هَـٰذا التَّعايُشِ بَينَ العَلاقَةِ الاعتِقادِيَّة والعَلاقَةِ الاجتِماعيَّة ، فالأُولَىٰ والتي تَكُونُ بَينَ المُسلِمينَ وغَيرِهِم يُحدِّدُها قَولُه

(١) «موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية» http://www.nabulsi.com ، الإخاء الإسلامي المسيحي ـ المواطنة والتعايش .

(٢) «المواطنة في غير ديار المسلمين بين النافين والمثبتين» دراسة فقهية نقدية ، د.صلاح الدين سلطان ، بحث مقدم للدورة السابعة عشر لمجلس الشؤون الإسلامية ، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/ مايو ٢٠٠٧م ، ص ١٣ .

تَعالَىٰ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [1] ، دُونَ أيِّ مجامَلةٍ أو مُهادَنةٍ أو تنازُلٍ ، وهـٰذا ما كَانَ يَفعلُه ﷺ ابتِداءً من المُجتَمَعِ المَكِّيِّ الذي كَانَ مُستَضعَفاً فيه إلَىٰ دَولَةِ التَّمكِينِ في المَدِينَةِ .

أمَّا العَلاقَة الاجتِماعيَّة التَّعامُليَّة والمَعاشيَّة والسُّلوكيَّة في حياتِه ﷺ مع المُخالِفينَ للدِّينِ من المُسالِمِينَ ، فكَانَت إيجابيَّة في أَشكَالِها كَافَّةً ، عَمَلاً بقَولِه تَعالَىٰ : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ ﴾ [2] .

والمُتتبِّعُ لكُتُبِ السِّيرَةِ يَجدُ تِلكَ الإيجابيَّة في حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ في المُجتَمَعَين المَكِّيِّ والمدَنيِّ ، حَيثُ كَانَ ﷺ يرتادُ الأسوَاقَ ويُكلِّمُ قومَهُ ، ويُؤاكِلُهُم ويُشَارِبُهم ، ويُلبِّي دَعَواتِهم ، ويَتعامَلُ مَعَهم ، ولا يَسكُتُ عَن ظُلْم يَراهُ بينَهُم ، ويَحفَظُ أَمَاناتِ ووَدائعِ مَنْ قَصدَهُ ، وفي مَكَّةَ عِندَما أرادَ الهِجرَةَ لَـمْ يَأخُذْ مَعَه تلكَ الوَدائعَ المُؤتَمَنُ عَليها بحُجَّةِ أنَّهم كُفَّارٌ مُستَباحُونَ يُناصِبُونَه العِداءَ ، بَلْ أبقَىٰ عَلِيّـاً رضي الله عنه في فِراشِه كَي يَرُدَّها إلَىٰ أهْلِها ، مَع أنَّ في رَدِّها ما يُنَبِّهُهُم إلَىٰ خُروجِه ، ويَأخُذُ عليه سَبيلَ النَّجاةِ .

كَما أنَّنا نَرىٰ الإيجابيَّةَ في نَهجِه ﷺ حَتَّىٰ في إطِّلَاعِهم عَلَىٰ الأسرارِ الدَّقيقَةِ عِندَ اقتِضَاءِ الحَاجَةِ لِـمَنْ كَانَت فيه الأمَانَةُ ، كَما حدثَ مَع عَبدِ اللّـهِ بنِ أُرَيْقِط [3] في طَريقِ الهِجرَةِ وهو عَلَىٰ دِينِ قُرَيشٍ ، وأيضاً مَع خُزاعَةَ وغَيرِهم .

---

(١) سورة الكافرون ، الآية : ٦ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية : ٨ .

(٣) «هذا الحبيب يا محب» ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

ومن الإيجابيَّة في التَّعامُلِ أنَّه كَانَ يَقبَلُ الهَديَّةَ مِنهُم :

فقَد قَبِلَ ﷺ هَدايا المُلُوكِ غَيرِ المُسلِمينَ وأهْدَاهُم ، وقَبِلَ الشَّاةَ من اليَهُوديَّة والمُشارَكَةِ مَعَهُم ، والعِلَاج ، إذْ كَانَ ﷺ يأمُرُ مَنْ به عِلَّة أنْ يَأتِيَ الحَارِثَ بنَ كِلدَة ، فيَسألُهُ عن عِلَّتِه وهو طَبيبٌ نَصرانيٌّ [1] ، والتَّراحُم والبِرّ والإحسَان والتَّلاقِي والاحْترام والموَدَّة والتَّسامُح : فقِصَّةُ عَبدِ اللَّـهِ بنِ أُبَيِّ ، ذَلكَ المُنافِقُ الذي استَأذَنَ وَلدُهُ عَبدُ اللَّـهِ بنُ عَبدِ اللَّـهِ بنُ أُبَيِّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ كَي يَضرِبَ عُنقَ أَبيهِ بَعدَ أنْ قَالَ مَا قَالَ في حَقِّ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ : لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ مِنْهَا الأذَلَّ ، ولَكنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ رَفضَ ، وقَالَ : «**بَلْ نَرْفُقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ بَيْنَنَا**» [2] .

وكَذلِكَ العَلاقَةُ المَاليَّة ، كَشَراكَتِهِم أو العَمَلِ مَعَهُم أو مُدَايَنَةٍ ومُراهَنَةٍ ، فقَد تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ ودِرعُهُ مَرهُونَةٌ عِندَ يَهودِيٍّ بثَلاثِينَ صَاعاً من شَعيرٍ [3] .

أمَّا العَلاقَاتُ الاجتِماعيَّة فكَانَ ﷺ يَعُودُ مَريضَهم ، فذَاكَ الصَّبيُّ [4] اليَهُوديُّ الذي عادَهُ النَّبيُّ ﷺ والذي أسلَمَ بَعدَ مَشُورَةِ أبيه لَـمَّا رَأىٰ الأَبُ والابنُ من شَمائِلِ النَّبيِّ ﷺ [5] .

---

(١) «الطبقات لابن سعد» ، مرجع سابق ، ٨/ ٦٧-٦٨ ، الحارث بن كلدة ، ٢٤٩٥ .

(٢) «هذا الحبيب يا محب» ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما قيل في درع النَّبيِّ ﷺ والقميص في الحرب ، ص ٥١٣ ، رقم الحديث : ٢٩١٦ .

(٤) القصة والحديث النبوي الشريف وتخريجه في الرسول والجار في المطلب الثالث من الفصل الخامس .

(٥) «المواطنة في غير ديار الإسلام» ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

عَالَـمِـيَّةٌ تقتَضي التَّعـايُـشَ :

هَـٰذا النَّهجُ للتَّعايُشِ مِنْ الرَّسُولِ ﷺ مع مَنْ حَولَه يُفيدُنا بقُوَّةٍ أنَّ المُسلِمَ الذي يَنفَتِحُ عَلَىٰ غَيرِه مَع التِزامِه بالضَّوابِطِ والقِيَمِ الأخْلاقيَّةِ الإسلاميَّةِ الدَّقيقَةِ يَكُونُ سُلُوكُه سَبباً في انْشراحِ قُلُوبِ النَّاسِ للإسلامِ وهِدايَتِهم . كَما أنَّ هَـٰذه الأُمَّةَ قَد مُيِّزَت عَن باقي الأُمَمِ أنَّها صاحِبَةُ رِسالَةٍ عالَميَّة ، ووَجْهُ العَالَميَّة فيها هُو البَلاغُ بشَارَةً ونذَارَةً ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ﴾ (٢) . ولَيسَ المَقصُودُ بالعالَميَّة إكْراهُ النَّاسِ عَلَىٰ اعْتِناقِ الإسلام ، إنَّما تَأتي عالَميَّةُ الإسلامِ في تَبليغِ الدَّعوَةِ ، أمَّا الاستِجابَة فمَرهُونَةٌ بالفَردِ (٣) .

ولا يَأتي ذَلكَ التَّميُّزُ في العالَميَّة إلَّا من خِلالِ تَطبيقِ الآيَةِ الكَريمَةِ في قَولِه تَعالَىٰ : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ (٤) ، فأُمَّةُ الإسلام مَدعُوَّةٌ للخُرُوجِ إلَىٰ النَّاسِ جَميعاً عَلَىٰ مُختَلفِ مِلَلِهم وطَوائفِهم . وحُسنِ التَّعامُلِ مَعَهم ، ولا يَكُونُ ذَلكَ إلَّا بالإيمانِ الكَامِلِ والالتِزام بأوامِرِ الإسلام ، والرِّفْقِ بالنَّاسِ والحُنُوِّ عَليهم ، وإرشَادِ ضَالِّهم ، وهِدايَةِ حائرِهم ، وكَفالَةِ فَقيرِهم ، وكِسوَةِ عارِيهم ، وعِلَاجِ

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ١ .

(٣) «ضوابط الوسطية بين الفطرة والأمانة والفتنة» ، محمد سالم بن عبد الحي ، دار الأمة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م ، ص ٨٨ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ .

مَريضِهم ، والتَّعاوُنِ مع مُسالِمِهم ، وحُسنِ الحِوَارِ مَعَهُم ، كَما نَهجَ ذَلكَ مُحمَّدٌ ﷺ فخَيْريَّـتُها أنَّها أُخرجَت للنَّاسِ لا اعتِزالِهم ، لأنَّها تَحمِلُ لِواءَ هَـٰذا الدِّينِ ليَكُونَ لَها العِزَّةُ والتَّمكِينُ حَتَّىٰ يَرِثَ اللَّـهُ الأرضَ ومَنْ عَليها ، وهو خَيرُ الوَارثين . وهَـٰذا التَّمكينُ والتَّميُّزُ لا يَتحقَّقُ إلَّا بالاختِلاطِ والانفِتَاحِ والتَّعارُفِ والتَّعايُشِ مع الآخَرِ .

وفي قَولِه تَعالَىٰ : ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ (١) ، الشَّطرُ الأوَّلُ من الآيَةِ عَدمُ إعطاءِ الدَّنيَّـةِ في الدِّينِ ، والشَّطرُ الآخَر جَاهِدهُم به ، أي : بالقُرآنِ جِهادَ الدَّعوَةِ والإقْناعِ وجَذبِ الآخَرِ بِفَتحِ أبوابِ الحِوَارِ والتَّواصُلِ اليَوميِّ مَعَهم (٢) ، فتِلكَ هي الدَّعوَةُ بالحُسنَىٰ ، ليَتعَرَّفَ النَّاسُ من وِجهَاتٍ مُختَلِفة عَلَىٰ الإسلَامِ .

فالعُزلَةُ الاجتِماعيَّة السُّلوكيَّة مَرفُوضَةٌ ، فَلا أَجدَىٰ في الدَّعوَةِ من المُخالَطَةِ والمُعايَشَةِ وأنْ يَرىٰ الآخَرُ مَحاسِنَ الإسلَامِ أفْراداً وجَماعاتٍ ، لِتَقُومَ الأُمَّةُ برِسالَتِها في تَبليغِ الدَّعوَةِ إلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ أكمَلِ وَجهٍ .

فلَيسَ من الوَلاءِ للإسلَامِ عَدمُ العَلاقَةِ مع غَيرِ المُسلِمينَ المُسالِمِينَ من غَيرِ المُحارِبينَ ، فذَلكَ مُخالِفٌ لنَهجِ الرَّسُولِ ﷺ ، ولِنُصُوصِ التَّوصِيَةِ منه ﷺ بأهْلِ الذِّمَّة ، وحُسنِ التَّعايُشِ مع الجيرانِ والأقَارِبِ ، كَما يُجافي المَقاصِدَ العامَّة للشَّريعَةِ الإسلَاميَّة التي بُعِثَ بها النَّبيُّ ﷺ رَحمَةً للعَالَمِينَ وإنقَاذاً للخَلقِ أجْمَعينَ .

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٥٢ .

(٢) «المواطنة في غير ديار الإسلام» ، مرجع سابق ، ص ٦٨ .

كَما أنَّ التَّميُّزَ في هَـٰذه الأُمَّةِ يَتحقَّقُ أيضاً في التَّعايُشِ مع المُخالِفِ المُسالِـمِ والمُخالِفِ المُهاجِمِ ، فالمُخالِفُ إنْ كَانَ مُسالِـماً فمِنْ خِلَالِ انتِهاجِ الإيجابيَّةِ السُّلُوكيَّةِ في الانفِتاحِ عَلَيه ، مع التَّرفُّعِ عَن الأغْرَاضِ الدُّنيَويَّةِ ، يَجبُ دَعوَتُه بالحَالِ قَبلَ المَقالِ ، والمُخالِفُ المُهاجِمُ فيَكُونُ من خِلَالِ الصُّمُودِ في مُقاوَمَةِ هَجمَتِه والثَّباتِ عَلَىٰ المَبدَأ الذي نَحنُ عَلَيه .

فلا يَعنِي التَّعايُشُ مَع الآخَرِ أنْ يَفقِدَ المَرءُ ذَاتَه أو هَويَّـتَه أو اعتِقَادَه أو الرَّأي الخاصَّ به ، فهَـٰذا جُزءٌ من شَخصيَّةِ وكَيانِ الإنْسانِ ، وإنَّما التَّخلِّي عن التَّعصُّبِ للرَّأي والإكْرَاهِ فيه ، وتَركِ الانفِعَالِ الجارِي في غَيرِ قَناتِه ، وإحلَالِ الحِوَارِ ، والدَّعوَةِ بالتي هي أَحسَنُ .

فنَحنُ أُمَّةٌ لَـمْ تُوجد لتَنكَفِئَ عَلَىٰ نَفسِها ، بَلْ وُجِدَت لإبلَاغِ رِسالَتِها للعَالَمِينَ ، ونَفعِهِم ونَشرِ المَودَّةِ والخَيرِ في التِزَامِ البِرِّ والإحسَانِ ، وحُبِّ الآخَرِينَ والحِرصِ عَلَىٰ هِدايَتِهم ، وإنْقاذِهِم من النَّارِ ، كَما الهَديُ النَّبَويُّ في فَنِّ الدَّعوَةِ والتَّخاطُبِ والتَّعايُشِ .

المطلَبُ الثَّـاني

غَرسُ الثِّقَةِ بالنَّفسِ وتَقديرُ الذَّاتِ

إنَّ الشَّخصيَّةَ الإنسانيَّةَ وَحدَةٌ مُتكامِلَةٌ مُترابِطَةٌ رُوحاً ونَفساً وجَسَداً .

والمُتأمِّلُ في السِّيرَةِ الشَّريفَةِ يَجِدُ النَّبيَّ ﷺ لَـمْ يُهمِلْ أيَّاً من مُكوِّناتِها في تَربيَتِه لصَحابَتِه ، ولَـمْ يَكُنْ يُقوِّي الإيمَانَ في قُلُوبِهم فحَسْب (التَّربيَةُ الرُّوحيَّة) ، بَلْ كَانَ يَتَّجِهُ إلَىٰ النُّفُوسِ فيُشبِعُها من كُلِّ جانِبٍ [1] حُبّاً وثِقَةً وتَقديراً (التَّربيَةُ النَّفسيَّة) ، ليَبنِيَ نُفُوساً سَويَّةً قَويَّةً قادِرَةً على التَّحمُّلِ والعَطاءِ .

والتَّربيَةُ النَّفسيَّةُ تَعني : إعدادَ الإنسَانِ نَفسيَّاً وعَاطِفيَّاً لِـمُهمَّتِه في الحَياةِ ، وتَوجيهِ سُلُوكِه نَحوَ بناءِ شَخصيَّةٍ سَويَّةٍ ، والبِنَاءُ النَّفسيُّ أحَدُ أكثَرِ المُقوِّماتِ الذَّاتيَّة أهَميَّةً لبناءِ الشَّخصيَّةِ السَّويَّةِ [2] .

والتَّربيَةُ النَّفسيَّةُ ـ من قِبَلِ المُربِّي ـ تَقُومُ عَلَىٰ مُراعَاةِ الحاجَاتِ الإنسانيَّةِ لَدَىٰ المُتَلقِّي ، واعتِبارِهَا في الوَقتِ نَفسِه نُقطَةَ انْطِلاقٍ نَحوَ البناءِ السَّليم ، ومِنْ أكثَرِ حاجَاتِ الفَردِ أهَميَّةً ـ في مُختلَفِ مَراحِلِه العُمريَّة طِفْلاً ، أو شَابّاً ، أو كَهْلاً ـ حاجَتُهُ إلَىٰ الحُبِّ المُتبادَلِ ، وإلَىٰ تَقديرِ الآخَرينَ المُحيطِينَ بِه ، لأنَّه يَمنَحُهُ الثِّقَةَ وتَقديرَ الذَّاتِ [3] .

---

(١) سلسلة «رحمة للعالمين» ، ١ ، حاجات البشرية في رسالة النَّبيِّ محمَّد ﷺ ، إعداد البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ، ط/ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م ، ص ٣٨ ، وكتاب : «نحو نفس مطمئنة واثقة» ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(٢) «التربية النفسية من خلال إشباع الحاجات النفسية للطفل» ، د.مصطفى أبو سعد ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٦ .

ولَنا وَقفَةٌ مَع نَهج الرَّسُولِ ﷺ في الرَّعيلِ الأَوَّلِ الذي حاوَلَ فيه أنْ يُشبعَ حاجَاتِهم النَّفسيَّةِ من أَجْلِ بناءِ الشَّخصيَّةِ الإنسانيَّةِ بناءً مُحكَماً قَويَّاً، لِتكُونَ قَادِرَةً على تحَمُّلِ مَسؤوليَةِ الاستِخلَافِ والنُّهُوضِ برَايَةِ الدِّينِ مع استِمتاعِها بالحَياةِ.

ففِي قِصَّةِ الصَّحابيِّ زَاهِر البَدَويِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، يَقُولُ أَنَسُ بنُ مَالك رَضِيَ اللهُ عَنهُ: كَانَ رَجُلٌ من أَهْلِ البادِيَةِ يُقالُ لَه زَاهِر، وكَانَ يُهدِي للنَّبيِّ ﷺ الهَدِيَّةَ من البَادِيَةِ، وكَانَ رَسُولُ اللّـهِ ﷺ يُحِبُّهُ، وهُو رَجُلٌ دَميمٌ، فأتَاهُ النَّبيُّ ﷺ وهو يَبِيعُ مَتاعَهُ، فاحتَضنَهُ من خَلفِه، والرَّجُلُ لا يُبصِرُهُ، فقَالَ: أَرسِلْني مَنْ هَـٰذا؟ فالتَفتَ فعَرفَ النَّبيَّ ﷺ، فجَعلَ يُلصِقُ ظَهرَهُ بصَدرِ النَّبيِّ ﷺ، وجَعلَ الرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يَشْتَرِي هَـٰذَا الْعَـبْدَ؟**»، فقَالَ لِرَسُولِ اللّـهِ ﷺ: إذاً واللّـهِ تجِدُني كَاسِداً، فقَالَ له الرَّسُولُ ﷺ: مُقدِّراً ذَاته: «**لَكِنْ عِنْدَ اللّـهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ أَنْتَ عِنْدَ اللّـهِ غَالٍ**»[(١)].

إنَّها شَهادَةٌ وأيُّها شَهادَة، شَهادَةٌ لا يَعدِلُها شَيءٌ!

لقَد اتَّجهَ ﷺ إلىٰ إشْباعِ الجانبِ النَّفسيِّ والرُّوحيِّ في هَـٰذا الصَّحابيِّ، عَبرَ إظْهَارِ مَشاعِرِ الحُبِّ والوُدِّ نَحوَهُ بمُلاطَفتِه ومُمازَحتِه، وأنَّ له قِيمَةً عالِيَةً عِندَ اللّـهِ للذَّاتِ الإيجابيَّةِ التي يحَمِلُها، فبِهَا يُحَبُّ المَرءُ ويقَدَّرُ، مُوجِّهاً نَظرَهُ أنَّ الحُبَّ للجَوهَرِ لا للمَظاهِرِ والمَادِّياتِ المَحسُوسَةِ. فهَـٰذا هُو مِعيَارُ الحُبِّ

(١) «هذا الحبيب يا محب»، مرجع سابق، ص ٣٥٢.

الصَّحيح للفردِ في نَهجِ النُّبوَّةِ شَرعِ اللَّـهِ الحَكيم ، وهُو ما توصَّلَ إليه المُفكِّرُون والفَلاسِفَةُ عبرَ القُرونِ ، وذاكَ الصَّحابيُّ الجَليلُ عَبدُ اللَّـهِ بنُ مَسعُود ، النَّحيفُ القَصيرُ الذي يَكادُ يُساوِي بطُولِه الجالِسَ ، تَحمِلُهُ سَاقَانِ نَحيلَتَانِ دَقيقَتَانِ ، صَعدَ بِهما يوماً علَىٰ شَجرةٍ يَجتَبي منها أراكاً لِرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فرأىٰ أصْحابُ النَّبيِّ ﷺ دِقَّةَ سَاقَيْهِ فضَحِكُوا ، فقَالَ ﷺ ، رَافِعاً من قَدرِه وشَأنِه : «**أَتَضْحَكُونَ مِنْهُمَا؟ لَـهُمَـا فِي الْـمِيزَانِ أَثْقَـلُ مِنْ أُحُدٍ**»(١) .

لنَنظُرَ إلَىٰ العِلَاجِ النَّبويِّ النَّفسيِّ الرَّاسِخِ ، حَيثُ اختَلَّ عِندَ هَـٰذا الصَّحابيِّ الرُّكنُ الجَسَديُّ ، فنَجِدُهُ ﷺ يتَّجِهُ إلَىٰ الجانبِ الرُّوحيِّ والنَّفسيِّ فيُعليهِ ، وأنَّه أثقَلُ من جَبلِ أُحُدٍ ، وذَلكَ لتَقديرِ ذَاتِه التي يَحمِلُها بَينَ جَنبَيْهِ ، وما تَزخَرُ به من إيمانٍ ، ليُعطِيَهُ ثِقةً بنَفسِه أنَّه مَحبُوبٌ مُقدَّرٌ .

ولنَنظُرَ لَوْ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قالَ للصَّحابَةِ فقط : لا يَجُوزُ أنْ تَضحَكُوا علَىٰ خَلقِ اللَّـهِ واستَغفِرُوا ربَّكُم ، ولَـمْ يُردِفْ مَقُولَتَه لابنِ مَسعُودٍ «**لَـهُمَـا أَثْقَلُ عِندَ اللَّـهِ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ**» هَلْ سَيكُونُ ابنُ مَسعُودٍ وَاثقاً من نَفسِه مُقدِّراً لِذَاتِه !؟

إنَّ ذَاكَ التَّقديرَ يُعطِي صُورَةً إيجابيَّةً للنَّفسِ عن ذَاتِها ، (المِرآةُ الدَّاخليَّة) ، ويُعزِّزُ ثِقتَها ويُشعِرُها بقُوَّتِها ، فيُؤدِّي إلَىٰ تَفجيرِ الطَّاقاتِ الكَامِنَةِ فيها ، لتَوليدِ سَيلٍ مُتواصِلٍ من السُّلوكيَّاتِ الإيجابيَّةِ والفاعِلَةِ .

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ، مرجع سابق ، ج٣ ، الطبقة الأولى في البدريين من المهاجرين والأنصار ، (٦٣) ابن مسعود ، ص ١٤٣ .

كما كانَ ﷺ دائماً يُوصي أصحابَه بالاقتِداءِ بابنِ مَسعُودٍ ، فيَقُولُ : «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرآنَ غَضّاً كَمَا نَزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ قِرَاءَةَ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**» (١) .

ولَطَالَـمَا كَانَ يَطيبُ للرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَستَمِعَ القُرآنَ مِنْ فَمِهِ ، فيَقُولُ لَه : «**اقْرَأْ عليَّ يا عَبْدَ اللَّـهِ**» (٢) .

وهَـٰذه كُلُّها رَسائلُ إيجابيَّة أَنْجبَت للأُمَّةِ أئمَّةً مُتَميِّزينَ من أئمَّةِ الخَيرِ والهُدَىٰ والنُّورِ كعَبدِ اللَّـهِ بنِ مَسعُود .

إنَّه فَنٌّ من فُنُونِ التَّربيَةِ والتَّعامُلِ الرَّاقي ، أنْ فَهِمَ ضَعفَ كُلِّ نَفسٍ فقَوَّاها ، وأَشعَرَها بقِيمَتِها وقُوَّتِها ، فأَبْدَعَ التَّوجِيهَ والبناءَ . فالثِّقَةُ بالنَّفسِ والشُّعُورُ بالقيمَةِ الذاتيَّةِ هُما أمْرانِ أَساسِيَّانِ لتَشكيلِ الشَّخصِيَّةِ القِياديَّةِ القَويَّةِ المُتكامِلَةِ (٣) .

لقَد قَوَّىٰ ﷺ الجانِبَ النَّفسيَّ الخُلُقيَّ السُّلوكيَّ الذي يُمكِنُ التَّحكُّمُ فيه وتَطويرِه بالجَهْدِ البَشَريِّ ، أمَّا الأمرُ الخَلْقيُّ فلَيسَ للإنسَانِ فيه مِنْ الأمْرِ مِنْ شَيءٍ ، فلا يُقيمُ لَه وَزْناً ولا اعتِباراً ، لأنَّ الأمْرَ أرْقَىٰ من هَـٰذا وذَاكَ .

فقَد كَانَ ﷺ يُربِّي ذَواتاً عَظيمَةً نَفيسَةً تُقاسُ بميزانِ اللَّـهِ ، ذَاكَ المِيزانُ الثَّابتُ البَاقِي . فَبِتْنا نَتطلَّعُ إلَىٰ صِفَاتِهِم لا أَوْصَافِهِم ، وذَلكَ هُو المِعيَارُ الصَّحيحُ الذي تُقاسُ به النُّفُوسُ ، فتَستَقِرَّ ، وتَزكُو ، وتَعلُو .

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ، مرجع سابق ، ٢/ ٢٩٦ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب فضائل القرآن ، باب البكاء عند قراءة القرآن ، ص ٩٣٠ ـ ٩٣١ ، رقم الحديث : ٥٠٥٥ ـ ٥٠٥٦ .

(٣) «التربية الإيجابية من خلال إشباع الحاجات النفسية للطفل» ، مصطفى أبو سعد ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

هَـٰذا الذي نَهجَهُ ﷺ للحُصُولِ عَلَىٰ شَخصيَّاتٍ مُتَوازِنَةٍ ، مِمَّا جعلَها تَقفِزُ قَفَزاتٍ هَائلَةٍ إِلَىٰ الأمَامِ نَحوَ الإنْجازِ .

وقَد نَجحَ ﷺ في هَـٰذا النَّهج مع أصحَابِه نَجاحاً مُنقَطِعَ النَّظيرِ لا مَثيلَ لَه عَبرَ التَّاريخِ ، وبذَلكَ يُمكِنُ للأُمَّةِ الإسلاميَّةِ مُقتَديَةً بمَنهَجِ نَبيِّها ﷺ ، أنْ تُفَعِّلَ هَـٰذه الشَّريحَةَ الضَّعيفَةَ (ظَاهِرياً) وتَرقَىٰ بها إلَىٰ أرْقَىٰ مَراتِبِ التَّأثيرِ الإيجابيِّ لصَالحِ أُمَّتِها .

المطلَبُ الثَّالث

التَّحفِيزُ والتَّشجِيعُ والإيحَـاءُ

يُعَدُّ التَّشجيعُ والتَّحفِيزُ إيحاءَاتٍ داخِليَّةٍ ومَهارَةً يُمكِنُ للمُربِّي استِخدامُها في بناءِ النَّفسِ الإنسانيَّة ودَفعِها لفِعلِ الخَيرِ، لِـما يحمِلانِه من عَوامِلَ قَوِيَّةٍ وتَأثيرٍ عَلَىٰ السُّلُوكِ الإنسانيِّ الإيجابيِّ، ويُسهِمانِ في تَرَقِّي النَّفسِ وسُمُوِّها، ويُحقِّقانِ للإنسانِ حَياةً مُتوافِقَةً.

فهَـٰذا عَبدُ اللَّـهِ بنُ عُمَرَ الصَّحابيُّ العَابِدُ المُثابِرُ الأوَّابُ أخُو اللَّيلِ، يَقُومُه مُصلِّياً، وصَديقُ السَّحَرِ يَقطَعُهُ مُستَغفِراً باكِياً، رَأىٰ في شَبابِه رُؤيَا، فسَّرَها له الرَّسُولُ ﷺ تفسيراً جعلَ قِيامَ اللَّيلِ مُنتَهَىٰ آماله وغِبطَتَه وحُبُورَه، فعِندَما قَصَّت السَّيِّدَةُ حَفصَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا ما رَأىٰ أخُوهَا، قَالَ لها الرَّسُولُ ﷺ: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّـهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْـلِ**»(1).

ما أجمَلَ هَـٰذا التَّحفِيزَ والتَّشجيعَ الرَّائعَ من المُرَبِّي العَظيم، الذي قَدَّمَ فيه المَدحَ والثَّناءَ قَبلَ التَّوجيهِ والإرْشَادِ، تَشجيعاً لعَبدِ اللَّـهِ عَلَىٰ عَمَلٍ أثْقَلُ عَلَىٰ النَّفسِ من الجَبَلِ، يَحتاجُ مُكابَدَةً ومُصابَرَةً ومُجاهَدَةً، ألَا وهُو قِيامُ اللَّيلِ، فقَد عَلِمَ ﷺ منه الخَيرَ فأرادَ أنْ يَبنِيَ عِندَه سُلُوكاً إيجابيَّـاً، يُسهِمُ في رُقيِّ نَفسِه وتَزكِيَـتِها.

(1) «صحيح مسلم»، ج٤، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم، باب من فضائل عبد اللَّـه بن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا، ص ١٩٢٧، رقم الحديث: ٢٤٧٩، وانظر: «رجال حول الرسول»، خالد محمد خالد، دار الفكر، بيروت ـ بغداد، ص ٩٩.

ومُنذُ ذَلكَ اليَومَ إلَىٰ أنْ لَقيَ عَبدُ اللَّـهِ بنُ عُمَرَ ربَّه لَـمْ يَدَعْ قِيامَ اللَّيلِ في حِلِّهِ وتَرحَالِه .

وكَانَ ﷺ يُربِّي أصحَابَه عَلَىٰ التَّركيزِ عَلَىٰ السُّلُوكِ الإيجابيِّ أيضاً ، ويَضَعُ لهم صُورَةً ذِهْنيَّـةً مُشرِقَةً عَنهُ كهَدفٍ مَنشُودٍ ، ليَصِلُوا إليها ، حَيثُ كَانَ يمتَدِحُ أصْحابَهُ بما فيهم من تميُّزٍ وإيجابيَّاتٍ كالقُوَّةِ ، والشَّجاعَةِ ، والأمَانَةِ ، والبَأسِ ...، لتَرسيخِ ذَلكَ في ذَواتِهم ، فقد كَانَ يُطلِقُ عَلَىٰ أبي عُبيدَةَ بنِ الجرَّاحِ لَقَبَ : «أَمينِ هَـٰذِه الأُمَّة» ، وحَمزَةَ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ : «أسَدِ اللَّـهِ ، وأسَدِ رَسُولِهِ» ، وخَالِدِ بنِ الوَليدِ : «سَيفِ اللَّـهِ المَسْلُولِ» ، وعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ : الفَارُوقِ ، وزَيدِ الخَيلِ : زَيدَ الخَيرِ ، وحُذَيفَةَ بنِ اليَمانِ : أَمينِ سرِّ رَسُولِ اللَّـهِ ، وسبطِهِ الحَسَنِ بنِ عَليٍّ الذي قَالَ عَنه ﷺ : «**إنَّ ابْني هَـٰذا سَـيِّدٌ ، ولَعَلَّ اللَّـهَ أنْ يُصْلحَ بِه بَينَ فِئَتَينِ عَظيمَتَينِ مِنَ المُسْلِمينَ**» (١) ، وكَانَ لَه ذَلكَ . رَحمَةُ اللَّـهِ عَليهِم أَجمَعينَ .

إنَّها التَّربيَةُ النَّفسيَّةُ السُّلُوكيَّةُ بالتَّشجيعِ والتَّحفيزِ ، من خِلَالِ دِقَّةِ مُلاحَظَةِ المُربِّي للخِصَالِ الإيجابيَّةِ لَدَىٰ المُتَربِّي وإطلَاقِها عَليه ، وتَرسيخِها دَائماً في وِجْدانِه بالإيحاءِ المُستَمرِّ ، فيَسعَىٰ المَوصُوفُ بسُلُوكِه لتَحقيقِ ما وُصِفَ به .

فقَد وَضعَ لَهم ﷺ أهْدَافاً ورُؤىً بَعيدَة المدَىٰ ، تُعتَبرُ في وَقتِها حُلماً وضَرباً من الخَيالِ ، كَفَتحِ فَارِس ، والقُسطَنطينيَّة ...، أَتبَعَها بوَقُودٍ ومَدَدٍ نَفسيٍّ بما مَنحَهُم من ألقابٍ بَاتُوا فَخُورينَ بها ، فكَانَ جِيلُ الصَّحابَةِ المُتميِّزُ بتَربيَتِه

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق كتاب الصلح : باب ابني هذا سيد ، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ ، رقم الحديث : ٢٧٠٤ .

يَجُوبُ العَالَـمَ شَرقاً وغَرباً لنَشرِ الإسلَامِ ، ونَجحَ في تَحقيقِ هَـٰذهِ الرُّؤىٰ في سَنواتٍ مَعدُودَةٍ لَـمْ يَشهَدْ لها التَّاريخُ مَثيلاً في حَملِ رَايَةِ هَـٰذا الدِّينِ ، فكَانَ لهم العِزَّةُ والنَّصْرُ والتَّمكِينُ ، وأصبَحَ لَقبُ هَؤُلاءِ الصَّحابَةِ عِندَنا مُلازِماً لأسمائِهِم .

كَيفَ تَتكَوَّنُ صُورَتُنا عَن أنفُسِنا :

إنَّ جَميعَ ما قُلنَاهُ يَتلَخَّصُ في أنَّ شَخصِيَّـتَنا تَتبلوَرُمن خِلالِ تَعليقِ وتَشجيعِ الآخَرينَ من حَولِنا ، فهَـٰذا لَه الأثَرُ في تَكوينِ صُورَةٍ إيجابيَّـة عن النَّفسِ ، ويُفَـتِّقُ المواهِبَ ، ويُظهِرُ الإبْدَاعَ .

فَالتَّشجيعُ والتَّحفيزُ يُعطِيانِ ثِقةً بالنَّفسِ تُساعِدُ على تَشكيلِ شَخصيَّةٍ قَويَّةٍ قِياديَّةٍ مُتكامِلَةٍ ، بما يُوجِبُ عَلَينا بَثَّ التَّحفيزِ والتَّشجيعِ في نُفُوسِ أجيالِنا ، وأنْ نَمتَدِحَ ما لَدَيهِم من سُلُوكٍ إيجابيٍّ مع اكتِشافِ الموَاهِبِ ، وتَنميَةِ الخَيرِ ، وصَقلِ القُدُراتِ بالإيحاءِ المُستَمرِّ ، وبما حَباهُم اللَّـهُ به من ذَكاءٍ ، وقُوَّةٍ ، وصَبرٍ ، وأمانَةٍ ، وشَجاعَةٍ ، أو أيَّـة مَزايا أُخرَىٰ ، لتَعزيزِ السُّلُوكِ الإيجابيِّ لدَيهِم ، ورَفعِ طُمُوحِهم وهِمَّتِهم لِـمَا يُتوَقَّعُ مِنهُم من آمالٍ عالِيَـةٍ ، فتُؤسِّسُ فيهم صُوَراً إيجابيَّـةٌ عن ذَواتِهِم يَصعُبُ عَلَىٰ المدَىٰ تَغيُّرُها ، فكَم مِنْ كَلماتٍ وألْقَابٍ صَنعَت صاحِبَها .

المطلَبُ الرَّابع

التَّسامُحُ والإغْضَاءُ عَن الهَفَواتِ والأخْطَاءِ

(الفَصلُ بَينَ السُّلُوكِ والشَّخصِ)

إنَّ إنْكَارَ أخطَاءِ وهَفَواتِ المُقصِّرينَ بلُطفِ القَولِ والرِّفقِ واللِّينِ ، ومن ثَمَّ التَّسامُحِ مَعَهم وغَضِّ الطَّرفِ عَنهم بالفَصلِ بَينَهُم وبَينَ سُلُوكِهم يَقُودُ ذَلك إلَىٰ استِصلاحِهم ، وإنْقاذِهم وإقَالَةِ عَثَراتِهم ، وتَقليلِها أو وَأدِها ، خاصَّةً إذا كَانُوا كِراماً ذَوِي هَيئاتٍ .

ولنَنظُرْ إلَىٰ نَهجِ الرَّسُولِ الكَريمِ ﷺ فيما فَعلَهُ الصَّحابيُّ حَاطِبُ بنُ أبي بَلْتَعَة الذي أرادَ أنْ يُخبِرَ المُشركينَ بنَبأ الفَتحِ ، وكَتبَ لَهم سِرّاً كِتاباً بعَدَدِ الجَيشِ وعَتادِه وهُوَ الصَّحابيُّ البَدرِيُّ!

إنَّها صُورَةٌ حَيَّةٌ من صُوَرِ الضَّعفِ البَشَريِّ في لَحظَةٍ من لَحظَاتِ الزَّمَنِ ، فأحضَرَ الرَّسُولُ ﷺ حَاطِباً ، وسَألَه برَوِيَّةٍ وتُؤدَةٍ : «**مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَـٰذَا؟**» ، فقَالَ : واللَّـهِ إنِّي لَـمُؤمنٌ باللَّـهِ ورَسُولِه ، ومَا بَدَّلتُ ولا غَـيَّرتُ ، ولَكِنْ لي بَينَ أظْهُرِهِم أهْلٌ ووَلَدٌ ، ولَيسَ لي عَشيرَةٌ ، فصَانَعتُهُم عَلَيهِم ، فقَالَ ﷺ : «**صَدَقَ**» .

ولَكِنْ لِعِظَمِ هَـٰذا الذَّنبِ الخَطيرِ ، والذي يُعَدُّ في المَفهُومِ الحَديثِ خِيانَةً عُظمَىٰ كَانَ رَدُّ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ قَالَ : «دَعْني يَا رَسُولَ اللَّـهِ أَضْرِبُ

عُنُقَ هَـٰذَا المُنافِقِ» ، ولَكنَّ الرَّسُولَ ﷺ قالَ لِعُمَرَ يُذَكِّرُهُ بماضي حاطِب النَّاصِع ـ ليُرَسِّخَ لَديه الإيجابيَّاتِ ويَحفَظَ له مُستَقبَلَه ـ : **«أَمَا عَلِمْتَ يا عُمَرُ أَنَّ اللَّـهَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»** ، فذَرفَت عَينا عُمَر ، وقَالَ : اللَّـهُ ورَسُولُه أعلَمُ (١) .

إنَّ إقالَةَ العَثَراتِ والتَّسامُحَ والرِّفقَ واللِّينَ لَيسَ إقْراراً للباطِلِ ، ولكِنْ إنقاذاً وانتِشالاً للمُخطِئِ من واقِعِ الخَطأ الذي يَعيشُه ، وتَوجِيهاً لعَواطِفِه الإيمانيَّة الكامِنَة في نَفسِه ، ليَعُودَ السَّهمِ إلَىٰ كِنانَتِه ، ويَعُودَ الصَّفُّ الإسلاميُّ إلَىٰ تَراصِّهِ وقُوَّتِه ، وهَـٰذا فَنٌّ من الفُنُونِ العَمليَّة في التَّعامُلِ التَّربَويِّ الدَّعَويِّ .

وفي قِصَّةٍ أُخرَىٰ مع صَحابيٍّ آخَر ، تُنبِـؤُنا بأنَّ المُذنِبَ وإنْ كَانَ صَاحِبَ كَبيرَةٍ ، أو غَلبَتهُ شَهوَتُه فضَعُفَت نَفسُه ، لكنَّه مُحِبٌّ للَّـهِ ورَسُولِه مَحبُوبٌ إلَيهِما ؛ لأنَّ المحبَّـةَ أمرٌ عاطِفيٌّ يَتعدَّىٰ مُجرَّدَ الاتِّباعِ فقَط ، فلَا تَنتَفِي المحَبَّـةُ بالمَعصِيَةِ ، ولَكنْ يَنتَفِي كَمالُـها فقَط (٢) ، وبِهَـٰذا يَستَحِقُّ الدِّفاعَ والمُناصَرَةَ .

مِثالُ ذَلكَ : الصَّحابيُّ الذي حَدَّهُ الرَّسُولُ ﷺ في الخَمرِ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ ويَعُودُ ، ومَع ذَلكَ لَـمْ يَهجُرْهُ الرَّسُولُ والصَّحابَةُ ، ولَـمْ يَقْلُوهُ ، بَلْ كَانَ يُمازِحُ

---

(١) «صحيح مسلم» ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب ، ص ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ ، رقم الحديث : ٢٤٩٤ ، وانظر في كتب السير : «الرحيق المختوم» ، ص ٣٦٦ ، «هذا الحبيب يا محب» ، ص ٢٥٥ ، مراجع سابقة .

(٢) «محبَّة الرَّسُولِ ﷺ» ، العلامة الشيخ محمد بن الحسن الددو الشنقيطي ، اعتنى به : د.علي بن حمزة العمري ، معهد مكة المكرمة بجدة ، مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ، انظر : معنى المحبة ، ص ٢٣ .

الرَّسُولَ ﷺ ويُضاحِكُه ويُجالِسُه في المَسجِدِ ، وكَانَ ﷺ يَقبَلُ منه ذَلكَ ، فَمَا تَضايَقَ منه ، وما اعتزَلَهُ ، وما تَجاهَلَهُ قَطُّ . وعِندَما لَعنَهُ بَعضُ الأَصْحابِ مِنْ كَثرَةِ شُربِه للخَمرِ ، وكَثرَةِ إقامَةِ الحَدِّ عَلَيه غَضِبَ مِنهُم الرَّسُولُ ﷺ وزَجرَهُم ، ونَهاهُم عن ذَلكَ مُشفِقاً عَلَيه ، شَاهِداً لَه بحُبِّه للَّـهِ ورَسُولِه [1] .

لقَد فَصَلَ المُعلِّمُ الأعظَمُ في مَنهَجِه التَّربَوِيِّ بَينَ السُّلُوكِ وصَاحِبه ، فلَمْ يُخرِجْهُ الذَّنبُ من قَلبِ الرَّسُولِ ﷺ ولَـمْ يُعَطِّلْ ذَلكَ حُكمَ اللَّـهِ في الوَقتِ نَفسِه ، فتِلكَ المحبَّـةُ والشَّفَقَةُ جِسرٌ لتَعديلِ ما اعوَجَّ من سُلُوكٍ .

فالمُرَبِّي الإيجابيُّ هُو مَنْ يتَّخِذُ قَراراً بالفَصلِ بَينَ الشَّخصِ وسُلُوكِه ، ويَتعاطَفُ مَعَه ، ويَتفَهَّمُ تِلكَ الأخطَاءَ ودَوافِعَها الحَقيقيَّة بصَدرٍ رَحبٍ ، ويَتجَنَّبُ تَهويلَها ، ويَسعَىٰ بالعَملِ الجَادِّ عَلَىٰ تَعديلِها بطُرُقٍ مُختَلِفَةٍ . ويُركِّزُ عَلَىٰ الإيجابيَّـاتِ التي يَمتَلِكُها المُخطِئُ ، والتي من المُمكِنِ أنْ تَمنَعَهُ من الاستِمرارِ بالخَطَأِ ، بدَلاً من التَّركيزِ عَلَىٰ الخَطَأِ ذاتِه ، فذَلكَ يُؤدِّي إلَىٰ تَثبيتِها في نَفسِه . وهَـٰذا السُّلُوكُ من المُرَبِّي يُعدُّ سُلُوكاً إيجابيّـاً مُتَسامِحاً ، وأُسلُوباً فَعَّالاً في التَّربيَةِ .

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الحدود ، ص ١٢٠٦ ، رقم الحديث : ٦٧٨٠ ، وانظر القصة في «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق كتاب شرف المصطفى ﷺ» ، لأبي القاسم القشيري ، ج٤ ، مرجع سابق ، ص ٥٣٥-٥٣٦ .

فهُوَ يُساعِدُ في التَّركيزِ السَّليمِ عَلَىٰ الهَدفِ ، ويُبعِدُ المُخطِئ عن رُدُودِ أفْعالٍ انتِقاميَّةٍ ، قد تكُونُ هي الدَّافِعُ الأساسيُّ للسُّلُوكِ السَّلبيِّ (١) .

جرِّبْ أيُّها المُرَبِّي أنْ تكُونَ مُتفهِّماً مُتعاطِفاً مَع المُخطِئ ، بإبقاءِ حَبلِ الوُدِّ مَعه وعَدمِ قَطيعَتِه ، فذَلكَ يُصلِحُ مِنْ شَأنِه ، ويَحفَظُهُ دَاخِلَ الصَّفِّ ، ويَمنَحُكَ ارتِياحاً وهُدُوءاً ، ويُعلِّمُكَ قَواعِدَ الصَّبرِ والحِلمِ والأنَاةِ ، وهِيَ صِفاتٌ أساسيَّةٌ للمُرَبِّي الايجابيِّ النَّاجِحِ ، والمُتمَثِّلةُ بخَيرِ المُرَبِّينَ ، وهَادِي البَشَريَّةِ أجْمَعينَ ، عَلَيه أفْضَلُ الصَّلاةِ والتَّسلِيمِ .

(١) «الحاجات النفسية للطفل» ، د.مصطفى أبو سعد ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ـ ١٣١ ، بتصرف .

المطلَبُ الخامِس

الانشِغَالُ بهُمُومِ الأصْحَابِ

إنَّ الاهتِمامَ بهُمُومِ الأصحَابِ ومُشارَكتِهم مَشاعِرَهُم يَأسِرُ قُلُوبَهم [1] .

ويُعتَبرُ هَـٰذا من عَبقَريَّةِ الدَّاعِي أو القَائدِ ومَهارَتِه ، فهُو يُشعِرُهُم بقَدرِهِم عِندَه ، وأنَّه قَريبٌ منهُم ، يَحيا هُمومَهُم ، وآلامَهُم وآمَالَـهم ، مُهتَمٌّ بِهِم ، يَعيشُ بَينَ جَوانِحِهم ، فتَنجَذِبُ قُلُوبُهم إلَيه .

هَكَذا كَانَ شَأنُ القَائدِ الدَّاعيَةِ الأعظَمِ ﷺ .

لقَد بلَغَ برُّهُ بأصْحابِه ورِفْقُه بِهم أقْصَىٰ مَداهُ ، ويَدُلُّ عَلى ذَلكَ مَا قَدَّمَهُ لَهم من حُبٍّ وشَفَقَةٍ واهتِمامٍ وإحسَانٍ عَظيمٍ ، جَعلَت مَحبَّتَهُ في قُلُوبهم عُروَةً وُثقَىٰ ، فافْتَدَوْهُ بأرْوَاحِهم وأنْفُسِهِم وآبائِهِم وأُمَّهاتِهم.. وكَانَت قُلُوبُهم تَهفُو للُقْياهُ والتَّحدُّثِ إلَيه وتَلقِّي تَوجيهاتِه ، والنَّهلِ من نَبعِه الفَيَّاضِ ، وكَانُوا يَحِنُّونَ إليه كَما تَحِنُّ الطُّيُورُ إلَىٰ أوْكارِهَا .

فقَد كَانَ ﷺ يَتعرَّفُ عَلَىٰ دَخائلِ أصْحابِه ليُعينَهُم عَلَىٰ شُؤونِ حَياتِهم ، ويُخَفِّفَ عَنهُم ما يُواجِهونَه من مِحَنٍ وشَدائدَ [2] ، تَشغَلُه هُمُومُهم ، وتَملأُ نَفسَهُ مَشاعِرَهُم ، وهَـٰذا لا يَفعَلُه إلَّا مُربٍّ عَظيمٍ مُلِئَ قَلبُه عاطِفَةً أبَويَّةً لِـمَنْ حَولَه ، وهَكَذا كَانَ ﷺ .

(١) «استمتع بحياتك» : فنون التعامل مع الناس في ظل السيرة النبوية الشريفة ، د.محمد بن عبدالرحمن العريفي ، دار الحميد للنشر ، ص ١٠٣ .

(٢) «نبي الهدى والرحمة» ، د.عبدالمجيد البيانوني ، مرجع سابق ، ص ٢٦٨ .

فعَنْ جَابِرِ بنِ عَبدِ اللَّـهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّه في غَزوَةِ ذَاتِ الرِّقاعِ انْقطَعَ جَملُه ، وأصبَحَ لا يَقدِرُ عَلَىٰ المَشي إلَّا بصُعُوبَةٍ ، فَمرَّ به الحَبيبُ ﷺ وهو واقِفٌ ، والجَملُ حاسِرٌ بَارِكٌ ، فنزَلَ ﷺ يَحجِنُه بمِحجَنِه ، فقَامَ وسَارَ حَتَّىٰ كَادَ يَسبقُ غيرَهُ ، ثُمَّ ابتَدرَهُ ﷺ مُهتمّـاً بسُؤالٍ عن أحوَالِه : «**هَلْ تزَوَّجْتَ؟**» ، فَأخبرَهُ أنَّه تزوَّجَ ، فسَأله ﷺ : «**بِكْراً أَمْ ثَيِّباً؟**» ، فأجابَه أنَّها ثَيِّبٌ ، وعِندَها حَثَّهُ عَلَىٰ تزوُّجِ البِكْرِ ، وسأله عن سَببِ تَفضيلِه الثَّـيِّبَ؟ فأخبَرهُ بأنَّ له سَبعَ أخَواتٍ هُنَّ بحاجَةٍ إلَىٰ رِعايَةِ أُمٍّ حانيَةٍ ، فأثنَىٰ عَلَيه الرَّسُولُ خيْراً ، ثُمَّ سَألَهُ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**أَتَبيعُنِي هَـٰذا الجَمَلَ يا جَابِرُ؟**» ، قَالَ : أَهَبُه لَكَ ، فلَمْ يرضَ ﷺ ، وساوَمَه شَيئاً فَشيئاً حَتَّىٰ بَلغَ الثَّمنَ المَطلُوبَ ، فبَاعَه إيَّاهُ ، وتَمَّ الاتِّفاقُ عَلَىٰ أنْ يُسلِّمه له في المَدينَةِ .

ثُمَّ قَالَ لَه الرَّسُولُ ﷺ مُؤانَسةً لَه وتَطيِيباً : «**أَنْ لَوْ سَمِعَتْ زَوجُكَ بِقُدُومِكَ لَفَرَشَتِ النَّمَـارِقَ** [1]» ، فقَالَ : واللَّـهِ يَا رَسُولَ اللَّـهِ مَا لَنا من نَمارِقَ ، فقَالَ له ﷺ : «**سَتَكُونُ**» ، فإذَا أنْتَ قَدِمتَ فاعمَلْ عَمَلاً كَيِّساً .

ثُمَّ قَدمُوا المَدينَةَ ، وجَاءَ جَابِرُ بالجَمَلِ إلَىٰ المَسجِدِ ، فأمَرَ ﷺ له بثَمَنِه وزادَهُ عَلَيه ، ثُمَّ طَلبَ من جَابِرٍ أنْ يَأخُذَ جَملَهُ مَع ثَمنِه ، فأخَذَ جَابِرُ الجَملَ وثَمنَهُ شَاكِراً مُمتَناً للَّـهِ ورَسُولِه [2] .

---

(١) الفُـرُش .

(٢) «القصة موجودة في : «هذا الحبيب يامحب» ، لأبي بكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ١٩٤ . وانظر : «نبي الهدى والرحمة» للبيانوني ، مرجع سابق ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩، والحديث في «صحيح البخاري» ، كتاب البيوع .

إنَّها لَفتَةٌ فاضِلَةٌ من المُصلحِ المُرَبِّي أنْ يهتمَّ بشُؤونِ مَنْ يُربِّي ، فلَمْ يُسْهِمْ ﷺ في حَلِّ المُشكِلَةِ الآنيَةِ بإصلَاحِ مَركَبَةِ جابرٍ فحَسْب ، وإنَّما ابتَدرَهُ مُطمَئنَّاً عَلَىٰ أحوَالِه ، مُنشَغِلاً بما يُهِمُّ ويُؤرِّقُ كُلَّ شَابٍّ في مثلِ عُمرِ جَابرٍ ، «**هَلْ تزَوَّجْتَ؟**» مُشعِراً إيَّاهُ بالخُصُوصيَّة وقُربِ المَنزِلَةِ ، وزيادَةً في مُباسَطَةِ الحَديثِ مَعَه سَألَه ﷺ : «**بِكْراً أَمْ ثَيِّباً؟**» .

وكَانَ ﷺ قد لَمسَ من مَركَبَةِ جَابرٍ ، ووَضْعِهِ الاجتِماعِيِّ ، وعَدَدِ مَنْ يُعيلُهُم ضَعفَ حَالِه ، وحَاجَتَه إلَىٰ شَيءٍ يُعينُه ، وعَلِمَ من حَديثِه مَعَه أنَّه حَديثُ عَهدٍ بزَواجٍ ولَه أخَواتٌ ، وأنَّه المُعيلُ الوَحيدُ ، فأوْجَدَ لَه حَلَّاً يُصلِحُ مِنْ حَالِه (المُشكِلَة المادِيَّة) ، وذَلكَ بإعطَائه رَأسَ مَالٍ يَستَثمِرُهُ ويَغتَني به مَعَ أُسرَتِه المُمتَدَّة ، مُتَعاطِفاً مَعه ، مَع دَعمِه ودَعمِ صِفَاتِ تَحمُّلِ المَسؤُوليَّة والاعتِمادِ عَلَىٰ الذَّاتِ ، فابْتَاعَ منه ذَلكَ الجَملَ . وسَاوَمَهُ عَلَيه حَتَّىٰ أرضَاهُ بما يَحتاجُه من ثَمنِ هَـٰذه الصَّفقَة ، ثُمَّ زَادَهُ بأنْ بَشَّرَهُ بتَحسُّنِ وَضعِه (سَتكُونُ النَّمارِقُ) ، طَالباً منه الأخذَ بالأسبابِ المُعينَةِ والنَّشاطِ بالعَمَلِ الجادِّ الكَيِّسِ فورَ وُصُولِه ، وعِندَما وَصَلُوا المَدينَةَ أعطَاهُ ﷺ الثَّمنَ وزادَه عَلَيه ، وأعادَ إلَيه مَركَبتَه ليَستَعينَ بها عَلَىٰ قَضاءِ حَوائجِه . إنَّها مَهارَةٌ عَميقَةُ الفَهمِ قَويَّةُ الأثَرِ لِمُساعَدتِه بطَريقَةٍ غَيرِ مُباشَرةٍ ، مُقَدِّراً ﷺ لجابرٍ حاجَتَه وتَعفُّفَه ، فقَد حَفظَ لَه مَاءَ وَجهِه وأعانَهُ ﷺ بما يَحتاجُه .

فعِندَما يَكُونُ هَـٰذا التَّواصُلُ والقُربُ وتَجاوُزُ المَسافَاتِ بَينَ جِيلَينِ مُتفاوِتَينِ في العُمرِ ، ويَتبَدَّىٰ هَـٰذا الحُبُّ والاهتِمامُ والرِّعايَةُ من المُربِّي ، يَكُونُ القَلبُ مُستَعِداً لأيِّ تَوجِيهٍ منه .

لقَد كَانَ ﷺ رَقيقَ المَشاعِر مُرهَفَ الإحسَاسِ بمَنْ حَولَهُ ، مُهتَمّـاً بشُؤونِهم مُنشَغِلاً بما يُؤرِّقُهُم ، فبادَلُوهُ الحُبَّ والوَلاءَ .

ولَـمْ يَعرِف التَّاريخُ من الحُبِّ والطَّاعَةِ ما أحَبَّ وأطَاعَ أصحَابُ مُحمَّدٍ مُحمَّداً ، عَلَىٰ اختِلَافِ بيئاتِهِم وأعمَارِهِم وأمْزجَتِهِم ، وضَعفِهِم وقُوَّتِهِم وغِنَاهُم وفَقرِهِم ، فتَشابَكَت القُلُوبُ حَولَهُ ﷺ كعقدِ جُمانٍ أحَاطَ هَـٰذا القَلبَ الكَبيرَ .

يَقُولُ (دِيلْ كَارنجي) : إنَّ فَنَّ التَّأثيرِ عَلَىٰ الآخَرينَ وكَسبِ قُلوبِهِم يَكُونُ بأنْ تَهتَمَّ بالآخَرينَ اهتِماماً صَادِقاً ، وأنْ تُشَجِّعَهُم أنْ يَتحَدَّثُوا عَن أنفُسِهم ، وتكُونُ مُستَمِعاً جَيِّداً ، وأنْ تتحَدَّثَ مَع الآخَرينَ في إطَارِ اهتِمامَاتِهِم [1] ، فيَشعُرُ الآخَرُونَ باهتِمامِكَ بِهِم وقُربِهِم مِنكَ .

فيا حَـبَّذا لَو أنَّ مُربِي الأجيَالِ المُعاصِرَةِ لا يَكتَفُونَ بالتَّوجِيهِ والإرشَادِ ، بَلْ يَلحَظُونَ مَنْ يُرَبُّونَ ويَعتَنُونَ بِهِم رِعايَةً أبَويَّةً .

وألَّا تَبنِي الحَواجِزُ النَّفسيَّة والعُمريَّة جِداراً ثَخيناً بَينَهُم ، فيَتفَقَّدونَ أحوَالَهم ويَهتَمُّونَ بشُؤونِهم ومُشكِلَاتِهم وما يُؤرِّقُهُم ، مُتقَرِّبينَ مِنْ قُلُوبِهم مُتَواصِلينَ مَعَهم استِيعاباً وتَفهُّماً ، وتَقديمُ يَدِ العَونِ لَهم ، حَتَّىٰ ولَو بالتَّوجِيهِ والدُّعاءِ ما استَطاعُوا إلَىٰ ذَلكَ سَبيلاً .

(١) «كيف تؤثر على الآخرين وتكتسب الأصدقاء» ، ديل كارنجي ، المملكة العربية السعودية ، مكتبة جرير ، ط٢ ، ٢٠١٠م ، ص ١٢٧ .

المطلَبُ السَّـادِسُ

إكْرَامُ الأصْحَابِ عن طَريقِ الاهْتِمامِ بصِغَارِهِم

كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يُمازِحُ أصحابَه ويُخالِطُهُم ويُحادِثُهُم ، شَديدَ الحَفاوَةِ بأبنائِهم ، يُداعِبُ صِبيانَهم ويُجلِسُهُم في حِجرِه [1] ، يُكرِمُهُم ويُغدِقُ عَلَيهم مِنْ حُـبِّه وحَنانِه وعَطفِه الكَبيرِ . فقَد كَانَ ﷺ يُلاطِفُ الصِّغَارَ مُتحمِّلاً ما يَصدُرُ عَنهُم من بَراءَةِ الطُّفولَةِ الغَضَّةِ ، وقد ذَكرَ البُخاريُّ في أكثَر مِنْ مَوضِعٍ في صَحيحِه عن قِصَّةِ أُمِّ خَالِد :

كَانَ خَالِدُ بنُ سَعيدِ بن العَاصِ أحَدُ أصحَابِ الرَّسُولِ ﷺ ، ومِن المُهاجِرينَ الأوائلِ إلَىٰ الحبَشَةِ ، وعِندَما هَاجَر النَّبيُّ ﷺ إلَىٰ المَدينَةِ المُنوَّرَةِ ، لَحِقَ به مع بَقيَّةِ المُهاجِرين ، وكَانَ له ابنَـةٌ تُكنَّىٰ بـ «أُمِّ خَالِد» ، وُلِدَت بالحَبشَةِ ، ولها مَكانَةٌ خاصَّةٌ عِندَ الرَّسُولِ ﷺ ويَخصُّها بهَديتِه ، فقَد أُتِيَ له ﷺ بثِيابٍ فيها خَميصَةٌ سَوداءُ صَغيرَةٌ ، فقَالَ ﷺ : «**مَنْ تَرَوْنَ نَكْسُو هَـٰذِهِ؟**» ـ تَشويقاً لأصحابِه ولَفتاً لانتِباهِهم ـ فسَكتَ القَومُ ، فمَنْ سَيفُوزُ بهَـٰذا الشَّرفِ وتِلك الخُصُوصيَّةِ ، فقَالَ ﷺ : «**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**» ، فأُتِيَ بها تُحمَلُ فأخَذَ الخَميصَةَ بيَدِه فألبَسَها ، وقَالَ ﷺ لَها : «**سنه سنه**» ، وهي بالحَبشِيَّة : حَسناً حَسناً .

ولا زَالَت أُمُّ خَالِد تَذكُرُ تِلكَ القِصَّةَ وتُكرِّرُها بَعدَ حِينٍ وحِينٍ ، وتُكمِلُها بقَولها : فذَهَبتُ ألعَبُ بخَاتَمِ النُّبُوَّةِ فزَبرَني [2] أبي ، فقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ :

---

(١) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٨٤ .

(٢) نَهرَني .

«**دَعْهَا**» ، ثُمَّ قَالَ : «**أَبْلِي وأَخْلِقِي ثُمَّ أَبْلِي وأَخْلِقِي ثُمَّ أَبْلِي وأَخْلِقِي**» ، فبَقِيَتْ حَتَّىٰ ذُكِرَ ، يَعنِي من بَقَائِها (١) .

أيُّ رَحمَةٍ وحُبٍّ ، وأَيُّ تواضُع ورقَّـةٍ في قَلبِه العَطُوفِ الكَبيرِ ، وأيُّ عَظمَةٍ من شَخصِهِ الكَريم ، أنْ يَترُكَ الطِّفلَةَ لتَلهُوَ ، ويَمنَعَ أبَاهَا أنْ يُبعِدَها حَتَّىٰ تَستَكشِفَ ما لَفتَ نَظرَها من بَدنِه الشَّريفِ ، مُقدِّراً لها طُفولَتَها ، ويُثنِي عَلَيها بكَلماتٍ رَقيقَةٍ باللُّغَةِ التي نَشأَتْ فيها ، لِيُشعِرَها أنَّها مَحبُوبَةٌ غَاليَةٌ ، ويُضفِي جَوَّ الأُنسِ والمرَحِ والسُّرورِ عَلَىٰ قَلبِ الطِّفلَةِ وأبيها .

ومن ذَلكَ أيضاً أنَّه ﷺ كَانَ إذَا أُتِيَ إلَيه بأوَّلِ الثَّمَرِ ، يَدعُو بالبَرَكَةِ ثُمَّ يُعطِيهِ أصغَرَ مَنْ حَضَرَه من الوِلْدانِ (٢) .

وكَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ في زيارَتِه للأنْصارِ ، يُسلِّمُ عَلَىٰ صِبيانِهِم ويَمسَحُ عَلَىٰ رُؤُوسِهِم ، ويَدعُو لَهم ، ويَخُصُّهُم بالسُّؤالِ والحَديثِ (٣) .

وإذَا مَرَّ بالأَوْلَادِ وهم يَلعَبُونَ أَلْقَىٰ عَلَيهِم السَّلامَ ، ووَقَفَ يَنظُرُ إلَيهِم ويُمازِحُهُم ويُخاطِبُ الصَّغيرَ منهم مُهتَمّـاً بما يُثِيرُ اهتِمامَه ، كَما فَعلَ مَع الفَطِيمِ الصَّغيرِ حيثُ سَألَهُ مُتودِّداً : «**يَا أَبَا عُمَيْر مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**» (٤) .

---

(١) الأحاديث في ذلك وردت في «صحيح البخاري» ، انظر : كتاب اللباس ، باب القميصة السوداء ، ص ١٠٩٥ ، وكتاب الأدب ، ص ١٠٨١ .

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، للإمام البخاري ، تحقيق : د. السلفي ، مرجع سابق ، ص ٢٠٨ ، رقم الحديث : ٣٦٢ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، رقم الحديث : ٣٦٥ ـ ٣٦٧ ، ص ٦٣٢ ، رقم الحديث : ١١٣٩ ، وانظر أيضًا : «تعامل الرسول ﷺ مع الأطفال تربوياً» ، مرجع سابق ، ص ٨٦ ، ٨٧ ، ١٥٩ .

(٤) سبق تخريجه في الفصل الأول .

وعَن أَنَسِ بن مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه مرَّ عَلَىٰ صِبيَانٍ فسَلَّمَ عَليهم ، وقالَ : كَانَ النَّبيُّ ﷺ يفعَلُه (١) .

كَما كَانَ ﷺ يَصحَبُ الأطفَالَ في الطَّريقِ ، ويَركَبُ مَعهُم عَلَىٰ الدَّابَّةِ .

قَالَ ابنُ عَـبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَـمَّا قَدِمَ مَكَّةَ استَقبَلَهُ أُغَيلِمَةُ بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ ، فحَملَ وَاحِداً بَينَ يَدَيهِ ، وآخَرَ خَلفَهُ (٢) .

وكَانَ ﷺ يَصُفُّ الكَثيرَ من أوْلَادِ بَني العَـبَّاسِ ، ثُمَّ يَقُولُ : «**مَنْ سَبَقَ إلَيَّ فَلَهُ كَذَا وكَذَا**» ، فيَستَبِقُونَ إليه فيَقَعُونَ عَلَىٰ ظَهرِه وصَدرِه فيُقَبِّلُهُم ويَلزَمُهُم .

ومَرَّ ﷺ عَلَىٰ نَفرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنتَضِلُونَ (٣) ، فقَالَ النَّبيُّ ﷺ : «**ارْمُوا بَنِي إسْمَاعِيلَ ، فَإنَّ أَبَاكُم كَانَ رَامِياً ، ارْمُوا وأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**» ، فأَمسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَينِ بأيدِيهِم ، فقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**مَالَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟**» ، قَالُوا : كَيفَ نَرمِي وأَنْتَ مَعَهُم! فقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُم كُلُّكُم..**» (٤) .

إنَّ هَـٰذه المَواقِفَ النَّبويَّةَ تَدُلُّنا عَلَىٰ مَهارَاتٍ تَربَويَّة من خَيرِ مُرَبٍّ ، تَركَتْ أَثَراً عَظِيماً عَلَىٰ :

أوَّلاً : الآبَـــاء :

إنَّها تُقدِّمُ لنا نَمُوذَجاً حَـيّاً في التَّعامُلِ الإيجابيِّ السَّليمِ والصَّحيحِ لأَصْحابِه

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، من كتاب «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، د.السلفي ، مرجع سابق ، باب السلام على الصبيان ، ص ٥٨٠ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب اللباس : باب الثلاثة على الدابة ، ص ١٠٧٦ ، رقم الحديث : ٥٩٦٥ .

(٣) يَتسابَقُونَ في الرَّمي .

(٤) «نبي الهدى والرحمة» ، د. عبد المجيد البيانوني ، مرجع سابق ، ص ٣١٥ .

مع أطْفَالِهم ، وأُسوَةً حَسَنَةً في رِعايَتِهم واهتِمامِهم بشُؤونِهم ، وتَربيَتِهم لَهم وترَفُّقِهم بهم ، وتَركِ التَّرفُّعِ عَنهُم ، والنُّزولِ إلَىٰ مُستَوىٰ طُفولَتِهم وإشْباعِهم الحُبَّ والحَنانَ . وقد اقْتدَىٰ الصَّحابَةُ برَسُولِ اللَّـهِ فسَارَعُوا إلَىٰ مُمازَحَةِ أطفَالِهم ومُداعَبَتِهم ، وذَلكَ مِمَّا يُقَوِّي العَلاقَةَ بَينَ الآباءِ والأبناءِ (١) .

هَـٰذه الرِّعايَةُ والاهتِمامُ والحُبُّ والتَّلطُّفُ والرِّفقُ من الرَّسُولِ ﷺ لأبناءِ أصحَابِه ، تُثلِجُ صُدُورَ الآبَاءِ ، وتَزيدُهُم لِرَسُولِهم حُـبّاً عَلَىٰ حُبٍّ ، كَما نَجدُ ذَلكَ في قِصَّة أُمِّ خَالِد .

ثانيــاً : الأبْنَــاء :

هَـٰذا السُّلُوكُ النَّبويُّ الكَريمُ العَمليُّ يُشعِرُ الطِّفلَ أنَّه مَحبُوبٌ ، وأنَّه مَحلُّ عِنايَةٍ وعَطفٍ ، حَيثُ إنَّ العاطِفَةَ تُشكِّلُ مِساحَةً واسِعَةً في نَفسِ الطِّفلِ النَّاشِئ ، فهي تُكَوِّنُ نَفسَهُ وتَبنِي شَخصيَّتَهُ ، وثِقَتَهُ في نَفسِه وتَحمُّلِه للمَسؤُوليَّةِ . حَيثُ أنَّ الطِّفلَ :

* يَشعُرُ الطِّفلَ بقِيمَتِه ، حِينَ يَرىٰ الرَّسُولَ ﷺ وهو القائدُ الكَبيرُ المَحبُوبُ المُهَابُ ، يَمرُّ به فيَلعَبُ مَعه ، ويُلقِي عَلَيه التَّحيَةَ . مِمَّا يُسهِمُ في بناءِ شَخصيَّتِه ، ويُعزِّزُ وُجُودَهُ الاجتِماعيَّ ، ويُساعِدُه عَلَىٰ الارتِقاءِ في مُستَقبَلِه ، وأنْ يَكُونَ إنْسَاناً سَويّاً ، وشَخصاً فاعِلاً ونافِعاً في مُجتَمعِه وأُمَّتِه (٢) .

* إنَّ في إعطَاءِ الرَّسُولِ ﷺ التَّمرَ للصِّغارِ غِذاءٌ لعاطِفَةِ الأطفَالِ الصَّادِقَةِ ، وتَوجيهاً

(١) «تعامل الرسول مع الأطفال تربوياً» ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

لها وتحريكَها تَحريكاً إنسانيّـاً مَطلُوباً ، بَعيداً عن الجَفاءِ والقَسوَةِ ، مِمَّا يُشعِرُ الأطفَالَ بوُجُودِهِم وأنَّهم مَحلُّ اهتِمامِ الكِبارِ ، ويَبنِي فيهِم رُوحَ التَّعاوُنِ والإيثَـارِ .

* إنَّ هَـٰذا السُّلُوكَ يُقوِّي عُرَىٰ المُجتَمعِ الإسلاميِّ الدَّاخليِّ ، وُيمَتِّنُ العَلاقَةَ بَينَ القائدِ والفِئاتِ العُمريَّـةِ المُتنوِّعَة ، فهُو يُحقِّقُ أحدَثَ المفَاهِيم التَّربَويَّـةِ المُعاصِرَة الأساسيَّة (تَواصُلُ الأجْيَالِ) ، فالصِّبيَةُ في لَعِبهِم عِندَما رَأوْا الرَّسُولَ ﷺ لَـمْ يَتنافَرُوا ولَـمْ يَهربُوا بَلْ تَبادَلُوا الحَديثَ مَعَه ، وعَبَّرُوا عن رَأيِهم . حَيثُ كَانَ ﷺ يُشَجِّعُهُم عَلَىٰ الرَّمي والتَّنافُسِ فيه ، ويَحثُّ فيهِم الاستِعدادَ للجِهَادِ وتَنميَةِ مَهارَاتِ القُوَّةِ .

لَوْ تَعلَّمَت الأُمَّةُ مِنْ مُرَبِّيهَا هَـٰذا المَنهَجَ :

فإنَّ الرِّيَّ النَّفسيَّ من الحُبِّ واللُّطفِ الذي يَمنَحُهُ المُرَبِّي للأبنَاءِ لإشْباعِ حاجَاتِهم المُختَلفَة يُشعِرُهُم بمَدَىٰ العَلاقَةِ الوَثيقَةِ التي تَربطُه بهِم ، فيَنشَؤُونَ مُحبِّينَ له ، مُتعلِّقينَ به ، مُرتَبطينَ بأُسَرِهم . فإنَّ أخطَرَ ما يُضعِفُ مُجتَمعاتِنا هُو سُوءُ تعامُلِ الكِبارِ للصِّغَارِ ، ونَهرِهم ، وعَدمِ استِيعابِهِم ، والجِدِّيَّـةِ في التَّعامُلِ مَعهم إلَىٰ حَدِّ القَسوَةِ ، فذَلكَ خَطيرٌ في مُستَقبَلِ شَبابِهم ، ويُودِي بهِم إلَىٰ الهُروبِ من بيئاتِهم والانضِمامِ إلَىٰ جَماعَاتٍ وزُمَرٍ ، قد لا يَرضَىٰ عَنها اللَّـهُ ، ولا الوَالِدَان ولا المُجتَمعُ .

ففي مَحبَّةِ أبنَائنا لنا وإعجابِهم بنَماذِجنا ضَمانٌ لانْضِباطِهم بقِيَمِنا وتَبنِّيهِم لها ، مِمَّا يُحقِّقُ السَّعادَةَ للجَميعِ [1] والنُّهوضَ بالأُمَّةِ من جَديدٍ .

---

(١) «في بيتنا مكار» ، مرجع سابق ، ص ٣٩ ، ٤٣ بتصرف .

المطلَبُ السَّـابعُ
إيقَـادُ شُعلَةِ الحُبِّ لإصْلَاحِ ذَاتِ البَـيْنِ

إنَّ بَعضَ المَشاكلِ الاجتماعيَّة تكُونُ من التَّعقيدِ بحَيثُ تَصعُبُ مَعها الحُلُولُ الاعتياديَّة ، وتَفشَلُ فيها الوَساطَاتُ والحِوَاراتُ ، بَلْ تَحتاجُ إلَىٰ حُلُولٍ إبْداعيَّةٍ ، لإعادَةِ اللُّحمَةِ والوُدِّ والوئام ووَصْلِ ما انقطَعَ ، لاسيَّما فيما بينَ الأرحَام ، وقد أبدَعَ ﷺ وتَفنَّنَ في ذَلكَ ، كإيقَادِ جَذوَةِ الحُبِّ التي اعترَاها الضَّعفُ والفُتُورُ بسَببِ نزغِ الشَّيطَانِ ، أو اختلَافَاتِ الطَّبيعَةِ البَشَريَّةِ في الفَهمِ والتَّقديرِ .

ذَكرَ الإمَامُ الحافِظُ الذَّهبيُّ في كتابِ «الكَبائر» : أنَّ شابّاً في عَهدِ الرَّسُولِ ﷺ كَانَ كَثيرَ الاجتِهادِ في الطَّاعَةِ ، وحَضرَتهُ المَنيَّةُ ، فجَعلُوا يُلقِّنُونه الشَّهادَةَ ولسَانُه لا يَنطِقُ بها ، فأَرسَلُوا إلَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ يُخبرُونه بأمْرِه ، فسَألَ ﷺ : «**هَلْ لَهُ أُمٌّ؟**» ، قَالُوا : نَعَم ، فأرسَلَ في طَلبِها ، وسَألَها عن حَالِه مَعها ، فزَكَّتْ له عِبادَتَه وعَملَهُ غَيرَ أنَّها سَاخِطةٌ عَلَيه ، لأنَّه يُؤثِرُ زَوجَتَه عَلَيها ويَعصِيها ، فأخْبرَها ﷺ أنَّ سُخطَها عَلَيه حَالَ بَينَهُ وبَينَ النُّطقِ بالشَّهادَةِ .

ثُمَّ طَلبَ من أحَدِ أصحَابه أنْ يُحضِرَ حَطباً كَثيراً ، فقَالَت : يَا رَسُولَ اللَّـهِ ، وما تَصنَعُ ؟ قَالَ : «**أَحْرِقُهُ بِالنَّـارِ بَيْنَ يَدَيْكِ**» !

فهَالَها الأمرُ ورَوَّعَها ، وقَالَت : يَا رَسُولَ اللَّـهِ ، وَلَدِي ، ولا يَحتَمِلُ قَلبي أنْ تَحرِقَهُ بالنَّار بَينَ يَدَيَّ ، فقَالَ لَها ﷺ : «**عَذَابُ اللَّـهِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ، فَإِنْ سَرَّكِ أَنْ يَغْفِرَ اللَّـهُ لَهُ فَارْضِ عَنْهُ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَنْتَفِعُ بِصَلَاتِهِ ، وَلَا بِصِيَامِهِ ، وَلَا بِصَدَقَتِهِ مَا دُمْتِ عَلَيْهِ سَاخِطَةً**» ! عِندَ ذَلكَ أَشهَدَت تِلكَ المَرأةُ

اللَّـهَ ، وأَشهَدت رَسُولَه أنَّها قد رَضِيَت عَنه . فانْطَلقَ لِسَانُ الشَّابِّ بالشَّهادَةِ ، ومَاتَ مِنْ يَومِه ، فقَالَ ﷺ : «**الحَمْدُ للَّـهِ الَّذي أَنْقَذَهُ بي مِنْ النَّارِ**»(١) .

مِمَّا سبقَ نَجدُ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ درسَ الحَالةَ مُدركاً دِقَّةَ المَوقِفِ وخُطُورَتَه ، وما تَستَدعِيهِ تِلكَ الحالَةُ من سُرعَةٍ لإيجادِ الحَلِّ ، فاختَارَ تَحريكَ عَاطِفَةِ الأُمِّ عَبرَ صُورَةٍ صَادِمَةٍ تَهزُّ كَيانَها ووِجْدانَها ، وهُو يَعلَمُ يَقيناً أنَّها سَترَفُضُها . فأقْوَىٰ شَيءٍ لَدَىٰ الأُمِّ حُبُّها لابنِها ، وحَنانُها عَليه ألَّا يُصيبُهُ مَكرُوهٌ ، ففعَّلَ تِلكَ العاطِفَةَ بَعدَ مَا أصابَها البُرودُ والسُّكُونُ بإحْياءِ جَذوَةِ الحُبِّ من جَديد ، وما ذَلكَ إلَّا لتَخويفِها وتَذكِيرِها بأنَّ هَـٰذا ما سَينتَظِرُه في آخِرَته ، فسَارَعَت بِرِضَاهَا عَنهُ ونَطقَ الوَلَدُ بالشَّهادَةِ .

فكَانَ الإنْجازُ الرَّائعُ منه ﷺ بالصَّفحِ والرِّضَا من الأُمِّ عن الشَّابِّ ، وإراحَتَه من كَربِ السَّكَراتِ ، وإنْقَاذِهِ من النَّارِ .

وفي ذَلكَ دَرسٌ للمُصلِحِ الاجتماعيِّ بعَدَمِ اليَأسِ عِندَ مُواجَهتِه مُشكِلاتٍ عائليَّةٍ واجتماعيَّةٍ مُستَعصيَةٍ ، ووُجُوبِ اختراعِ وإبْداعِ الحُلُولِ ، خُصُوصاً في المَواقِفِ الحَرِجَة والتي تَتطَلَّبُ سُرعَة بَديهَة ، حَتَّىٰ وإنْ استَنفَذَ جَميعَ الطُّرُقِ والأساليبِ الدَّارِجَة ، بَلْ يُعمِلُ عَقلَهُ بذَكاءٍ وبَراعَةٍ في التَّفتيشِ عَن وَسائلَ يَجمَعُ فيها شَتاتَ القُلُوبِ المُتفرِّقَة ، فَلا يَغيبُ عن أذْهَانِنا أنَّ دَعوَةَ الإسلامِ هي دَعوَةٌ إصْلاحيَّةٌ .

---

(١) وردت هذه القصة في كتاب «شرح الكبائر» الإمام الحافظ الذهبي ، الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، ومجموعة علماء ، إعداد وتحقيق : حامد أحمد الطاهر ، دار الفجر للتراث - القاهرة ط٢ ، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م . وانظر أيضًا : «الترغيب والترهيب» ، الإمام الحافظ : زكي الدين عبد العظيم المنذري ، ج٣ ، كتاب البر والصلة وغيرهما ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

المطلَبُ الثَّـامنُ

التَّـعْـرِيضُ

مُلئَ قَلبُ الرَّسُولِ ﷺ رَحمَةً وحُـبّاً لأصحابِه ، فكَانَ ﷺ يحرِصُ أشَدَّ الحِرصَ على مَشاعِرِهم ، فَلا يُحرِجُ أيّـاً مِنهُم أمَامَ بَعضِهِم بَعضاً ، حَتَّىٰ أُولئِكَ الذين وَقعُوا في الأخطَاءِ إِلَىٰ حَدِّ إغضَابِه ، وكَانَ ﷺ لا يَغضَبُ إلَّا للَّـهِ ، فلَمْ يَكُنْ يَدفَعُه ذَلكَ أنْ يُواجِهَهُم بما يَكرَهُونَ ، بَلْ يُكَنِّي عَمَّـا يَضطَّرُّه الكَلامُ إلَيه (١) .

تِلكَ الرَّحمَةُ وذَاكَ الحُبُّ جَعلَهُ ﷺ يُصلِحُ المَواقِفَ السَّلبيَّةَ باللُّطفِ والتَّلمِيحِ ، والتَّعرِيضِ دُونَ التَّصرِيحِ ، فكَانَ بِلَباقَتِه ﷺ المَوزُونَة يَتفَنَّنُ في استِخدامِ العِبارَاتِ ، فيُبَلِّغُ رِسالَتَه دُونَ خَدشِ كَرامَةِ أو مَشاعِرِ أحَدٍ من أصحَابِه .

فالتَّصرِيحُ قد يَهتِكُ حِجابَ الهَيبَةِ ، ويُهيِّجُ الإصرارَ والعِنادَ ، ويُوغِرُ الصُّدُورَ ، أمَّا التَّعرِيضُ فيَستَمِيلُ النُّفُوسَ الفاضِلةَ والأذهانَ الذَّكيَّةَ والبَصائِرَ اللَّمَّـاحَةَ ، وذَلكَ من أجلِ رَفعِ الحَرَجِ عن النُّفُوسِ واستِثارَةِ دَاعِي الخَـيرِ فيها (٢) .

---

(١) «قبسات من نور النبوة» ، لعدد من العلماء ، اعتنى به : عبد المجيد البيانوني ، دار ابن حزم ، ط٢ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، ص ١٢٨ ، وانظر : «الشفا» ، للقاضي عياض اليحصبي ، مرجع سابق ، فصل الحياء والإغضاء : كان ﷺ لا يواجه أحداً بما يكره ، ص ٨٣ .

(٢) «مفهوم الحكمة في الدعوة» ، د.صالح بن حميد ، مرجع سابق ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

والتَّعريضُ سُـنَّةٌ مَحفُوظَةٌ عن النَّبيِّ ﷺ في مُخاطَبةِ أصحابِه : «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفعَلُونَ كَذَا ويَقُولُونَ كَذَا**» ، إنَّها صُورَةٌ من صُوَرِ التَّخاطُبِ والتَّعامُلِ التَّربَوِيِّ الرَّاقي الدَّالِّ عَلَىٰ الحُبِّ والحِكمَةِ ، والمُوصِّلِ إلَىٰ المَقصُودِ بأحسَنِ الطُّرُق ، مَع حِفظِ ما للدَّاعِي والمَدعُو من كَرامَةٍ ومَروءَةٍ ، وذَلكَ من أقْوَىٰ أسبابِ الأُلفَةِ .

فالنُّفوسُ مَجبُولَةٌ عَلَىٰ رَفضِ اللَّوْمِ المُباشِر ، فلَفتُ النَّظَر للأخطَاءِ من طَرْفٍ خَفيٍّ ، وعَدمِ الإشارَةِ للمُخطِئ بشَكلٍ مُباشرٍ أو عِبارَةٍ صَريحَةٍ ، كُلُّ ذَلكَ له أثَرُه في النَّجاحِ بإصلَاحِ الفَردِ ، ورُجُوعِه عن الخَطأِ وتَسليمِه للحَقِّ دُونَ الشُّعُورِ بالذُّلِّ والهَزيمَةِ (١) ، مع بَقاءِ الأُلفَةِ والمحَبَّـةِ ، مِمَّا يَحفَظُ للمُجتمَعِ المُسلِمِ تَرابُطَه وتَماسُكَه كالجَسَدِ الواحِدِ ، فنَفُوزُ بالحُسنَيَينِ إصلَاحِ الفَردِ ، والحِفاظِ عَلَىٰ وُدِّ وتَماسُكِ المُجتمَعِ .

---

(١) «أدب الحوار وقواعد الاختلاف» ، إعداد : د.عمر بن عبد اللَّـه كامل ، اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م ، ص ١٧ .

المطلَبُ التَّـاسِـع
إعْـــلَانُ الحُـبِّ

كُنَّا قَد تَناوَلنا في الفَصلِ الأوَّلِ مَفهُومَ الحُبِّ كسُلُوكٍ في العَلاقاتِ الإنسانيَّةِ ، وأنَّه لابُدَّ من تَحويلِ هَـٰذا الشُّعُورِ إلَىٰ سُلُوكٍ ليَدُلَّ عَلَيه .

فالحُبُّ مَشاعِرُ ، والتَّعبيرُ عنه بالكَلمَةِ والسُّلُوكِ تَحريكٌ لتِلكَ المَشاعِرِ .

والتَّربيَةُ النَّبويَّةُ تَتبنَّىٰ الجَوانِبَ الإيجابيَّةَ في مَشاعِرِ وسُلُوكِ الأفرادِ ، وتَوجيهَها تَوجيهاً عَمليّـاً ، مثلَ تَحويلِ الحُبِّ إلى سُلُوكٍ .

فالحُبُّ قَد يَفقِدُ أهميَّته إذا لَـمْ يُعبَّر عَنهُ ، ويَغيبُ دَورُهُ في التَّفاعُلِ الإنسانيِّ .

لذَلكَ نَرىٰ الرَّسُولَ ﷺ مارَسَ هَـٰذا السُّلُوكَ وحَثَّنا عَلَىٰ مُمارَسَتِه ، وتِلكَ مَهارَةٌ رائعَةٌ منه ﷺ لإفسَاحِ المجالِ للحُبِّ أنْ يَنمُوَ ويُزهِرَ ، ولا يَبقَىٰ مَطوياً حَبيسَ الصَّدرِ .

ومن هَـٰذا المُنطلَقِ نَجدُ الرَّسُولَ ﷺ يَحُثُّنا عَلَىٰ ذَلكَ بقَولِه : «**إذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أخَاهُ فَلْيُعْلِمْهُ أنَّهُ يُحِبُّهُ**» (١) .

فالشَّخصُ الذي يَشعُرُ بحُبِّ الآخَرينَ لَه ـ لأنَّهم أَخبَرُوهُ بذَلكَ ـ يَكتَسِبُ الثِّقةَ النَّفسيَّةَ والشَّخصيَّةَ المُتوازنَة الهادِئَة ، وبالمُقابلِ يَمنَحُ هَـٰذا الحُبَّ لكُلِّ مَنْ حَولَه أيضاً . وكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَتَّخِذُ ثَقافَةَ إعلَانِ الحُبِّ أساساً يَتعامَلُ فيه

(١) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، د. محمد لقمان السلفي ، مرجع سابق ، باب إذا أحب الرجل أخاه .. ، ص ٣٠٢ ، رقم الحديث : ٥٤٢ .

مَع مَنْ يُحِبُّ ، سَواءٌ من أَهْلِ بَيتِه ورَبائبِه وأصحابِه بالإفصاحِ المُباشِرِ والتَّعبيرِ الوَاضِحِ والسُّلُوكِ العمَلِيِّ : كاللَّعِبِ ، والمُمازَحَةِ ، والاهتِمامِ ، والمَديحِ ، والرِّضَا والاستِحسانِ .

ونُورِدُ فيما يَلي بَعضاً من تِلكَ الصُّوَر :

فقَد كَانَ لزَوجِه «عائشَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنها موضِعٌ في قَلبِه لَـمْ تبلُغْهُ أُخرَىٰ بَعد «خَديجَة» ، ونَجِدُه ﷺ يُكرِّرُ لها دَائماً قولَه : «**إنِّي أُحِـبُّكِ**» ، بَلْ ويُعلِنُ ذلكَ فيَقُولُ لابنَتِه «الزَّهْراء» أمَامَ «عائشَةَ» : «**أيْ بُنَـيَّةَ أَلَستِ تُحِبِّـينَ مَا أُحِبُّ؟**» ، فتَقُولُ : بلَىٰ ، فيَقُولُ لها : «**فَأَحِبِّي هَـٰذِه**» يَعنِي عائشَةَ (١) .

وأيضاً عِندَما سَألَه أحَدُ الصَّحابَة : يا رَسُولَ اللَّـهِ ، مَنْ أحبُّ النَّاسِ إلَيكَ؟ قَالَ : «**عَائِشَـةُ**» (٢) .

نَجدُ في هَـٰذه الصُّورَة أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَـمْ يَكتُم حُبَّه أو يُوارِي بقَولِه مَثلاً : بَعضُ أَهْلي ، أو يُدارِي ويَخجَلُ من ذِكْرِ اسمِها ، بَلْ أجَابَ بكُلِّ بَساطَةٍ ووُضُوحٍ وعَفَويَّةٍ في الحُبِّ غيرَ مُتكلِّفَة : «**عائِشَـةُ**» . وفي ذَلكَ إثْباتٌ عَمَليٌّ من الرَّسُولِ ﷺ أنَّ إعلَانَ حُبِّ الزَّوجَةِ لا يُنقِصُ من شَأنِ الرَّجُلِ بالإفْصاحِ عَنهُ وعَن اسمِها ، فقد فَعلَ ذَلكَ وهُو سَيِّدُ العُظَماءِ .

---

(١) «صحيح مسلم» ، ج ٤ ، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنهُم ، باب في فضل عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها ، ص ١٨٩١، رقم الحديث : ٢٤٤٢ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب فضائل أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، ص ٦٤٢ ، رقم الحديث : ٣٦٦٢ . وانظر : «تراجم سيدات بيت النبوة» ، مرجع سابق ، انظر في سيرة عائشة بنت أبي بكر الصديق حبيبة رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ .

جَميلٌ أنْ يَسرِي هَـٰذا المَعنَىٰ النَّبويِّ السَّامي في عُروقِ علاقاتِنا الزَّوجيَّة فيُحيِيها من جَديدٍ ، مُعلَنةً صَريحَةً بين النَّاسِ دُونَ مُواربَةٍ أو حَرجٍ ، ويَكُونُ الحُبُّ بَينَ زَوجَينِ مَثلاً شَائعاً في العَصرِ الرَّاهِنِ ، بَدلاً من أنْ يَكُونَ الحُبُّ في العَلاقَاتِ غيرِ الشَّرعيَّةِ هُو النَّمُوذَجُ لأجْيالِنا المُعاصِرَة .

ثُمَّ أَردفَ الصَّحابيُّ سُؤالَه للرَّسُولِ ﷺ ، ومِن الرِّجالِ؟ قَالَ : «**أَبُوهَا**» ، كَانَ باستِطاعَتِه ﷺ أنْ يَقُولَ أبَا بَكْر ، ولَكنْ لحُبِّـه الشَّديدِ لزَوجِه ، قَالَ : «**أَبُوهَا**» ، وهَـٰذا يُبهِجُ ويُثلِجُ صَدرَ السَّـيِّدَةِ عائشَةَ وأبيها رضي الله عنهما . وفيه أيضاً إظهَارُ خُصوصيَّة ما يَحمِلُه ﷺ من الحُبِّ والإكْرام لزَوْجِه وأهْلِها ، وتَابعَ الصَّحابيُّ ، ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ : «**ثُمَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ**» ، فعَدَّ رِجالاً .. (١) . وفي ذَلكَ نَشرٌ لثَقافَةِ الحُبِّ التي تُسهِمُ في تَقويَةِ أَواصِر المُجتَمَعِ .

كَما كَانَ ﷺ لا يَكتُمُ حُبَّه ومَشاعِرَه تجاهَ أحْفادِه أمَامَ أصْحابِه ، فكَانَ يُلاعِبُهُم ويُقَـبِّلُهم ، ولا يُطيقُ فِراقَهُم ، وفي ذَلكَ حَدَّثَ الكَثيرُ من الصَّحابَةِ ، يَقُولُ أبُو هُرَيْرَة رضي الله عنه : سَمعَ أُذُنايَ هَاتَانِ ، وبَصُـرَ عَينـايَ هَاتَانِ رَسُـولَ اللَّـهِ ﷺ أخذَ بيَدَيه جَميعاً بكَفَّي الحَسَنِ أو الحُسَينِ رضي الله عنهما وقَدَمَيه علَىٰ قَدمِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، ورَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يَقُولُ : «**ارْقَـهْ**» ، قَالَ : فَرقَى الغُلَامُ ، حَتَّىٰ وَضعَ قَدَمَيه علَىٰ صَدرِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**افْتَحْ فَاكَ**» ، ثُمَّ قَبَلَه ، ثُمَّ قَالَ : «**اللَّهُمَّ أَحِـبَّهُ فَإنِّي أُحِـبُّهُ**» (٢) .

---

(١) «صحيح البخاري» ، تكملة الحديث السابق .

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ ، رقم الحديث : ٢٤٩ . وانظر : سلسلة «أعلام الصحابة» : سيد شباب أهل الجنة الحسن بن علي رضي الله عنهما ، بقلم سيف الدين الكاتب ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٧ .

وعِندَما استغرَبَ أحدُ أصحابِه الأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ منه ﷺ وقالَ : إنَّه لَـمْ يَفعَلْ ذَلكَ مَع أنَّ لَه أوْلادٌ كُثُر ، قَالَ لَه ﷺ : «**مَنْ لَا يَرْحَم لَا يُرْحَمْ**» (١) .

وكَانَ الرَّسُولُ ﷺ مع أصحَابِه مرَّةً في الطَّريقِ ، فإذَا الحُسَينُ يَلعَبُ ، فأَسْرَعَ النَّبيُّ ﷺ أمَامَ القَومِ ، ثُمَّ بَسَطَ يَدَيْهِ ، فجَعَلَ يَمُرُّ مَرَّةً هَاهُنا ومَرَّةً هَاهُنا ، يُضاحِكُه حتى أَخَذَهُ ، ثُمَّ اعتَنَقَهُ فقَبَّلَهُ ، ثُمَّ قَالَ : «**حُسَيْنٌ مِنِّي وأَنَا مِنْهُ ، أَحَبَّ اللَّـهُ مَنْ أَحَبَّ الحَسَنَ والحُسَينَ ، سِبْطَانِ مِنْ الأَسْبَاطِ**» (٢) .

وزَيْدُ بنُ حارِثَة ، الذي كَانَ يَشهَدُ كُلُّ صَحابيٍّ حُبَّ النَّبيِّ لَه ، حَتَّىٰ غَدا لَقَبُه : «**حِبُّ رَسُولِ اللَّـهِ**» (٣) ، ويَقُولُ عنه أيضاً عَلَىٰ الملأ : «.. **وَإِنْ كَانَ لَـمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وإِنَّ هَـٰذا لَـمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِهِ**» ، يَعنِي ابنَهُ أُسامَةَ (٤) .

وكَانَ لَقَبُ أُسامَةَ بن زَيدٍ بَينَ الصَّحابَةِ «الحِبُّ بنُ الحِبِّ» ، ويَقُولُ عَنه وعَن حَفيدِهِ الحَسَنِ : «**اللَّهُمَّ أَحِبَّهُما فَإِنِّي أُحِبُّهُما**» (٥) .

وكَانَ ﷺ يُعلِنُ عن حُبِّهِ لابنَتِهِ الزَّهْراء بقَولِه : «.. **فَإِنَّمَـا ابْنَتِي بِضْعَةٌ**

---

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الأدب : باب رحمة الولد وتقبيله .. ص ١٠٨٢ ، رقم الحديث : ٥٩٩٧ .

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب معانقة الصبي ، ص ٢٠٩ ، رقم الحديث : ٣٦٤ .

(٣) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب فضائل أصحاب الرَّسُولِ ﷺ ، باب ذكر أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، ص ٦٥٥ ، رقم الحديث : ٣٧٣٢ .

(٤) «صحيح مسلم» ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب فضل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما ، ص ١٨٨٤ ، رقم الحديث : ٢٤٢٦ .

(٥) «صحيح البخاري» ، كتاب فضائل أصحاب الرَّسُولِ ﷺ ، ص ٦٥٥ ، رقم الحديث : ٣٧٣٥ .

مِنِّي ، **يُرِيبُنِي مَا رَابَهَا وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**» ، وإذَا زَارَتْهُ فاطِمَةُ هَشَّ لِلِقائِها قائلاً لها : «**مَرْحَباً بِابْنَتِي**» (١) وقَبَّلَها وأَكرَمَها وأَجلَسَها إلى يَمينِه .

التَّعبيرُ يَمنَحُ السَّمعَ والطَّاعةَ والانْتِمـاءَ :

يُخطِئُ كَثيرٌ من الأَزواجِ أو الآبَاءِ أو المُربِّينَ ، حِينَ يَظُنُّ أَحدُهم أنَّه إذَا عبَّر أو أَعلَنَ عن حُبِّه لزَوْجِه أو ابنِه أو ابْنَتِه بقَولِه : أنا أُحِبُّك ، أو إذَا أكْرَمَه ، أو قبَّلَه ، أو مَازَحَه.. أنَّ ذَلكَ يَخدِشُ وَقارَه ، ويُهدِّدُ مَكانَتَه وهَيبَتَه ، ويُضعِفُ سُلطَتَه ، مع أنَّ العَكسَ هُو الصَّحيحُ ، فإنَّ ذَلكَ يَرفَعُ من مَكانَتِه في نُفُوسِ مَنْ يُحِبُّ ، ويَجعَلُهم أكثَرَ طَاعَةً له ، وأكثَرَ حِرصاً عَلَىٰ إرْضائه .

فقُوَّةُ المُربِّي المُحِبُّ في قُوَّةِ عاطِفَتِه ، وكَفاءَتِه في قُدرَتِه عَلَىٰ إظْهارِها ، ولَيسَ في تَجاهُلِه وقَسوَتِه . فمِنهُم مَنْ يُقَبِّلُ أولَادَه في سَنواتِهم الأُولَىٰ ، وما أنْ يُصبِحَ الأوْلَادُ أكثَرَ وَعياً حَتَّىٰ يَتوقَّفَ عن إظْهَارِ عَلامَاتِ الحُبِّ مِنْ تَقبيلٍ وعِناقٍ واعْتِرافٍ بالحُبِّ باللِّسَانِ (٢) ، وقَد رَأينا في سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ من تَقبيلِهِ لفَاطِمَةَ وإكْرامِه لَها مع أنَّها مُتزوِّجَة .

فمِنْ المُؤكَّدِ أنَّ الشُّعُورَ بالانْتِماءِ لا يَتحَقَّقُ إلَّا بإظْهَارِ المَحبَّـةِ وإيصالِ تِلكَ الرِّسَالَة للمَحبُوبِ ، فذَلكَ يُوفِّرُ جَوّاً من الإحسَاسِ بالأمْنِ والطُّمأنينَةِ (٣)

---

(١) «صحيح مسلم» ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب فضائل فاطمة ، ص ١٩٠٢ ، رقم الأحاديث : «يُرِيبُنِي مَا رَابَهَا» ، الحديث برقم : ٩٣ ـ (٢٤٤٩) ، و حديث «مَرْحَباً بِابْنَتِي» ، ص ١٩٠٤ ، رقم الحديث : ٩٨ ـ (٢٤٥٠) .

(٢) «الحاجات النفسية للطفل» ، مصطفى أبو سعد ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠ .

والسَّعادَةِ ، وهُو من الحَاجَاتِ النَّفسيَّةِ الأساسيَّةِ لَدَىٰ الإنسانِ كَما مَرَّ ـ في أَهميَّةِ الحُبِّ ـ في الفَصلِ الأوَّلِ ، وإعلَانُ هَـٰذه المحَبَّـةِ عَلَىٰ الملأ يَمنَحُ المَحبُوبَ الارتياحَ والابتِهاجَ والثِّـقَةَ ، والدَّعمَ والتَّشجيعَ والاعتِبارَ .

المُشارَكَةُ الحِسِّـيَّةُ النَّفسِيَّةُ وأَثَرُها :

كَما أَنَّ المُشارَكَةَ الحِسيَّةَ من فَرحٍ وحُزنٍ وقَلقٍ من المُحبِّ تجاهَ المَحبُوبِ لها أَثَرُها الفَعَّالُ ، فهي تُشعِرُ المَحبُوبَ بأَنَّ هُناكَ مَنْ يَشعُرُ به ، وأَنَّه لَيسَ وَحيداً بَلْ محلَّ اهتِمامٍ وتَقديرٍ كَما قَالَ ﷺ : «**يُريبُنِي مَا رَابَهَا ويُؤذِينِي مَا آذَاهَا**» ، فهِيَ مُشارَكَةٌ وِجدانيَّةٌ رائعَةٌ وشُعُورٌ رَقيقٌ من قَلبِ الأبِ المُحبِّ الحَنُون المُرَبِّي . وهي تُنَمِّي عِندَ المُتَلقِّي الإحسَاسَ والشُّعُورَ الإنسانيَّ في كُلِّ حالَةٍ يَمُرُّ بها الفَردُ من فَرحٍ وحُزنٍ وقَلَقٍ واضْطِرابٍ ، وتُبعِدُ عَنه الاستِهتَارَ بمشَاعِرِ الآخَرينَ واللَّامُبالَاةِ بهِم .

أَثَرُ التَّعبيرِ في نُمُوِّ العَاطِفَةِ والعَلَاقَة :

وكُلَّما تَلقَّىٰ الفَردُ في مَراحلِ عُمرِه المُختلِفَة المَحـبَّةَ بالطُّرُقِ المُتنَوِّعَةِ من مُحيطِه كُلَّما تَعلَّمَ كَيفَ يُحِبُّ ، وتَظلُّ تِلكَ العاطِفَةُ تَتنامَىٰ في داخِلِه .

فالمَحـبَّةُ إحسَاسٌ ، وحَقيقَةُ هَـٰذا الإحسَاسِ يَنبُعُ من القُدرَةِ عَلَىٰ نَقلِ تِلكَ المَشاعِرِ من المُحبِّ إِلَىٰ المَحبُوبِ ، وإعلانها لَه عَمليّـاً من خِلَالِ التَّعبيرِ اللَّفظِيِّ : أُحِبُّك ؛ لأَنَّ التَّعبيرَ عن الحُبِّ بكَلمَةِ : «أُحِـبُّك» أَقوَىٰ الكَلماتِ المُؤثِّرَةِ في النَّفسِ ، والتَّعبيرِ السُّلُوكيِّ : بالإحسَانِ إِلَيه ، واللَّمسَةِ الحانيَةِ ، والابتِسامَةِ الهادِئَةِ والمُلاعَبَةِ ، والمُمازَحَة وتَربيتِ الكَتِفِ والنَّظرِ

المُباشِر ، والدُّعَاءِ الحَسَنِ (١) ، كُلُّ ذَلكَ يُساعِدُ عَلَىٰ إحيَاءِ مَشاعِرِ الحُبِّ لدَىٰ الأطرَافِ المُعبِّرَةِ .

فمِنْ المُهِمِّ جِدًّاً أنْ نُحِبَّ ، ولَكِنَّ الأكثَرَ أهَميَّةً أنْ نُفصِحَ عَن مَشَاعِرنا لِـمَنْ نُحِبُّ ، لنَعيشَ المحَبَّـةَ سَويَّاً ونَنعَمَ بها .

التَّنشِـئةُ الاجتماعـيَّة :

مِمَّا يُؤسَف له أنَّنا نَجدُ في وَاقِعنا كَثيراً من النَّاس تَربَّوا في ظِلِّ أُمـيَّةِ المشَاعِر . فلرُبَّما أفرَدَت الأُسرَة الوَقتَ الطَّويلَ للتَّحدُّثِ عن قائمَةِ الاحتياجاتِ الجَسديَّة ـ قائمةِ المَلابس ، أنواعِ الطَّعامِ ، الاحتياجاتِ الماليَّة ـ ولكن لَـمْ يَجرِ حَديثٌ من قَريبٍ ولا بَعيدٍ عن قائمَةِ الاحتياجاتِ النَّفسيَّة! عَلَىٰ الرَّغمِ من خُطورَةِ الموضُوعِ وأهميَّتِه (٢) . فكَثيرٌ من البُيوتِ تَعيشُ عَلَىٰ بُرودِ وصَمتِ المشَاعِر ، إذَا أحَبَّ أحَدُ الأفرادِ شَيئاً ، أو رَأىٰ ما أعجَبه يُؤثِرُ الصَّمتَ أو التَّعبيرَ بطَريقَةٍ سَلبيَّةٍ ، لأنَّه لَـمْ يَأخُذْ ليَمْنَحْ ، ففاقِدُ الشَّيءِ لا يُعطِيهِ . ويُقتَلُ الحُبُّ في مَهدِه ، وتَنتُجُ آثارُهُ السَّيئةُ من ضُغوطَاتٍ نَفسيَّةٍ ، ومَشاكِلَ سُلُوكيَّةٍ وانحِرافَاتٍ ، وعَدَمِ استِقرارٍ أُسَريٍّ للكِبارِ والصِّغَارِ .

المَشاعِرُ والاحتياجَاتُ النَّفسِـيَّة :

إنَّ تَسـديدَ الاحتياجاتِ الجَسـديَّةِ أَسهَلُ وأَسـرَعُ كَثيراً من تَسـديدِ

(١) «الحاجات النفسية للطفل» ، مصطفى أبوسعد ، مرجع سابق ، ص ٢١ .
(٢) «فن إدارة المشاعر» ، رضوى أسامة ، وهج الحياة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م ، ص ١٣ بتصرف .

الاحتياجاتِ النَّفسِيَّة ، كَما أنَّ العَجزَ عَن تَسديدِ الاحتياجاتِ النَّفسِيَّة يدفَعُنا أحياناً إلَىٰ تَسديدِ احتياجاتٍ جَسَديَّة كَطريقَةٍ تَعويضِيَّة ، فالحَاجَةُ إلَىٰ الدِّفْءِ والحَنانِ وافتِقادِ الحُبِّ رُبَّما تَدفَعُنا إلَىٰ الأكلِ بشَراهَةٍ أو للشِّراءِ ، أو للعُزلَةِ الاجتِماعيَّةِ بالانغِماسِ في بُحورِ الإنتَرنِتْ الافتِراضيَّةِ ، فكُلَّما زَادَ الجُوعُ إلَىٰ الحَنانِ كُنَّا أكْثَرَ نَهَماً مُتصَوِّرينَ أنَّ ذَلكَ رُبَّما يَسُدُّ الثَّغرَةَ داخِلَنا [1] .

كَسرُ حاجزِ الصَّمْتِ :

فالأَجدَرُ بالمُرَبِّي القُدوَة أنْ يُعَوِّدَ نَفسَه ، ويُدَرِّبَها ، ويَكسرَ حاجزَ الصَّمتِ بطَريقَةٍ إيجابيَّةٍ مُتَأسِّياً في ذَلكَ برَسُولِه ﷺ لتَتأجَّجَ العاطِفَةُ في تِلكَ البُيُوتِ ، ويَعُمُّها الدِّفْءُ الأُسَريُّ والسَّكينَةُ .

إذًا مِنْ واجِبنا أنْ نُدَرِّبَ الأجْيالَ الجَديدَةَ عَلَىٰ الإيجابيَّةِ في التَّعبيرِ عَن مَشاعِرِهم ، حَتَّىٰ يَتفاعَلَ الحُبُّ بَينَ الأطْرافِ المُختَلِفَة ، ويَتفَعَّلَ في داخِلِهم ليَتَمَكَّنُوا في مُستَقبَلِهم أنْ يُعَبِّرُوا عَمَّا يُحِبُّونَ بطَريقَةٍ صَحيحَةٍ ؛ لأنَّ مَنْ شَبَّ عَلَىٰ شَيءٍ شَابَ عَلَيه .

إنَّ مَهارَةَ المُرَبِّي تكمُنُ في نَثرِ بُذُورِ الحُبِّ في قَلبِ المَحبُوبِ ، بالإفصَاحِ عَن مَشاعِرِه وإعلانِها والتَّوَدُّدِ لَه ، لِتُثمِرَ تِلكَ البُذُور ويُبادِلَهُ حُبّاً بحُبٍّ ، فإذا ما أحَبَّهُ اتَّخذَهُ قُدوَةً ، فهَـٰذه هي التَّربيَةُ بالحُبِّ .

(١) «فن إدارة المشاعر» ، رضوى أسامة ، مرجع سابق ، ص ١٤ بتصرف .

الفصل الثالث

مَفاتيحُ الحُبِّ وثَمَراتُه في التَّربيَةِ النَّبويَّةِ

تَمهـــــيد .

المَبْحَثُ الأوَّلُ : مَفاتيحُ الحُبِّ في التَّربيَةِ النَّبويَّةِ .

(وفيه تِسْعُ مَطالِب) .

المَبْحَثُ الثَّــاني : ثمرات الحُبِّ الذي غَرسَهُ الرَّسُولُ مُحمَّدٌ ﷺ ،

(وفيه سِــتُّ مَطالِب) .

تَمهـــــيد

إنَّ قُدرَتَنا عَلَىٰ أَسرِ قُلُوبِ الآخَرينَ وكَسبِ مَحبَّتِهم الصّادِقَةُ يَمنَحُنا جانباً كَبيراً من المُتعَةِ في الحَياةِ (١) ، وحاجَةُ الدَّعوَةِ للتَّعامُلِ مع النَّاسِ لا يَتمُّ ولا يُثمِرُ إلَّا إذا أخَذنا بالوَسائلِ العَمليَّة المُتميِّزَة من سُـنَّةِ المُصطَفىٰ ﷺ (٢) ، التي سَنتعرَّفُ عَليها في هَـٰذا الفَصلِ .

فهي تُفْضي إلَىٰ كَسبِ القُلُوبِ الشَّارِدَة ، وجَذبِها وجَمعِها عَلَىٰ الحَقِّ ، ورَدِّها إلَىٰ جادَّةِ الصَّوَابِ والهُدَىٰ رَدَّاً جَميلاً ، واستِثمارِ الخَـيرِ الذي يَكمُنُ بداخِلِها وُصُولاً لتَحقيقِ الثَّمراتِ اليانِعَة المَرجُـوَّة . ففي الحَديثِ الشَّريفِ يَقُولُ ﷺ : «**إنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقَاً ، المُوَطَّئُونَ أَكْنَافَاً ، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ**» (٣) .

فالمُسلِمُ الذي يُعاشِرُ النَّاسَ ، ويَتحمَّلُ أذاهُم خَيرٌ من ذَلكَ الذي لا يُعاشِرُهُم ، ولا يَصبِرُ عَليهِم اتِّقاءً لأذاهُم .

---

(١) «استمتع بحياتك» ، د. محمد العريفي ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٢) «كيف تكسب حب الناس؟» ، كتاب في الإدارة وتطوير الذات ، للدكتور عبد الكريم الفريح ، تصميم وتنفيذ مكتبة الكتاب العربي ، ص ٣ ، بتصرف .

(٣) «الترغيب والترهيب» ، للحافظ المنذري ، مرجع سابق ، ج٣ ، كتاب الأدب ، الترغيب في الخلق الحسن وفضله ، ص ٤١٠ ، رقم الحديث : ٣٣ ، رواه الطبراني في الصغير والأوسط .

المَبحَثُ الأوَّل

مَفاتيحُ الحُبِّ في التَّربيَـةِ النَّـبَويَّة

إنَّ السُّلُوكَ الإيجابيَّ الذي نُؤدِّيه في إظهَارِ الوُدِّ هو مِفتَاحُ الحُبِّ ، والتَّفَـنُّنِ في أداءِ الأشياءِ الإيجابيَّة التي يُحبُّها مَنْ حولَنا هو أنْجَعُ أُسلُوبٍ في تَقديمِ الحُبِّ لهم .

فلِكُلِّ إنْسانٍ مِفْتاحٌ تَدخُلُ منه إلَيه ، ومَعرِفَةُ طَبيعَةِ الإنْسانِ تَدُلُّ عَلَىٰ معرِفَةِ مِفتاحِه المُناسِبِ (١) ، وبالتَّالي يَجعَلُكَ قادِراً عَلَىٰ كَسبِ مَحبَّـتِه .

وفيما يَلي نُلْقي الضَّوءَ عَلَىٰ بَعضٍ من نَفائسِ سُلُوكيَّاتِ النَّهجِ النَّـبَويِّ التي فَتحَ بها ﷺ القُلُوبَ ، وأصلَحَ بها النُّفُوسَ ، وزادَ مِنْ تآلُفِها وتَرابُطِها وتَقويَةِ المحبَّـةِ بينها ، مِمَّا أَسهَمَ في بِناءِ أُمَّةٍ مُتحَضِّرَةٍ راسِخَةٍ مُتمَـيِّزةٍ ، غَدَت عَلَماً من أبْرَزِ الأعْلَامِ الإنْسانيَّة .

المطلَبُ الأوَّل : الابْتِسَـامَةُ .

المطلَبُ الثَّـاني : المُبادَرَةُ بالسَّـلامِ والمُصافَحَـةِ .

المطلَبُ الثَّـالث : الرِّفْـقُ .

(١) «استمتع بحياتك» ، د. العريفي ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

المطلَبُ الرَّابـــع : الكَـرَمُ والعَطَــاءُ .

المطلَبُ الخامِـس : الإيثَــارُ .

المطلَبُ السَّـادِس : الْـهَـديَّـةُ .

المطلَبُ السَّــابع : التَّواضُعُ .

المطلَبُ الثَّـامن : إشعارُ الجَليسِ بالاهتِمامِ .

المطلَبُ التَّـاسـع : الحِلمُ والعَفوُ والصَّفْحُ .

المطلَبُ الأوَّل

الابْتِسَـامَةُ

إنَّ أهَمَّ وَسيلَةٍ ناجِحَةٍ لجَذبِ القُلُوبِ هي الابتِسامَةُ ، فهي لُغَةٌ عالَـميَّةٌ لا تَحتاجُ إلَىٰ ترجمَةٍ لتَواصُلِ القُلُوبِ .

ويرَىٰ العِلمُ الحَديثُ وعُلماءُ الاتِّصالِ : أنَّ مَهاراتِ الإرسَالِ لَيسَتْ اتِّصالاً لَفظِـيًّا فحَسْب ، بلْ هُناكَ اتِّصالٌ غَيرُ لَفظِيٍّ ، وهو كُلُّ ما يَتواصَلُ به المَرءُ مع غَيرِه دُونَ أنْ يَلجأَ إلَىٰ الكَلماتِ ، وأنَّ الاتِّصالَ غَيرَ اللَّفظِيِّ جُزءٌ مُهمٌّ من الاتِّصالِ الإنسانيِّ ، ومن أهَمِّ وَسائلِ نَقلِ المَشاعِرِ والانطِباعَاتِ والأحاسيسِ .

كما أنَّ الاتِّصالَ غَيرَ اللَّفظِيِّ قد يَفُوقُ الاتِّصالَ اللَّفظِيَّ في التَّعبيرِ عمَّا تُكِنُّهُ النَّفسُ من مَشاعِرَ . وهو الذي يُكَوِّنُ الانطِباعَاتِ الأولَىٰ عَنَّا ، وهَـٰذه الانطِباعاتُ قد يَصعُبُ تَغيُّرُها .

وتُعَدُّ الابْتِسَـامَةُ إحدَىٰ أهَمُّ مَهاراتِ ووَسائِلِ الاتِّصالِ غَير اللَّفظِيِّ في حَياتِنا .

وبِما أنَّ الابْتِسَـامَةَ تُعَدُّ من الرَّسائلِ غَير اللَّفظِيَّة ، فأهَمِّيتُها تكمُنُ في أنَّ تَأثيرَها قد يَكُونُ أقوَىٰ من تَأثيرِ الرَّسائلِ اللَّفظِيَّة (١) .

وكان ﷺ من أشرَفِ النَّاسِ خُلُقاً وأعظَمِهم قَدراً ، لَـمْ يَمنَعْهُ ذَلكَ أنَّه كَانَ من أكثَرِ النَّاسِ تَبَسُّماً ، وأفْكَهِهم وأطيَبِهم نَفْساً ، مَليئاً بالعَطفِ والوُدِّ والإحسَانِ .

---

(١) «مهارات الاتصال» ، د. نوح الشهري ، مرجع سابق ، ص ٨٦-٨٧-٨٨-٩١ .

وكَم نَزلَت به ﷺ من فِتَنٍ ومِحَنٍ ، وابتِلاءاتٍ وكُرُباتٍ! ولكِنْ بنَفسي هُو وأبي وأُمِّي ما كَدَّرت حَياتَه قَطُّ ، ولا مَسحَت السُّرُورَ من تَقاسيم وَجهِه الكَريم ، فما فارَقَت الابْتِسَـامَةُ ثَغرَهُ ومُحيَّاهُ في أحلَكِ المَواقِفِ وأصْعَبِها .

يَقُولُ أَنَسُ بنُ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «**مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَكْثَرَ تَبَسُّماً من رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ [(١)] حَتَّىٰ إِنَّها تَكادُ لا تُفارِقُهُ في مُعْظَمِ أَحْوَالِهِ**» .

نَذكُرُ من ذَلكَ :

(أ) البَشاشَةُ الدَّائمَةُ والابتِسامَةُ والمُلاطَفَةُ والتَّرحيبُ والمُضاحكَةُ لجَميع مَنْ حَولَهُ ﷺ ، يَقُولُ جَرِيرُ بنُ عَبدِ اللَّـهِ البُجَليُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «**مَا رَآني رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ في وَجْهِي**» [(٢)] .

(ب) حَتَّىٰ مَع الجُفاةِ الغِلاظِ الشِّدادِ القُساةِ : جاءَ أعرابيٌّ إلىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وعَليه بُرْدٌ نَجرانيٌّ غَليظُ الحاشِيَة ، فجَبذَهُ بردائِه جَبْذَةً شَديدَةً أثَّرَتْ في صَفحَةِ عُنُقِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مُرْ لي مِنْ مَالِ اللَّـهِ الَّذي عِندَكَ ، فَالْتَفَتَ إليه فَضحِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ له بِعَطَاءٍ [(٣)] .

ومَع مَنْ أَغضَبَه ، وذَلكَ في قِصَّةِ كَعْبِ بن مَالِك وتَخَلُّفَهُ عَن غَزوَةِ تَـبُوك : «**فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ : تَعَالَ**» [(٤)] .

---

(١) موسوعة «نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٧ ، طلاقة الوجه ، ص ٢٧٠٠-٢٧٠١ ، رقم الحديث : ٦ ، وانظر : «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٨٤ .

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب التبسم ، ١٢٥ ، ص ١٥٠ ، رقم : ٢٥٠/ ١ .

(٣) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الأدب ، باب التبسم والضحك - ص ١٠٩٥ ، رقم الحديث : ٦٠٨٨ .

(٤) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، باب حديث كعب بن مالك ، ص ٧٦٨ ، رقم الحديث : ٤٤١٨ .

وقد مُلِئَت كُتبُ الأحاديثِ والسِّيَرِ من ذَلك عن طَلاقَةِ وَجْهِ الرَّسُولِ ﷺ ، وأنَّ مِنْ طَبعِه الابتِسامَةَ .

وقد نَدبَ ﷺ إلَىٰ البِشرِ والبَشاشَةِ ، وهو إظهَارُ السُّرُورِ في وَجْهِ مَنْ نَلقَىٰ فَرَحاً بمُقابَلته ، يَقُولُ ﷺ : «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ ، وإنَّ مِنَ المَعْرُوفِ أنْ تَلْقَىٰ أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِقٍ**» (١) . فهَـٰذه البَشاشَةُ وذَلكَ البِشرُ يَزرَعانِ في القُلُوبِ وُدّاً ومحبَّةً ، ويَجعَلانِ النَّفسَ تَتُوقُ إلى تِكْرارِ اللِّقاءِ ، مُستَأنِسَةً بحَديثِ مَنْ يَتحَدَّثُ إلَيها ويَهشُّ لها .

وهي عِبادَةٌ يُثابُ عَلَيها الإنسانُ المُسلِمُ ، يَقُولُ ﷺ : «تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ» (٢) .

إنَّ الوَجهَ هو المِرآةُ التي تُعبِّرُ عمَّا في أعماقِ الإنسانِ ، وطَلاقَةُ الوَجهِ وبَشاشَتُه لها الأثَرُ الكَبيرُ في تَحريكِ المَشاعِرِ ، كَما أنَّ الابتِسامَةَ مَدخَلٌ سَلِسٌ إلَىٰ القُلُوبِ ، وهي مَعلَمٌ طَبيعيٌّ فِطرِيٌّ غَيرُ مُتكَلَّفٍ في الطَّريقِ إليها ، سَنَّها لنَا رَسُولُنا ﷺ في وَجه مَنْ نَلقَىٰ .

وكَم من النَّاسِ مَنْ لا يَملِكُ سِوَىٰ الابتِسامَةَ والدُّعاءَ ، يُقدِّمُهما لأخيهِ المُسلِمِ ، فيَنصَرِفُ عَنه قَريرَ العَينِ مُنشَرِحَ الصَّدرِ شَاكِراً مُمتَنّاً .

وكَم مِمَّن يَقضِي حَوائجَ النَّاسِ غَيرَ أنَّه فاقِد للابتِسَامَةِ ، يَعلُو وَجهَهُ التَّجهُّمُ والعُبُوسُ ، فلا يُحقِّقُ ما حَقَّقَهُ الأوَّلُ من راحَةٍ نَفسيَّةٍ للطَّرَفِ الآخَرِ . فلَنْ يَستَطيعَ أحَدٌ أنْ يَسعَ النَّاسَ بمالِه ، ولَكنَّه يَسعُهُم بأخْلاقِه وبَشاشَتِه .

---

(١) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب : ١٤٢ ، طيب النفس ، ص ١٧٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ، باب من هدّىٰ زقاقاً أو طريقاً ، ص ٤٩٣ ، رقم الحديث : ٨٩١ .

وكَان ﷺ لا يَتوانَىٰ عن قَضاءِ حَوائجِ النَّاسِ مع البَشاشَةِ وسَعَةِ الصَّدرِ .

وللابتِسامَةِ فَوائدُ ، نَذكُرُ منها :

(أ) هي طَريقٌ مُختَصَرٌ سَريعٌ لكَسبِ القُلُوبِ ، ومِفْتاحُ الهِدايَةِ للنُّفُوسِ .

(ب) تَبعَثُ عَلَىٰ الاطمِئنانِ والرَّاحَةِ النَّفسيَّةِ ، وتَقي القُلُوبَ من الغِلِّ والحسَدِ .

(ج) تُبعِدُ الظَّنَّ السَّيِئَ ، وتُزيلُ وَحشَةَ النُّفُوسِ ، وتُشيعُ رُوحَ الأُلفَةِ والمَوَدَّةِ .

(د) تُسَكِّنُ الغَضبَ وتَمتَصُّهُ ، وتَدرَأُ الشَّكَّ والتَّرَدُّدَ [1] .

(هـ) تُعَبِّرُ عن الحُبِّ ، وتُدخِلُ البَهجَةَ والسُّرورَ ، وتَبُثُّ التَّفاؤُلَ في النُّفُوسِ .

(و) تَدفَعُ غائلَةَ شَرٍّ من الشُّرورِ لا يَعلَمُهُ إلَّا اللَّـهُ [2] .

لقَد أدرَكَ الغَربُ في العَصرِ الحَديثِ ما للابتِسامَةِ من سرٍّ وسِحرٍ وجَذبٍ ، ولَـمْ يَعلَمُوا أنَّها من صُلبِ دِينِنا ، وقد أوْصَانا بها رَسُولُنا الكَريمُ ﷺ قَبلَ ذَلكَ بقُرونٍ عَديدَةٍ ، وهي عِبادَةٌ نُؤجَرُ عَلَيها .

يَقُولُ صاحِبُ كتابِ : (كَيفَ تُؤثِّرُ عَلَىٰ الآخَرينَ وتَكسِبُ الأَصْدقاءَ) : «إنَّ التَّعبيرَ الذي يَطبَعُه المَرءُ عَلَىٰ وَجهِه أكثَرُ أَهَميَّةً من المَلابِسِ التي يَرتَديها» ، والابتِسامَةُ طَريقَةٌ بَسيطَةٌ لجَعْلِ الانطِباعِ الأوَّلِ انْطِباعاً جَـيِّداً . فالابتِسامَةُ تَقُولُ : إنَّني أُحِبُّكَ ، وإنَّني سَعيدٌ برُؤيَتِكَ ، وهي تُحَوِّلُ التَّوتُّرَ إلَىٰ وَقتٍ سارٍّ

(١) «استمتع بحياتك» ، د. محمد العريفي ، مرجع سابق ، ص ٢٥١ .
(٢) «كيف تكسِبُ أخاً في اللّـه» ، د. محمد بن فهد الودعان ، العبيكان ، ط١ ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ، ص ٣٢ .

ومُمتعٍ ، كَما أنَّها رَسُولُ النِّيَّةِ الحسَنَةِ ، وتُضفِي بَهجَةً عَلَىٰ جَميعِ مَنْ يَروْنَها ، فهي شَمسٌ تَختَرِقُ السُّحُبَ والحُجُبَ ، ويَستَمِرُّ ذِكْراها إلَىٰ أمَدٍ بَعيدٍ ، وهي كَلمَةُ السِّرِّ بين الأصدقاءِ ، وتُعزِّزُ النَّوايا الحسَنَة ، وأمَلٌ للمُحبَطِ ويَستَطيعُها الجَميعُ . ولَيسَ هُناكَ مَنْ هو بحَاجَةٍ للابتِسامَةِ أكثَرَ ممَّنْ لَيسَ له أحَدٌ يبتَسِمُ في وَجهِهِ (١) .

فالذي يُريدُ كَسبَ قُلُوبِ الآخرينَ عَلَيه أنْ يَكُونَ دَوْماً ذا وَجْهٍ طَلقٍ ، فعَلَيه بالدِّربَةِ والمِرانِ حَتَّىٰ يُصبِحَ الابتِسَامُ سَجيَّةً عِندَه فيما بَعدُ ، لأنَّ الطَّبعَ بالتَّطَبُّعِ .

أمَّا إذا كَانَ عَبُوساً فهُو ينفُثُ في قَلبِ مَنْ يُقابِلُه الضِّيقَ وعَدمَ الانْشِراحِ .

فما أجمَلَ المُسلِمَ المُعاصِرَ ـ سِيَّما المُربِّي والدَّاعيَة ـ أنْ يُطلَّ بابتِسامَةٍ مُشرِقَةٍ صادِقَةٍ تَشُعُّ بالحُبِّ والصَّفاءِ ، رَغمَ أنَّه أكثَرُ النَّاسِ هَـمًّا وغَـمًّا ؛ لأنَّ الابتِسامَةَ أوْسَعُ أبْوابِ الدَّعوَةِ وأسْرَعُها نَفَاذاً (٢) .

رَسُولُنا قُدوَتُنا : «**وَمَا رَآنِي إلَّا تَبَسَّمَ**» .

---

(١) «كيف تؤثر عَلَىٰ الآخرين وتكسب الأصدقاء» ، ديل كارنجي ، مرجع سابق ، انظر : ص ٧٦ – ٨٥ بتصرف .

(٢) «كيف تكسبُ أخاً في اللّـه» ، د. محمد بن فهد الودعان ، مرجع سابق ، ص ٣٤ بتصرف .

المطلَبُ الثَّـاني

البَداءَةُ بالسَّلام والمُصافَحَة

السَّلامُ مِفتاحُ وانْشِراحٌ ، ومَدخَلٌ إلَىٰ القُلُوبِ والإصْلَاح ، وهو يُؤدِّي إلَىٰ إفْشَاءِ الحُبِّ بينَ النَّاسِ (١) ، كَما أنَّه تَحيَّةٌ اختصَّ اللَّـهُ بها أُمَّةَ مُحمَّدٍ دُونَ باقي الأُمَمِ ، فهُو تَحيَّةُ أهْلِ الإسلَامِ في الدُّنيا ، و تَحيَّةُ المُؤمِنينَ في الجَـنَّةِ .

والسَّلامُ مِفتاحُ المَحـبَّةِ والقَبُولِ بينَ النَّاسِ سَواءٌ أَلقَيتَهُ عَلَىٰ مَنْ عَرَفتَه أومَنْ لَـمْ تَعرِفْهُ ، وفي ذلكَ يَقُولُ ﷺ لصَحابيٍّ سَألَهُ أيُّ الإسلَام خَيرٌ؟ قَالَ : «تُطْعِمُ الطَّعَامَ وتَقرَأُ السَّلَامَ عَلَىٰ مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لَـمْ تَعْرِفْ» (٢) . كَما أنَّه أمانُ اللَّـهِ في الأرضِ ، وهو مَظهَرُ الاهتِمامِ والعِنايَةِ والتَّرابُطِ الاجتِماعيِّ بَينَ أَفرادِ الأُمَّةِ (٣) .

وللسَّلامِ مَعانٍ جَميلةٌ نُورِدُ منها :

(أ) السَّلامُ اسمٌ من أسماءِ اللَّـهِ تَعالَىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ (٤) .

(ب) بمعنى التحية المعروفة والأمان ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ

---

(١) «الطريق إلى القلوب» ، ج٢ ، عباس السيسي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ٥١ ، ١٢٣ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الإيمان ، باب إطعام الطعام من الإسلام ، ص ٢٠ ، رقم الحديث : ١٢ .

(٣) «نبيُّ الهُدىٰ والرحمة» ، الدكتور عبد المجيد البيانوني ، مرجع سابق ، ص ٢٩٥ .

(٤) سورة الحشر ، الآية : ٢٣ .

﴿إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ (١) . وقَالَ تعالَىٰ : ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ (٢) .

(ج) بمَعنَىٰ الثَّناءِ الجَميلِ من اللَّـهِ : في قَولِه تعالَىٰ عن النَّبيِّ يَحيَىٰ عليه السلام : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ (٣) .

(د) بمَعنَىٰ السَّلامَة من كُلِّ شَرٍّ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾ (٤) .

(هـ) بمَعنَىٰ الخَيرِ والأَمْنِ والطُّمأنينَة ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ (٥) (٦) .

والسَّلامُ بمَعنَىٰ التَّحيَّة المَعرُوفَة له فَوائدُ ، منها :

(أ) إرسَالُ رَسائل المَحبَّـةِ وكَسبِ مَودَّةِ الآخَرينَ .

(ب) كَسرُ الحَواجِزِ النَّفسيَّة بَينَ الغُرَباءِ ، وسَببٌ لإزالَةِ الوَحشَةِ بَينَ القُلُوبِ .

(ج) انفِتَاحُ القُلُوبِ لَه ، وابتِهَاجُ الأَرْواحِ ، وسُرُورُ الخَواطِرِ .

(د) أُنسُ الخَائفِ وأَمَانُ المَفزُوعِ ، وهُو يُشعِرُ كُلَّ مُسَلِّم بالاطمِئنانِ تِجاهَ الآخَرِ . يَقُولُ ابنُ هبيرَة : مَنْ سَلَّمَ عَلَىٰ رَجُلٍ فَقَدْ أَمَّنَهُ (٧) .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٤ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٤ .

(٣) سورة مريم ، الآية : ١٥ .

(٤) سورة ق ، الآية : ٣٤ .

(٥) سورة القدر ، الآية : ٥ .

(٦) «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٢ ، إفشاء السلام ، ص ٤٣١ - ٤٣٨ ، في معاني السلام .

(٧) «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٢ ، باب السلام ، ص ٤٦٥ .

(هـ) خَيرُ الوَسائلِ لتَوثيقِ عَلاقاتِ المَودَّةِ والقُربَىٰ ، وإنْشَاءِ عَلاقاتٍ جَديدَةٍ وتَوثيقِها [١] ، فكَم كَانَ سَبباً للرَّبطِ بَينَ اثنَينِ ، وتَعارُفِهما ، والصِّلَةِ بَينَهُما فيما بَعدُ .

(و) صُورَةٌ من غَرسِ الاحترام والتَّقديرِ والاعتِبَارِ في نَفسِ مَنْ تُسَلِّمُ عَلَيه صَغيراً أو كَبيراً ، فَقيراً أو غَنياً .

(ز) يُزيلُ العَداوَةَ ، ويُنهِي الخُصُومَةَ ، ويَسُلُّ سَخيمَةَ الصَّدرِ [٢] .

(ح) هُو دَعوَةٌ إلَىٰ التَّسامِي والتَّسامُحِ ، فخَيرُهُما مَنْ يَبدأُ السَّلامَ [٣] .

وعَن إفْشاءِ السَّلامِ وأثَرِ ذَلكَ عَلَىٰ المُجتَمعِ يَقُولُ ﷺ : «**لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤمِنُوا ، ولا تُؤمِنُوا حَتَّىٰ تَحابُّوا ، ألا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَا تَحابُّونَ بِهِ؟**» ، قَالُوا : بَلَىٰ يا رَسُولَ اللَّـهِ! قَالَ : «أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ» [٤] .

فالحَديثُ أفادَ أنَّ دُخُولَ الجَنَّةِ لا يَكُونُ إلَّا بأصْلِ الإيمانِ ، وأنَّ الإيمانَ لا يَكمُلُ إلَّا بالمَحبَّةِ والمَودَّةِ بَينَ المُسلِمينَ ، وأنَّ المَحبَّةَ لا تَنشَأُ فِيهم إلَّا بإفْشَاءِ السَّلامِ [٥] .

ولنَقِف قَليلاً مع الحَديثِ ، حَيثُ لَـمْ يَقُل الرَّسُولُ ﷺ : «إلْقاءُ السَّلامِ» ، بَلْ : «إفْشَاءُ السَّلامِ» الذي يَزرَعُ المَحبَّةَ ، فهَلْ إلقَاؤُهُ هو نَفسُ مَعنَىٰ إفْشائِه؟

إنَّ إفشَاءَ السَّلامِ أوْسَعُ من إلقَاءِ السَّلامِ ، فهو يأتي بمَعنَىٰ :

---

(١) «كيف تكسِبُ أخاً في اللَّـه» ، محمد فهد الودعان ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٢) موسوعة «نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ٢/ ٤٦٦ .

(٣) حديث «خَيْرُهُما الذي يَبدَأُ السَّلام» ، «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، باب المهتجرين ، حديث رقم : ٤٠٦ ، ص ٢٣٠ .

(٤) نفس المرجع السابق ، باب إفشاء السَّلام ، ص ٥٤٩ .

(٥) «كيف تكسِبُ أخاً في اللَّـه» ، د. محمد فهد الودعان ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(أ) إكثارُه وإشاعَتُه ونَشرُه بين النَّاسِ ، في السُّوقِ ، في الشَّارِعِ ، في السَّيارَةِ ، في المَنزِلِ ، وفي أيِّ مَكانٍ ، فإنَّه رسَالَةُ القُلُوبِ (١) .

(ب) أي دَعُوا السَّلامَ يَعمُّ ، وتكُونُ القُلُوبُ كُلُّها سَليمَةً عامِرَةً بالسَّلامِ ، لنَحيا بسَلامٍ .

(ج) المُبادَرةُ إلَىٰ المُصافَحة بحرارَةٍ وقُوَّةٍ وشَوْقٍ (٢) ، فمِنْ مَعاني إفْشاءِ السَّلام إلقاءُ التَّحيَّةِ والمُصافَحَة ، مع طَلاقَةِ الوَجْه . فقد كَانَ ﷺ يُصافِحُ ، ولا يَنزِعُ يَدَهُ مِمَّنْ يُصافِحُ حَتَّىٰ يَكُونَ الآخَرُ هُو الذي يَنزِعُ ، يَقُولُ أَنَسُ بنُ مَالِك رضي الله عنه : **«مَا الْتَقَمَ أَحَدٌ أُذُنَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فَيُنَحِّي رَأسَهُ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ هُو الَّذِي يُنَحِّي رَأسَهُ ، ومَا أَخَذَ أَحَدٌ بيَدِهِ ، فَيُرسِلُ يَدَهُ حَتَّىٰ يُرْسِلَهَا الآخِذُ ، وكَانَ يَبدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بالسَّلَامِ ويَبدَأُ أَصْحَابَهُ بِالمُصَافَحَةِ»** (٣) .

وإنَّ اقْترانَ السَّلام بالمُصافَحَة ، لَه أثَرٌ في القَلبِ والنَّفسِ ، فهي تَواصُلٌ جَسَديٌّ بَعدَ تَواصُلٍ كَلِميٍّ لذا فهي مُكمِّلَةٌ له ، فعَنْ البَراءِ بنِ عَازِب رضي الله عنه قَالَ : مِنْ تَمامِ التَّحيَّةِ أنْ تُصافِحَ أخَاكَ (٤) . فهي :

(أ) تَدعُو إلَىٰ التَّآلُفِ بَينَ المُؤمِنينَ وتُقَوِّي المحبَّـةَ في القُلُوبِ ، فالمُصافَحَةُ تُزيدُ في الوُدِّ (٥) .

(١) «طريقنا إلى القلوب» ، عبير فهد الفيصل ، مرجع سابق ، ص ٢٤ ، وموسوعة «نضرة النعيم» ، مرجع سابق أيضًا ، ٢/ ٤٣٢ ، في معنى إفشاء السلام .

(٢) «كيف تكسبُ أخاً في اللّـه» ، د. محمد فهد الودعان ، مرجع سابق ، ص ٤٦ .

(٣) «الشفا» ، للقاضي عياض اليحصبي ، مرجع سابق ، انظر : ص ٨٤ .

(٤) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب المصافحة ، ص ٥٤٣ ، رقم الحديث : ٩٦٨ .

(٥) موسوعة «نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٢ ، الآثار وأقوال العلماء الواردة في إفشاء السَّلام ، ص ٤٦٥ ، رقم ٢٢ .

(ب) تُعبِّرُ عن الوَفاءِ والإخْلَاصِ وإحْسَانِ الظَّنِّ (١) .

(ج) تُذهِبُ الغِلَّ لأنَّ المُصافَحَةَ من الصَّفْح (٢) ، وقد وَرَدَ عن الرَّسُولِ ﷺ قَوْلُه : «**تَصَافَحُوا يَذْهَبَ الغِلُّ مِنْ قُلُوبِكُمْ ..**» (٣) فالتَّصافُح مع طَلاقَةِ الوَجْهِ ، تُوحِي بالتَّصَافِي والصَّفح ، فتُغفَرُ ذُنوبُهما قَبلَ أنْ يَتفرَّقا ، قَالَ ﷺ : «**إذَا الْتَقَىٰ الرَّجُلَانِ المُسْلِمَانِ ، فَسَلَّمَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ صَاحِبه ، فإنَّ أَحَبَّهُما إلَىٰ اللَّـهِ أَحْسَنُهُما بِشْراً لِصَاحِبِه ، فَإذَا تَصَافَحَا نَزَلَتْ عَلَيْهِمَا مِائَةُ رَحْمَةٍ ، وَلِلْبَادِي مِنْهُمَا تِسْعُونَ ولِلْمُصَافِحِ عَشَرَةٌ**» (٤) .

تُنقَلُ الطُّمأنينَةُ من حَالَةٍ شُعوريَّةٍ نَفسيَّةٍ (بإلْقَاءِ التَّحِيَّةِ) إلَىٰ حالَةٍ حِسِّيَّةٍ مَلمُوسَةٍ .

(أ) تَدُلُّ عَلَىٰ التَّواضُعِ وعَدَمِ التَّكَبُّرِ .

(ب) عِندَما تَتشَابَكُ الأيادِي تَتَوَاصَلُ القُلُوبُ بالقُلُوبِ ، وتَتعانَقُ الأَرْوَاحُ ، فتَتجاذَبُ القُلُوبُ والأفْئِدَةُ ، وتَتوَهَّجُ العَواطِفُ والمشَاعِرُ .

(ج) إرسَالُ رَسائِلَ المحَبَّـةِ .

مُفَـــارَقَة :

نَحنُ نُؤمنُ بأنَّ النَّاسَ سَواسيَة ، ويَتحَقَّقُ ذَلكَ فِعلاً بَينَ المُسلِمينَ في المَسجِدِ . فنَرَىٰ الفَقيرَ بجِوارِ الغَنيِّ يَتبادَلانِ التَّحِيَّةَ قَوْلاً باللِّسَانِ ، وسُلُوكاً

---

(١) «كيف تكسبُ أخاً في اللّـه» ، الودعان ، مرجع سابق ، ص ٤٦ .

(٢) «مختار الصحاح» ، مرجع سابق ، انظر : (ص ف ح) ، منها المصافحة ، ص ٣٢٠ .

(٣) «حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النَّبيِّ المختار» ، للعالم الفقيه القاضي محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي ، دار المنهاج ، ط١ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ، انظر : فصل في المعاشرة ، استحباب المصافحة ، ص ٥٠٤ ، أخرجه مالك في الموطأ كتاب(٤٧) برقم : ١٦ .

(٤) «الترغيب والترهيب» ، مرجع سابق ، الترغيب في إفشاء السلام وما جاء في فضله ، ٣/ ٤٣٣ ، رقم الحديث : ٩ .

بالمُصافحَةِ ، ولكنْ هَلْ نُطَبِّقُ ذلكَ خارجَ المَسجِدِ!؟ فحينَ نمرُّ علَىٰ العُمَّالِ ذَوي المِهَنِ المُتواضِعَة ، هَلْ نُلقِي عَلَيهم السَّلامَ ، ونُصافِحُهُم ، ونبتَسِمُ لهم ، ونُبادِلُهُم طَيِّبَ الدُّعاءِ والكَلامِ؟ وذلكَ تقديراً لِـما يقُومُونَ به وشُكراً وامْتِناناً وعِرفاناً؟ فإذَا كُنَّا كذلكَ فقد حَقَّقنا مَعنىً واسعاً من مَعاني إفْشَاءِ السَّلامِ ، وطَبَّقْنا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فيَعُمَّ السَّلامُ وتَشيعُ المحَبَّةُ في الأُمَّةِ وتعلُو .

يَقُولُ ﷺ : «**أَفْشُوا السَّلامَ تَسْلَمُوا**» (١) ، و : «**أَفْشُوا السَّلامَ كَيْ تَعْلُوا**» (٢) .

ما أَجمَلَ هَـٰذا المُجتَمعَ الذي صاغَهُ لنا نَبيُّ الهُدَىٰ والمحَبَّةِ والرَّحمَةِ ، مُجتمَعاً يتَّسِمُ أفرادُهُ بالسَّلامَةِ والأَمْنِ والأمَانِ ، والحُبِّ والطُّمأنينَةِ والسَّلامِ ، أَوْصَافٌ تَسامَتْ بمَنْ اتَّصَفَ بها حَتَّىٰ ارتَقَت بأصحابها . فقد رَسَمَ لَنا الرَّسُولُ الوَدُودُ ﷺ مَعالِمَ الطَّريقِ إلَىٰ القُلُوب ، بخُطُواتٍ طَبيعيَّةٍ فِطْريَّةٍ سَهلَةٍ . فمَعَ إشْراقَةِ الابتِسامَةِ وإلْقاءِ التَّحِيَّةِ وحرارَةِ المُصافَحَةِ .. تَتلَهَّفُ النُّفوسُ ، وتَنفَتِحُ القُلُوبُ ، وتَتصَافَحُ الأَفْئِدَةُ مع الأيادِي ، فيَقبَلُ الآخَرُ ما نَودُّهُ منه برَحابَةٍ وسَعَة .

فإذَا كَانَ الشَّيطَانُ يَستَعينُ عَلَىٰ الشَّرِّ بأُسلُوبِ التَّدرُّجِ والخُطُواتِ ، لِيَستَلَّ مَنْ يُريدُ حَتَّىٰ يُصبِحُوا مِنْ أَتباعِه! فَالأَجْدَرُ بالدَّاعيَةِ المُرَبِّي أَنْ يَستَعينَ بالتَّدرُّجِ لِـمَا فيه الخَيرُ والإنقاذُ ، مع التُّؤدَةِ والصَّبرِ (٣) والحِلمِ وسِعَةِ الصَّدرِ .

«فقَد يَمكُثُ النَّاسُ دَهْراً لَيسَ بَينَهُم وُدٌّ ، فيَزرَعُهُ التَّسليمُ واللُّطْفُ» .

---

(١) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب إفشاء السلام ، ص ٥٤٩ ، رقم الحديث : ٩٧٩ .

(٢) «الترغيب والترهيب» ، مرجع سابق ، ج٣ ، انظر : باب الترغيب بإفشاء السلام وما جاء في فضله ، ص ٤٢٦ ، الحديث رقم : ١١ ، قال : إسناده حسن .

(٣) «الطريق إلى القلوب» ، ج٢ ، للسيسي ، مرجع سابق ، انظر : ص ١٢٠ بتصرف .

المطلَبُ الثَّالث

الرِّفــقُ

إنَّ الرِّفقَ يَعني لِينَ الجَانبِ قَوْلاً وعَملاً ، واللُّطف في اختيارِ الأُسلُوبِ المُناسِبِ في طَرِيقَة التعَّامُل مع الآخَرين ، وتَرك العُنفِ والشِّدَّةِ والغِلظَةِ في ذَلكَ .

وهو مَظهرٌ من مَظاهرِ الرَّحمِةِ والحُبِّ ، وهو اسمٌ عامٌّ يَدخُل في كُلِّ شيء : في التعامل مع الأهلِ والنَّاسِ ، والعمَّال المستضعفين من ذوي المهن المتواضعة ، وفي التأديب و تعليم الجاهل ، وفي التَّعامل مع الأعداء والخصوم ، فهو شامِلٌ لكُلِّ الأحوالِ والشُّـؤون .

والرِّفقُ مفتاحُ القُلوبِ ، وله أثَـرُه العَميقُ في التَّأليفِ بينَ النُّفوسِ ، وهِداية العُقولِ ، وإصلاحِ العُصَاةِ واستياقِهم إلىٰ ما فيه الهُدَىٰ والنُّورِ والحَقِّ والرَّشادِ .

ولا يَعني الرِّفقُ التَّنازُلَ عن الحَقِّ أو السُّكُوتِ عن الباطِلِ ، وإنَّما استِعمالُ اللُّطفِ في أسلوبِ التَّعبيرِ ، بأن يَأمُرَ بالمَعرُوفِ بمَعرُوفٍ ، ويَنهَىٰ عن المُنكَرِ بمَعرُوفٍ ، مُتمَثِّـلًا بالهَديِ النَّبَـويِّ في ذَلك .

وقد كان ﷺ رفيقًا ، يعيش الرِّفق في أمره كله ، وفي سائر أحواله وشُؤونه .

وقد وردت أحاديث كثيرة عنه ﷺ في الرفق والحَثِّ عليه ، فقد قال ﷺ : **«مَنْ يُحْرَم الرِّفْقَ يُحْرَم الخَيْرَ»** (١) ، وفي حَديثٍ آخر : **«إنَّ اللَّـهَ رَفِيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ ، ويُعْطِي عَلَيْه مَا لا يُعْطِي عَلَىٰ العُنْفِ»** (٢) .

---

(١) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب الرفق ، ص ٢٦٠ ، رقم الحديث : ٤٦٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ، رقم الحديث : ٤٧٢ .

وكان ﷺ يُوصي عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقوله لها : «**يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**» (١) ، و«**عَلَيْكَ بالرِّفْقِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، ولا يُنزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**» (٢) .

ولنا في هَدي النَّبيِّ جَميعِه ﷺ مثالٌ رائعٌ في الرِّفقِ واللِّينِ واللُّطفِ في التعامل .

وقد أَوْصَىٰ ﷺ صاحِبَيْه مُعاذَ بنَ جَبلٍ ، وأبا مُوسَىٰ الأشْعَريّ عِندَما أرسَلَهُما إلىٰ اليَمنِ بقولِه عَلَيْهِ السَّلَامُ : «**يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا ، وبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا ، وتَطَاوَعَا**» (٣) .

وجَميعُ ما مرَّ مَعنا في الفُصولِ السَّابقَة يُؤكِّدُ هَـٰذا المَعنَىٰ .

ولَكن نَستَزيدُ من هَـٰذا الخُلُقِ النَّبويِّ الرَّائع بما تَخفُقُ به قُلُوبُنا ، وتَسمُو له أرواحُنا ، وتَزكُو به نُفُوسُنا ، لنَستَضيءَ بهَديهِ ﷺ وذَلكَ من خِلالِ قِصَصٍ وأمثلةٍ أُخرَىٰ منها :

حَدَّثَ مَسرُوقٌ عن عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَت : حَدَّثَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ نِساءَه ذَاتَ لَيلةٍ حَديثاً ، فقَالَت امرَأةٌ مِنهُنَّ : يَا رَسُولَ اللَّـهِ ، كَأنَّ الحَديثَ حَديثُ خُرافَة ، فقَالَ لها رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**أَتَدْرِينَ مَا خُرَافَةُ؟ إِنَّ خُرَافَةَ كَانَ رَجُلاً مِنْ بَنِي عُذْرَة ، أَسَرَتْهُ الجِنُّ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، فَمَكَثَ فِيهِمْ دَهْراً طَويلاً ، ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَىٰ الإِنْسِ ، فَكَانَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا رَأَىٰ فِيهِمْ مِنَ الأَعَاجِيبِ فَقَالَ النَّاسُ حَدِيثُ خُرَافَةَ**» (٤) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ ، رقم الحديث : ٤٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، رقم الحديث : ٤٦٩ .

(٣) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الأدب باب قول النبيِّ ﷺ : «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» ، رقم الحديث : ٦١٢٤ ، وكتاب المغازي ، ص ٧٥٥ ، رقم الحديث : ٤٣٤١ .

(٤) «هذا الحبيب يا محب» ، أبوبكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ٣٥٣ .

لننظر إلَىٰ رفقِه ﷺ بزوجِه وبَراعَتِه في أَخذِ الحَديثِ إلَىٰ سياقٍ آخَرَ، وإعطائها مَعلُومَة أُخرَىٰ.

فبَدلَ أنْ يُؤنِّبَها لاطفَها، وداعَبَها، وقَصَّ عَليها قِصَّةَ خُرافة العُذْريِّ، ولَـمْ يَغضَبْ منها، أو يَنهَرْها، أو يُعقِّبَ عَليها كَيفَ وَجَّهَت إليه هَـٰذه الكَلمَةَ مع عُلُوِّ قَدرِه!.

كَم نَحتاجُ إلَىٰ فِقه الرِّفقِ والتَّعامُلِ الرَّاقي في حياتِنا، لاسيَّما في الشُّؤونِ الزَّوجيَّة، بألَّا نتَّخِذَ مَوقِفَ الشِّدَّةِ في الكَلام مع الطَّرَفِ الآخَرِ، وأنْ نُغَـيِّرَ مَجرَىٰ الحَديثِ من السَّلبيِّ إلَىٰ الإيجابيِّ، ونَتجاوَزَ عن مَواقِفَ كَثيرَة، ونُحوِّلَها إلَىٰ مُداعَبَةٍ ومُلاطَفَةٍ، فذَلكَ يُديمُ الأُلفَةَ والمَودَّةَ.

وأورَدَتْ بَعضُ كُتبِ السِّيَرِ قِصَّةً أُخرَىٰ: أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ عِندَما كَانَ في يَومِ الفَتحِ يَطُوفُ بالبَيتِ كَانَ الفُضَالَةُ بنُ عُمَير بنُ المُلَوَّح قد خَطَّطَ للغَدرِ بالرَّسُولِ ﷺ وقَتلِه وهو يَطُوفُ، فلَمَّا دَنا من الرَّسُولِ ﷺ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**أفضَالَة؟**»، قَالَ: نَعم، فَضالَة يا رَسُولَ اللَّـهِ، قَالَ: «**مَاذَا كُنْتَ تُحَدِّثُ به نَفْسَكَ؟**»، قَالَ: لاشَيءَ كُنتُ أَذكُرُ اللَّـهَ، قَالَ: فَضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ ثم قَالَ: «**اسْتَغْفِر اللَّـهَ**»، ثم وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ صَدرِه فسَكَنَ قَلبُه، ويُتابِعُ فَضالَة فيَقُولُ: ما رَفعَ يَدَهُ ﷺ عن صَدرِهِ حَتَّىٰ ما مِنْ خَلقٍ أَحبَّ إلَيه مِنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ورَجعَ إلَىٰ أَهْلِه، فمَرَّ بامْرَأةٍ كَانَ يَتحَدَّثُ إليها، فقَالَت: هَلُمَّ إلَىٰ الحَديثِ فقَالَ: لا، وأَنشَدَ شِعْراً بأَنَّ اللَّـهَ يَأبَىٰ عَليه ذَلك والإسْلَامَ (١).

(١) «هذا الحبيب يا محب»، أبوبكر الجزائري، مرجع سابق، ص ٢٦٠ بتصرف.

ما أَسمَىٰ هَـٰذا التَّعامُل! فالرِّفْقُ يتَجلَّىٰ في جَنبَاتِ القِصَّةِ :

فلَوْ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ واجَهَهُ بما حَدَّثَتْهُ به خَبيئةُ نَفسِه ، ليُعلِمَه أنَّه نبيٌّ يُوحَىٰ إليه ، لأصابَت الرَّجُلَ رَهبَةٌ ، فمِنَ المُمْكِن أنْ يَقتنِعَ عَقليّاً أنَّه نبيٌّ يُوحَىٰ إليه ، ولكنْ لَنْ تُلامِسَ وِجْدانَه ومَشاعِرَه ، أو أنَّه ﷺ عَلَىٰ أقَلِّ تَقديرٍ أشَاحَ بوَجْهِه عَنهُ ، لأنَّه لَـمْ يَصدُقْهُ القَوْلَ ، فهَلْ كَانَ سَيفتَحُ قَلبَهُ لَوْ أَخبرَهُ بمَكنُونِ قَلبه ونِيَّـتِه؟ ولكِنْ لنَنظُرَ إلَىٰ النَّبيِّ الإنْسانِ كَيفَ تَرفَّقَ به ، فلَمْ يَتحاشَاهُ بعَدَمِ الاكْتراثِ به ، لأنَّ اللَّـهَ مانِعُهُ مِمَّا يُريدُ ، أو يَتجافَاهُ ، بَلْ نَادَاهُ مُهتَمّـاً به وبكُلِّ وُدٍّ : «**أَفَضَالَةُ؟**» ومن المُؤكَّدِ عِندَما سَألَهُ الرَّسُولُ ﷺ عَمَّا يُحدِّثُ نَفسَهُ ، أصابَت الرَّجُلَ رِعْدَةٌ ، لأنَّه يُخفِي أمْراً جَلَلاً ، وهو ما يُسمَّىٰ في عَصرِنا الحَالي عَمليَّة اغْتيالِ رَئيسِ الدَّولَة ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ ضَحِكَ ، ولنَنظُرْ إلَىٰ أهَميَّةِ هَـٰذه الضَّحِكَة في ذَلكَ المَوقِف؟ وما تَمنَحُه من أمَانٍ وطُمَأنينَةٍ ، ثُمَّ قَالَ لَه بكُلِّ لِينٍ ورِفْقٍ ولُطْفٍ : «**اسْتَغْفِرِ اللَّـهَ**» ، ثم تَرفَّقَ به أكثَر ، بأنْ وَضَعَ يَدَهُ الشَّريفَةَ عَلَىٰ صَدرِه وقَلبِه بحُبٍّ ليَمنَحَهُ السَّكينَةَ ، حَتَّىٰ إنَّه ﷺ ما رَفَعَها حَتَّىٰ وَصَلَ بَردُها إلَىٰ قَلبِ ذَاكَ الرَّجُل ، فأشعَلَ فَتيلَ الحُبِّ فيه ، واسْتَلَّ منه الكُرْهَ وغَرسَ فيه الحُبَّ . ولَوْلا رِفْقُ الرَّسُولِ ﷺ وحِكمَتُه لَـما استَبدَلَ الكُرهَ بالحُبِّ ، ولَـما أثْمرَ هَديُه بأنْ جَعلَ الرَّجُلَ يَرفُضُ أنْ يَأتِيَ ما يَعصِي به اللَّـهَ ورَسُولَه ، فلَمْ يَتكلَّمْ مع تِلكَ المَرأةِ التي لا تَحِلُّ لَه .

ولَـمْ يَغِبْ الرِّفقُ ولَـمْ تَغِبْ الرَّحمَةُ عَنه ﷺ حَتَّىٰ مع خُصُومِه من أسرَىٰ الحَربِ ، فكَانَ أوَّلَ مَنْ وَضَعَ نِظاماً إنْسانيّاً رائعاً بالرِّفقِ بأُولئكَ الأَسرَىٰ ، فقَد أَوْصَىٰ برِعايَتِهم وإطْعامِهم ، وشَرَّعَ القَوانينَ الرَّحيمَةَ في مُعامَلَتِهم ،

واستَوْصَىٰ بهم خَيراً ـ وكَانَ الأسرَىٰ عِندَ الآخرينَ يُعامَلُونَ أسْوَأ من مُعامَلَةِ العَبيدِ ـ وقد نَزلَ أسرَىٰ بَدْرٍ عِندَ الأنْصارِ وكَأنَّهُم في ضِيافَةٍ لا في أَسْرٍ .

حَتَّىٰ إنَّ الأنْصاريَّ كَانَ يُفَضِّلُ الأَسيرَ عَلَىٰ أهْلِه وعِيالِه في إطْعامِه ، فيَرَىٰ الأسيرُ ذَلكَ فيَتعفَّفُ ، فيُشَدِّدُ عليه الأنصاريُّ ، ويُؤثِرونَهُم عَلَىٰ أنفُسِهِم ولَوْ كَانَ بِهِم خَصاصَةٌ (١) . فكَانُوا مِمَّنْ قَالَ اللَّـهُ تعالَىٰ : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ (٢) . وما ذَلكَ إلَّا لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَوْصَىٰ بالأسْرَىٰ خيراً .

ولَـمْ تكُنْ الجَزيرَةُ العَربيَّـةُ تَعرفُ ذَلكَ من قَبلُ ، وقد سَبقَ الرَّسُولُ ﷺ القَوانينَ المَدنيَّـةَ المُعاصِرَة في ذَلكَ بأربَعةَ عَشرَ قَرناً .

ولَنا وَقفَةُ رِفقٍ من نَوعٍ آخر في قِصَّةِ الفَضْلِ بنِ العَـبَّاسِ ، التي تَدُلُّ عَلَىٰ عِنايَتِه ﷺ بالشَّبابِ وإصْلاحِ أخْطَائِهم بالرِّفقِ واللُّطفِ ، وذَلكَ عِندَما أَرْدَفَهِ النَّبيُّ ﷺ عَلَىٰ راحِلَتِه خَلفَه في حَجَّة الوَداعِ يومَ النَّحرِ ، وكَانَ الفَضلُ وَضيئاً ، فوَقفَ النَّبيُّ ﷺ للنَّاسِ يُفتِيهِم ، فأقبلَت امْرأَةٌ من خَثْعَم وَضيئَةٌ تَستَفتِي رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ فنَظرَ الفَضلُ إلَيها وأَعجَبَهُ حُسنُها ، وجَعلَت تَنظُرُ إلَيه ، فأخَذَ ﷺ بذَقنِ الفَضْلِ ، فعَدَّلَ وَجهَهُ عن النَّظرِ إليها (٣) .

(١) «خاتم النبيين» ، أبو زهرة ، مرجع سابق ، المجلد الثاني ، ص ٦٤٥ ، و «فقه السيرة» ، محمد الغزالي ، مرجع سابق ، ص ٢٧٣ .

(٢) سورة الإنسان ، الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٣) «وردت هذه القصة في مواضع كثيرة من صحيح البخاري ، منها : كتاب الاستئذان ، رقم الحديث : ٦٢٢٨ ، ص ١١١٦ ، وباب حج المرأة عن الرجل ، رقم الحديث : ١٨٥٥ ، ص ٣١٨ ، وكتاب الحج ، باب وجوب الحج وفضله ، رقم الحديث : ١٥١٣ ، ص ٢٦٥ .

لِنتَأمَّلْ في القِصَّةِ : الفَضْلُ صَحابيٌّ والوَقتُ وَقتُ حَجٍّ ومَع مَنْ؟ مَع أطْهَرِ إنْسانٍ ، ومع هَـٰذا كُلِّه فالفَضلُ بَشَرٌ وَقَعَت منه هَـٰذه الزَّلَّة ونَظرَ إلَىٰ المَرأةِ .

ولنَنظُرْ إلَىٰ تعامُلِ الرَّسُولِ ﷺ مع الفَضلِ الذي يُمَثِّلُ شَريحَةَ شَبابِ عَصرِ هَـٰذه الأيَّام هَلْ تَناولَهُ بمُحاضَرَةٍ عن الدِّينِ وغَضِّ البَصَرِ وأنَّه عِبادَةٌ؟ بَلْ وأسمَىٰ عِبادَة؟ أمْ هَلْ عَنَّفَه أو أنَّبه لأنَّه مَع النَّبيِّ ﷺ فليَستَحِ في حَضرَتِه لأنَّه فَعلَ مَا فَعَلْ؟ ما كَانَ منه ﷺ إلَّا أنْ احتَواهُ وعَدَّلَ سُلُوكَه ، وبكُلِّ بَساطَةٍ لفَتَ لَه وَجهَهُ إلَىٰ الشِّقِّ الآخَرِ بكُلِّ رِفْقٍ ولِينٍ ، وبِدُونِ زَجْرٍ ولا تَعنيفٍ ولا تَأنيبٍ .

فقَد كَانَ الفَضلُ شَابّاً ناهزَ البُلُوغَ ، اعتَورَتْهُ صِراعَاتٌ داخِليَّة ، لا يَستَطيعُ تَفهُّمَها والتَّعاطُفَ مَعَها إلَّا الحَبيبُ المُحِبُّ الشَّفيقُ الرَّفيقُ مُحمَّدٌ ﷺ .

كَم نَحتاجُ في بناءِ الأجْيالِ لهَـٰذا الرِّفقِ النَّبويِّ ، فمَرحَلةُ البُلُوغِ وهي بِدايَةُ الشَّبابِ أخطَرُ المَراحِلِ في مَسيرَةِ التَّنشِئةِ التَّربَويَّة ، لِذَا كَانَ لِزاماً على المُختَصِّينَ التَّربَويِّينَ أنْ يَعتَنُوا بِهَـٰذه المَرحَلةِ عِنايَةً تَفُوقُ ما سِواها من المَراحِلِ ، باحتِواءِ الشَّبابِ وتَفهُّمِ مُشكِلاتِهم وصِراعاتِهم النَّفسيَّة الدَّاخليَّة ، ومِنْ ثَمَّ تَعديلُ سُلوكِهم برِفقٍ ولُطفٍ ولِينٍ مُقتَدينَ بالنَّهجِ النَّبَويِّ في ذَلكَ .

وإذَا كَانَ لِزاماً عَلينا وعَلَىٰ جَميعِ المُربِّينَ اتِّخاذُ الرِّفقِ مَنهَجاً وسَبيلاً فيَجِبُ أنْ يَكُونَ شَامِلاً ، ويُغطِّي حَياةَ المُسلِم كُلَّها ، لِما له من فَوائدَ تَجمَعُ بَينَ خَيْرَي الدُّنيا والآخِرَة ، نَذكُرُ منها أنَّ الرِّفقَ :

(أ) سَببٌ في كَسبِ مَودَّةِ النَّاسِ ومَحبَّتِهم وهِدايَتِهم .

(ب) مَنْ تَحلَّىٰ به يَتزَيَّنُ ويَتجمَّلُ في أَعيُنِ النَّاسِ [١] .

(ج) مَظهَرٌ من مَظاهِر حُسنِ الخُلُقِ ، والصَّبرِ والحِلمِ وسَعَةِ الصَّدرِ وتَحمُّلِ الأذَىٰ .

(د) دَليلُ رِقَّةِ القَلبِ والرَّحمَةِ وحَيويَّةِ المشَاعِرِ .

(هـ) يُزيِّنُ الأشياءَ ، ويَقُودُها للبَساطَةِ والتَّيسيرِ ، ويُبعِدُ عَنها التَّعقيدَ والغِلظَةَ والتَّنفِيرَ .

(و) يُنَمِّي رُوحَ المحَبَّـةِ والتَّعاوُنِ بَينَ النَّاسِ .

(ز) يُنشِئُ مُجتَمعاً سَالِـماً من الغِلِّ والعُنفِ .

(ح) عُنوانُ سَعادَةِ العَبدِ في الدَّارَينِ وطَريقٌ مُوَصِّلٌ إلَىٰ الجَـنَّةِ .

(ط) دَليلٌ عَلَىٰ فِقهِ الرَّجلِ وأَناتِه وحِكمَتِه [٢] .

(ي) أَدْعَىٰ إلَىٰ الإجابَةِ والقَبُولِ في مَجالِ الدَّعوَةِ إلَىٰ اللَّـهِ عَزَّ وجَلَّ [٣] .

(ك) يُظهِرُ صُورَةَ الإسْلَامِ ومَفاهِيمَهُ الحَقيقِيَّة .

(ل) يُعطِّفُ قُلُوبَ النَّاسِ ، ويَجمَعُهُم حَولَ مَنْ يَلينُ لَهم ، ويَرفُقُ بِهِم .

إنَّ الرِّفقَ هو الأداةُ المُثلَىٰ في الدَّعوَةِ إلَىٰ اللَّـهِ ، فلا يَملِكُ الدَّاعيَةُ القُلُوبَ ولا تَلينُ لَه النُّفُوسُ ولا تَستَجيبُ له العُقُولُ إلَّا عن طَريقِ الرِّفقِ واللِّينِ ، ولا

(١) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، ما ورد في فقه أحاديث الرفق وشرحها ، ص ٢٦١ .
(٢) من (هـ) إلى (ط) ، ينظر في : «موسوعة «نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج ٦/ الرفق ، ص ٢١٦٨ .
(٣) نفس المرجع السابق ، «موسوعة نضرة النعيم» ، ٨/ ٣٣٠٢ .

بُدَّ من ذَلكَ عِندَ الأمْرِ بالمَعرُوفِ مع التَّحلِّي بالصَّبرِ لاستِمالَةِ قُلُوبِ المَدعُوينَ ووُجْدانِهِم ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [1] .

هَـٰذه هي الصِّفَةُ التي تَضعُ للدَّاعيَةِ القَبُولَ بَينَ النَّاسِ ، فعَلَىٰ الدَّاعيَةِ أن يَنظُرَ في مَنْ حَولَه نَظرَةَ عَطفٍ وشَفقَةٍ ، ويَتعامَلَ مَعهُم باللُّطفِ والرِّفْقِ ؛ لأنَّ المُذنِبينَ قَد صَرَعَهُم الشَّيطَانُ ، وهُم في أمَسِّ الحاجَةِ لِـمَدِّ يَدِ العَوْنِ لتُنقِذَهُم من بَراثِنِه ، وتَحُلَّ عَنهُم أصْفَادَهُ التي قَـيَّدَهُم بها . فيَرفُضُ مَنهَجَ العُنفِ لجَذبِهِم جَميعاً إلى قافِلَةِ الإيمانِ ؛ لأنَّ الدَّاعيَةَ ـ من غَيرِ أنْ يَقصِدَ ـ يَكُونُ عَوْناً للشَّيطَانِ عَلَىٰ أخِيه الإنسانِ .

لِذَا يَنبَغِي أنْ يَنتَبِهَ الدُّعاةُ والمُرَبُّونَ من أهْلِ العِلمِ والفَضلِ والقُدوَةِ عِندَ نُصحِهِم وإرشَادِهِم ، وألَّا يَكُونُوا مَعاولَ هَدمٍ في الشِّـدَّةِ والتَّعنيفِ ، والغِلظَةِ والزَّجْرِ والتَّأنيبِ ، بَلْ عَوامِلَ بناءٍ بالتَّرفُّقِ والتَّوَدُّدِ واللِّينِ ، فتُهدَىٰ بهِم القُلُوبُ الشَّارِدَة ، وتَتآلَفُ القُلُوبَ النَّافِرَة .

أحْسِنْ إلَىٰ النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمْ　　　فَطَالَـمَا اسْتَعبَدَ الإنْسَانَ إحْسَانُ

ولنَتذَكَّر أنَّ القُلُوبَ دَوْماً تَميلُ إلَىٰ مَنْ يَترَفَّقُ بها .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

المطلَبُ الرَّابع

الكَرمُ والعَطَـاءُ

لَيسَ مِثلُ الكَرمِ والعَطاءِ وَسيلَةً في كَسبِ مَودَّةِ النَّاسِ واجْتِذابِ قُلُوبِهم . والسَّخاءُ فَضيلَةٌ من الفَضائلِ التي حَثَّ الإسلامُ عَليها ، وأمَرَ أتباعَهُ بالتَّحلِّي بها .

يَقُولُ جابرُ بنُ عَبدِ اللَّـهِ ﵄ : مَا سُئل رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ عَن شَيءٍ فقَالَ لَا ، وكَذَا ابنُ عَـبَّاس ﵄ قَالَ : كَانَ النَّبيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بالخَيرِ ، وقَالَ أَنسٌ ﵁ : كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ لا يَدَّخِرُ شَيئاً لغَدٍ .

وقَد رَوَىٰ الكَثيرُ من صَحابَةِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ في ذَلكَ [1] .

وللكَرمِ أهميَّةٌ بالغَةٌ في التَّوادِّ والتَّآلُفِ بَينَ النَّاسِ وجَذبِ المُؤلَّفَةِ قُلُوبُهم إلَىٰ الإسلام ، كَما فَعلَ ﷺ مع المُؤلَّفَةِ قُلُوبُهم ، ومنهم صَفْوانُ بنُ أُميَّة ، فقد أعطَاهُ ﷺ في غَزوَةِ حُنَين مائةً من النَّعَم ثم مائةً ثم مائةً ، فقَالَ صَفْوانُ في ذَلكَ : واللَّـهِ لقد أَعْطَاني ما أَعْطَاني وإنَّه لَأبْغَضُ الخَلقِ إلَيَّ ، فَما زَالَ يُعطِيني حَتَّىٰ إنَّه لأَحبُّ الخَلقِ إلَيَّ [2] . وحَسُنَ إسلَامُه ثم سَخَّرَ كُلَّ مَا يَملِكُ لِخِدمَةِ الإسلَامِ .

---

(١) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، الجود والكرم والسخاء ، ص ٨٧ ، وانظر أيضًا : «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، باب حسن الخلق والسخاء ، ص ١٠٨٧ .

(٢) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

وكَذلِكَ أبُوسُفيانَ بنُ حَرْب ، أعْطَاهُ ﷺ أربَعينَ أُوقيَّةً ومائةً من الإبِلِ ، فقَالَ : ابْنِي يَزيدُ فأعْطَاهُ مِثلَها ، فقَالَ : ابْنِي مُعاوِيَة ، فأعْطَاهُ مِثلَها ، وأعْطَىٰ حَكيمَ بنَ حِزَام مائةً من الإبِلِ ، ثُمَّ سَألَه مائةً أُخرَىٰ فأعْطَاهُ إيَّاها (١) . فقد كَانَ ﷺ يُعامِلُ النَّاسَ بما يُحبُّونَ ليتألَّفَهُم .

فإذا كَانَ المالُ هو الذي يَنزِعُ الغِلَّ ، ويَمسَحُ الحِقدَ ، ويَدفِنُ الضَّلالَةَ (٢) ، ويَفتَحُ القُلُوبَ ، ويَزرَعُ الحُبَّ ، ويُؤدِّي إلَىٰ الهدايَةِ ، فليَكُنْ . وقد رَأينا كَيفَ انتَقلَ صَفْوَانُ بنُ أُمَـيَّة من أعنَفِ المُبغِضِينَ إلَىٰ أفضَلِ المُحِبِّينَ .

كَما أنَّ السَّخاءَ له أهَميَّـتُه الكَبيرَة في جَذبِ غَيرِ المُسلِمينَ إلَىٰ الإسلَامِ .

فعَن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَجُلاً سَألَ الرَّسُولَ ﷺ فأعْطَاهُ غَنَمـاً بَينَ جَبلَينِ ، فرَجَعَ إلَىٰ قَومِه ، وقَالَ : أَسْلِمُوا فإنَّ مُحمَّداً يُعطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخشَىٰ فَاقَةً (٣) .

هكَذا كَانَ يَتعامَلُ ﷺ مع مَنْ حَولَه لكَسبِ القُلُوبِ وامتِلاكِ النُّفوسِ . وهَـٰذا ما أرادَ أنْ يُعلِّمَنا إيَّاهُ ؛ لأنَّ هُناكَ أقْوَاماً يُقادُونَ إلَىٰ الحَقِّ بالبَذْلِ والعَطاءِ ، لا بالعَقلِ والإقْـنَاعِ .

وهَـٰذه الأصنافُ من البَشَرِ تَحتاجُ إلَىٰ فُنونٍ من الإغْرَاءِ ، حَتَّىٰ تَستأنِسَ بالإيمانِ ، وتَهشُّ له (٤) . فكَانَت تِلكَ سياسَةً حَكيمَةً من المُربِّي الهادِي ﷺ .

(١) «الرحيق المختوم» ، مرجع سابق ، قسمة الغنائم بالجعرانة ، ص ٣٨٦ .
(٢) «فقه السيرة النبوية» ، منير الغضبان ، انظر : ص ٧١٠ .
(٣) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، الجود والكرم والسخاء ، ص ٧٩ .
(٤) «فقه السيرة» ، محمد الغزالي ، مرجع سابق ، ص ٣٩٤ .

المطلَبُ الخامِسُ

الإيثَـــارُ

إذا كَانَ المَرءُ في سَعَةٍ يَبذُلُ فَضلَ مَالِه فذاكَ الكَرمُ والجُودُ، أمَّا إذا كَانَ مُفتَقِراً إلَىٰ ما يَبذُلُه مُحتاجاً إليه فذاكَ الإيثَارُ. فالإيثَارُ هو: تَفضيلُ الغيرِ عَلَىٰ النَّفسِ بالمالِ للمُحتاجِ برِضَا نفسٍ وسَخاوَةٍ دُونَ تَردُّدٍ أو مَشقَّةٍ.

فهُو أعلَىٰ ضُروبِ الكَرمِ والسَّخاءِ، وأسمَىٰ مَراتبِ البَذلِ والعَطاءِ (١).

وهو عَكسُ الأَثَرَةِ، إذ هي: استِئثارُه عن أخيه بما هو مُحتاجٌ إلَيه (٢).
والإيثَارُ: هو قِمَّةُ الجُودِ والكَرمِ.

والإيثارُ من الفَضائلِ والمَكارِمِ التي تُقوِّي في المُجتَمع دَعائمَ المحبَّـةِ والإخاءِ والبرِّ والتَّعاوُنِ بَينَ أفرادِه. وقد ضَربَ لنَا رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ مَثلاً فَريداً في الإيثَارِ، حتَّىٰ أشفَقَ عليه أصحَابُه من شِدَّةِ إيثَارِه. يَقُولُ جابرٌ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «مَا سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَنْ شَيءٍ قَطُّ فَقَالَ لَا» (٣). وقد كَانَ يَستَحِي أنْ يَرُدَّ سَائلَهُ خَالِيَ اليَدَينِ مُعتَذِراً بالفَاقَةِ.

حُمِلَ إلَيه ﷺ تِسعُونَ ألفَ دِرهَم، فوُضِعَت عَلَىٰ حَصيرٍ، ثُمَّ قامَ إلَيها، فقَسَّمَها حَتَّىٰ فَرغَ منها، وجاءَهُ رَجُلٌ فسأَلَهُ، فقَالَ: «**مَا عِنْدِي وَلَكِنْ ابْتَعْ عَلَيَّ فَإذَا جَاءَنَا شَيءٌ قَضَيْنَاهُ**»، فقَالَ عُمرُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: مَا كلَّفكَ اللَّـهُ ما لا تَقدِرُ

(١) «كيف تكسبُ أخاً في اللَّـه»، الودعان، مرجع سابق، ص ٨١، ٨٤.
(٢) «مدارج السالكين في شرح منازل السائرين»، للإمام ابن قيم الجوزية، مرجع سابق. انظر: المجلد الثاني: فصل منزلة الإيثار، ص ٢٣٦.
(٣) «صحيح البخاري»، مرجع سابق، كتاب الأدب، ص ١٠٨٧، باب: حسن الخلق والسخاء، الحديث رقم: ٦٠٣٤.

عَلَيه ، فكَرِهَ النَّبيُّ ﷺ ، فقَالَ رَجُلٌ من الأنْصار : يا رَسُولَ اللَّـهِ أَنْفِقْ ، ولَا تَخْشَىٰ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلَالاً ، فَتبَسَّمَ الرَّسُولُ ﷺ وعُرِفَ البِشْرُ في وَجْهِهِ ، وقَالَ : «بِهَـٰذَا أُمِرْتُ» (١) .

كَما كَانَ يُعجِبُهُ خُلُقُ الإِيثَارِ من أصحابِه ، فقَد أَثنَىٰ عَلَىٰ الأَشعَرِيِّينَ ، ووَصَفَهُم بقَولِه : «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِـهِمْ بِالْـمَـدِينَـةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ» (٢) .

إِنَّ الإِيثَارَ خُلُقٌ نبويٌّ نَبيلٌ ، كَم نَحنُ نحتاجُهُ في عَصرِنا ، لِـمَا لَه من أَثَرٍ عَظيمٍ في :

(أ) تَآلُفِ القُلُوبِ وجَذبِها ووَحدَتِها .

(ب) سُمُوِ الأرواحِ عَلَىٰ ذاتيَّـتِها ، وارتِقاءِ النُّفوسِ من مادِّيتِها ، وتَحرُّرِها من عِشقِها لِـمَا تَملِكُ ، وشُحِّها في بَذلِه .

(ج) تَطهيرِ النُّفوسِ من الأنانيَة والأَثَرَةِ التي هي عَكسُ الإِيثَارِ .

(د) أنَّه أقوَمُ سَبيلٍ إِلَىٰ خَيرَي الدُّنيا والآخِرَة .

(هـ) أنَّه يُزيدُ أمانَ المُجتمعِ ويَحميه من الأخْطارِ الخارجيَّة ، حَيثُ هُناكَ ثُلَّةٌ مُستَعِدَّةٌ لبَذلِ النَّفسِ والنَّفيسِ في الدِّفاعِ عَن المُجتمعِ ، والتَّضحيَةِ بكُلِّ ما تَملِكُ .

(و) أنَّه يُرسِّخُ الحُبَّ في قُلُوبِ الأنامِ ، فيَسُودُ المُجتمعَ البِرُّ والتَّعاوُنُ والوِئامُ .

لكُلِّ شَيءٍ عَلامَةٌ ، وعَلامَةُ الحُبِّ الإِيثَارُ .

(١) «محمد الإنسان الكامل» ، السيد محمد علوي المالكي ، الطبعة العاشرة ، سنة ١٤١١هـ ، كمال جوده ، ص ١٤٦ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الشركة ، ص ٤٢٨ ، باب الشركة في الطعام ، رقم الحديث : ٢٤٨٦ .

المطلَبُ السَّـادِسُ

الْـهَــديَّـة

إنَّ أعظَمَ ما يَبعَثُ في النُّفوسِ الوِئامَ، ويَسُلُّ السَّخائمَ، ويَدفَعُ المَغارِمَ، ويَستَرضي المُغضَبَ، ويَستَميلُ المَحبُوبَ، ويُذهِبُ الشَّحناءَ من النُّفُوسِ الهَديَّة. فهي: تمليكٌ للغيرِ عَلَىٰ غيرِ عِوَضٍ (١)، وهي أحدُ أشكَالِ الكَرمِ والسَّخاءِ، وهي مَصائدُ للقُلُوبِ، وكالسِّحرِ تَأسِرُ النُّفوسَ، وتُولِّدُ بينَهَا الوِصَالَ، وتَزرَعُها وُدّاً.

يَقُولُ ﷺ: «**تَهادُوا تَحَـابُّوا**» (٢).

وقد كان من هَديِه ﷺ أنَّه كان يُهدِي ويجزِلُ العَطاءَ، ويَقبَلُ الهَدِيَّةَ، ويُثِيبُ عَلَيها (٣) بأكثَر منها، ويُرَغِّبُ فيها مَهما كَانَت بَسيطَةً. وذلكَ لِـما للهَديَّةِ من فاعليَّةٍ وتَأثيرٍ نَفسيٍّ عَلَىٰ المُهدَىٰ إلَيه (٤).

ولَيسَ من الضَّروريِّ أن تَكُونَ الهَديَّةُ باهِظَةَ الثَّمنِ، فقد تَكُونُ بَسيطَةً: وَردَةً أو قَلَماً أو عِطراً.. ولكِنَّها تعبيرٌ رَمزيٌّ عن صِدقِ المحبَّـةِ والاهتِمامِ، فقد كَانَ ﷺ يَقبلُ هَديَّةَ مَنْ يُهدِيه مَهما كَانَت، وقد قَالَ ﷺ في ذَلكَ: «**لَوْ أُهْدِيَ إليَّ ذِرَاعٌ، أَوْ كِرَاعٌ لَقَبِلْتُ**»، وفي حَديثٍ آخَر: «**يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ،**

(١) «طريقنا إلى القلوب»، عبير بنت فهد الفيصل آل سعود، ص ٣٢.

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد»، مرجع سابق، باب قبول الهدية، ص ٣٣٠، رقم الحديث: ٥٩٤.

(٣) «صحيح البخاري»، مرجع سابق، كتاب الهبة وفضلها، باب: المكافأة في الهبة، ص ٤٤٦.

(٤) «كيف تكسِبُ أخاً في اللّـه»، د. محمد بن فهد الودعان، مرجع سابق، انظر: ص ٤٨.

لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا ، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ» (١) ، كِنايَةً عن قَبُولِ الهَدِيَّة وعَدمِ التَّقليلِ من شَأنِها مَهما كانت مُتواضِعَةً زَهيدَةً ، لعَدمِ المشَقَّةِ فيها ، ولِدَورِها الكَبير في نَشرِ الوُدِّ والفرحِ بينَ المُتهادين .

كما أنَّ الهَدِيَّةَ وَسيلَةٌ أساسيَّةٌ من وَسائلِ التَّربيَة بِالحُبِّ للوُصُولِ إِلَىٰ الهُدَىٰ والرَّشادِ مع بَقاءِ المودَّةِ والأُلفَةِ . فأَصْلُ الكَلمَةِ من الهُدَىٰ (٢) ، والهُدَىٰ بمَعنَىٰ الرَّشادِ والدَّلالَةِ ، فكَأَنَّها تَهدِي القَلبَ وتُرشِدُهُ إِلَىٰ طَريقِ الخَيرِ بالمَودَّةِ والتَّـآلُفِ (٣) . وهي من أفضَلِ الوَسائلِ لتَقويَةِ رَوابطِ المحَبَّـةِ والأُلْفَةِ بَينَ النَّاسِ .

فلَمْ يَكتَفِ مُعلِّمُ الحُبِّ ﷺ بأنْ أرشَدَنا أنْ نُخبِرَ مَنْ نُحبُّهُم بالكَلامِ فقط ، بَلْ حَثَّ عَلَىٰ الهَدِيَّةِ ورَغَّبَ فيها . ففي الحَديثِ : «تَصَافَحُوا يَذْهَب عَنْكُمْ الغِلُّ ، وتَهَادُوا تَحَابُّوا ، وتَذْهَب الشَّحْنَاءُ» (٤) ؛ لأنَّ في الهَدِيَّةِ دَليلاً مَحسُوساً على حُبِّ الأخِ لأخِيه . فهَـذا أَلطَفُ وأَوْجَزُ تَعبيرٍ صادِقٍ من القَلبِ للقَلبِ لنَشرِ وبَقاءِ الوُدِّ والتَّـآلُفِ والحُبِّ بَينَ الأفرادِ . فللهَدِيَّةِ أثارٌ عَميقَةٌ في النُّفوسِ ، فهي :

* دَليلُ المحَبَّـةِ وسَببٌ في استِجلابِها وتَبنِّي عَلاقَة مع الآخَرينَ كَما تُديمُ الوُدَّ وتَزرَعُ الأُلفَةَ بينَ النُّفُوسِ .

---

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الهبة وفضلها ، انظر في بابي : فضلها والتحريض عليها والقليل من الهبة ، ص ٤٤٣ .

(٢) «مختار الصحاح» ، مرجع سابق ، مادة : (هـ د ى) ، ص ٦١٠ .

(٣) «طريقنا إلى القلوب» ، عبير بنت فهد الفيصل آل سعود ، مرجع سابق ، ص ٣٤ ، بتصرف .

(٤) «الترغيب والترهيب» ، مرجع سابق ، ٣/ ٤٣٤ ، رقم الحديث : ١٤ ، رواه مالك .

* تُذهِبُ غَيظَ القَلبِ وما وَقرَ في الصَّدرِ من ذَلكَ ، فكَم من عَدُوٍّ لَدُودٍ تَحوَّلَ إلَىٰ صَديقٍ وَدُودٍ عِندَما استُؤلِفَ بهَديَّةٍ . فالهَدَيَّةُ تُذهِبُ وَحَرَ الصَّدرِ .

* مَظهَرٌ من مَظاهِرِ السَّخاءِ التي تَجعَلُ المُهْدِي محبُوباً .

* لها مَنزِلَةٌ عاليَةٌ في النُّفوسِ وذِكرَياتٌ وَدُودَةٌ يَطُولُ أثَرُها .

* هامَّةٌ جِدّاً أُسَريّاً واجتِماعيّـاً ، لتَعميقِ أوَاصِر المحَبَّـةِ والمَودَّةِ بين الأَزوَاجِ خاصَّةً ، وبَينَ أفرادِ العائلَةِ الواحِدَةِ ، وبَينَ المُسلِمينَ عامَّةً ، إنْ أَحسَنُوا أداءَها .

فالعاقِلُ مَنْ يَستعمِلُ الهَديَّةَ بما يَقدِرُ عَليه لحَلِّ الخِلافاتِ الزَّوجيَّةِ والعائليَّةِ ، أو مع مَنْ له مَعه خِلافٌ . فهي تَفتَحُ القُلُوبَ المُغلَقَةَ ، وتَستَميلُ النُّفوسَ المُتنافِرَةَ ، فكَمْ من إشْكَالاتٍ تَلاشَت ، وقُلُوبٍ تَواصَلَت بَعدَ انقِطاعٍ ، وذَلكَ بهَديَّةٍ عَبَّرَت عن وُدٍّ وصَفَاءٍ من قَلبِ مُهدِيها ، ففَتحَت قَلبَ وعَقلَ مَنْ أُهدِيَت إلَيه .

وأَشَدُّ ما نَحتاجُه هَديُ الهَديَّةِ ، ولَوْ كَانَ دَعوَةً صالحَةً أو كَلماتٍ لَطيفَةٍ عِندَ التَّناصُحِ ، فذَلكَ يُورِثُ المحبَّـةَ . وسَبيلُ الثِّـقَةِ نَصيحَةٌ تُهدَىٰ إلَىٰ المَنصُوحِ مُغلَّفَةً بغِلافِ الوُدِّ واللُّطفِ ، يَتبيَّـنُ فيها صِدقَ المحبَّـةِ والإخلاصِ في الحِرصِ عَلَيه للوُصُولِ إلَىٰ الخَيرِ والإصلاحِ .

تذكِــرَةٌ : إنَّ الهَديَّةَ أسرَعُ وَسيلَةٍ لكَسبِ القُلُوبِ .

المطلَبُ السَّـابع

التَّواضُـعُ

إنَّ التَّواضُعَ هو خَفضُ الجَناحِ ولِينُ الجَانِب (١) ، وخُروجُ العَبدِ عن مُقتَضىٰ جاهِه وعَظمَتِه ، وتنزُّلِه من مَرتَبةِ أمثَالِه ، فلا يَرىٰ لنفسِه قَدراً ولا مَزيَّةً ، ولا يأخُذهُ الزَّهْوُ ولا الغُرورُ .

وهو يُؤدِّي إلَىٰ ترقِّي العَبد إلَىٰ مَدارجِ الفَضيلَة ، كَما أنَّه مَظهَرٌ من مَظاهرِ الرَّحمَةِ والعَطفِ ، ونَبيُّنا مُحمَّدٌ ﷺ هو سَيِّدُ المُتواضِعينَ ، ولَه في ذَلكَ المثَلُ الكَاملُ والحَظُّ الوافِر (٢) .

وهو القُدوَةُ المُثلَىٰ للدُّعاةِ خاصَّةً وللنَّاسِ عامَّةً ، في تَواضُعِه ورَحمَتِه بهِم أَجمَعينَ ، وخُصُوصاً الضُّعفاءِ المسَاكِينِ .

وقد فُطِرَت القُلوبُ عَلَىٰ كُرهِ مَنْ يَستَعلي عَليها ، كَما جُبلَت عَلَىٰ النُّفورِ ممَّنْ يَستَصغِرُها ، ولا يُشارِكُها أحاسيسَها ومَشاعِرَها . فآذانُهم دُونَ كَلامِه مُغلَقَةٌ ، وقُلوبُهم عَن إرْشَادِه ووَعْظِه مُوصَدَةٌ . ولكِنْ مَنْ يَبتَغِي الإفادَةَ والإصْلاحَ والنَّفعَ للأُمَّةِ ، فعَلَيه بطَريقِ التَّواضُع مَع النَّاسِ فهُو أيسَرُ الطُّرُقِ ، وأقْصَرُها ، وأوْثَقُها في كَسبِ قُلُوبِ الآخَرينَ ، لأنَّ التَّواضُعَ في محَلِّه يُورِثُ المودَّةَ في القُلُوبِ ، فتَنفَتِحُ النُّفوسُ قَبلَ الآذَانِ ، ويَذُوبُ التَّمرُّدَ ، ويَذهَبُ العِصْيانُ (٣) .

---

(١) «مدارج السالكين في شرح منازل السائرين» ، للإمام ابن قيم الجوزية ، انظر : المجلد الثاني ، ص ٢٦٨ .

(٢) «محمد الإنسان الكامل» ، مرجع سابق ، انظر : ص ١٦٧ ، كمال تواضعه ﷺ .

(٣) «بحوث ودراسات إسلامية للشباب (٢)» ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، القدوة مبادئ ونماذج ، لـ : د.صالح بن حميد ، ط٢ ، ١٤١٥هـ ، ص٢١-٢٣ ، بتصرف .

وفَرقٌ بَينَ التَّواضُعِ والضَّعَةِ ، فالتَّواضُعُ انكِسارُ القَلبِ للَّـهِ ، وخَفضُ جَناحِ الذُّلِّ والرَّحمَةِ لِعبادِه ، وهو يَتولَّدُ من العِلمِ باللَّـهِ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ ومَحبَّته وتَعظيمِه والخَشيَةِ منه وإجْلَالِه . أمَّا الضَّعَة فهي التَّذلُّلُ وامتِهَانُ النَّفسِ وبَذلُها لنَيلِ حُظُوظِها وشَهَواتها (١) ، فالمُتَواضِعُ يَبذُلُ الاحتِرَامَ والعَطفَ لِـمَنْ يَستَحِقُّه رَغبَةً فيما عِندَ اللَّـهِ دُونَ مُساوَمَة عَلَىٰ دِينٍ ولا دُنْيا .

وقد سَجَّلَت صَفحاتُ حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ المُضيئةُ كُلُّها عَلَيه أفضَلُ الصَّلاةِ وأتَمُّ السَّلامِ صِفةَ التَّواضُعِ فيه . فقد كَانَ خُلُقاً رَفيعاً مُلازِماً له ـ فهُو من جُملَةِ الخُلُقِ العَظيمِ الذي امتَدَحَهُ به رَبُّهُ ـ فمَع أنَّه سَيِّدُ الأوَّلينَ والآخِرينَ ، ولا شَرفَ يَعلُو فَوقَ شَرَفِه ، ولا نسبَ يَعلُو فَوقَ نَسبِه ، وتَتشرَّفُ الخَلائقُ أجمَعينَ بالنَّسَبِ إليه ، لَـمْ يتَّخِذْ من عَظمَةِ شَخصيَّتِه ولا من هَيبَتِه سَبيلاً لفَرضِ سَيطَرتِه عَلَىٰ النَّاسِ أو تَخويفِهِم ، بلْ عَلَىٰ العَكسِ من ذَلكَ ، فقَد كَانَ رَحيماً ، رَفيقاً بمَنْ حولَه ، يُبْغِضُ العُجْبَ والغُرُورَ والكِبْرَ والخُيلاءَ ، قريباً من النَّاس مُتَواضِعاً لهم (٢) . يَقولُ ﷺ في ذَلكَ : «**ألَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْـجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللَّـهِ لأَبَرَّهُ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**» (٣) .

ودَخلَ عَلَيه بَعضُ الأعرابِ يَوماً ، فارْتَاعَ من هَيبَتِه ، فأشْفَقَ ﷺ عَلَيه

(١) «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٤ ، الفرق بين التواضع والذل والمهانة ، ص ١٢٥٦ ، بتصرف .
(٢) «نبي الهدى والرحمة» ، د. عبد المجيد البيانوني ، مرجع سابق ، ص ٢١٨ ، بتصرف .
(٣) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، رقم الحديث : ٤٩١٨ ، ص ٨٩٩ ، ١٠٩٢ ، رقم الحديث : ٦٠٧١ .

قَائلاً لَه : «**هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَـا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**» (١) .

وفي قَولِه ﷺ : «**أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ**» نَسب نَفسَهُ إلىٰ المَرأةِ ، ولَـمْ يَقُلْ أنا ابن رَجُلٍ ، زِيادَةٌ في شِدَّةِ التَّواضُع وتَسكينِ الرَّوْعِ ، لِـمَا عُلِمَ من ضَعفِ النِّساءِ . ثُمَّ وَصفَها بأنَّها تأكُلُ القَديدَ تَواضُعاً ؛ لأنَّ القَديدَ أَكلٌ مَفضُولٌ ، وهو مَأكُولُ المَساكينِ الفُقراءِ ، والمتكبِّرونَ الجَبابِرَة لا يَأكُلونَ اللَّحمَ إلَّا ما ذُبحَ حَديثاً ، فكَأنَّه يَقُولُ : إنَّما أنا ابنُ امْرأةٍ مِسكينَةٍ تَأكُلُ مَفضُولَ الأكلِ فكَيفَ تَخافُ منِّي؟ (٢) .

وكان ﷺ طَلقَ المُحيَّا ، بَسَّاماً ، جَميلَ المَعشَرِ ، رَقيقَ القَلبِ رَحيماً ، خافِضَ الجَناحِ للمُؤمنينَ ، لَيِّنَ الجانبِ لَهم ، يَتساوَىٰ مَع أَتباعِه في المَظهَرِ والمَلبَسِ والمَجلِسِ والأعمالِ البَدنيَّة ، ويَكرَهُ أنْ يَتميَّزَ عَنهُم في شَيءٍ . ففي غَزوَةِ الخَندَقِ كَانَ يَحفرُ مع النَّاسِ ، ويَنقلُ التُّرابَ ، وفي الأسفَارِ كانَ يَجمَعُ لهم الحَطبَ لإعدادِ الطَّعامِ ، يَدخُلُ الأعرابيُّ الوافِدُ عَلَيه إلىٰ مَجلسِه بين أصحابه في المَسجدِ ، فيَسألُ : أيُّكُم مُحمَّد؟ فيُشِيرُونَ إلَيه لأنَّه بَينَهُم كأحَدِهِم (٣) .

يَتعاقَبُ مع رِفاقِه عَلَىٰ الدَّابَّةِ ، ويَحمِلُ بضاعَتَه من السُّوقِ ، ولا يَدعُ أحداً يَحمِلُها عَنهُ (٤) يَتواضَعُ للنَّاسِ وهُم أتْباعٌ ، ويَخفِضُ جَناحَهُ لَهم وهُو مُطَاعٌ ،

---

(١) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٢) «الرسول المعلم» ، الشيخ عبد الفتاح أبوغدة ، مرجع سابق ، ص ٤٠ ، قال : أفاده العلامة القسطلاني رَحِمَهُ اللَّهُ في «المواهب اللدنية» : ٤/ ٣١٩ـ ٣٢٠ ، بشرح الزرقاني .

(٣) «عظمة محمد خاتم رسل اللّـه ﷺ» ، مصطفى أحمد الزرقا ، دار القلم ، دمشق ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م ، ص ١٨ .

(٤) نَهجُهُ ﷺ في ذَلكَ أنَّ صَاحِبَ الشَّيءِ أحَقُّ بحَملِه .

ويَجلِسُ عَلَىٰ التُّرابِ مَعهم، ويَمشي في الأسواقِ بينَهم، وامتَزجَ ﷺ بجُلَسائه وأصحَابه، فلَمْ يَكُنْ يَتميَّزُ عَنهُم إلَّا بإطْرَاقِه وحَيائِه (١).

وكَان بارًّا بالخَدَمِ والعُمَّـالِ، يُجيبُ دَعوَةَ العَبيدِ والمَساكينِ، فيُدعَىٰ إلَىٰ خُبزِ الشَّعيرِ والإهَالَةِ السَّنخَةِ (٢) فيُجيبُ جَبْراً للخَواطِرِ.

يَقُولُ أَنَسُ بنُ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَت الأمَةُ من إمَاءِ أهْلِ المدينَةِ لتَأخُذُ بيَدِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فتنطَلِقَ بِه حَيثُ شَاءَت (٣).

وتُحدِّثُنا السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن سُلُوكِه ﷺ في بَيتِه فتَقُولُ: إذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ في بَيتِه فهُو في خِدمَةِ أهْلِه، يَخْصِفُ نَعْلَه، ويَخيطُ ثَوبَه، ويَحلِبُ الشَّاةَ لأهْلِه، ويَعلِفُ البَعيرَ، ويَعْجِنُ مَعَ الخَادِمِ، ويَأكُلُ مَعَه (٤).

وهَـٰذا العَملُ مع الخَادِمِ هو رَفعُ مَكانَتِه إلَىٰ مَقامِ السَّـادَةِ، حَيثُ لا يَأنَفُ السَّـادَةُ من خِدمَةِ أنفُسِهم.

فإذَا رَأَىٰ الخادِمُ أنَّ لَه عَملاً في البَيتِ يُماثِلُ عَملَ سَيِّدِه فتِلكَ هيَ المُسَاوَاةُ التي تَمسَحُ ضَيْرَ الخِدمَةِ، وتَجبُرُ كَسرَها، وتَجعَلُهَا تَقسيمَ أعمالٍ بَينَ أفرادِ البَيتِ الواحِدِ.

ولا تَقتَصِرُ عَلَىٰ العَطفِ والرَّحمَةِ من جانِبِ الرَّسُولِ ﷺ لِـمَنْ يَخدِمُه، بلْ اهْتِمامٌ منه ﷺ بمَشاعِرِ الخادِمِ نَحوَهُ، أنْ تَكُونَ حُبّـاً لا خُنُوعاً، وتَوقِيراً لا مَذلَّةً وخُضُوعاً، أدَباً يَفرِضُهُ الخادِمُ عَلَىٰ نَفسِه ولَيسَ بضَريبَةٍ يَفرِضُها

(١) «الرسول المعلم»، للشيخ أبوغدة، مرجع سابق، انظر: ص ٤٥.
(٢) (السَّنخَةِ) أي: الزَّنخَة، وانظر «الشفا»، للقاضي عياض، مرجع سابق، ص ٨٩ ـ ٩٠.
(٣) «صحيح البخاري»، مرجع سابق، كتاب الأدب، باب الكبر، ص ١٠٩٢، رقم الحديث: ٦٠٧٢.
(٤) «الشفا»، للقاضي عياض، مرجع سابق، ص ٩٠، وانظر: مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ٢/ ٢٦٧.

عَلَيه العُرفُ والتَّأديبُ . ولَوْ عمَّتْ هَـٰذه السِّياسَةُ بَينَ النَّاسِ لأصْبَحَ تفاوُتُ الدَّرَجاتِ كتَفاوُتِ الأعمَـارِ ، شَيءٌ لا غَضاضَةَ فيه عَلَىٰ صَغيرٍ ، ولا ذِلَّةٍ عَلَىٰ كَبيرٍ ، وإنَّما هو تعاوُنٌ بَينَ إخْوَانٍ إنْ لَـمْ يكُنْ بَينَ أمْثَالٍ (١) .

وقد عاشَ ﷺ بين المَساكينِ كأحَدِهِم مُخيَّراً في ذَلكَ لا مُجبَراً ، وكانَ باستِطاعَتِه أنّ يَعيشَ نَبيَّـاً مَلِكاً ، ولكِنَّه اختارَ أنْ يكُونَ نَبِيَّـاً عبداً (٢) . يأكُلُ كَما يأكُلُ العَبدُ ، ويَجلِسُ كَما يَجلِسُ العَبدُ .

فكَانَ أوَّلَ أصحابِه جُوعاً ، وآخِرَهُم شِبَعاً ، يَشعُرُ بآلامِهم وحاجَتِهم وعَوزِهم ، وهَـٰذا الذي اختارَهُ ﷺ أدْعَىٰ أنْ يَشعُرَ بهم ، ويكُونَ قَريباً منهُم وأُسوَةً حَسَنةً لهم ، يُخاطِبُهم وهو في مِثلِ ظُرُوفِهم ، بلْ وأقَلُّهم عَيشاً .

كُلُّ ذلكَ لَـمْ يُنقِصْ من هَيبَتِه ، ولا مَرتَبتِه بين أصحابِه والنَّاسِ ، بلْ رَفعَ اللَّـهُ له شَأنَه وذِكرَه عَلَىٰ العالَمين في الدُّنْيا والآخِرَة . وكانَت لَه مَكانَةٌ عالِيَةٌ بين أصحابِه لا يُساميها نِدٌّ ، ورَغبَةٌ جامِحَةٌ في تَوقيرِه وطاعَتِه وخِدمَتِه لا يُضاهِيهَا أحَدٌ .

ومن شِدَّة هَيبَتِه في قُلُوبِ أصحابِه كَانَ ﷺ يُلطِّفُها بهَـٰذا التَّواضُعِ الذي يَبْعَثُ عَلَىٰ الطُّمأنينة ، فيأنَسُ به الضَّعيفُ ، ويَرجُوهُ ذَوُوا الحاجاتِ في حاجاتِهِم (٣) .

وكَانَ ﷺ أتَمَّ ما يكُونُ تَواضُعاً للمُتعلِّمِ ، والسَّائلِ المُستَفيدِ ، والضَّعيفِ الفَهِمِ (٤) .

---

(١) «عبقرية محمد» ، للعقاد ، مرجع سابق ، انظر : ص ١٢٨ ، ١٢٩ بتصرف .

(٢) انظر الأحاديث الواردة في ذلك من «موسوعة نضرة النعيم» ، ٤/ ١٢٥٨-١٢٥٩ ، مرجع سابق .

(٣) «خاتم النبيين» ، محمد أبوزهرة ، مرجع سابق ، المجلد الأول ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٦ بتصرف .

(٤) «الرسول المعلم» ، للشيخ أبوغدة ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

من ذَلك أنَّ امْرأةً كَانَ في عَقلِها شَيءٌ ، أتَتهُ فقَالَت : إنَّ لي إلَيكَ حَاجَةً ، قَالَ : «**اجْلِسي يَا أُمَّ فُلَانٍ في أيِّ طُرُقِ المَدينَةِ شِئْتِ أَجْلِسُ إلَيْكِ حَتَّىٰ أَقْضِيَ حَاجَتَكِ**» ، فجَلَسَت ، وجَلسَ إلَيها النَّبيُّ ﷺ حَتَّىٰ فَرَغَت من حاجَتِها (١) .

فلَمْ يَستَهِنْ بها ﵇ أو يَأخُذها عَلَىٰ قَدرِ عَقلِها ، بَلْ أشْعَرَها بأهَمِيَّتِها وعِظَمِ شَأنِها بقَولِه لها : «**يَا أُمَّ فُـلَانٍ**» ، وعامَلَها ﷺ كَما يُعامِلُ نِدَّاتِها من العاقِلَاتِ ، وجَعلَها تَختارُ المَكانَ الذي تَرتاحُ فيه للإفْضَاءِ له بما تُريدُ . وهَـٰذا مَظهَرٌ من مَظاهِرِ الوُدِّ والرَّحمَةِ والتَّواضُعِ الرَّائعِ .

حَتَّىٰ المسجدَ الذي كان مَركزَ استقبالِ الوُفُودِ ، ومنه تُدارُ الدَّولَةُ الإسلاميَّة ، كَانَ بَسيطاً في بنائه وأثاثه ، وبَساطَتُه تَتناسَبُ مع تَواضُعِه ﷺ وانصرافِه لجَوهَرِ الأُمورِ يُذكِّرُ النَّاسَ في كُلِّ حِينٍ بهَـٰذهِ الحَقيقَةِ . وأنَّ الانقِلاباتِ العَظيمَة والنَّجاحَ لَيسَت إلَّا أثراً لهَـٰذه السُّهولَةِ التي تُعنَىٰ بالرُّوحِ والخُلُقِ والجوهَرِ ، دُونَ الافتِتانِ بالشَّكلِ والمادَّةِ والمَظهَرِ (٢) .

هَـٰذا التَّواضُعُ الكَريمُ غيرُ المُتكَلَّفِ جعلَ عَديَّ بنَ حاتِمِ الطَّائيَّ وأمثالَه يَدخُلُونَ في الإسلَامِ ، لِـما رَأوْا من تَواضُعِه فلَمْ يتَّخِذْ حاجِباً ولا بَوَّاباً ﷺ وفي سَكنِه وجِلسَتِه ، ومَكانِ ومَركَزِ دَعوَتِه ، وإكْرامِه لجُلَسائِه ومَنْ حَولَه مع أنَّه سَيِّدَهُم ، وإصْغائِه للمُستَضعَفينَ وتَيسيرِهِ للأُمُورِ ، وكَريمِ شِيَمِه ونُبلِ

(١) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

(٢) «بطل الأبطال» ، أو «أبرز صفات النبي محمد ﷺ» ، عبد الرحمن عزام ، مكتبة لبنان ، بيروت ، طبعة جديدة ، ١٩٧٩م ، اص ٧٠ ، بتصرف .

أخْلاَقِه ، كُلُّ ذَلكَ جَعلَ مِنْ دَعوَتِه ﷺ دَعوَةً مِثاليَّـةً واقِعيَّـةً لا مِثاليَّـةً خَياليَّـةً ، كَتبَ لها الحُبَّ والسَّمعَ والطَّاعَةَ والنَّجاح .

وللتَّواضُعِ ثَمَراتٌ نَقطِفُ منها أنَّه :

* أعظَمُ ما يَتخَلَّقُ به المَرءُ ، فهُو أُسُّ الأخلاقِ كُلِّها (١) .

* السَّبيلُ إلَىٰ القُربِ من اللَّـهِ ، ومِنْ ثَمَّ القُربُ من النَّاسِ (٢) .

* يُورِثُ الأُلفَةَ والموَدَّةَ ، ويُذهِبُ الحَرجَ والكُلفَةَ .

* تُكتَسَبُ به السَّلامَةُ ، فيُرفَعُ الكُرهُ والحِقدُ ، ويُشعِرُ الجَميعَ بحُقُوقِهم تجاهَ غَيرِهم (٣) فلا فَرقَ ولا تَمـيُّزَ في مَنصِبٍ ولا جَاهٍ ولا عِرقٍ ولا لَونٍ .

* يُؤدِّي إلَىٰ تَماسُكِ المُجتمَعِ وزيادَةِ الأُلفَةِ بَينَ أفرادِه ، فلَيسَ هُناكَ طَبقاتٌ ، والنَّاسُ سَواسيَةٌ .

* يُزيلُ الكِبرَ ، ويَشرَحُ الصَّدرَ ، وبه يَعُمُّ الإيثارُ ، وتَزولُ القَسوَةُ والأنانيَةُ والتَّشَفِّي وحُبُّ الذَّاتِ .

* يُفْضي إلَىٰ النَّصرِ والبَرَكَةِ في المالِ والعُمرِ (٤) .

* التَّواضُعُ خُلُقٌ كَريمٌ من أخلاَقِ المُؤمنِينَ ، يُعطيه اللَّـهُ لِـمَنْ يُحبُّه ويُقَرِّبُه إلَيه ، فيَكلَؤُهُ برعايَتِه ، ويُحيطُه بعنايَتِه .

---

(١) «كيف تكسبُ أخاً في اللّـه» ، د. محمد بن فهد الودعان ، مرجع سابق ، ص ٥٥ .

(٢) «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ٤/ ١٢٦٨ .

(٣) «كيف تَكسِبُ أخاً في اللّـه» ، د. محمد الودعان ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

(٤) «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ٤/ ١٢٦٨ .

إنَّ سَـيِّدَ البَشريَّة مُحمَّد الدَّاعيَة الأعظَم في هَديه وسُلُوكه ﷺ هُو قُدوَةُ للنَّاسِ عامَّةً والدُّعاةِ خاصَّةً في خُلُقه خاصَّةً التَّواضُع ، فلا أحَدٌ يَنسَىٰ دُخُولَه ﷺ مكَّةَ قائداً ظافِراً مُنتَصِراً بفَتحٍ جَلْجَلَ بِدَويِّهِ الآفاقَ ، مُطَأطِئاً رَأسَهُ للَّـهِ ، وإنَّ لحيَتَه لَتَمَسُّ رَحْلَ ناقَتِه تَواضُعاً للَّـهِ وخُشُوعاً وشُكْراً ، لِـمَا رَأىٰ من إكْرامِ اللَّـهِ لَه وإنْعامِه (١) .

فلَمْ تَعرِفْ نَفسُه الطَّاهِرَةُ الزَّهوَ والخُيَلاءَ التي تُصاحِبُ الفَاتِحينَ المُنتَصِرينَ . فكُلَّما زَادَ عِلمُ الدَّاعيَةِ وَجبَ أنْ يَزيدَ تَواضُعَهُ مع مَنْ حَولَه ، كالغُصنِ تُثقِلُه قُطُوفُه من الثَّمَر النَّاضِج ، يَدنُو من أقَلِّهم شَأناً ، ويُشارِكُهم أفراحَهُم ، ويُشاطِرُهُم أحْزانَهُم مُتباسِطاً مَعَهم ويَشعُرُ بشُعُورِهم ، مُتأسِّياً في ذَلكَ بخُطَىٰ الحَبيبِ ﷺ .

فالدَّاعيَةُ كُلَّما كَانَ مُختَلِطاً بالنَّاسِ مُتَواضِعاً لَهم كَسبَ مَحبَّتهم ، فَتُفتَحُ له القُلُوبُ قبلَ الآذَانِ ، وتَتحَلَّقُ حولَه الأرْواحُ قبلَ الأبْدانِ ، فيَقعُ وَعظُهُ وإرشادُه مِنهُم مَوقِعَ الرِّضَا والقَبُولِ الحسَنِ ، ويُكتَبُ لدَعوَتِه الحُبُّ واليُّسرُ والتَّوفيقُ .

فالتَّواضُعُ يُورِثُ المحبَّـةَ ، وهو أنجَحُ طَريقَةٍ للتَّآلُفِ .

(١) «هذا الحبيب يامحب» ، لأبي بكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ ، ٢٦٢ .

المطلَبُ الثَّـامنُ

إشعارُ الجَليسِ بالاهتِمامِ

إنَّ ما يُكسِبُ المودَّةَ ، ويُزجي المحَبَّـةَ ، ويَجعَلُ للمُسلِمِ عَلاقَاتٍ واسِعَةٍ مع الآخَرينَ ، هو : إشعارُ مَنْ تُخاطِبُه أو يَجلِسُ إليكَ بأهَميَّتِه ومَكانَتِه لَديكَ .

فهَـذا فنٌّ رائعٌ من فُنونِ كَسبِ الآخَرينَ والأخْذِ بزِمامِ قُلُوبِهم . وهو قَاعِدَةٌ أساسيَّةٌ في السُّلُوكِ الإنْسانيِّ والعَلاقَاتِ الاجتماعيَّة النَّاجِحَة ؛ لأنَّ النَّاسَ بعُمُومِهم يُحبُّونَ أنْ يَشعُرُوا بالتَّقديرِ والاهتِمامِ من قِبَلِ الآخَرينَ ، وأنَّ لهم شَأناً مَهْما كانُوا بُسَطاءَ .

كَما أنَّ إشْعارَ الشَّخصِ بأهَميَّتِه يُشَجِّعُه ، ويَشحَذُ من هِمَّتِه ، ويُعطِيه الثِّقةَ بنَفسِه ، فتَنطَلِقُ المَواهِبُ ، وتَتفَجَّرُ القُدُراتُ الكَامِنَةُ فيه بقُوَّةٍ جَديدَةٍ ونَشاطٍ فعَّالٍ مُتميِّز . ومَنْ يَتجاهَلُ الآخَرينَ ويُهَمِّشُهُم ، ولا يُشعِرُهُم بقَدرِهِم فإنَّه يَصعُبُ عَلَيه أنْ يَفُوزَ بقُلُوبِهم أو يَحُوزَ بتَوظيفِ إمْكاناتِهِم وطاقَتِهِم ، كَما أنَّه يَقتُلُ الطُّمُوحَ ، ويُميتُ الهِمَمَ .

ومع نُبـذَةٍ بَسيطَةٍ عن أكثَرِ الأساليبِ النَّبويَّةِ أهَميَّةً في إشْعارِ الجَليسِ بالأهَميَّة :

١ـ الحَفَاوَةُ وحُسْنُ الاستِقبَالِ :

كَانَ ﷺ إذَا دَخلَ عَلَيه أحَدُ أصْحابه احتَفَىٰ به ، وأظْهَرَ السَّعادَةَ بمَقدَمِه ، ونَاداهُ بأحَبِّ أسْمائه إلَيه . فقد قَالَ لعَمَّـارٍ لَـمَّا قَدِمَ عَلَيه (١) : «مَرْحَباً بِالطَّيِّبِ

(١) «محمد الإنسان الكامل» ، للسيد محمد علوي المالكي ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

المُطيَّبِ» ، وحِينَ قَدِمَ جعفَرُ بنُ أبي طالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من هِجرَتِه من الحبَشَةِ إلىٰ المدينَةِ ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ في حِينِها يَحتَفِلُ مع المُسلمينَ بفَتحِ خيبَر ، فأُفْعِمَ قَلبُ الرَّسُولِ ﷺ غِبطَةً وسَعادَةً وبِشْراً ، فعَانَقَه ﷺ ، ورُوِيَ أنَّه قَبَّلَ جَبهَتَه ، وقَالَ : «لا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَفْرَحُ ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرَ ..» [(١)] .

وإذَا رَأَىٰ ﷺ أحَدَ الأصحابِ في الطَّرِيقِ ، تَهَلَّلَ وَجهُهُ ورُئِيَ منه البِشْرُ والبَشاشَةُ والمُؤانَسَةُ ، فلا يُحِسُّ أنَّ أحَداً أكرَمَ عَلَيه مِنهُ [(٢)] .

٢ـ النَّظرَةُ الحانيَـةُ ـ التَّواصُلُ البَصَري ـ والموَدَّةُ والاحتِرامُ :

كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يُساوي بَين أصحابِه وجُلَسائه بالنَّظَرِ . والعَينَانِ ـ كَما في كِتابِ مَهاراتِ الاتِّصالِ ـ من وَسائِلِ الاتِّصالِ غَيرِ اللَّفظِيِّ ، وهُما أكثَرُ أدَواتِ الاتِّصالِ صِدقاً وثِقَةً ، فالعَينانِ هُما نافِذَةُ الرُّوحِ [(٣)] .

والتَّواصُل بالعَينَين ـ مَهارَةُ تَوزيعِ النَّظَراتِ ـ من الاتِّصالِ البَصَرِيِّ مع الحُضُورِ ، ويَفتَحُ بابَ التَّواصُلِ المُباشِرِ مَعَهم ويُشعِرُهُم بأهَمِيَّتِهم [(٤)] .

وكَانَ ﷺ يُعطِي جُلَساءَه من البِشْرِ كَافَّةَ حَقِّهم ، ومن الالتِفَاتِ إلَيهِم والعِنايَةِ بِهِم وحُسنِ الاستِماعِ لَهم ، حَتَّىٰ يَظُنَّ كُلُّ واحِدٍ مِنهُم أنَّه أحَبُّ النَّاسِ إلىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ،

(١) «هذا الحبيب يا محب» ، أبوبكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ ، وانظر : «رجال حول الرسول» ، مرجع سابق ، سيرة جعفر بن أبي طالب ، ص ٢٧١ .

(٢) «محمد الإنسان الكامل» ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢-٢٥٤ .

(٣) «مهارات الاتصال» ، د. نوح الشهري ، مرجع سابق ، ص ٨٨ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٧٠ .

كَما مرَّ في حَديثِ الصَّحابيِّ عَمرِو بنِ العاص ﵁ ، وكَما حدَّثَ عَليٌّ ﵁ وغَيرُه من الصَّحابَةِ ، أنَّه ﷺ : وَسِعَ النَّاسَ بِشْرُهُ وَخُلُقُه (١) .

٣ـ الاهْتِمامُ بالمُتَحَدِّثِ وعَدَمُ التَّشاغُلِ عَنهُ :

فقَد كَانَ ﷺ يُصغِي كُلَّ الإصْغَاءِ إلَىٰ مَنْ يُحدِّثُه ويَسألُه ، ويَلتَفِتُ إلَيه جَميعُه ﷺ ويُقبِلُ عَلَيه ويُلاطِفُه (٢) ، وذَلكَ عَلامَةُ الاهتِمامِ والمُتابَعَة .

٤ـ تَقديرُ ذَوي المَكَـانَة :

كَانَ ﷺ يُكرِمُ كَريمَ كُلِّ قَوم ويُوَلِّيه عَلَيهم (٣) ، وإذَا دَخلَ عَلَيه كَريمُ قَوم أكرَمَه وبَسطَ لَه رِداءَه ، ويَقُولُ ﷺ : «**إذَا جَاءَ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ**» (٤) ، كَما فَعلَ مَع جَريرٍ البُجَليِّ ، الذي لَـمْ يَجِدْ لَه مَكاناً لكَثرَةِ النَّاسِ فقَعَدَ عَلَىٰ البَابِ ، فنَزعَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ رِداءَهُ وألْقاهُ إليه ، فأخَذَه جَريرٌ وأخَذَ يُقَبِّلُه ويَبكِي ويَقُولُ : مَا كُنتُ لأَجلِسَ عَلَىٰ ثَوْبِكَ ، أكْرَمَكَ اللَّـهُ كَما أكْرَمتَني (٥) .

وفي قِصَّةِ إسلَام عَدِيِّ بن حاتِمِ الطَّائيِّ عِندَما رَمَىٰ لَه وِسَادَتَه ليَجلِسَ عَلَيها عَدِيٌّ ، وجَلسَ ﷺ على الأرضِ ، فرَدَّها عَدِيٌّ لَه ، ولكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَـمْ يَرضَ ، وأمَرَهُ بأنْ يَجلِسَ عَلَيها إكْراماً لَه (٦) .

---

(١) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ ، وانظر : «قبسات من نور النبوة» ، مجموعة من العلماء ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

(٢) «محمد الإنسان الكامل» ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢ ، وانظر : «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ١٠٤ .

(٣) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

(٤) «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٧ ، طلاقة الوجه ، ص ٢٧٠٠-٢٧٠١ ، رقم الحديث : ٦ .

(٥) «محمد الإنسان الكامل» ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

(٦) «فقه السيرة النبوية» ، منير الغضبان ، مرجع سابق ، ص ٦٩٢ ، في قصة إسلام عدي ، وانظر : «هذا الحبيب يامحب» ، مرجع سابق ، ص ٣٤٧-٣٤٨ ، في أدب مخالطته وحسن عشرته ﷺ .

٥ـ الاتِّصالُ بِمَنْ تَغيَّبَ وتَفَقُّدُهُ والسُّؤالُ عَنهُ :

عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ : أنَّ امْرَأَةً سَوْداءَ كَانَت تَقُمُّ المَسجِدَ فماتَت ، فسَأَلَ النَّبيُّ ﷺ عنها ، فقَالُوا : مَاتَت ، قَالَ : «**أفَلا كُنْـتُم آذَنْتُـمُوني بِهَا ، دُلُّوني عَلَىٰ قَبْرِهَا**» ، فأتَىٰ قَبرَها فصَلَّىٰ عَليها (١) . فقد كَانَ ﷺ يتفَقَّدُ أصْحابَه ، ومَع كُلِّ ما لَدَيه من مَشاغِلَ إذا فَقَد الرَّجُلَ من إخْوَانِه ثَلاثَةَ أيَّام سَأَلَ عَنهُ ، وإنْ كَانَ غَائِباً دَعَا له ، وإنْ كَانَ شَاهِداً (٢) في البَلَدِ زَارَهُ ، وإنْ كَانَ مَريضاً عَادَهُ ، كَما حَدَّثَ أنَسُ بنُ مَالك (٣) ، وكَما جَاءَ في السِّـيَر . وهَلْ هَـٰذا إلَّا مِنْ صِدقِ المحبَّـةِ والاهتِمامِ! فما أَجمَلَ أنْ نَهتَمَّ بِمَنْ حولَنا ، أُسوةً به ﷺ .

٦ـ المَشُورَةُ وتَقديرُ الرَّأيِ :

كَانَ نَهجُه ﷺ في طَريقَةِ مُعاشَرَته لأصحابِه ومُعامَلَته لهم يُشعِرُهُم بتَمامِ الثِّـقَةِ بأنفُسِهِم ، والاعتِدادِ بها وأهَميَّة آرائِهم ، وذَلكَ بمُشاوَرَتِهم . يَقُولُ أبُوهُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ : مَا رَأيْتُ أحَداً أكثَرَ مُشَاوَرَةً لأصْحَابِه من النَّبيِّ ﷺ (٤) ، عَمَلاً بقَولِه تَعالَىٰ : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (٥) . ومَنْ قَرأَ السِّيرَةَ رَأىٰ ذَلكَ في مَواقِفَ عَديدَة منها :

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الصلاة ، باب كنس المسجد ، ص ٩٥ ، رقم الحديث : ٤٥٨ .
(٢) حاضِراً .
(٣) «محمد الإنسان الكامل» ، مرجع سابق ، ص ٢٥٧ ، وانظر : «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٨٤ ، وانظر أيضاً «قبسات من نور النبوة» ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .
(٤) «محمد الإنسان الكامل» ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

* يومُ بَدرٍ عند لِقَـاءِ قُرَيش ، والمَكانُ الذي يَنزِلُونَ فيه في تِلكَ الغَزوَةِ .

* ويومُ الخَندَقِ كيفَ أخذَ برَأيِ سَلمَانَ الفَارِسيّ في حَفْره ، ومَع أنَّها كَانَت فِكرَةً فارسيَّةً مُستَهجَنَةً ، وغَيرَ مَعرُوفَةٍ لَدَىٰ العَرَبِ ، إلَّا أنَّه ﷺ في ذَلكَ المَوقِفِ العَصيبِ أخَذَ برَأيِ سَلمانَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ لِـمَا رَأىٰ فيه مِنْ سَدادِهِ .

* وفي مُشاوَرَتِه لأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا عِندَما مَنعَتهُم قُرَيشُ من دُخُولِ الحَرَم لأَداءِ العُمرَةِ ، وبَعدَ مُعاهَدَةِ الحُدَيبيَةِ أمَرَ ﷺ بالحَلقِ والتَّحَلُّلِ ، فتباطَؤُوا ، ولَـمْ يَمتَثِلُوا حُزْناً وأمَلاً في أداءِ العُمرَةِ ، فأشَارَت عَلَيه رَضِيَ اللهُ عَنهَا برَأيٍ سَديدٍ ، أنْ يَأمُرَ حَلَّاقَهُ ، وبَدأ بنَفسِهِ أمامَهُم ، وكَانَ من بَركَةِ هَـٰذا الرَّأيِ رَفْعُ الإثمِ والحرَجِ عن أصْحابِه بالإسْراعِ إلَىٰ تَقليدِهِ وامْتِثالِـهِم أمْرَهُ .

٧ـ تَعْـزيزُ السُّلُوكِ الإيجابيِّ بالشُّكْرِ والتَّقدير :

يُخطِئُ كَثيرٌ من النَّاسِ باعتِقادِهِم أنَّ حُسنَ الشُّكرِ لِـمَنْ أدَّىٰ عَملاً يُشعِرُهُ بالغُرُورِ ، بَلْ عَلَىٰ العَكسِ فإنَّه يُشعِرُهُ أنَّه قدَّم عَملاً طَيِّـباً ويَبني ثِقتَه بنَفسِه ، فيَتَشجَّعُ للمَزيدِ ، ويَنطَلِقُ من جَديدٍ بهِمَّةٍ وحَماسٍ أكثَر .

وقد كَانَ ﷺ يَشكُرُ عَلَىٰ القَليلِ والكَثيرِ ، ويَأخُذُ بالعَملِ الطَّيِّبِ والرَّأيِ السَّديدِ ، ويُعلِنُ ذَلكَ عَلَىٰ المَلأ ، ويُحَسِّنُ الحَسَنَ ـ السُّلُوكُ الإيجابيُّ ـ ويُصَوِّبُه ويُقَوِّيه (١) ، تَكريماً لصاحِبه ، وتَنشيطاً لهِمَّتِه ، وتَقديراً لخِبرَتِه ، وتَشجيعاً له .

(١) «المرجع السابق ، انظر : ص ٢٥٨ ، وانظر «قبسات من نور النبوة» ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

كُلُّ ما سَبقَ جَعلَ أصحابَ الرَّسُولِ ﷺ يَتبادَرُ إلىٰ أذهانِهم أنَّ كُلَّ واحِدٍ منهم هو الأحَبُّ إلىٰ قَلبِ الرَّسُولِ ويَتبارُونَ بهـٰذا ، وما ذلكَ إلَّا لقُدرَته ﷺ وبراعَتِه في إظْهَارِ محبَّتِه الصَّادِقَة ، واهتِمامِه بهِم واحتِوائه لهم .

من ذَلكَ :

عِندَما اجتمَعَ عَلِيٌّ وجعفَرُ وزَيدُ بنُ حارِثَة رضي الله عنهم ، فقَالَ جعفَرُ : أنا أحَبُّكم إلىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ، وقَالَ عَليٌّ مِثلَ قَولَتِه ، وقَالَ زَيدُ مِثلَ ذَلكَ ، وانطَلقَ القَومُ إلىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ، ثِقةً بنَفسِ كُلِّ واحدٍ مِنهُم أنَّه الأحَبُّ والأقرَبُ إليه! فاستَأذَنُوا فأُذِنَ لَهم ، فقَالُوا : يا رَسُولَ اللَّـهِ ، مَنْ أحبُّ إليكَ؟ قالَ : «**فَاطِمَةُ**» ، قَالُوا : نَسألُكَ عن الرِّجالِ؟ فالتَفتَ إلىٰ جَعْفَرَ ، وقَالَ : «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي**» ، وقَالَ لعَلِيٍّ : «**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنكَ**» ، وقَالَ لزَيدٍ : «**أَنْتَ أَخُونَا ومَوْلَانا**» فقَامَ الثَّلاثَةُ كُلُّهم فحَجَلُوا حَولَه وبَينَ يَدَيه . فَرَحاً بِمَـا قَالَ ، ولَـمْ يُنكِرْ عَلَيهِم . والحَجْلُ هو الرَّقصُ عَلَىٰ هَيئَةٍ مَخصُوصَةٍ (١) .

لِنَنظُر إلىٰ حُبِّ الرَّسُولِ ﷺ الكَبيرِ لهم وسَعَةِ قَلبِه ، وحَذَقِه عليه السلام في إرضائِهم جَميعاً دُونَ أنْ يُشعِرَ أحَداً منهم بأنَّ صاحِبَه أكْرَمُ عَلىٰ الرَّسُولِ ﷺ منه ، وحِرصِه عَلَىٰ جَبرِ خَواطِرِهم وإدْخالِ السُّرُورِ عَلَيهِم .

إنَّ للاهتِمامِ بالآخَرينَ وتَقديرِهم قِطَافٌ ، منها :

(١) «محمد الإنسان الكامل» ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، قال : أخرجه أحمد في ذخائر العقبى .

١ـ يُكسِبُ القُلُوبَ ، فكُلَّما أَشعَرتَ إنساناً بقِيمَتِه مَلكتَ قَلبَه .

٢ـ يَبني الثِّـقَةَ بالنَّفسِ ، ويُشعِرُ المَرءَ بفَعاليَّـتِه وإمْكاناتِه .

٣ـ التَّشجيعُ وتَنميَةُ الإيجابيَّاتِ في النَّفسِ والمَهاراتِ الذَّاتيَّـة .

٤ـ زِيادَةُ اللُّحمَةِ والتَّآلُفِ بَينَ أفرادِ المُجتَمعِ .

٥ـ تَوظيفُ الطَّاقَاتِ والقُدُراتِ الكامِنَة في المُجتَمعِ تَوظيفاً خَيِّراً ، ولا نَدَعَها تُهدَرُ أو تتبدَّد .

إنَّ كُلَّ إنسانٍ لَدَيه مَيزاتٌ وصِفاتٌ أَودَعَها اللّـهُ فيه ، ومَهْما كَانَت بَسيطَةً ، فإنَّه يَجِبُ اكتِشافُها وتَقديرُها وعَدمُ التَّهاوُنِ بها . وكُلَّما اتَّسعَت ثَقافَتُنا ومَهارَتُنا ، نَستَطيعُ التَّعرُّفَ عَلَىٰ مَداخِلِ النُّفوسِ والنَّفاذَ للقُلُوبِ ، لنَستَخرجَ تِلكَ الإمْكاناتِ ونُفَعِّلَها ، لتَكُونَ الإفادَةَ من قُدُراتِ وإمْكاناتِ كُلِّ فَردٍ . وهو ما أَخذَت به الدُّوَلُ الحَديثَةُ في الوَقتِ المُعاصِر ونَجَحَت في ذَلكَ .

هَـٰذا المَنهجُ الذي سَـنَّه لَنا رَسُولُنا المُعلِّمُ الأوَّلُ ﷺ إنْ أخَذْنا به يَنهَض بنا إلَىٰ مُجتمَعٍ نامٍ وفَاعِلٍ ، فنَحصُلَ عَلَىٰ إنتاجِيَّةٍ مُفيدَةٍ وإبداعَاتٍ جَديدَةٍ .

ولا نَنسَىٰ :

أنَّ كُلَّ شَخصٍ مَهما كَانَ بَسيطاً فيه مَزايا حَسَنة تَستحِقُّ مِنَّا الاهتِمامَ والتَّقديرَ .

المطلَبُ التَّـاسِـعُ

الحِلْـمُ والعَفوُ والصَّفْحُ

إنَّ جَميعَ ما سَبقَ من صِفاتٍ نَبيلَةٍ رائعَةٍ ، حَـبَّاتُ لُؤلُؤٍ تتناغَمُ مُجتَمعَةً لتُشكِّلَ عِقداً فَريداً ، تزَيِّنُه وتَتوسَّطُه خِلالٌ أُخرَىٰ ، تَجمَعُ بمُجمَلِها وجَمالِـها تِلكَ الخِصَال كُلِّها ، ألا وهي صِفَةُ : العَفْو والصَّفْح ، التي لا يَستَطيعُها إلَّا الأنبياءُ ، والرَّبَّانيُّونَ الصِّدِّيقُونَ الذين كَبَحُوا جِماحَ نُفُوسِهم ، وأَلْجَمُوا هَواهَا بلِجَامِ الحِلْمِ والصَّبْرِ وسَعَةِ الصَّدرِ .

فالدَّاعيَةُ الذي يَهدِفُ إلَىٰ استِمالَةِ القُلُوبِ وهِدايَتِها هو الذي يَتجلَّىٰ فيه كَظمُ الغَيظِ وسَماحَةُ النَّفسِ ، وطِيبُ القَلبِ ، ورَحابَةُ الصَّدرِ ، والرُّويَةُ والأَناةُ في التَّصرُّفِ ، والتَّبصُّرُ بعَواقِبِ الأُمورِ ، والرَّحمَةُ بالجاهِلِ ، وذَاكَ هُو الحِلْـمُ .

وتِلكَ هي صِفاتُ القَلبِ الكَبيرِ التي تَأخُذُ بيَدِ صاحِبِها إلَىٰ العَفوِ والصَّفحِ والإحسانِ ، بَعيداً عن التَّربُّصِ والعِقَابِ وإثارَةِ الأَضْغانِ .

والعَفوُ والصَّفحُ مُتقارِبانِ في المَعنَىٰ ، فالعَفوُ هو عَدمُ الأخذِ بالعِقابِ لِـمَنْ يَستحِقُّه . والصَّفحُ يَعني التَّجاوُزَ عن الذَّنبِ بالكُليَّـةِ ، وإزالَةَ أثَرِه من النَّفسِ واعتِبارَهُ كأنَّه لَـمْ يَكُنْ ، وصَفَحَ عَنهُ ، أي : أَوْلاهُ صَفحَةً جَديدَةً جَميلَةً ، فالصَّفحُ أبلَغُ من العَفوِ فقَد يَعْفُو الإنسانُ ولا يَصفَح (١) .

---

(١) «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٧ ، في العفو ، ص ٢٨٨٩ ، و : ج٦ ، في الصفح ، ص ٢٥٣٠ .

والعَفوُ طَريقُ الصَّفحِ لنَيلِ الإحسَانِ يَقُولُ تَعالَىٰ : ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡ﴾ (١) ، وآيةٌ أُخرَىٰ : قَالَ تَعالَىٰ : ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ (٢) ، فالعَفوُ عن الزَّلَّاتِ والصَّفحُ عن الجُرمِ وعَدمُ المُؤاخَذَةِ بِه (٣) للوُصُولِ إلَىٰ الإحسَانِ هو أعلَىٰ دَرجاتِ الإيمانِ .

إنَّ سيرَةَ المُصطَفىٰ ﷺ كُلَّها آياتٌ بيِّناتٌ وأمثلَةٌ واضحَةٌ في تَأليفِ القُلُوبِ ، والتَّحبُّبِ إلَىٰ النُّفوسِ ، والصَّبرِ عَلَىٰ بَعضِ الأعْرابِ القُساةِ ، وتَطييبِ الخَواطِرِ ، وضَبطِ النَّفسِ ، والتَّسامي عن الانتصارِ لها (٤) . حِلمٌ آوَاهُم به إلَىٰ كَنَفِه بَعيداً عن الغَضَبِ والتَّشَفِّي والانتِقام أذْهَبَ به غَيظَ صُدورِهم . وسَماحَةٌ وعَفوٌ وصَفحٌ وَسِعَ النَّاسَ واستَمالَ به قُلُوبَهم ، مُتحَقِّقاً ومُتمَثِّلاً بقَولِه تَعالَىٰ : ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ (٥) .

وقد نَزلَت هَـٰذه الآية في أخلاقِ النَّاسِ ، قَالَ جَعفَرُ الصَّادقُ في تَفسيرِ هَـٰذه الآية (٦) : أمَرَ اللَّـهُ عَزَّ وجَلَّ نَبيَّه بمَكارِمِ الأخلَاقِ ، ولَيسَ في القُرآنِ آيَةٌ أجْمَع لمكارِمِ الأخلَاقِ من هَـٰذه . وتَعني : خُذ المَيسُورَ من أخْلاقِهم وأعمالِهم

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٣ .

(٢) سورة النور ، الآية : ٢٢ .

(٣) تفسير الخازن المسمى : «لباب التأويل في معاني التنزيل» ، للإمام علاء الدين البغدادي ، ومعه تفسير البغوي المسمى : «معالم التنزيل» ، للإمام الحسين البغوي ، ٢/ ٢٣٨ .

(٤) «مقومات الداعية الناجح» ، مرجع سابق ، ص ١١٥ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩ .

(٦) «تفسير الخازن» ، مرجع سابق ، ٢/ ٦٣٣-٦٣٤ ، و «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٧٤ ، و «هذا الحبيب يا محب» ، أبوبكر الجزائري ، مرجع سابق أيضًا ، ص ٣٤٠ .

وتَساهَل في ذَلكَ ، وأْمُرهُم بِما أمَرَكَ اللَّـهُ به وهو ما عَرفتَهُ من الوَحي ، واصْفَحْ عن الجَاهِلينَ وأعرِضْ عن زَلَّاتِهِم وارْضَ عَنهُم رِضاً لا مُؤاخَذَةَ فيه .

وفي رواية أُخرَىٰ لَـمَّا نزلَت هَـٰذه الآيَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ لجبريلَ : «**ما هَـٰذا؟**» ، قال : لا أدري حَتَّىٰ أسألَ العَليمَ الحَكيمَ ، ثُمَّ رَجعَ فقَالَ : إنَّ رَبَّكَ يَأمُرُكَ أنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وتَعفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، فكَانَ مَضْرِبَ المَثَلِ في التِزامِه بِتلكَ الخِصالِ التي جَمعَتْ أنبَلَ مَكارِمِ الأخلاقِ (١) .

إنَّ كَثيراً مِمَّن يُسمَّوْنَ أبطالُ العالَـم والمُهيمِنينَ عَليه لا يَعرفُونَ إلا قَطعَ الرُّؤُوسِ ، غَيرَ أنَّ سِيرَةَ وحَياةَ الرَّسُولِ ﷺ العَطِرَة في جَميع أطْوارِها على تِلكَ الصُّورَةِ المُشرقَةِ بلا استِثناءٍ ولا تَغييرٍ ، حَيثُ كَانَ يُقابِلُ عَداوَةَ أعدائِه ، وكَيدَهم له دائماً بالحِلم والصَّفحِ ، والعَفوِ والنُّصحِ . فما ثَأرَ من أحَدٍ أساءَ إلَيه في شَخصِه ، بلْ كَانَ يَعفُو ويَحلُمُ ، ويَصفَحُ في حَقِّ نَفسِهِ .

وكُلُّ حَليمٍ عُرِفَت منه زَلَّة ، وحُفِظَت عَنه هَفوَةٌ ، إلَّا رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ لا يَزيدُ مع كَثرَةِ الأذَىٰ إلَّا عفواً وصَفحاً ، وعَلَىٰ إسرافِ الجاهِلِ إلَّا صَبراً وحِلْماً ، وهَـٰذه من عَلاماتِ النُّبوَّةِ التي اختَبرَها أحبارُ اليَهُودِ في الرَّسُولِ ﷺ بعدَ أنْ انطَبقَتْ عليه جَميعُ صِفاتِ النُّبوَّةِ وعَلامَاتُها ، وبَقِيَ عَلامَتانِ أنْ يَسبِقَ حِلمُهُ غَضَبُه ، ولا يَزيدُهُ شِدَّةُ الجَهلِ عَليه إلَّا حِلْماً ، ولَـمَّا وَجدُوا ذَلكَ جَليَّـاً واضِحاً عند إساءَتِهِم له ، آمَنَ بَعضُهُم ولَـمْ يُؤمِنْ الآخَرُونَ حَسَداً واستِكبَاراً .

(١) المراجع السابقة .

ولا يجزي بالسَّـيِّئةِ السَّـيِّئةَ بَلْ يعفُو ويَصفَحُ . شَهِدَ له بذَلكَ ذَاكَ الأَعرابيُّ الذي جبَذَ الرَّسُولَ ﷺ من بُردِهِ جبذَةً أثَّرتْ حاشِيتُه في صَفحَةِ عُنُقِه قائلاً له : أَعطِنِي مِنْ مَالِ اللَّـهِ الذي عِندَكَ ، فإنَّكَ لا تَحمِلُ لي مِنْ مَالِكَ ولا مِنْ مَالِ أَبيكَ ، فلَمْ يزدْ أنْ قَالَ ﷺ لَه : «**الْـمَالُ مَالُ اللَّـهِ وأَنَا عَبْدُهُ**» ، ثُمَّ قَالَ : «**وَيُقَادُ مِنْكَ يَا أَعْرَابيُّ**» ، قَالَ : لا ، قَالَ : «**لِـمَ؟**» ، قَالَ : لأَنَّكَ لا تُكَافِئُ بالسَّـيِّئةِ السَّـيِّئةَ ، فضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ ثُمَّ أمَرَ أنْ يُحمَلَ له علَىٰ بعيرٍ شَعيرٌ وعلَىٰ الآخرِ تَمرٌ .

تَقُولُ السَّـيِّدَةُ «عائشَةُ» رضي الله عنها : مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ مُنْتَصِراً من مَظْلَمَةٍ ظُلِمَهَا قَطُّ مَا لَـمْ تَكُنْ حُرمَةً مِنْ مَحارِمِ اللَّـهِ .

وجِيءَ إليه برَجُلٍ ، فقِيلَ : هَـٰذا أرادَ أنْ يَقتُلَكَ ، فقَالَ له النَّبيُّ ﷺ : «**لَنْ تُرَاعَ .. لَنْ تُرَاعَ** (١) **، ولَوْ أَرَدْتَ ذَلِكَ لَـمْ تُسَلَّطْ عَلَيَّ**» (٢) .

إنَّه ذَنبٌ وأيُّما ذَنب بَلْ جريمَةٌ نكراءُ! ما يُسمَّىٰ اليَومَ في عُرفِ الدِّوَلِ الشُّرُوعُ في اغتِيالِ رَئيسِ الدَّولَةِ لتَهدِيم أركَانِها! ولَوْ قُوبلَ بها غيرُ مُحمَّدٍ ﷺ لأَرَاقَ أنهاراً من الدِّماءِ ، ولَوْ عاقبَه ﷺ لكَانَ مَعَه سُلطَانٌ من الأرضِ وسُلطَانٌ من السَّماءِ ، بَلْ عَلَىٰ العَكسِ نَجِدُ أنَّه ﷺ أعطَاهُ الأمَانَ ، وطَمأنَه بقَولِه : «**لَنْ تُرَاعَ**» .

وتكرَّرت حَوادِثُ إرادَةِ قَتلِه ﷺ أكثَرَ من مرَّةٍ ، مِنهُم مَنْ هَمَّ وكَشفَ

---

(١) أي : لا خَوْفَ عَلَيْكَ .

(٢) انظر في ذلك كله : «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٧٤-٧٧ .

اللَّـهُ لِرَسُولِه عَنهُم ، كَما مَرَّ مَعَنا في قِصَّةِ فَضَالَة ، ومِنهُم مَنْ شَرَعَ وأشْهَرَ سَيفَه كغَورَثِ الغَطَفانيِّ (١) ، الذي ستَمُرُّ قِصَّتُه مَعَنا لاحِقاً . وقد عَفَا عَنهُم أجمَعينَ .

فأيُّ رَئيسِ دَولَةٍ الآنَ يَعفُو عَنْ عَمليَّةِ اغتِيالٍ ، ويُعطِي أصحابَها الأمَانَ ويُطلِقُهُم؟ فما أعْجَبَ مَنْ يتَّهِمُ الرَّسُولَ ﷺ بالقَسوَةِ والعُنفِ والإرهَابِ؟!

وقِصَّةُ أبي سُفيانَ ومَوقِفُ الرَّسُولِ ﷺ منه خَيرُ شَاهِدٍ على ضَبطِ النَّفسِ والعَفوِ في أحسَنِ صُوَرِه (٢) :

أبو سُفيانَ الذي فَعلَ الأفاعِيلَ ، وأدمَىٰ قَلبَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ في أُحُدٍ ، وأوْغَرَ صَدرَ القَبائلِ عَلَيه ، فأقْبَلُوا أحْزَاباً مع قُرَيش يَومَ الخَندَقِ ، وعادَاهُ أكثَرَ من عَقدَيْنِ من الزَّمَنِ يُؤلِّبُ الجُيُوشَ عَلَيه ، ويُعِدُّ العُدَّةَ لذَلكَ ، ويُناصِرُ كُلَّ مَنْ يُعاديهِ ، سِيقَ به إلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ يَومَ الفَتحِ ، حَيثُ كَانَت لِرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وأصْحَابِه القُـوَّةُ والبَأسُ والمَنعَةِ ، ولأبي سُفيانَ وقُرَيشٍ الضَّعفُ والهَوانُ والذِّلَّةُ ، فماذا كَانَ منه ﷺ؟ هَلْ واجَهَهُ برُوحِ البَشَرِيَّةِ التي تُظهِرُ الشَّماتَةَ وحُبَّ الانتِقَام من العَدُوِّ في مِثلِ هَـٰذه المَواقِفِ؟ وهَلْ جَمعَ لَه كِبَارَ الصَّحابَةِ ليُذِلَّ كِبْرياءَ قُرَيشٍ في شَخصِ أكْبَرِ زُعَمائها وهو أبو سُفيانَ؟ وهَلْ ذَكَّرَهُ بعَداوَتِه للَّـهِ ولِرَسُولِه التي أمضَىٰ عُمرَهُ فيها؟! إنَّ العَدلَ البَشَريَّ هو قَتلُهُ ليُقِرَّ عَينَ المُسلِمينَ ويَخذُلَ المُشرِكِينَ ، ولَكن المُفاجَأةَ الرَّهيبَةَ صَعقَتْ أبا سُفيانَ ، فبَدَلَ التَّوبيخِ والإذْلالِ والتَّهديدِ بالقَتلِ ، عَفَا عَنهُ ﷺ ومَنحَهُ

(١) «هذا الحبيب يا محب» ، أبوبكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ١٩٤ .

(٢) «فقه السيرة النبوية» ، منير الغضبان ، مرجع سابق ، إسلام أبوسفيان ، ص ٥٦١-٥٦٦ ، وانظر في إسلامه رضي الله عنه : «الرحيق المختوم» ، مرجع سابق ، ص ٣٦٨ .

الأمَانَ ، ودَعاهُ إلىٰ الإسلام ، ولاطَفَهُ قائلًا : «**وَيْحَكَ يا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَـمْ يأنِ لَكَ أنْ تعلَمَ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّـهُ؟!**» .

لقَد اهتَزَّ كِيانُ أبي سُفيانَ وقَلبُه لهَٰذا المَوقِفِ ، وغَدَا خَلْقاً آخَرَ! فهُو لَيسَ أمَامَ قائدٍ خَصْم ، يُريدُ إبادَتَه وإبادَةَ قَوْمِهِ وإظهَارِ شَخصِهِ عَلَيهِم جَميعاً ، إنَّما هو أمَامَ سَيِّدِ أَهْلِ الأرض ، يَدعُوهُ إلىٰ الإسلام . لقَد كَانَت تَربيَةً نَفسيَّةً فَذَّةً عَظيمَةً من رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، فلَمْ يَتمالَكْ إلَّا أنْ يَقُولَ مَذْهُولاً : بأبي أنت وأُمِّي يا مُحَمَّدُ ما أَحلَمَكَ وأكْرَمَكَ وأَوْصَلَكَ ، وكَرَّرَها عِندَما دَعاهُ إلىٰ شَهادَةِ أنَّ مُحمَّداً رَسُولَ اللَّـهِ [1] ، لقَد غَدا أبو سُفيانَ يُفدِي أعدَىٰ العَدُوِّينَ بأبِيهِ وأُمِّهِ ، ويُثنِي عَلَيه بالخَيرِ كُلِّه بَعدَ أنْ كَانَ عَدُوّاً مُتمرِّداً .

فرَغمَ تاريخِهِ وعَدائِه الطَّويلِ لرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فقَد قَابَلَهُ ﷺ بالعَفوِ والصَّفحِ والإحسَانِ ، فانتَقلَ به من ظُلمَةِ الكُفرِ إلىٰ واحَةِ الإسلام . ثُمَّ زادَهُ بأنْ أعطاهُ مع العَفوِ ما يَفخَرُ به ويَعتَزُّ ، وقد عَلِمَ ﷺ حُبَّ أبي سُفيانَ لذَلِكَ ، فقَالَ لَه : «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ**» . فقَد كَانَت هِبَةُ الحَياةِ لَه كُلَّ الرَّجاءِ ، فإذَا الحَياةُ والجَاهُ يُوهَبُ لَه! وتِلكَ بَعضُ عَطايا مُحمَّدٍ ﷺ للمَقهُورِينَ من أعدائِه [2] ، حَيثُ يُنزِلُ النَّاسَ مَنازِلَهم ولا يَغبنُهم ما كَانوا عليه من قِيادَةٍ وسِيادَةٍ .

وقُرَيشُ التي بالَغَت في إيذاءِ الرَّسُولِ ﷺ والتَّصغيرِ من شَأنِه واضطِّهادِه ، وتَسبَّبت في مَرَضِ ومَوتِ أحَبِّ أزْواجِهِ إلَيه السَّيِّدَة خَديجَة بصَحيفَةِ المُقاطَعَةِ

(١) «نبي الهدى والرحمة» ، عبدالمجيد البيانوني ، مرجع سابق ، ص ٣٧٢ .
(٢) «بطل الأبطال» ، عبدالرحمن عزام ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .

الجائِرَةِ ، التي كَادَ يَهلَكُ فيها بَنُو هاشِم جَميعُهُم جُوعاً . وأَخْرَجَتْهُ من بَلَدِه وأَهْلِهِ وهي أَحَبُّ أَرْضِ اللَّـهِ إلَيه ، وذَلِكَ كُلُّه لا لِشَيءٍ إلَّا لأنَّه دَعاهُم إلَىٰ عِبادَةِ اللَّـهِ ، والتَّحلِّي بمَكارِمِ الأخلاقِ والفَضيلَةِ ، والتَّخلِّي عن عِبادَةِ الأصْنامِ والرَّذيلَةِ . فهَلْ عامَلَهُم ﷺ ببَشَرِيَّتِه يومَ الفَتحِ ، وكَانُوا يَتوَجَّسُونَ منه خِيفَةً أنْ يَثأرَ مِنهُم؟ ما كَانَ مِنهُ ﷺ إلَّا أنْ قَالَ لهم ـ بسَماحَةٍ تَفُوقُ الوَصْفَ ـ كَلمَتَهُ التي خَلَّدَها التَّاريخُ : «**اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءُ**» (١) . لقَد كَانَ ذَلكَ المَوقِفُ من أعظَمِ مَواقِفِ العَفوِ والصَّفحِ عن الجُناةِ بَعدَ القُدرَةِ عَلَيهِم والتَّمكُّنِ مِنهُم ، فضَرَبَ مَثلاً فَريداً بذَلكَ .

وعِندَما دَخلَ الرَّسُولُ ﷺ مَكَّةَ فَاتِحاً أَبَىٰ بَعضٌ من أبناءِ صَناديدِ كُفَّارِ قُرَيشٍ الذين قُتِلُوا في بَدرٍ ، أَبَوْا إلَّا قِتالاً ثَأراً لآبائِهِم فهُزِمُوا وفَرُّوا ، ثُمَّ استَأمَنُوا فأُمِّنُوا بَلْ وعُفِيَ عَنهُم .

فهَـٰذا صَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ بنُ خَلَف العَدُوُّ ابنُ العَدُوِّ يَفِرُّ إلَىٰ جِـدَّةَ ، ليُبحِرَ إلَىٰ اليَمَنِ ، ولكِنَّه لا يَلقَىٰ من برِّ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ أنْ يَعفُوَ عَنه فحَسْب! بَلْ يَبعَثُ عِمامَتَه التي فَتَح بها مَكَّةَ تَطميناً للهائِمِ عَلَىٰ وَجهِهِ إلَىٰ البَحرِ ، ثُمَّ إذَا مَا طَلَبَ من الرَّسُولِ ﷺ أنْ يَترُكَهُ شَهرَينِ ليَختارَ الإسلامَ أوْ الشِّرْكَ ، قَالَ له الرَّسُولُ ﷺ : «**بَلْ أَرْبَعَةً**» ، كَي لا يَقهرَهُ ويُذِلَّه (٢) ، ولِئَلَّا يَدخُلَ الإسلامَ مُجبَراً ، بَلْ يَكُونُ مَحضَ اختيارٍ منه ، فيَدخُلَ الإسلامَ حُرَّاً عَزيزاً .

---

(١) «سيدنا محمد نبي الرحمة ورسول الهدى» ، مرجع سابق ، ص ٤٨ بتصرف .

(٢) «محمد الإنسان الكامل» ، للسيد المالكي ، مرجع سابق ، ص ١٥٩-١٦٠ ، و «فقه السيرة النبوية» ، منير الغضبان ، مرجع سابق ، ص ٧١٠ ، و «بطل الأبطال» ، عبدالرحمن عزام ، مرجع سابق ، ص ٤٧ بتصرف .

فهَلْ نَجدُ لذَلكَ مَثيلاً في تاريخ البَشَريَّةِ في العَفوِ عِندَ المَقدرَةِ مِثلَما فَعلَهُ سَـيِّدُ البَشَريَّة؟ حَقّاً إنَّه سَادَ البَشَريَّةَ جمعاءَ بصِفاتِه ونُبلِه وخِصَالِه .

ولا نَنسَىٰ أبداً مُعامَلَته لعَبدِ اللَّـهِ بنِ أُبَيٍّ رَأسُ النِّفاقِ في المَدينَةِ (١) ، فقَد كَانَ مِثالًا مِنْ أمثِلَةِ الصَّفحِ الجَميلِ والإغْضَاءِ الحَسَنِ ، حَيثُ عاهَدَ هَـٰذا الرَّجُلُ المُنافِقُ وغَدرَ ، ثُمَّ عاهَدَ وغَدَرَ ، وعَاشَ مَا عَاشَ يَكيدُ للنَّبيِّ ﷺ في سِرِّهِ ويُمالِئُ عَلَيه أعداءَهُ . ولكنَّه ﷺ يتلطَّفُ به في حَياتِه ، ويَزيدُ بَعدَ مَوتِه في إفْضَالِه ، فقَد أعطَىٰ ﷺ قَميصَهُ الطَّاهِرَ لابنِه ليُكَفِّنَ به أبَاهُ ، وصَلَّىٰ عَلَيه مَيّتاً ، ووَقَفَ عَلَىٰ قَبرِه حتى فَرغَ من دَفنِه واستَغفَرَ لَه ، وقَالَ لعُمَرَ عِندَما حاوَلَ أنْ يُثنيَه عن ذَلكَ : **«إنِّي خُيِّرتُ فَاختَرتُ ، لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي إنْ زِدْتُ عَلَىٰ السَّبعِينَ غُفِرَ لَه ، لَزِدْتُ عَلَيْهَا»** (٢) .

إنَّها النَّفسُ العَظيمَةُ التي جُبلَت عَلَىٰ السَّماحَةِ والرَّحمَةِ والعَفوِ والصَّفحِ . فأحَبَّ أصْحابَهُ وأحبُّوهُ ، وهَلكَ مُبغِضُوهُ وشَانِئُوهُ ، فهَلْ نَجِدُ في تَاريخِ العُظَماءِ الفَاتِحينَ بَلْ في تاريخِ البَشَريَّةِ أجمَعينَ مِثلَ مُحمَّدٍ ﷺ سَـيِّداً مُنتَصِراً ظَافِراً مُؤيَّداً ، يُعطِي مَنْ حَرَمَه ، ويَعفُو عَمَّنْ ظَلَمَه ، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَه لِـمَنْ أسْرَفُوا في إيذائِه وهو قادِرٌ عَلَىٰ العِقَابِ!؟

هَـٰذه الصِّفاتُ الرَّائدَةُ من الخِصَالِ النَّفيسَةِ الحَميدَةِ العَاليَةِ الشَّأنِ ، إنْ

(١) «عبقرية محمد» ، عباس العقاد ، ص ٨٥-٨٦ ، بتصرف .

(٢) «السنن الكبرى» ، للإمام أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، أشرف عليه : شعيب الأرنؤوط ، حققه وخرج أحاديثه : حسن عبد المنعم شلبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م ، ج٢ ، كتاب الجنائز ـ الصلاة على المنافقين ، ص ٤٣٩ ، الحديث : ٢١٠٤ .

هي إلَّا مِرآةٌ تنعَكِسُ فيها أصْفَىٰ صُوَرُ النَّفسِ وأحسَنُها ، ويتجَلَّىٰ فيها سُمُوُّ مَقصِدِها ونُبلُها ، وبُعدُ غايَتِها والتَّرَفُّعُ عَن شَهواتِها .

ولَها فَوائِدُ وثَمراتُ نَقطِفُها في الدُّنْيـا والآخِرَةِ ، منها أنَّها :

١ـ يُحِبُّ اللَّـهُ صاحِبَها ويُحِبُّهُ النَّاسُ .

٢ـ مَعْلَمٌ من مَعالِـمِ حُسنِ الخُلُقِ وسَعَةِ الصَّدرِ، وتَرفَعُ صاحِبَها في الدُّنْيـا والآخِرَةِ .

٣ـ تُزيلُ أثَرَ الضَّغائنِ من النُّفوسِ .

٤ـ تُقَوِّي رابِطَةَ التَّآخي بَينَ أفرادِ المُجتَمَع ، وتَجعَلُهُم مُتحابِّينَ مُتَّحِدينَ .

٥ـ مِنْ مُستلزَماتِ الإحسَانِ والإحسَانُ أعلَىٰ درجاتِ الإيمانِ [1] .

٦ـ دَليلُ حُسنِ الإسلَامِ وكَمالِ الإيمَانِ وشَرَفِ النَّفسِ وعُلُوِّ هِمَّتِها .

٧ـ أمَانٌ من الفِتَنِ [2] ، إذْ تَمنَحُ المُجتَمَعَ الهُدوءَ والاستِقرارَ النَّفسيَّ .

٨ـ أمَرَ اللَّـهُ المُؤمنِينَ بالصَّفحِ حَتَّىٰ عَن ألَدِّ الأعداءِ ومن غَيرِ المُسلِمينَ ، ليَكُونَ طَريقَ نُورٍ وهِدايَةٍ لهم ، فيَرَوْا أخلاقَ وسَعَةَ الإسلَامِ ، ويَذُوقُوا حَلاوَةَ الإيمانِ ، فيَدخُلُوا فيه .

٩ـ تَجعَلُ الحِلمَ والعَفوَ والصَّفحَ فيه إمْهالٌ للمُخطِئينَ ، وتُعطِيهِم فُرصَةً ، وهو مِمَّا فيه صَلاحُ المُجتَمَعِ .

---

(١) البنود : ٣ـ ٤ ـ ٥ «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٦ ، الصفح ، ص ٢٥٣٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، «موسوعة نضرة النعيم» ، ج٧ ، العفو والغفران ، ص ٢٩١٠ .

إنَّ الدَّاعيَةَ الذي يَعمَلُ ليَقُودَ الخَلقَ إلَىٰ الحَقِّ لا بُدَّ أنْ يَكُونَ بَعيدَ النَّظرِ ، فلا تشُدُّهُ الأضْغَانُ ولا يَأسُرُهُ ثَأرُ النَّفسِ ، ولا يَنظُرُ إلَىٰ الوَراءِ فيَشغَلُهُ الماضي عن الحاضرِ ، بلْ يَكُونُ مُتطَلِّعاً إلَىٰ المُستَقبلِ لِـمَا فيه الصَّلاحُ والنَّفعُ العامُ ، مُتَسامياً عن هَوىٰ النَّفسِ والانتِصارِ لها ، أُسوَةً بما كَانَ عَليه قُدوَتُه ﷺ . لأنَّ الدَّاعيَةَ بمَسيرَتِه الدَّعَويَّةِ يَمُرُّ بأحداثٍ مُثيرَةٍ وأفعَالٍ مُستَفزَّةٍ ، لاختِلَافِ طَبائعِ النَّاسِ ومَواقِفِهم وهُمُومِهم وحَوائجِهم ، فإنْ قابَلَهُم بالحِلمِ والأنَاةِ والعَفوِ والصَّفحِ ، فذَاكَ مَعلَمٌ من مَعالِـمِ العَظمَةِ المَحمُودَةِ ، وإشاراتُ الكَمالِ العالي ، ودَلائلُ القُـوَّةِ في التَّحكُّمِ في النَّفسِ ، والقُدرَةِ علَىٰ إدارَةِ وضَبطِ الذَّاتِ .

فالدَّعوَةُ بأعبائها ورسالَتِها لا تَنهَضُ بالضِّعافِ الهُزَلاءِ ، بلْ بالأكِفَّاءِ الحُلَماءِ ، ولا تَأخُذُ طَريقَها إلَىٰ القُلُوبِ إلَّا بدُعاةٍ لهم صُدُورٌ رَحبَةٌ وسَماحَةٌ فَيَّاضَةٌ ، ذَوي بَصَرٍ وبَصيرَةٍ ، يَعفُونَ ويَصفَحُونَ بحِلمٍ تَنضَبِطُ به نُفُوسُهم ، ورَحمَةٍ تَملأُ قُلُوبَهم ، فتَفيضُ علَىٰ مَنْ حولَهم ، فيَلتَفُّونَ حَولَ الدَّاعيَةِ ، ويَستَمِعُونَ لَه ، فيَكسَبُهم ، ويَكُونُ سَبباً لهِدَايَتِهم وتَحويلِهم من الفَسادِ إلَىٰ الهُدَىٰ والصَّلاحِ ؛ لأنَّ الإنسَانَ بطَبعِه يَتأثَّرُ بالإحسَانِ ، وقَد قَالَ عزَّ وجَلَّ : ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (١) .

(١) سورة فصلت ، الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

المَبحَثُ الثَّـاني
ثَمراتُ الحُبِّ الذي غرسَهُ الرَّسُولُ مُحمَّدٌ ﷺ
تمهـــيدٌ

لقَد صَاغَ الرَّسُولُ ﷺ للإنسانيَّة مُجتمعاً نَمُوذَجيّـاً مُتميِّزاً ، وخَرَّجَ جِيلاً قيادِيَّـاً ذَا أخلَاقٍ عاليَةٍ وخِصَالٍ رَفيعَةٍ ، صادِقَ العَزيمَةِ عالي الهِمَّةِ ، يَجمَعُ أفرادَهُ الوُدّ والرَّحمَة .

ومَا ذَلكَ إلَّا بتَربيَةٍ أخلَاقيَّةٍ راسِخَةٍ وتَزكيَةٍ للنَّفسِ راقيَةٍ ، وإعدَادٍ وتَدريبٍ من مَدرسَةِ الحُبِّ النَّبويَّةِ . فقَد كَانَ مُحمَّدٌ ﷺ يُزكِّيهم ، ويُربِّيهِم ، ويَحثُّهُم على ذَلكَ بأحادِيثَ كَثيرَة ، ويُعلِّمُهم الكِتابَ والحِكمَةَ .

والنَّجاحُ الذي تَحقَّقَ على أيدي ذَاكَ الجيلِ هو نَجاحٌ لذَلكَ النَّوعِ من التَّربيَةِ النَّبويَّةِ الرائعَة . ولَوْ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ نَقلَ لنا أُمورَ الدِّينِ التَّطبيقيَّة ، والأحكَامَ الشَّرعيَّةَ برِسَالَةٍ خَاليَةٍ من رُوحِ الحُبِّ والعَطفِ والعِنايَةِ والرِّفقِ والرِّعايَة في التَّوجيهِ والتَّربيَةِ والإرشادِ لَـمْ تَقُمْ هَـٰذه الدَّولَة ، ولَـمْ يَتحقَّقْ لهَـٰذه الدَّعوَةِ النَّجاحُ ، ولَـمْ تُنتجْ هَـٰذه الثَّمراتِ .

ولا يَستَطيعُ باحِثٌ أنْ يُحيطَ بجَميعِ ثَمراتِ الحُبِّ الذي زَرعَهُ عليه الصلاة

والسلام في نُفوسِ أصحابِه، وكَم فُضِّلَ بذَلكَ عَلَىٰ الإنسانيَّةِ جَمعَاء. حَيثُ غَيَّرت دَعوَتُه وتَربيَتُه مَجرَىٰ التَّاريخِ الإنسانيِّ كُلِّه، سَنتَناوَلُ أبرَزَ ثَمراتِ التَّربيَةِ النَّـبَويَّة السَّـديدَة في سِـتَّةِ مَطالِب:

المطلَبُ الأوَّلُ : بِنَاءُ مُجتَمَعٍ نَمُوذَجيٍّ حَضاريٍّ

المطلَبُ الثَّـاني : نَقلُ مُجتمَعٍ صَغيرٍ لقِيادَةِ العَالَم

المطلَبُ الثَّـالِثُ : الحُبُّ والطَّـاعَـة

المطلَبُ الرَّابِـعُ : تَحويلُ الأعدَاءِ إلَىٰ دُعَـاةٍ

المطلَبُ الخَـامِسُ : بِنَـاءُ قَـادَةٍ مُمَيَّزين

المطلَبُ السَّـادِسُ : احترامُ غَيرِ المُسلِمينَ للرَّسُولِ ﷺ

المطلَبُ الأوَّل
بِنَـاءُ مُجتَمَعٍ نَمُوذَجيٍّ حَضاريٍّ

لا يُمكِنُنا مَعرفَةُ قيمَة التَّربيَةِ النَّـبَويَّة في بناءِ مُجتَمَع نَمُوذَجيٍّ حَضاريٍّ ما لَـمْ نَعرِفْ كيفَ كَانَ المُجتَمَعُ الجاهِليُّ قَبلَ الرَّسُولِ ﷺ .

نَشأ العَربُ في المُجتَمَعِ الجاهِليِّ عَلَىٰ الفرديَّةِ ، وتَربّوا عَلَىٰ الذَّاتيَّـة ، وعَلَىٰ الخُضُوعِ لرُوحِ القَبليَّة في أعْلَىٰ مُستَوياتِها الجَماعيَّة (١) ، فها هو دُرَيدُ بنُ الصُّمَّة يَفخَرُ بقَولِه :

ومَا أنَا إلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإنْ تَرشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

يَحكُمُهم الصِّراعُ القَبليُّ الذي يُحرِّكُ كُلَّ فَردٍ في القَبيلَةِ ، والطَّبقيَّةِ التي أخَذَتْ دَورَها بَينَ القَبائلِ ، وكأنَّ لسَانُ حالِهِم يَقُولُ :

فَغُضَّ الطَّـرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَـيْرٍ ... فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلَابَا (٢)

وحَتَّىٰ بين أفرادِ القَبيلَةِ الواحِدَة ..

وكَانَ العَربُ يَستَرِقُّونَ الأحرَارَ بحَدِّ السُّيوفِ في المَعارِكِ أو بالحِيلَةِ والغَدرِ ، ليَغدُوا عَبيداً أرِقَّاءَ ، يُسَاقُونَ إلى العَملِ الشَّاقِّ ، كَما تُساقُ البَهائمُ والشَّاءُ ، ويَحِقُّ لأسيادِهِم التَّصَرُّفَ بِهِم كَما يَحلُو لَهم (٣) .

(١) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، ٤- التربية القيادية ، ج١ ، منير الغضبان ، دار الوفاء ، ط١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ، ص ٥١٠ .

(٢) ملاحظة : هذا البيت للشاعر الأموي جرير ، شاعر من شعراء الدولة الأموية ، يصف الحال التي كانوا عليها .

(٣) «حاجات البشرية في رسالة النبي محمد ﷺ» ، إعداد البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ، مرجع سابق ، انظر : ص ٤٤ .

وكَانَ الفَردُ في ذَلكَ تابعاً لمُجتَمعِه يُفكِّرُ بتفكِيرِه ، ويَشعُرُ بشُعُورِه ، ويَتصَرَّفُ بعادَاتِه وسُلُوكِه ، لا تَتعَدَّىٰ اهتِماماتُه القَبيلَةَ ومَفاخِرَها ، وتجارَتُه السَّعيُّ علىٰ المَؤونَة ، وتَصَوُّرُ الوُجُودِ عِندَه : ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ (١) . يَدينُ بعِبادَةِ الأصنَامِ ولَه أرْبابٌ مُتعَدِّدَة ، فإنْ كَانَ ذَا مَالٍ وبَنينَ وحَسَبٍ ونَسَبٍ فهُو من السَّادَةِ ، وإنْ كَانَ صِفْرَ اليَدَينِ فهو مُجرَّدُ واحِدٍ من القَطيعِ .

والمصالحُ هي التي تَربطُ بين أفرادِ المجتَمَع ، بعَلاقاتٍ يَشُوبُها الهَوىٰ ، يَفخَرُ كُلُّ فَردٍ بأمْجادِه وبُطُولَتِه وغَاراتِ السَّلبِ والنَّهبِ ، ويَقرِضُ بذَلكَ شِعراً عَلَىٰ أنَّ ذَلكَ مُثُلٌ في مَكارِمِ الأخلَاقِ ، فهَـٰذا عَمرُو بنُ كُلثُومٍ يَقُولُ :

بُغَـاةٌ ظَالِمِينَ ومَا ظُلِمْـنا ... ولَكِـنَّا سَـنَبْدَأُ ظَالِمِينا

ويَجنَحُ الفَردُ أيضاً لإبرازِ ذَاتِه والتَّفاخُرِ بها ، ويَتغَنَّىٰ كُلٌّ بأمْجادِه ، فإذا تَقارَبَت الأهْواءُ كَانُوا صِحاباً ، وإذا تَباعَدَت كَانوا أعداءً ، هكَذا كَانَ دَيدَنُهُم جاهليَّةً في جاهليَّةٍ .

العَدلُ بين الأفرادِ والقَضاءُ عَلَىٰ التَّميِيزِ العُنصُريِّ :

في هَـٰذا المُجتَمَعِ الطَّبقيِّ المُشتَّت المُتَناحِر الذي يُفكِّرُ كُلُّ فَردٍ فيه بذَاتِه ، جاءَ رَسُولُ الهُدَىٰ والرَّحمَةِ إلَىٰ الوُجُودِ ، فأقامَ مُجتَمعاً فيه الرُّومِيُّ والفارسيُّ والعَربيُّ والمَوْلَىٰ والعَبدُ والمَرأةُ ، وجَعلَهُم في صَفٍّ واحِدٍ ، وكَيانٍ واحِدٍ وانصِهارٍ واحدٍ (٢) ، وكَوَّنَ منهم مُجتَمعاً جَديداً ، وأنشَأ مَشاعِرَ من لَونٍ

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .

(٢) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، التربية القيادية ، منير الغضبان ، مرجع سابق ١/ ٥١١ .

جَديدٍ ، فعَاشَ هَـٰذا المُجتمَعُ حَياةً ذَابَت فيه الفَوارِقُ الطَّبقيَّةُ . والتَحَمَ أفرادُ هَـٰذا المُجتمَع بالحُبِّ ، فالحُبُّ عُنصُرٌ سَريعُ التَّلاحُم شَديدُ الالتِصاقِ ، ممَّا جَعلَ هَـٰذا المُجتمَع بُنيَةً مَتينَةً واحدَةً ، فحَوَّلَ المُجتمَعَ الجاهليَّ من مُجتَمعٍ مُتفكِّكٍ ، لا رَابطَ ولا ضَابطَ فيه [1] ، تَعلُوهُ الفَوْضىٰ في التَّصوُّرِ ، وفي العِبادَةِ وفي المَشاعِرِ ، وفي العَلاقاتِ الاجتِماعيَّة إلَىٰ مُجتمَعٍ مُتماسِكٍ ، عِمادُهُ المحبَّـةُ ، وقِوامُه الأُخُوَّةُ .

وقَد كَانَ ﷺ رَسُولُ الإنسانيَّة ، والآيَةُ البَشَريَّةُ الكَونيَّةُ الكُبرَىٰ ، مُبدِعاً بتَربيَتِه ، يُدرِكُ ـ بما أدَّبَه رَبُّه فأحسَنَ تَأديبَه ـ أنَّ الرَّحمَةَ والمَودَّةَ والإخاءَ هي وَحدَها التي يُمكِنُ أنْ يَكُونَ عَلَيها البِناءُ الحَيُّ القَويُّ المُتماسِكِ ، فوَجَّه عِنايَته للقُلُوبِ ، ليُقِيمَ الوَشائجَ بينها برِباطِ البَشَريَّةِ المُقدَّسِ ، ألا وهُو رِباطُ الحُبِّ ، الذي يَجعَلُ أصحابَ هَـٰذه القُلوبِ تَتجاذَبُ نَحوَ بَعضِها كَما تَتجاذَبُ الذَّرَّاتُ لبناءِ الكَوْنِ ، وعِندَما تَفقِدُ هَـٰذه القُلُوبُ ذَاكَ الرِّباطَ الذي يَشُدُّ بَعضَها إلَىٰ بَعضٍ فإنَّها تَتنافَرُ وتَتناثَرُ [2] .

فدَعَّمَ المودَّةَ والصَّداقَةَ بَينَ أصحَابِه جَميعاً المُهاجِرينَ والأنْصارِ ، فكَانَت الرَّابطَةُ هي الأُخُوَّةُ والتَّآخِي بين الأفرادِ ، عَمَلاً بقَولِه تَعالَىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾ [3] ، فكَانَت أُخُوَّةً عامَّةً ، تَجمَعُ بين أفرادِ المُجتمَع المُسلِم ، ومُؤاخاةٌ خاصَّةٌ بالمودَّةِ والصَّفاءِ ، تَتجَلَّىٰ بأعلَىٰ مَراتبِ الأُلفَةِ ، أنشأَها الرَّسُولُ ﷺ بين أصحَابِه ، ليُقيمَ مُجتمَعاً مُتَماسِكاً حَصيناً ، ويَبنِيَ دَولَةً قَويَّةً ، عِمادُها الحُبُّ والإخاءُ .

---

(١) «منهج التربية النبوية» ، محمد قطب ٢/ ٣٣-٤١ .

(٢) «قبسات من الرسول» ، محمد قطب ، دار الشروق ، ط٨ ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص ١١٥-١١٧ ، بتصرف .

(٣) سورة الحجرات ، الآية : ١٠ .

وقَد جَرت هَـٰذه المُؤاخاةُ مرَّتَينِ كَما قَالَ القُسطلَّانيُّ : الأُولَىٰ : بَينَ المُهاجرينَ بمَكَّةَ ، والثَّانيَةُ : بَينَهم وبَينَ الأنْصارِ في المَدينَةِ [1] ، حَيثُ آخَىٰ ﷺ فيها بَينَ كُلِّ صَحابيٍّ وآخر عَلَىٰ اختِلَافِ أعْراقِهم ومَشارِبِهم ، كَالمُؤاخاةِ بَينَ عَمِّهِ الحَسيبِ النَّسيبِ حَمزَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ومَوْلاهُ زَيدُ بنُ حارِثَة .

وكَانَت هَـٰذه الأُخُوَّةُ والمُؤاخاةُ تَقدُّماً فِكريَّاً حَضارياً من الرَّسُولِ ﷺ لَـمْ يَسبِقْهُ إليه أحَدٌ في الجَزيرَةِ العَربيَّةِ ولا غَيرِها ، وهي أسَاسُ الأُمَّةِ الإسلاميَّة ، وأسَاسُ النَّصرِ في كُلِّ مَواقِعِ الإسلامِ فيما بَعدُ .

وقَد كَانَت تَربيَةً قَويمَةً من سَيِّدِ الحُكَماءِ ﷺ بتَوجِيهٍ من خَالِقِ الأكْوانِ ، فكَانَ لها الأثَرُ الكَبيرُ في :

١ـ إذَابَةِ العَصَبيَّاتِ الجَاهليَّةِ ، فَلا حَميَّةَ إلَّا حَميَّةُ الإسلَامِ .

٢ـ زِيادَةِ الأُلفَةِ ، وتَقويَةِ التَّضافُرِ والتَّناصُرِ .

٣ـ جَعلِ النَّزعَةِ الإنسانيَّةِ الفَرديَّةِ في خِدمَةِ الجَماعَةِ . فالإنسانُ لَه نَزعَةٌ فَرديَّةٌ ذَاتيَّةٌ ، ونَزعَةٌ جَماعيَّةٌ غَيريَّةٌ ، ولا بُدَّ أنْ تَعمَلا مَعاً ليَتكامَلَ كَيانُه ، وعَلَىٰ الرغم من أهَميَّةِ التَّربيَةِ الفَرديَّة فإنَّها وَحدَها لا تُنشِئُ كَياناً سَوياً للإنسانِ ، بلْ تُعزِّزُ فيه (الأنَا) الذي يَمنَعُهُ من التَّعايُش مع الآخَرينَ ، فهُناكَ جَوانبُ من النَّفسِ البَشريَّة لا تَنضُجُ ولا تَعمَلُ إلَّا داخِلَ أفرادٍ آخَرينَ غَيرَ ذَاتِ الإنسانِ نَفسِه ، فإذَا لَـمْ يَتعوَّدْ عَلَىٰ التَّعامُلِ مَعهم فستَظلُّ هَـٰذه الجَوانبُ كامِنَةً مُعطَّلَةً ، وتَنكَمِشُ شَيئاً فشَيئاً ، فكَانَ هَـٰذا الإخاءُ الجَديدُ الذي

(١) «أدب الدنيا والدين» ، لأبي الحسن البصري الماوردي ، دار الفكر ، بدون سنة طباعة ، ص ١٦٢ .

يَربطُه بهَؤلاء الأُخُوَّةُ في اللَّـهِ ورَسُولِه إخَاءُ الإيمانِ ، وصارَ كُلُّ واحدٍ منهم يُحبُّ أخاهُ كَنفسِه ، ويُشرِكُه في مَالِه وأهْلِه ، ولا هُو مِنْ قَبيلَتِه ولا بَينَهُما آصِرَةُ دَمٍ (١) .

٤ـ المُحافَظةُ عَلَىٰ كَيانِ الأُمَّةِ ، فرابطَةُ الأُخُوَّةِ بين أفرادِ المُجتمَع المُسلِم لها أَهميَّتُها الكُبرَىٰ في المُحافَظَةِ عَلَىٰ كَيانِه من الانْهيارِ ، فلا أنانيَةَ فيه ، وإنَّما جَسَدٌ واحِدٌ ، وأُمَّةٌ واحِدَةٌ (٢) .

وقَد كَانَ المُربِّي الأعظَمُ مُحمَّدٌ ﷺ يَتولَّىٰ أصحابَه بالرِّعايَةِ ، ويُقوِّمُ مَنْ يَحتاجُ في نَفسِه إلَىٰ تَقويم ، ويَلحَظُهُم بالحُبِّ و الرِّفقِ والعِنايَةِ ، فمُلِئَت قُلُوبُهم بحُبِّ اللَّـهِ ورَسُولِه ، والتَقَوا جَميعُهُم عَلَىٰ هَـٰذا الحُبِّ تَتعانَقُ الأرواحُ ، وتَلتَقي الأفئدَةُ ، فكَانَ مُجتَمعاً حضاريّاً نَموذَجيّاً ، اجتمَعَ أفرادُه عَلَىٰ وَحدَةِ العَقيدَةِ ، ورابطَةِ العَقيدَةِ التي تَربِطُ بين الفَردِ والفَردِ ما لا يَربطُه النَّسبُ والقَرابَةُ ، حُبٌّ واحِدٌ يَملأُ بَشاشَةَ قُلُوبِهم ، ألا وهُو حُبُّ اللَّـهِ ورَسُولِه ، وهَدفٌ واحدٌ رِضا اللَّـهِ ورَسُولِه .

إنْهاءُ العَداوَاتِ الدَّاخِليَّة :

لقَد عالَجَ ﷺ في هَـٰذا المجتمَع الجَديد العَصبيَّةَ القبليَّة ، وأنْهىٰ العَداواتِ الدَّاخليَّة السَّائدَةَ كتِلكَ التي كَانَت بَينَ الأوْس والخَزرَج عَلَىٰ مَدَىٰ سِنينَ طَويلَة ، وأعلَنَ بَراءتَه منها ، وقبَّحَها بقَولِه : «**دَعُوهَا فَإنَّها مُنْتِنَةٌ**» (٣) .

(١) «منهج التربية الإسلامية» ، محمد قطب ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٣٨ - ٤٠ .
(٢) «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، اللجنة التربوية ، مرجع سابق ٢/ ٨٧ .
(٣) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب التفسير ، ص ٨٩٥ ، رقم الحديث : ٤٩٠٥ .

وصَحَّحَ بَعضَ المَفاهيم الجاهليَّةِ ، وأرسَىٰ مَفاهيمَ جَديدَة لِـما كَانَ سَائداً بَينَهم ، فشِعارُ أنْ يَنصُرَ الفَرْدُ أخاهُ ظَالِـماً أو مَظلُوماً أبقاهُ ﷺ ولكنَّه وَسَّعَ مَفهُومَ النَّصرِ ، بأنْ أوضَحَ لَهم مَعنَىٰ أنْ يَنصُرَهُ ظَالِـماً أي يَأخُذَ عَلَىٰ يَديهِ ، فيَرُدَّهُ عن ظُلمِه (١) ، ونَصرُه عَلَىٰ نَفسِه وشَيطانِه وعَلَىٰ عَصبيَّتِه ، ومَظلُوماً أي عَونُه ومُناصَرتُه ولَوْ كَانَ من غَيرِ قَبيلَتِه أو عَشيرَتِه .

فأُخُوَّةُ الإسلَامِ هي المِيزانُ التي يُوزَنُ بها الأشخاصُ والأعرافُ (٢) .

وعِندَما خاصَمَ أحَدُ الصَّحابَة آخر ، وتَفلَّتَ لِسانُه وعَيَّرَه بأنَّه ابنُ السَّوداءِ ، قَالَ لَه ﷺ : «**إنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**» (٣) ، أي : فِيكَ خَصلَةٌ وبقيَّةٌ من جاهِليَّةٍ بَغيضَةٍ ، ألا وهي التَّفاخُرُ والاستِعلاءُ وتَنقيصُ الآخَرِ .

لَقَد تَربَّىٰ الصَّحابَةُ رضي الله عنهم تَحتَ سَمعِ وبَصرِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، فكَانُوا لَبِناتِ ذَاكَ المُجتَمَع الذي كَانَ خَيرَ القُرُونِ .

فلا فَضلَ لأحَدٍ إلَّا بقَدرِ إيمانِه وخَشيَتِه للَّـهِ تَعالَىٰ (٤) ، وتَقواهُ ونَفعِه لمجتَمعِه .

ولا تَمييزَ أو مَزايا لجِنسٍ بَشريٍّ عَلَىٰ آخَر ، فالنَّاسُ جَميعاً كَأسْنانِ المشطِ

(١) الحديث ومعناه في «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب المظالم والغصب ، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلوماً : ص ٤٢٠ ، الحديث رقم : ٢٤٤٣- ٢٤٤٤ .

(٢) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» سلسلة التربية القيادية ، مرجع سابق ، ٣/ ٤٦٨-٤٦٩ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب : باب ما ينهى عنه من السباب واللعن ، ص ١٠٨٩ ، رقم الحديث : ٦٠٥٠ ، والقصة عن الصحابيين الجليلين أبوذر الغفاري وبلال الحبشي رضي الله عنهما .

(٤) «حاجات البشرية في رسالة النبي محمد ﷺ» ، إعداد البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ، مرجع سابق ، انظر : ص ٤٣ .

سَواسيَةٌ ، وكُلُّهم مُتساوُونَ في أصلِ الخِلقَةِ ، فلَيسَ هُناكَ سَيِّدٌ ولا مَسُودٌ ، ولا حُرٌّ ولا عَبدٌ ، إنَّما أُخُوَّةٌ لها حُقوقُها وتَبعاتُها وتكاليفُها .

فمِنْ صُلبِ العَقيدَةِ وحَقيقَةِ الإيمانِ أنَّه لا يُؤمِنُ المَرءُ حَتَّىٰ يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنَفسِه ، وأنْ يَلقَىٰ أخاهُ بوَجْهٍ طَلقٍ ، ولا غدرَ ولا خَديعَةَ ، ولا مَكرَ ولا ضَغينَةَ بينَهم ، فانفَتَحتْ مَغاليقُ النُّفوسِ ، ووَصلَتْ الرِّسالَةُ المُحمَّديَّةُ إلَىٰ أغْوارِ القُلُوبِ لتَرتَبطَ هَـٰذه القُلُوبُ مع بَعضِها بالحُبِّ .

وقدَّمَ بذلكَ سَيِّدُنا مُحمَّد ﷺ للبَشَريَّةِ النَّمُوذَجَ المُتكامِلَ في الأُخُوَّةِ بين بَني البَشَرِ ، وغَدا المُجتَمعُ نَسيجاً واحِداً ، فاستَبدلَت العَشيرَةَ بالأُمَّةِ ، والشَّتاتَ بالوَحدَةِ ، والتَّنافُرَ بالأُلفَةِ ، والانتِماءُ والوَلاءُ للَّـهِ ورَسُولِه وبِهما التَّفاضُلُ بين الأفرادِ ، فعُمَرُ العَدويُّ القُرَشيُّ يَقُولُ بحُبٍّ وتَواضُعٍ جَمٍّ عن بِلَالٍ الحَبَشيِّ ، مَوْلَىٰ أبي بَكْر رَضِيَ اللهُ عَنهُم : أبو بَكْرٍ سَيِّدُنا وأعتَقَ سَيِّدَنا (١) ، فلا نَزعَةٌ لقَبيلَةٍ أو تَحيُّزَ للَوْنٍ أو جِنسٍ أو عِرقٍ .

ما أحوَجَنا كَمُسلِمينَ في الوَقتِ الحَالي لوَحدَةٍ إسلاميَّةٍ حَقيقيَّةٍ ، عَبرَ العَودَةِ لمَنهَجِ نَبيِّنا ﷺ فلا يَنصَلِحُ أمرُ هَـٰذه الأُمَّةِ إلَّا بما انصَلَحَ به أوَّلُها ، فنَتآخَىٰ مع بَعضِنا ، ولا تُفرِّقُنا عَصبيَّاتٌ إقليميَّةٌ ولا قَبليَّةٌ ولا قَوميَّةٌ ، أو حِزبيَّةٌ أو مَذهَبيَّةٌ ، والتي طالَـما أسهَمَت في إفْشَالِ مَشاريعِ الوَحدَةِ السَّابقَة .

فالخَالِقُ واحِدٌ ، والرَّسُولُ واحِدٌ ، والكِتابُ واحِدٌ ، والرِّسالَةُ واحِدَةٌ .

---

(١) «صحيح البخاري» ، باب مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنهُما ، رقم : ٣٧٥٤ .

ونتَذكَّرُ كيفَ تبرَّأ ﷺ من هَـٰذه الدَّعاوىٰ الجاهليَّة ، بقولِه : «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعا إلَىٰ عَصَبيَّةٍ ، ولَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَىٰ عَصَبيَّةٍ ، ولَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَىٰ عَصَبيَّةٍ» (١) ، «دَعُوهَا فإنَّها مُنْتِنَةٌ» (٢) .

هَـٰذا ما نَشأ عَلَيه المُجتمَعُ الأوَّلُ ، فكَانَت نَقلَةً عَظيمَةً من مُحمَّدٍ ﷺ نَقلَ إليها العَربَ ، تِلكَ هي ثَمرَةُ التَّربيَةِ النَّبَويَّة للرَّعيلِ الأوَّلِ ، فكَانَ مُجتمَعاً نَمُوذَجيّاً حَضاريّاً ـ رُوحاً واحِدَةً في أجسَامٍ مُتعَدِّدَةٍ ، وقَلبٌ واحِدٌ يَنبِضُ في أكثَرِ من كَيانٍ ـ يَرنُو إلَىٰ العَلياءِ ، فهَدَىٰ بنُورِه أصْقَاعَ الأرضِ .

(١) «سنن أبي داود» ، سليمان بن الأشعث أبوداود السجستاني ، حققه وضبطه : شعيب الأنؤوط ، محمد كامل قرة بللي ، عبد اللطيف حرز اللّـه ، دار الرسالة العالمية - دمشق - الطبعة الأولى ، طبعة خاصة ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م ، ج٧ ، كتاب الأدب ، ص ٤٤١ ، الحديث رقم : ٥١٢١ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب التفسير ، ص ٨٩٥ ، رقم الحديث : ٤٩٠٥ .

المطلَبُ الثَّـاني

نَقلُ مُجتمَعٍ صَغيرٍ لِقيادَةِ العَالَـم

إنَّ نَواةَ المُجتمَعِ الذي تَربَّىٰ عَلَىٰ يَدِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ورَشفَ من رَحيقِ النُّبوَّةِ كانَ الحَلقةَ الأُولَىٰ من ثَمرَةِ التَّربيَةِ النَّبَويَّة، هَـٰذه الجَماعةُ المُسلمَةُ مارَسَت مَسؤُوليَّتَها فيما بعد، وأشرَفَت عَلَىٰ تكوينِ الأجيالِ الجَديدَة، وبناءِ المُجتمَعِ الإسلَامي الذي انصَهرَت فيه الأُمَمُ لا الأفرادُ، في بَوتَقةٍ واحِدَةٍ هي بَوتَقةُ الإسلَام (١).

وقادَ هَـٰذا المُجتمَعُ الأُمَمَ والشُّعوبَ اجتماعيًّـاً وسياسيًّاً وعَسكريًّاً وإداريًّاً وتَربَويًّاً وخُلُقيًّاً وعَمليًّاً وعِلمِيًّاً، وأصبحَ هَؤلاءِ العَربُ الجُفَاةُ المُتنابِذُونَ ـ الذين كَانُوا رُعاةَ الإبلِ والشَّاةِ وصِغارِ التُّجَّارِ في مَكَّةَ، والفَلَّاحُونَ في المَدينَةِ ـ في غُضونِ جِيلٍ واحدٍ رُسُلَ الحَضارَةِ والنِّظامِ للعَالَـمِ أجمَع، وحلَّتْ العَقيدَةُ السَّمحَةُ مَكانَ عَلاقَةِ الدَّمِ، فامْتَلأت القُلُوبُ حُـبّاً وسَلاماً، بَعدَ أنْ كَانَت مَلآىٰ بُغضاً ونِزاعاً.

ولَـمْ تَكُن تِلكَ الفَوارِقُ الاجتماعيَّةُ والمادِّيَّةُ والعِرقيَّةُ والنِّزاعاتُ الإقليميَّةُ التي مَرَّت مَعنا سابقاً في جَزيرَةِ العَربِ فحَسْب (٢)، بلْ كَانَ هَـٰذا حالُ العالَـمِ من حَولِهِم آنذاكَ.

وقد كَانَ أثرُ هَـٰذه الدَّعوَةِ من الناحيَةِ الاجتماعيَّةِ في شَعْبٍ لَـمْ يَكُنْ يَصلُحُ

---

(١) «المنهج التربوي للسيرة النبوية»، سلسلة التربية القيادية، ج١، مرجع سابق، ص ٥١١.

(٢) «حاجات البشرية في رسالة النبي محمد ﷺ»، مرجع سابق، ص ٤٣.

لشَيءٍ ، فأصبَحَ في بِضعِ سِنينَ صَالحاً لحَملِ الرِّسالَةِ ، التي وَصلَت إلىٰ أطرافِ المَشرِقِ والمَغرِبِ في سِنينَ قَليلَةٍ مَعدُودَةٍ .

فكَانَ لهٰذه الدَّعوَةِ وتلكَ التَّربيَةِ الأثَرُ البارِزُ السَّريعُ في تَغييرِ تِلكَ الأُمَّةِ تَغييراً شَامِلاً حاسِماً ، بحَيثُ أصبحَت شَيئاً آخَرَ ، تِلكَ هي الأُمَّةُ العَربيَّةُ التي نَشأت فيها الدَّعوَةُ (١) فسادَتْ ، وقادَتْ ، وكَانَت أُمَّةً سامِقَةً بينَ الأُمَمِ .

ولَيسَ نَجاحُ الفُتُوحاتِ وانتِشارُ الدَّعوَةِ إلَّا أثراً لسِحرِها في تَغييرِ النُّفوسِ ، وتَوجيهِها للخَيرِ . ولولا رجالٌ أعَدَّتهُم المَدرَسَةُ المُحمَّديَّةُ لإرشَادِ البَشَرِ وقيادَتِه للمُثُلِ العُليَا لَـما تَجاوَزَ الفَتحُ الإسلاميُّ الجَزيرَةَ العَربيَّةِ ، ولَذَهَبَت آثارُهُ بانتِقَالِ الرَّسُولِ ﷺ إلىٰ الرَّفيقِ الأعْلَىٰ وارْتِدادِ الأعْرابِ .

ولكِنَّ الشَّبابَ الذين طَبعَتهُم الدَّعوَةُ بطابَعِها ، استَمرُّوا يَفيضُونَ عَلَىٰ جِيلِهِم ما أُودِعُوا من فَيضِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَىٰ مَدَىٰ سِنينَ طَويلَة (٢) . كُلَّما احتاجَت الدَّعوَةُ إلىٰ واحِدٍ منهُم وَجدَتْهُ مُهَيَّأً للإمَارَةِ عَلَىٰ النَّاسِ من كُلِّ الأجْناسِ .

نَشرُ الرَّحمَةِ عَلَىٰ المُجتمَعِ الإنْسَانيِّ :

لقَد انتَشَر الإسلامُ بالحُبِّ والعَقلِ ، لا بالسَّيفِ والقَتلِ ، وانتَشرَتْ الرَّحمَةُ الشَّامِلَةُ عَلَىٰ المُجتمَعِ الإنسانيِّ . وكَانَ للدَّعوَةِ المُحمَّديَّةِ أثَرُها من ناحيَةِ التَّوحِيدِ

(١) «بطل الأبطال» ، عبد الرحمن عزام ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .
(٢) «بطل الأبطال» ، عبد الرحمن عزام ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ ، بتصرف .

والتَّحريرِ ، فانتَقلَ ذَلكَ المُجتمَعُ من جَوْرِ الأديانِ إلَىٰ رَحمَةِ وعَدلِ الإسلَامِ . وارتَاحَت الشُّعُوبُ ، واطمَأنَّت بَعدَ طُولِ عَناءٍ واستِعبادٍ وظُلمٍ وكَدٍّ وجَهدٍ .

وذَلكَ لِـمَا رَأتْ من الدَّعوَةِ إلَىٰ الأُخُوَّةِ والتَّسامُحِ والتَّعاوُنِ والتَّساوِي بَينَ بَنِي البَشَرِ وطِيبِ التَّعامُلِ ـ بِغَضِّ النَّظرِ عَمَّـا يَدينُونَ فَلا إكْراهَ في الدِّينِ ـ ونَشرِ الحُبِّ والعَدلِ . إذْ أنَّ الصُّورَةَ الظَّاهِرَةَ واللَّونَ والعِرقَ كُلُّها لا وُجُودَ لها في التَّميُّزِ أو التَّفاضُلِ أبداً ، وانتَهَت عِبادَةُ الذَّاتِ البَشَرِيَّةِ لتَحِلَّ مَحلَّها عِبادَةُ الذَّاتِ الإلهيَّة .

وكَانَ الجِيلُ المُحمَّديُّ الرَّائدُ ، جِيلاً فَرِيداً أُهِّلَ لإنقاذِ البَشَرِيَّةِ وبناءِ الحَضارَةِ وقِيادَةِ الإنسانيَّةِ ، في خَيرِ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ ، أُمَّةٌ تَركَت بَصَماتِها عَلَىٰ التَّاريخِ كُلِّه من بَعدِها ، وتَركَتْ فيه آثاراً مُضيئَةً لا تَزُولُ .

المطلَبُ الثَّالث
الحُبُّ والطَّـاعَـة

كَانَ في رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ من صِفاتِ العَظمَةِ ما يُحبِّبُ فيه أتْباعَهُ حُـبّاً عَظيماً، يُغيظُ قُريشاً، يُثيرُ عَجبَها بَلْ وحَسدَها، وقَد سَجَّلَ التَّاريخُ أقْوَالاً بذَلكَ في أكثَرِ من مَوضِعِ، فهاهُو أبو سُفيانَ يَقُولُ حانِقاً ـ قَبلَ إسلامِه ـ: «مَا رَأيْتُ أحداً يُحِـبُّهُ النَّاسُ كَحُبِّ أصحَابِ مُحَمَّدٍ مُحمَّداً!».

وكان في النَّبيِّ ﷺ من صِفاتِ القِيادَةِ والزَّعامَةِ ما يَجعَلُهُ مُطاعَ الأمْرِ بَينَ أتْباعِه بغَيرِ سُلطَانٍ إلَّا سُلطَان الحُبِّ الخالِصِ والإعْجابِ العَميقِ.

وإنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ لَشَخصيَّة مُحبَّبة في ذاتِها، فقَد صَنعَهُ اللَّـهُ عَلَىٰ عَينِه، وجَعلَه أكْمَلَ صُورَةٍ للبَشَرِ في تاريخِ الأرضِ (١)، هَـٰذه المحَبَّـةُ جَعلَت كَثيراً من النَّاسِ يُؤمِنُونَ بمُحمَّدٍ لمحَبَّتِهم له واطمِئنانِهم إلَيه، فكَانَت سابِقَةً في قُلُوبِهم وأرْواحِهم لحُبِّ العَقيدَةِ والإيمانِ (٢).

وكَانَ يَجتَمعُ في شَخصِ الرَّسُولِ ﷺ الإنسانُ العَظيمُ والرَّسُولُ العَظيمُ، ويَتغَلغَلُ في حِسِّ المُؤمنِ حُبُّ هَـٰذا العَظيم، كَما يَرتَبطُ حُبُّ اللَّـهِ بحُبِّ رَسُولِه، ويَمتَزجانِ جَميعاً في نَفسِه، ويُصبِحانِ في شُعُورِه مِحوَرَ الحَركَةِ

---

(١) «منهج التربية الإسلامية»، محمد قطب، ج٢، مرجع سابق، ص ٤٥-٥٠ بتصرف، وانظر: «عبقرية محمد»، عباس محمد العقاد، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٢) «عبقرية محمد»، عباس محمد العقاد، مرجع سابق، ص ٨٣.

الشُّعوريَّةِ والسُّلُوكيَّةِ كُلِّها ، هَـٰذا الحُبُّ هو مِفتَاحُ التَّربيَةِ الإسلاميَّةِ ومُنطَلَقُها الذي تَنطَلِقُ مِنهُ (١) .

وقد كَانَ ﷺ شَديدَ الاهتِمامِ بِهم ، يَرعَىٰ كُلَّ واحدٍ مِنهُم كأنَّما هو صَديقُهُ الأوْحَدُ ، أو صاحِبُهُ الأثِيرُ عِندَه . ويَمنَحُهُم من الحُبِّ ما تَقرُّ به نُفُوسُهُم ، فيَطمَئِنُّونَ عَلَىٰ مَكانَتِهِم عِندَه ، مِمَّا جَعلَهُ إمامَهُم ومُعلِّمَهُم وقُدوَتَهُم في سُلُوكِهِم وهادِيَهُم إلَىٰ الصِّراطِ المُستَقيم .

لأنَّ المُتلَقِّي إذَا لَـمْ يَشعُرْ أنَّ مُربيهِ يُحِبُّه ، ويُحِبُّ لَه الخَيرَ فلَنْ يُقبِلَ عَلَىٰ التَّلقِّي منه ولوْ أيقَنَ أنَّ عِندَهُ الخَيرَ كُلَّه .

فكَانَ من ثَمراتِ الحُبِّ الذي مَنحَهُم إيَّاهُ أنْ بادَلُوهُ الحُبَّ بأقصَىٰ ما تَستَطيعُ نُفُوسُهم الصَّافيَةُ ، فأحَبُّوهُ وأحَبُّوا دِينَه ، وغَدا هَواهُم تبَعاً لِـمَا جاءَ به ، وتَحابُّوا فيما بَينَهُم بحُبِّهِم للَّـهِ ورَسُولِه .

وأحاطُوا النَّبيَّ ﷺ بالحُبِّ والتَّبجيلِ والتَّوقيرِ والتَّعظيمِ ودِقَّةِ الأدَبِ التي لَـمْ يَكُنْ للعَربِ بها أيُّ دِرايَة مع أيِّ كَبيرٍ من كُبَرائِهِم . وهَـٰذا ما أثَارَ عَجبَ عُروَةَ بنِ مَسْعُودٍ الثَّقفي ، ونَطقَ به لِسَانُه لأصْحابه من المُشرِكينَ عِندَما رَجعَ من مُفاوَضَةِ الرَّسُولِ ﷺ في صُلح الحُدَيبيَةِ ، لِـمَا رَأىٰ بعَينه من تَقديرِهِم وتَعظيمِهِم لَه ، فعادَ إلَىٰ قُريشٍ يَقُولُ لهم : يَا مَعشَرَ قُرَيش إنِّي قَد جِئتُ كِسْرَىٰ في مُلكِهِ ، وقَيْصَرَ ، والنَّجاشيَّ ، وإنِّي واللَّـهِ ما رَأيتُ مَلِكاً

(١) «منهج التربية الإسلامية» ، محمد قطب ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٣٤ ، بتصرف .

في قَوم قَطُّ ، مِثلَ مُحمَّدٍ في أصحَابِه ، وإذا تكلَّمَ خَفضُوا أصوَاتَهُم عِندَه ، وما يُحدُّونَ إليه النَّظرَ تعظيماً له (١) .

فكَانَ من مَظاهِرِ حُبِّهم له ﷺ أُمُورٌ عِدَّةٌ ، منها :

١ـ إعْـلَانُ هَـٰذا الحُبِّ :

(أ) تَعْبيرُهم عن حُبِّهم وشُعورهم الفَـيَّاضُ قَـوْلاً :

فهَـٰذا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ للنَّبيِّ ﷺ : «لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفسي» ، وعَمْرُو بنُ العَاصِ رضي الله عنه يَقُولُ : «مَا كَانَ أحَدٌ أحَبَّ إِلَيَّ من رَسُولِ اللَّـهِ» ، وأبُو بَكْرٍ رضي الله عنه قَالَ للرَّسُولِ ﷺ : «والذي بَعثَكَ بالحَقِّ لإسْلَام أبي طَالِبٍ كَانَ أقَرَّ لعَينِي من إسلَامِهِ (٢) ، وذَلكَ أَنَّ إسلَامَ أبي طَالِبٍ كَانَ أقَرَّ لِعَينِكَ» ، ونَحوُه من قَولِ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ للعَـبَّاسِ رضي الله عنهما : «أَنْ تُسلِمَ أحبُّ إِلَيَّ مِنْ أنْ يُسلِمَ الخَطَّابُ لأنَّ ذَلكَ أحَبُّ إلَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ» (٣) .

وتِلكَ المَرأةُ الأنْصاريَّةُ التي قُتِلَ أبُوها وأخُوها وزَوجُها يَومَ أُحُدٍ مع رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، فقَالَت : ما فَعلَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ؟ قَالُوا : «هُوَ بخَيرٍ كَما تُحبِّينَ» ، قَالَت : «أَرِنيهِ حَتَّىٰ أَنظُرَ إليه» ، فَلمَّـا رَأتهُ ، قَالَت : «كُلُّ مُصيبَةٍ بَعدَكَ جَلَلٌ» ، أي : لا قيمة لها .

---

(١) «خاتم النبيين» ، محمد أبوزهرة ، مرجع سابق ، المجلد الثاني ، ص ٨٤٧ ، وانظر : «نبي الهدى والرحمة» ، عبد المجيد البيانوني ، مرجع سابق ، ص ٥١٣ .

(٢) يعني أباه أبا قحافة ، وذلك عندما أتىٰ أبو قحافة مع ابنه أبي بكر رضي الله عنه ليُسلِمَ بين يدي النَّبيِّ ﷺ .

(٣) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، فصل فيما روي عن السلف من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم إليه ، ص ٢٤٠ .

وعِندَما سُئلَ عَليٌّ بنُ أبي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنهُ كيف كَانَ حُبُّكم لرَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: «كَانَ واللَّـهِ أحَبَّ إلَيْنَا مِنْ أمْوَالِنا وأوْلَادِنَا وآبَائِنا وأُمَّهاتِنا ومِنْ المَاءِ البَارِدِ عَلَىٰ الظَّمأ» (١).

(ب) تَعْبيرُهم عن مَشاعِرِهِم وحُبِّهم عَملاً:

ففِي غزوَةِ بَدرٍ عَدَّلَ رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ صُفُوفَ المُسلمينَ .. وفي يَدِه قِدْحٌ (٢) يُعَدِّلُ به القَومَ، فمَرَّ بسَوَّادِ بنِ غزيَّة، وهو مُستَنصِلٌ من الصَّفِّ، فطَعنَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ في بَطنِه بالقِدْح، وقَالَ: «اسْتَوِ يا سَوَّادُ»، فقَالَ سَوَّادُ: يا رَسُولَ اللَّـهِ أوْجَعتَنِي، وقد بَعثَكَ اللَّـهُ بالحَقِّ والعَدلِ فأقِدْنِي، فكَشَفَ رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عن بَطنِه وقَالَ: «**اسْتَقِدْ**»، فاعتنقَهُ سَوَّادُ وقَبَّلَ بَطنَهُ، فقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ هَـٰذا يا سَوَّادُ؟**» قَالَ: «يا رَسُولَ اللَّـهِ حَضَرَ مَا تَرَىٰ، فَأَرَدتُ أنْ يَكُونَ آخِرَ العَهْدِ بِكَ أنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ»، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بِخَيرٍ (٣).

أيُّ عَلاقَةٍ عَجيبَةٍ حَميمَةٍ تِلكَ التي تَربِطُ القَائدَ الأَعْلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بجُنُودِه وصَحابَتِه وأتْباعِه؟

أيُّ حُبٍّ وعاطِفَةٍ ورِقَّةٍ؟ وأيَّةُ وَحشَةٍ تِلكَ التي رَوَّعَتْ سَوَّادَ؟ ألَّا يَمَسَّ جَسدَ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بَعدَ تِلكَ اللَّحظَةِ!؟

بلْ مَنْ هُو سَوَّادُ بنُ غَزيَّةَ هَـٰذا مِنْ بَينِ صَحابَتِه الكِرامِ حَتَّىٰ يَطلُبَ أنْ

---

(١) انظر في ذلك كله: كتاب «الشفا»، للقاضي عياض، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

(٢) سَهمٌ.

(٣) «خاتم النبيين»، محمد أبوزهرة، المجلد الثاني، مرجع سابق، ص ٦٣٥.

يَقتَصَّ من رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ؟ فيَكشِفُ لَه عن بَطنِه الشَّرِيفَة ليَقتَصَّ الجُندِيُّ من القَائدِ؟!

إنَّنا لا نَلمَحُ اسمَ سَوَّادٍ في كُتب السِّيرَةِ إلَّا في هَـٰذا المَوقفِ، فلَيسَ هو إذاً من كِبارِ الصَّحابَةِ، ولَيسَ له طُولُ الصُّحبَةِ مع النَّبيِّ ﷺ، غَيرَ أنَّها عَلاقَةٌ عَجيبَةٌ تَجمَعُ بَينَ القائدِ الأعظَم وبَينَ أصغَرِ فَردٍ في صُفُوفِ المُسلِمينَ، وحُبٌّ جارِفٌ يَجعَلُ الجُنديَّ يُعطِّلُ تَعديلَ الصُّفُوفِ في أوجِ ساعاتِ الحَرجِ والشِّدَّةِ والاستِعدادِ للقاءِ العَدوِّ، ليُعَبِّرَ فيها عن حُبِّه وعاطِفَتِه الجيَّاشَةِ تجاهَ النَّبيِّ ﷺ فيَضُمَّهُ إلَيه ويُقبِّلَه .. إنَّها عَلاقَةٌ ولاشَكَّ قائمَةٌ على الحُبِّ والعاطِفَةِ والشَّوْقِ والرَّحمَةِ، قِوامُها الإيمانُ القَويُّ من الأتْباعِ، والعَدلُ المُطلَقُ والتَّواضُعُ الجَمُّ من المَتبُوعِ.

وكَانَ لا يُغنِي عَنهُم وقد لازَمُوهُ في الحَياةِ أنْ يَطمَئنُّوا، ويَثِقُوا مِنْ مُلازَمَتِهِم إيَّاهُ بَعدَ المَماتِ. وثَوْبانُ أحَدُهُم، فقَد نَحُلَ جِسمُه واصفَرَّ لَونُه! خَوفاً وفَرَقاً من عَدمِ رُؤيَةِ الرَّسُولِ ﷺ في الآخِرَةِ لِمَقَامِ النُّبوَّةِ العالي، فنزَلَت الآيَةُ الكَرِيمَةُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (١)، وما فَرِحَ الصَّحابَةُ رضي الله عنهم بشَيءٍ أشَدَّ فَرَحاً بقَولِ النَّبيِّ ﷺ لصَحابيٍّ آخر: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**» (٢).

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) «صحيح البخاري»، مرجع سابق، كتاب فضائل أصحاب النَّبيِّ ﷺ، ص ٦٤٧، الحديث رقم: ٣٦٨٨، وانظر: «تفسير الخازن مع البغوي»، مرجع سابق، ج٢، سورة النساء، ص ١٠٩-١١٠.

٢ـ الطَّـاعَةُ والاتِّبَـاع :

ارتبَطَ الحُبُّ بالطَّاعَةِ والامتِثالِ، يَقولُ اللَّـهُ تَعالَىٰ : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ (١) . والمُحِبُّ لِـمَنْ أحَبَّ مُطيعُ .

ففي غَزوَةِ بَدرٍ عِندَما أرادَ الرَّسُولُ ﷺ أنْ يَطمَئِنَّ إلى حُسنِ استِعدادِ أصحابِه الأنْصار للقِتال، قَالَ ﷺ : «**أَشِيرُوا عليَّ أيُّها النَّاسُ**»، فقَالَ سَعدُ بنُ مُعاذ : واللَّـهِ لكأنَّكَ تُريدُنا يا رَسُولَ اللَّـهِ؟ قَالَ : «**أَجَلْ**»، فقَالَ سَعدُ : «لَقَد آمَنَّا بِكَ وصَدَّقنَاكَ، وأعْطَينَاكَ عَلَىٰ ذَلكَ السَّمعَ والطَّاعَةَ، فامْضِ يا رَسُولَ اللَّـهِ فنَحنُ مَعَكَ، فوالذي بَعثَكَ بالحَقِّ لَو استَعرَضْتَ بنا هَـٰذا البَحرَ، فخُضتَهُ لخُضنَاهُ مَعَك، ما تخَلَّفَ مِنَّا رَجلٌ واحِدٌ، .. فسِرْ بنا عَلَىٰ بَركَةِ اللَّـهِ» . فسُرَّ بقَولِه ﷺ وقَالَ : «**سِيرُوا وأَبْشِرُوا..**» (٢) .

وعن الطَّاعَةِ في أحلَكِ الظُّروفِ والمَواقِفِ يُخبِرُنا حُذَيْفَةُ بنُ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَمّا حدثَ في غَزوَةِ الخَندَقِ، فيَقُولُ : صَلَّىٰ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ هَوِيّاً من اللَّيل، ثُمَّ التَفتَ إلَينا فقَالَ : «**مَن رَجُلٌ يَقُومُ فيَنْظُرُ لَنا ما فَعَلَ القَوْمُ ثُمَّ يَرجِعُ** (٣) **أَسْأَلُ اللَّـهَ تَعالَىٰ أنْ يَكُونَ رَفِيقِي في الجَـنَّةِ؟**»، فَما قَامَ رَجُلٌ من القَوم من شِدَّةِ الخَوفِ، وشِدَّةِ الجُوعِ، وشِدَّةِ البَردِ، فلَمَّـا لَـمْ يَقُمْ أحدٌ دَعَاني رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ فلَمْ يَكُنْ لي بُدٌّ من القِيَامِ حِينَ دَعاني..! (٤) .

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ٣١ .

(٢) «خاتم النبيين»، محمد أبوزهرة، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ٦٢٢ .

(٣) فقد ضَمنَ له رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ الرَّجعَةَ .

(٤) «هذا الحبيب يا محب»، أبوبكر الجزائري، مرجع سابق، ص ٢٠٤ .

وإذا تأمَّلنا السِّيرَةَ فإنَّنا نلمَحُ الوَلاءَ التَّامَّ والجُنديَّةَ الصَّادِقَةَ والتَّفاني في الطَّاعَةِ عِندَ أصْحاب رَسُولِ اللَّـهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في جميعِ شُؤونِهِم حَتَّىٰ في أدَقِّ الأُمُورِ. فقَد أعطَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّايَةَ يومَ خَيْبَرَ عَليَّ بنَ أبي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقَالَ لَه: «**امْشِ، وَلا تَلْتَفِتْ حَتَّىٰ يَفتَحَ اللَّـهُ عَلَيْكَ**» فسَارَ عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَيئاً ثُمَّ وَقفَ، ولَـمْ يَلتَفِتْ، فصَرخَ: يا رَسُولَ اللَّـهِ عَلَىٰ ماذا أُقاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُمْ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّـهُ وأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّـهِ**»(١). فلَمْ يَنسَ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّـهِ امْشِ ولا تَلتَفِتْ، ولَـمَّا احتَاجَ أنْ يَسألَه عن شَيءٍ مُهِمٍّ وَقفَ، وسَألَ ولَـمْ يَلتَفِتْ(٢). وذَلكَ يَدلُّ على دِقَّةِ الطَّاعَةِ وشِدَّةِ الاتِّبَاعِ.

هؤُلاء هُم صَحابَةُ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَماذجُ من التَّربيَةِ النَّبَويَّةِ الإيمانيَّة الرائعَةِ، صَقلَها الحُبُّ والطَّاعَةُ.

٣ـ الخُرُوجُ عن أهْوَاءِ النَّفسِ:

يُعَدُّ تَحريمُ الخَمرِ نَمُوذَجاً جَليَّاً للخُروجِ عن الأهْوَاءِ وشَهَواتِ النَّفسِ والتَّخلِّي عن السُّلُوكِ السَّلبيِّ فوراً وبِلَا أدنَىٰ تَرَدُّدٍ.

فقَد كَانَ العَربُ قَبلَ الإسلَامِ مُولَعينَ بشُربِ الخَمرِ والاهتِمامِ بها والتَّغنِّي بها في أشْعارِهِم، حَتَّىٰ قَالَ شَاعِرُهُم:

إذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إلَىٰ جَنْبِ كَرْمَةٍ ... تَرْوِي عِظَامِي بَعدَمَوْتِي عُرُوقُهَا

(١) «صحيح مسلم»، ج٤، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ص ١٨٧١-١٨٧٢، رقم: ٢٤٠٥.

(٢) «نبي الهدى والرحمة»، د. عبد المجيد البيانوني، مرجع سابق، ص ٥١١.

فلمَّا نزلَ تَحريمُ الخَمرِ أرسَلَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ مُنادِياً يُنادِي في طُرُقاتِ المَدينَةِ : «أيُّها النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ الخَمرَ قد حُرِّمَتْ» . وكَانَت كَلمَةً واحِدَةً كافيَةً للامتِثال والطَّاعَةِ .. فقد رَوَوْا عن أنفُسِهِم هَـٰذا ، قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِك : كُنتُ أَسقِي أبَا عُبَيدَةَ وأبَا طَلحَةَ وأُبَيَّ بنَ كَعبٍ ، فجاءَهُم آتٍ فقَالَ : إنَّ الخَمرَ قَد حُرِّمَت ، فقَالَ أبُو طَلحَة : قُم يا أَنَسُ فأَهْرِقْهَا فهرَقتُها ، وفي رِوايَةٍ أُخرَى : أَكْفِئْها فكَفَئتُها [(١)] . ومَنْ كَانَ في فَمِه شَربَةٌ قَذفَ بها ولَـمْ يَبلَعْها ، وقَالُوا : «انتَهَيْنا ... انتَهَيْنا» . وقَامَ كُلُّ واحدٍ إلَىٰ ما كَانَ في بَيتِه من زُقاقِ خَمرٍ فأرَاقَها في الطَّريقِ ، حَتَّىٰ بَقيَت طُرُقاتُ المدينَةِ أيَّاماً يُشتَمُّ منها رائحَةُ الخَمرِ .

حقّاً لَـمْ يَشهَدْ تَاريخُ الأُمَمِ والشُّعُوبِ على امتِدادِ التَّاريخ حَدثاً تَربَويّاً يَعدِلُ هَـٰذا الحَدثَ ، في مَدىٰ الالتِزامِ بالنَّصِّ في عادَةٍ مُستأصِلَةٍ مُتغَلغِلَةٍ في أعماقِ وحَنايا النَّفسِ البَشَريَّةِ [(٢)] .

وهل باعِثُ هَـٰذا الامتثالُ الكامِلُ إلَّا الحُبُّ للَّـهِ ولرَسُولِه!

وما نَراهُ اليَومَ من دِوَلٍ مُتحَضِّرةٍ تَبذُلُ جَهدَها ، وتَضعُ القَوانينَ الصَّارمَةَ في مُقاوَمَةِ السُّكرِ ـ الذي يُؤدِّي إلَىٰ القَتلِ والاغتِصابِ والحَوادِثِ ـ حِفاظاً عَلَىٰ

---

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الأشربة ، باب تحريم الخمر ، ص ١٠٢٣ ، رقم الأحاديث : ٥٥٨٢-٥٥٨٣ .

(٢) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، سلسلة التربية القيادية ، منير الغضبان ، ج٣ ، مرجع سابق ، ص ٢٢٢-٢٢٣ ، وانظر : «تفسير الخازن والبغوي» ، مرجع سابق ، ٢/ ٣١٧-٣١٨ ، آية تحريم الخمر ، رقم ٩٠-٩١ ، وانظر : «منهج التربية الإسلامية» ، محمد قطب ، ٢/ ٧٦ ، وانظر : «منهج الإسلام في تزكية النفس وأثره في الدعوة إلى اللَّـه تعالَىٰ» ، د. أنس أحمد كرزون ، دار نور المكتبات ، دار ابن حزم ، ط٤ ، عام ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ، ص ٦١٣-٦١٤ .

مُواطِنيها ، فلا يَكُونُ من جَهدِها إلَّا زِيادَةَ الثَّملينَ وإزهاقَ الأرواحِ ودَمارَ المُجتمَعِ .

وآيَةُ الإيثارِ في القُرآنِ الكَريم : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (١) ، ما هي إلَّا خُروجٌ عن هَوَىٰ النَّفسِ ومُشتَهياتِها ، والانتِصارُ عَلَيها ، وإيثارُ غَيرِها وتَفضيله عَلَيها مع شِدَّةِ حاجَتِها! وهَـٰذا يُمثِّلُ أَعْلَىٰ دَرَجاتِ الحُبِّ ، حُبُّ اللَّـهِ ورَسُولِه .

٤ـ التَّضحِيَةُ والفِـداءُ :

عِندَما خَرجَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ إلَىٰ الطَّائفِ ، لنَشرِ الدَّعوَةِ الإسلاميَّة خارِجَ مَكَّةَ كَانَ مَعه زَيْدُ بنُ حارِثَةَ ، فكَذَّبه أهلُها ، وأَغرُوا به ﷺ سُفَهاءَهُم وعَبيدَهُم وصِبيانَهُم ، ووَقَفُوا لَه صَفَّينِ يَرمُونَهُ ﷺ بالحِجارَةِ حَتَّىٰ اختَضَبَ نَعلاهُ بالدِّماءِ ، فكَانَ زَيْدُ بنُ حارِثَةَ يُحاوِلُ ـ عبثاً ـ أنْ يَقيَهُ بنَفسِه حَتَّىٰ أصابَتهُ شَجَّةٌ مُنكَرَةٌ في رَأسِه .. (٢) ، وقد بادَلَه ﷺ هَـٰذا الحُبَّ العَجيبَ بحُبٍّ أَقْوَىٰ منه وإيثَارٍ ، فقَد كَانَ اسمُ زَيدٍ حِبَّ رَسُولِ اللَّـهِ ، واسمُ ابنِه أُسامَةَ «الحِبُّ ابنُ الحِبِّ» .

وفي غَزوَةِ أُحُدٍ عِندَما خَالَفَ الرُّماةُ أمرَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، والتَفَّ المُشرِكُونَ من وَراءِ جَبلِ أُحُد يُريدُونَ قَتلَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، كَانَ من أمرِ صَحابَةِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ أيضاً العَجَبُ العُجابُ!

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ٩ .

(٢) «فقه السيرة» ، محمد الغزالي ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

يَقُولُ أبُو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : كُنتُ أوَّلَ مَنْ فَاءَ إلَىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكَانَ طَلحَةُ يُقاتِلُ عَنه ويحميهِ ، فلَمْ أنْشَبْ أنْ أدرَكَني أبُو عُبَيدَة بنُ الجرَّاح يشتَدُّ كأنَّه طيرٌ حتَّىٰ لحِقَني ، وقد رُمِيَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وَجنَتِه ، حتَّىٰ غابت حلقتانِ من حِلَقِ المِغْفَرِ في وَجنَتِه ، فذَهبتُ لأنْزعَهُما عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقَالَ أبُو عُبيدَة : «نَشَدتُكَ باللَّـهِ يا أبَا بَكْرٍ إلَّا تَركتَنِي» . قَالَ : فأخَذَهُ بفِيه ، فجَعلَ ينضِضُهُ كَراهِيَةَ أنْ يُؤذِي رَسُولَ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ثُمَّ استلَّ السَّهْمَ بفِيه فندرَتْ ثنيَّـةُ أبي عُبيدَة ، قالَ أبُو بكْر : ثُمَّ ذَهبتُ لآخُذَ الأُخرَىٰ فقَالَ أبُو عُبيدَة : «نَشَدتُكَ باللَّـهِ يا أبَا بَكرٍ إلَّا تَركتَنِي» ، قَالَ : فأخَذه فجَعلَ ينضِضُهُ حتَّىٰ استلَّه ، فندرَتْ ثنيَّـةُ أبي عُبيدَة الأُخرَىٰ .. (١)!

أيُّ حُبٍّ يحمِلُهُ في جوانِحه ذاكَ الأسَدُ الهَصُورُ حتَّىٰ جعلَهُ يُضحِّي بثنيَّـتَيهِ مُستَعذِباً ألَـمه؟!

وهـٰذا قَـتَادَةُ بنُ النُّعمَـانِ ، صَحابيٌّ آخر يَقُولُ عَن نَفسِه في تِلكَ الغَزوَةِ : «كُنتُ نَصبَ وَجهِ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أقِي وَجهَ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوَجْهِي ، فكَانَ آخِرُها سَهماً نَدرَت منه حَدقَتِي بكَفِّي ، فسَعيتُ بها إلَىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلمَّـا رَآهَا دمَعَت عيناهُ ، فقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**اللَّهُمَّ إنَّ قَـتَادَةَ قد أوْجَهَ نبـيَّكَ بوَجْهِهِ ، فاجْعَلْهَا أحْسَنَ عَيْنَيْهِ ، وأحَدَّهُما نظَرَاً**» . فكَانَت أحسَنَ عَينَيهِ وأحدَّهُما نظَرَاً .

وأبُو دُجَانَة ذاكَ الصَّحابيُّ الذي كَانَ يَقِي ظَهْرَ رَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بظهرِه ، حتَّىٰ امْتلأَ ظَهرُهُ سِهَاماً وكَثُرَ فيه النَّبْلُ .

---

(١) «الرحيق المختوم» ، صفي الرحمن المباركفوري ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

حَتَّىٰ النِّساءُ كَانَ لَـهُنَّ قَسَمٌ من هَـٰذا الحُبِّ والفِداءِ! فقَد كَانَت الصَّحابيَّةُ الجَليلَةُ أُمُّ عِمَـارَةَ «نسيبةُ المازنيَّـة» في ذَاكَ المَوقِفِ العَصيبِ تَذُبُّ عن رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ بالسَّيفِ، حَتَّىٰ خَلُصَتْ إِلَيها الجِراحُ، وأُصِيبَت بعاتِقِها بجرحٍ أجْوَف له غَورٌ [1] .

حقاً لقد كَانَ ذَلكَ من خَوارِقِ الحُبِّ والتَّفاني والإِيثَارِ والتَّضحِيَةِ بالنَّفس . فقَد افْتَدَوهُ بأرواحِهِم ومُهَجِهِم ، حُبَّاً وطَاعَةً وفِداءً ، لَـمْ يُسمَعْ بمِثلِ ذَلكَ من قَبلُ ولا من بَعدُ!

وهَـٰذه حادثَةٌ أُخرَىٰ تَنِمُّ عن عَظيمِ حُـبِّه في قُلُوبِهم :

لَـمَّا أَخرجَ المُشرِكُونَ خُبَيْبَ بنَ عَدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الحَرَمِ وقد هَـمُّوا بقَتله ، اقتَربَ منه أحَدُ زُعماءِ قُريش ، وقَالَ له : «أتُحِبُّ أنَّ مُحمَّداً مَكانَك ، وأنت مُعافَىً في أهلِكَ؟» فانتَفَضَ خُبَيْبُ كالإعْصارِ ، وصَاحَ قَائلاً : «واللَّـهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي في أَهْلي ووَلَدِي ، مَعِي عَافِيَـةُ الدُّنْيـا ونَعيمُها ، ويُصَابُ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ بشَوْكَةٍ» ، ذَات الكَلماتِ العَظيمَة الشَّاهِقَة التي قَالها صاحِبُه زَيْدُ بنُ الدَّثِنَّـة ، وهم يَهمُّونَ بقَتلِه قبلَ يَوم! إنّها نَفسُ الكَلماتِ البَاهِرَةِ الرائعَةِ الصَّادِعَةِ يَقُولُها خُبَيْبُ الآنَ .. ممَّا جَعلَ أبَا سُفيانَ ـ وكَانَ لَـمْ يُسلِمْ بَعدُ ـ يَضرِبُ كَفَّـاً بكَفٍّ مَشدُوهاً ، ويُطلِقُ مَقُولَتَه التي اشتَهرَت فيما بَعد : «واللَّـهِ مَا رَأيتُ أحداً يُحِبُّ أحَداً كَما يُحِبُّ أصْحَابُ مُحمَّدٍ مُحمَّداً»! [2] .

(١) «فقه السيرة النبوية» ، منير محمد الغضبان ، ص ٤٦٦-٤٦٧ .

(٢) «رجال حول الرسول» ، خالد محمد خالد ، مرجع سابق ، سيرة خبيب بن عدي ، ص ٣٧٣- ٣٧٤ .

المطلَبُ الرَّابع
تَحـويلُ الأعدَاءِ إلَىٰ دُعَـاةٍ

اكتَسبَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ حُبَّ النَّاسِ بما تَميَّزَت به أخلاَقُه ، واجتَذَبَ قُلُوبَهم بنُبلِ أفعالِه وصِفاتِه ، من رِفْقٍ وكَرمٍ وحِلمٍ وتَجاوُزٍ . فنَقلَ أعدَىٰ أعدائِه بذَلكَ من دَياجيرِ الكُفرِ والغَدرِ إلى رِحابِ الدِّينِ وكَريمِ الصِّفاتِ والنُّبلِ ، بلْ وجَعلَهُم دُعاةً للإسلامِ .

نَذكُرُ من ذَلكَ مُعامَلةَ النَّبيِّ ﷺ لأسرَىٰ بَدرٍ ، فقَد كَانَت تَحفُّها الرَّحمَةُ التي فُطِرَ عَليها ، واللُّطفِ والرِّفقِ والكَرَمِ .

وهَـٰذا جانبٌ من المنهَجِ النَّبَويِّ الكَريمِ وأهدافِ الدَّعوَةِ.. فقَد أوْصَىٰ بإكرامِ الأسرَىٰ كَما مَرَّ مَعنا في الحَديثِ عن الرِّفقِ في المبحَثِ الأوَّلِ من هَـٰذا الفَصلِ ـ وكَانَ لهَـٰذه التَّوصِيَةِ النَّـبَويَّة الكَريمَةِ أثَرٌ تَحدَّثَ به الأَسرَىٰ فيما بَعدُ :

فهَـٰذا أبُو عَزيز بنُ عُمَير أخُو مُصعَب بن عُمَير يُحـدِّثُ عَمَّـا رَأىٰ فيَقُولُ : كُنتُ في الأَسرَىٰ يومَ بَدرٍ ، فقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**اسْتَوْصُوا بالأُسَارَىٰ خَيْراً**» ، وكُنتُ في نَفرٍ من الأنصارِ ، فكَانُوا إذا قَدَّمُوا غداءَهُم وعَشاءَهُم أكلُوا التَّمرَ ، وأطعَمُوني البُرَّ ، لوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ (١) .

وهَـٰذا أبُو العَاصِ بنُ الرَّبيع يُحدِّثُنا فيَقُولُ : كُنتُ في رَهطٍ من الأنصَارِ جَزاهُم اللَّـهُ خيراً ، كُنَّا إذا تَعشَّينا أو تَغدَّينا آثَروني بالخُبزِ وأكَلُوا التَّمرَ ،

(١) «هذا الحبيب يامحب» ، أبوبكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

والخُبزُ معهُم قَليلٌ ، والتَّمرُ زادُهُم ، حَتَّىٰ إنَّ الرَّجُلَ لتَقعُ في يَدِه كِسرَةٌ فيَدفعُها إليَّ ، وكَانَ الوَليدُ بنُ الوَليدِ بنُ المُغيرَة يقُولُ مِثلُ ذلكَ ، ويَزيدُ بقَولِه : وكَانُوا يَحمِلُونَنا ويَمشُونَ (١) .

كَانَت هَـٰذه الوَصيَّةُ الرَّحيمَةُ الرَّفيقَةُ التي ذَكَّر بها النَّبيُّ ﷺ أصحَابه اتَّخَذُوها خُلُقاً ، وأصبَحَت لهم طَبيعَةً .

وقد أثَّرَت في إسراعِ مَجمُوعَةٍ من أشْرافِ الأَسرَىٰ وأفَاضِلِهم إلَىٰ اعتِناقِ الإسلام . فأسلَمَ أبُو عَزيز عقيبَ بَدرٍ ، بُعَيدَ وُصُولِ الأَسرَىٰ إلَىٰ المَدينَةِ وتَنفيذِ وَصِيَّـةِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، وأسلَمَ مَعه السَّائِبُ بنُ عُبَيد بَعدَ أنْ فَدَىٰ نَفسَهُ ، فقد سَرَت دَعوَةُ الإسلامِ إلَىٰ قُلُوبِهم ، وطَهُرَت بها نُفُوسُهم .

وعادَ الأَسرَىٰ إلَىٰ بِلادِهِم وأهْلِيهِم يتَحدَّثُونَ عن مُحَمَّدٍ ﷺ ومَكارِمِ أخلاقِه ، وعن مَحبَّتِه وسَماحَتِه ، وعن دَعوَتِه وما فيها من البِرِّ والتَّقوَىٰ والإصلاحِ والخَيرِ (٢) .

وما هَـٰذه المُعامَلةُ الكَريمَةُ للأَسرَىٰ إلَّا شَاهِدٌ عَلَىٰ حُسنِ مُعامَلةِ الرَّسُولِ ﷺ لخُصُومِه من أعداءِ الإسلام ، حَيثُ نَالُوا من مُعامَلةِ الصَّحابَةِ أَعْلَىٰ دَرجَاتِ مَكارِمِ الأخلاقِ ، والتي تَتمَثَّلُ في خُلُقِ الرِّفقِ والإيثارِ .

فكَانَ ثَمرَةُ ذَلكَ حُبُّ أولئكَ الخُصُومِ للرَّسُولِ ﷺ وحُبُّهم لهَـٰذا الدِّينِ

---

(١) «السـيرة النبـوية عرض وقائع وتحليـل أحداث» ، الدكتورعلي محمد الصلابي ، المكتبة الالكترونية الشاملة ٢/ ٣٨ .

(٢) «السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث» ، الدكتورعلي محمد الصلابي ، مرجع سابق ، ٢/ ٣٨-٣٩ .

الكَريم ودُخُولهم فيه ، ومَدحُ هَـٰذا الدِّينِ وأصحَابَه الذين مَثَّلوهُ في تَعامُلِهم ، فتحوَّلوا عند رُجُوعِهم إلَىٰ أَهْلِيهم من أعداءٍ مُبغضِين إلَىٰ مُحبِّين مُنافِحين دَاعِين .

وفي غزوَةِ ذَاتِ الرِّقاعِ شَاهِدٌ آخَرُ عَلَىٰ تَحويلِ الأعداءِ إلَىٰ دُعاةٍ ، والتي جمعت بَعضُ القَبائلِ جُموعَها فيها لحربِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فبَلغَ ذَلكَ الرَّسُولُ ﷺ فخَرجَ إليهم في أربعمائة مُقاتِلٍ ، فلمَّا عَلِمَ مَنْ أجمَعُوا أمرَهُم عَلَىٰ قِتالِه تفرَّقُوا ، ولَحِقُوا برُؤُوسِ الجبالِ . إلَّا أنَّ غورَثَ الغَطَفَانِيَّ ـ من غَطَفانَ إحدَىٰ هَـٰذه القَبائلُ المُحارِبَة ـ تحدَّىٰ رِجالَهُ بقولِه : ألا أَقتُلُ لكُم مُحمَّداً؟ قَالُوا : بَلَىٰ ، وكَيفَ تَقتُلُه؟ قَالَ : أَفتِكُ به . وأخَذَ يَتتبَّعُ جَيشَ الإسلَام ، فلمَّا نزلُوا في وادٍ كَثيرِ الشَّجَرِ تَفرَّقَ الجَيشُ للاستراحَةِ ، ونَامَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ تحت شَجرَةٍ وَقتَ القَيلُولَةِ ، والنَّاسُ كُلُّهُم قائِلُونَ.. ولَـمْ يَنتَبِه النَّبيُّ ﷺ إلَّا والسَّيفُ عَلَىٰ رَأسِه في يَدِ غورَث وهو يَقُولُ : مَنْ يَمنعُكَ مِنِّي؟ فقَالَ ﷺ : «**اللَّـهُ**» ، فسَقطَ السَّيفُ من يَدِه ، فأخَذَهُ النَّبيُّ ﷺ وقَالَ : «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**» ، فقَالَ غورثُ : لا أحد ، وكُنْ خَيرَ آخِذٍ يا ابنَ عَبدِ اللَّـهِ ، فتَركَهُ ﷺ وعَفَا عَنهُ ، وأحسَنَ إليه ، ودَعاهُ إلَىٰ الإسلَام . فدَنا قَلبُه ، وعَادَ إلَىٰ قَومِه وهو يَقُولُ : جِئتُكُم من عند خَيرِ خَلقِ اللَّـهِ ، فأسلَمَ كَثيرٌ عَلَىٰ خَبرِ تِلكَ الحَادِثَةِ (١) .

فهَلَّا يُدرِكُ الدُّعاةُ إلَىٰ اللَّـهِ اليَومَ مَدَىٰ الجَهدِ الدَّؤُوبِ الذي بَذلَهُ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ مع أعْدَىٰ الأعداءِ حتى غَدَوا حَميمِينَ أَوْلياءَ؟ بلْ ودَاعِينَ إلَىٰ اللَّـهِ ورَسُولِه في قَومِهم! .

(١) «هذا الحبيب يا محب» ، أبوبكر الجزائري ، مرجع سابق ، ص ٩٤ ، وأيضًا : «علِّموا أولادكم محبَّة رسُولِ اللَّـه ﷺ» ، للدكتور محمد عبده يماني ، شركة دار القبلة ، مؤسسة علوم القرآن ، ص ١١١-١١٢ .

المطلَبُ الخامِس

بِنَــاءُ قَــادَةٍ مُمَـيَّزِين

وَصَفَ اللَّـهُ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ في كتابِه العَزيزِ الأُمَّةَ المُحمَّديَّةَ بقَولِه تعالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١)، وما استَحقَّت هَـٰذه الأُمَّةُ ذَلكَ الوَصفَ من خالِقِها إلَّا لأنَّها تَربَّت تَربيَةً نَبويَّة عَمليَّة، استَغرَقَت سَنواتٍ طِوالٍ ـ ثلاثَةَ عَشرَ سَـنة في مَكَّةَ وعَشرَ سِنينَ في المَدينَةِ ـ والتي تمَّت من خِلالِ:

١ ـ الحُبِّ العَميقِ للَّـهِ ورَسُولِه، الذي زَرعَهُ النَّبيُّ ﷺ في قُلُوبِ المُؤمِنينَ.

٢ ـ التِقائِهم عَلَىٰ هَـٰذا الحُبِّ، حُبِّ اللَّـهِ ورَسُوله ﷺ.

هَـٰذه القاعِدةُ الأساسيَّةُ التي قَامَت عَلَيها التَّربيَةُ الإسلاميَّةُ، أهَّلَتهُم أنْ يَتلَقَوا من أعظَم مُربٍّ في التَّاريخ، وأهَّلَتهُم أنْ يَستوعِبُوا هَـٰذه التَّربيَةَ بكَامِلِها، خُطوَةً بَعدَ خُطوَةٍ، وتَوجيهاً بَعدَ تَوجيهٍ، فكَانَ الاستِعدادُ العَميقُ للتَّلَقِّي من اللَّـهِ ورَسُولِه، ونَبذِ التَّلَقِّي من أيِّ مَصدَرٍ آخر في الوُجُودِ. فأتَت ثِمارَها المَرجُوَّةَ، واستَقامَت نُفُوسُهم عَلَىٰ أُفُقِها الأَعْلَىٰ من المُستَوَىٰ الخُلُقيِّ والتَّربَويِّ (٢).

وسَعِدَ هَـٰذا الجيلُ بالصِّلَةِ المُباشِرَةِ ـ التي تَكادُ تَكُونُ يَوميَّةً ـ برَسُولِ اللَّـهِ ﷺ. فالسَّعيدُ الذي يَنالُ شَرفَ الصُّحبَةِ، مَنْ رَأىٰ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ مرَّةً في حَياتِه

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) «منهج التربية الإسلامية»، محمد قطب، ج٢، مرجع سابق، ص ٥٠.

وآمَنَ به ، فكَيفَ بمَنْ كَانَ الرَّفيقُ اليَوميُّ له! يَتلَقَّىٰ منه ، ويَغرِفُ من نُورِه ، وتَتغَذَّىٰ رُوحُهُ من كَلامِه ، ويُربَّىٰ عَلَىٰ عَينِه [1] .

فكَانَت منهم تِلكَ النَّماذجُ من البُطُولَة في كُلِّ جانبٍ من جَوانب الحَياةِ ، والذين أُعِدُّوا ليَقُودُوا الأرضَ بالتَّربيَةِ اليَوميَّة المُستمِرَّةِ من رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وما احتَشدَ من أبطَالٍ عَلَىٰ مَرِّ التَّاريخِ في أُمَّةٍ من الأُمَمِ كما احتَشدَ أبطَالُ سَـيِّدِنا مُحمَّدٍ ﷺ في أُمَّةِ الإسلَامِ ، مِنهُم :

١ـ عَليُّ بنُ أبي طَالِبٍ رضي الله عنه :

لقَد كَانَ شَرفاً للطِّفلِ مُنذُ نُعومَةِ أظْفَارِه ، أنْ يَكُونَ رَبيبَ بيَتِ النُّبـوَّةِ ، وأنْ يَقُومَ عَلَىٰ رِعايَتِه سَـيِّدُ الخَلقِ مُحمَّدٌ ﷺ مباشَرةً دُونَ وَساطَةٍ ، ورَسُولُ اللَّـهِ ﷺ مَنْ سَعَىٰ لذَلكَ ففي عُنقِه دَيْنُ عَمِّه أبي طَالِب الذي رَعاهُ في صِغَرِه .

فقد عَاشَ الرَّسُولُ مُحمَّدٌ ﷺ في كَنفِ عَمِّه أبي طَالِب ، بَعدَ أنْ فَقدَ أُمَّهُ وجَدَّهُ ، وما أنْ تَزوَّجَ السَّـيِّدَةَ الشَّريفَةَ خَديجَةَ رضي الله عنها رَأىٰ أنْ يَرُدَّ بَعضاً من جَميلِ كَافِلِه وحَبيبِه أبي طَالِب ، الذي كَانَ فَقيراً ذَا عِيالٍ ، فأخَذَ ابنَهُ عَليّـاً وضَمَّه إلَيه في بَيتِه .

فكَانَ عَليٌّ ابنُ عَمِّه ووَلَدُه الذي تَربَّىٰ في مَهدِ النُّبـوَّةِ [2] من صِغَرِه ، وإنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ وهو يَرعَىٰ عَليّـاً ويَحُوطُه ، يَحرِصُ أنْ يَجعَلَ مِنْ هَـٰذا الطِّفلِ رَجُلاً لا كَالرِّجَالِ ، فهُو أقرَبُ النَّاسِ رَحِماً به .

---

(١) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، سلسلة التربية القيادية ، منير الغضبان ١/ ٢٠٢-٢٠٣ ، بتصرف .

(٢) «خاتم النبيين» ، محمد أبوزهرة ، مرجع سابق ، المجلد الأول ، انظر : «أغناه اللّـه وواساه» ، ص ١٦٤-١٦٥ .

وبَرزَت الشَّخصيَّةُ العَظيمَةُ لعَليٍّ ، وبرزَ أثرُ التَّربيَةِ النَّـبويَّة عَليها وهو ابنُ عَشرِ سِنينَ ، ليَسأَلَ عن هَـٰذا الدِّينِ الجَديدِ الذي رَأىٰ أحبَّ الخَلقِ لَه يَدينُ به .

ولَـمْ يَجِدْ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ حرَجاً منْ أنْ يَعرِضَ هَـٰذا الدِّينَ عَلَىٰ ابنِ العَشرِ سِنينَ ، والذي يَتمتَّعُ بذَكاءٍ يَسبِقُ فيه أقْرانَهُ ، فقَد كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَثِقُ بقُدُراتِ هَـٰذا الطِّفلِ وحَصافَتِه ، ووُفُورِ عَقلِه وسَعَةِ مَدارِكِه ، فهَلْ نَتصوَّرُ طِفلاً قادِراً عَلَىٰ اتِّخاذِ مَوقِفٍ من أخْطَرِ المَواقِفِ في حَياتِه ، ليُواجِهَ أبَاهُ وأُمَّهُ ، بلْ يُواجِهَ مُجتَمَعَهُ كامِلاً !؟

وهَلْ غَيرُ عَليٍّ مُؤهَّلٌ لهَـٰذا المَوقِفِ؟ إنَّه المَوقِفُ الصَّعبُ الذي لا يَقِفُه إلَّا أفذَاذُ الرِّجالِ ، قـرَّر فيه هَـٰذا الصَّغيرُ ، والذي يَقبَعُ في داخِلِه رَجُلٌ شُجاعٌ عاقِلٌ حَصيفٌ ، قـرَّرَ تَغييرَ دِينِه وقَبُولَ دِينٍ جَديدٍ [1] .

لقَد كَانَ عَليٌّ أوَّلَ طِفلٍ آمَنَ بالرَّسُولِ ﷺ وكَانَ مِنْ أتْباعِ هَـٰذا الدِّينِ الذي قَامَت قائمَتُه عَلَىٰ ثَلاثَةٍ : مُحمَّد ﷺ ، وخَديجَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وعَليّ بنِ أبي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَما قَالَ العَـبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذَلكَ : «ووَاللَّـهِ مَا أَعْلَمُ أَحَداً عَلَىٰ هَـٰذا الدِّينِ إلَّا هَؤلاءِ الثَّلاثَةِ ، وكَانُوا الثَّلاثَةَ المُطَهَّرينَ السَّابِقِينَ إلَىٰ الإسلامِ ، ومَعَهُم زَيْدُ بنُ حَارِثَة فكَانَ الرَّابِعُ» [2] .

ويُلاحَظُ أنَّ أُولئِكَ أَسلَمُوا من غَيرِ أنْ يُطالِبوا بدَليلٍ ، بَلْ كَانُوا مُصدِّقينَ :

(١) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، سلسلة التربية القيادية ، منير الغضبان ، ج١ ، مرجع سابق ، ص ٨٦-٨٧ .
(٢) «خاتم النبيين» ، محمد أبوزهرة ، مرجع سابق ، المجلد الأول ، ص ٣٣١ .

أولاً : لأنَّهم عَرفُوا الحَقَّ في ذَاتِه ، ففرقٌ بَينَ الإيمانِ بحَجرٍ لا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ ، والإيمانِ بالوَاحِدِ الأحَدِ الفَردِ الصَّمَدِ .

ثانيـاً : لِـما عُرِفَ به الدَّاعِي من لِسَانٍ صَادِقٍ ، وخُلُقٍ كَريمٍ ، وفَضلٍ كَبيرٍ ، وعَقلٍ مُدرِكٍ سَليم .

وقَد ابتَدأ نُورُ الهِدايَةِ عِندَ عَليٍّ باتِّخاذِ النَّبيِّ ﷺ أُسوةً حسنَةً لَه ، يُقلِّدُه ، ويُحاكِيهِ ، ويَتَّبعُ آثارَهُ ، ويَقتَفِي مَسالِكَه ﷺ .

وقد تمكَّنَ عَليٌّ رضي الله عنه من الحِفاظِ على سِرِّيَّةِ الدَّعوَةِ ، فكَتمَ إسلامَه بناءً عَلَىٰ وَصيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ .

ونَلمَحُ شَجاعَةَ وعَظمَةَ هَـٰذا الطِّفلِ عِندَما سَألَه والِدُه أبو طَالِب : أيْ بُنَيَّ ، ما هَـٰذا الدِّينُ الذي أَنتَ عَليه؟ فوَقفَ وَقفةَ رَجُلٍ شُجاع في مُواجَهةِ أبيهِ ، وقَالَ لَه بصِدقٍ وثَباتٍ وعَزمٍ وإصْرارٍ : يا أبَتِ ، آمَنتُ باللَّـهِ وبرَسُولِ اللَّـهِ ، وصَدَّقتُ بما جَاءَ به ، وصَلَّيتُ مَعه للَّـهِ ، واتَّبعتُه ..!

وهُنا نَجدُ شِدَّةَ ثِقَةِ أبي طالبٍ بابنِ أخيهِ مُحمَّدٍ ﷺ بما يَحمِلُه ﷺ من صِدقٍ ونُبلٍ وخَيرٍ ، نَجدُ هَـٰذه الثِّقةَ في وَصيَّةِ الأبِ الحُرِّ الكَبيرِ لوَلَدِه ، وفي مُعامَلةِ ابنه لكَسبِ الخَيرِ لَه ، والحِرصَ عَلَىٰ مَصلَحتِه ، قائلاً له : أمَا إنَّه لَـمْ يدْعُكَ إلَّا إلَىٰ خَيرٍ فالْزَمْهُ ، يَقُولُ لَه ذَلكَ غَيرَ مُضَيِّقٍ ولا مُتزَمِّتٍ كما كَانَ مَع ابنِ أخيه مُحمَّدٍ ﷺ (١) .

(١) المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٢٩ ، بتصرف .

ونرىٰ ثِقةَ النَّبيِّ ﷺ بفَتاهُ الهَصُورِ الشُّجاعِ عِندَما أَوْكَلَ له أخطَرَ المهمَّـاتِ الفِدائيَّةَ وأشَقَّها ، أنْ يَبيتَ في فِراشِه ، ويَكُونَ عُرضَةً للسُّيوفِ المُتلَمِّظَةِ بالحِقدِ من قُرَيشٍ ، ليَرُدَّ الوَدائعَ لأصحابِها عن رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، ثُمَّ يَلحَقُ بالنَّبيِّ وَحدَهُ . فكَانَ عَليُّ بنُ أبي طَالِب الفِدائيَّ الأوَّلَ ، ورَجُلَ المهمَّـاتِ الصَّعبَةِ ، وعلَىٰ مُستَوىٰ الأُخُوَّةِ التي شَرَّفَه بها ، وعلَىٰ مُستَوىٰ التَّمثِيلِ الشَّخصيِّ لرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ (١) .

وحِينَ نَتحدَّثُ عن خَصائصِ هَـٰذه الشَّخصيَّةِ ، يَأتينا في قِمَّةِ هَـٰذه الخَصائص تلكَ الأُخُوَّةُ التي ارتبطَ فيها مَعَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، فقَد قَالَ له «**أمَا تَرْضَىٰ أَنْ تكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ**» (٢) ، وقَالَ أيضاً : «**أَنْتَ أَخِي في الدُّنْيـا وفي الآخِرَةِ**» (٣) .

لقَد رَبَّاهُ ﷺ دارِجاً ، ثُمَّ طِفلاً صَغيراً ، ثُمَّ يافِعاً ، ولَـمْ يُفارِقْ عَليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ رَسُولَ اللَّـهِ حَتَّىٰ انتقل ﷺ إلَىٰ الرَّفيقِ الأعْلَىٰ ، وكَانَ عَليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ يتميَّزُ بقَولٍ أَشْبَهَ بكَلامِ النَّبيِّ ﷺ لأنَّه سَليلُ بَيتِ النُّبـوَّةِ التي رَشَفَ مِنْ رَحيقِهَا .

هَـٰذه الشَّخصيَّةُ العَظيمَةُ المَوهُوبَةُ ، التي تَربَّت في بَيتِ النُّبـوَّةِ ومَهبطِ الوَحي ، قُدِّر لها التَّربيَةُ النَّبَويَّةُ القَويمَةُ ، التي وَجَّهتْها ومَنحَتْها الثِّقَةَ والمَسؤُوليَّةَ ، فظَهرَ نُبُوغُها وتَميُّزُها ، وكَانَ مِمَّا أَعلَىٰ شأنَها أنَّ عَليّـاً رَضِيَ اللهُ عَنهُ هو

---

(١) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، سلسلة التربية القيادية ، منير الغضبان ، ج١ ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب مناقب علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنهُ ، ص ٦٥١ ، رقم الحديث : ٣٧٠٦ .

(٣) «خاتم النبيين» ، محمد أبوزهرة ، مرجع سابق ، المجلد الثاني ، الإخاء ، ص ٥٥٦-٥٥٧ ، وانظر : «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، سلسلة التربية القيادية ، منير الغضبان ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

زَوجُ البِضْعَةِ المُبارَكَةِ فَاطِمَةِ الزَّهْراءِ بنتِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، وهو الرَّجُلُ الرَّابعُ في الأُمَّةِ بالخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ ، يُمثِّلُ مع إخْوانِه الخُلَفاءِ الثَّلاثَةِ مِنْهاجَ النُّبـوَّةِ في الأرضِ .

٢ـ زَيْـدُ بنُ حَـارِثَـة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

شَخصيَّةٌ فَذَّةٌ ، نَهلَت من مِشْكاةِ النُّبـوَّةِ تربيَةً مِثاليَّةً حَتَّىٰ أصبحَت مَعلَماً من مَعالِـم الإسلَام . إنَّه زَيدُ بنُ حارِثَة حِبُّ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، العَبدُ الحُرُّ ، الذي تَشرَّفَ بصُحبَتِه لسَـيِّدِ المُرسَلينَ قَبلَ الإسلَامِ وبَعدَه ، فكَيفَ وَصلَت هَـٰذه الشَّخصيَّةُ إلَىٰ بيتِ النُّبـوَّةِ؟

في الجاهِليَّةِ خَرجَت أُمُّ زَيدٍ ـ وهي امْرأةٌ من طَيِّءٍ ـ تَزورُ قَومَها وزَيدٌ مَعَها ، فأغارَتْ إحدَىٰ القَبائلِ المُناوِئةُ لحَيِّ أهْلِها ، وأنْزَلُوا الهَزيمَةَ بِهم ، واحتَمَلُوا زَيداً أَسيراً مَعَهم وهو يومَئذٍ طِفلٌ ، ووَافوا به سُوقَ عُكَاظٍ للبَيعِ . فاشتَرَاهُ حَكيمُ بنُ حِزامِ بنُ خُوَيْلِد لعَمَّتِه خَديجَةَ بِنتِ خُوَيْلِد بأربعِ مِائةِ دِرهَم ، فلمَّـا صارَت خَديجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوجَةً للنَّبيِّ ﷺ ، وَهَبتْهُ له ، فتقبَّلَه مَسرُوراً ، وأَعتَقَه مِنْ فَورِه ، ورَاحَ يَمنَحُهُ من نَفسِه العَظيمَةِ وقَلبِه الكَبيرِ كُلَّ عَطفٍ ورِعايَةٍ .

وقَد ثَكِلَه أَبُوهُ ، وأَجرَىٰ عَلَيه الدُّمُوعَ ، وأنشَدَ الأشْعَارَ ، وعِندَما عَلِمَ مَكانَهُ في مَكَّةَ ، قَدِمَ وأَخُوهُ إلَيها لفِدائِه ، عِندَ ذَلكَ خَيَّرَ الرَّسُولُ الكَريمُ ﷺ زَيداً ، بأنَّه إنْ اختَارَ أَباهُ وعَمَّهُ فهُوَ لَهما بغَيرِ فِداءٍ ، فاختَارَ زَيدٌ مُحمَّداً ، وقَالَ للرَّسُولِ ﷺ : أَنتَ مِنِّي بمَكَانِ الأبِ والأُمِّ ، فقَالَ أَبُوهُ وعَمُّهُ باستِغْرابٍ :

وَيْحكَ يَا زَيْدُ أتَختَارُ العُبُوديَّةَ عَلَىٰ الحُريَّةِ وعَلَىٰ أبِيكَ وعَمِّكَ وأهْلِ بَيتِكَ!؟ قَالَ : نعَم ، فإنِّي قد رَأيتُ مِنْ هَـٰذا الرَّجُلِ شَيئاً مَا أنَا بالذي أختَارُ عَليه أحداً أبداً ، فدَمَعَت عَينا النَّبيِّ ﷺ ، وتوَجَّهَ إلَىٰ فِناءِ الكَعبَةِ ، وقَالَ : «**اشْهَدُوا أنَّ زَيْدَاً ابْنِي يَرِثُنِي وَأرِثُهُ**»! ، فطَابَت نَفسُ أَبِيهِ وعَمِّهِ وانْصَرفَا ، وأَصبحَ يُدعَىٰ زَيدَ بنَ مُحمَّدٍ ، حتَّىٰ جَاءَ اللَّـهُ بالإسلامِ وحَرَّمَ التَّبَـنِّي .

لقَد كَانَ لِهَـٰذا الغُلامِ خاصِيَّةٌ ، فقَد دَخلَ بَيتَ النَّبيِّ ﷺ وهو في أوَّلِ حَياتِه ـ ابنُ ثَماني سِنين ـ وترَبَّىٰ عَلَىٰ يد النَّبيِّ ﷺ خَمسَةَ عشرَ عاماً قبلَ البَعثَةِ ، وهو ألْصَقُ النَّاسِ به ، وأقْرَبُهم إليه ، واختارَهُ عَلَىٰ أبيهِ وعَمِّه وقومِه ، وقَد بَلغَ من حُبِّ زَيدٍ لمُحمَّدٍ قَبلَ الرِّسالَةِ حُبّاً يَفُوقُ الوَصفَ ، فكَانَ رُوحَ حَياتِه ، وسِرَّ وُجُودِه . وما ذَاكَ إلَّا مِنَ الحُبِّ الذي وَهبَهُ النَّبيُّ ﷺ له ـ التَّربيَةُ بالحُبِّ ـ فارتَفعَ به من العُبُوديَّةِ إلَىٰ الوَلاءِ ، ثُمَّ ارتفعَ به من الوَلاءِ إلَىٰ البُنُـوَّةِ ، إلَىٰ أنْ ألغَىٰ الإسلامُ التَّبَـنِّي ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ **مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴿٤٠﴾ ﴾ (١) ، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ أكرَمَه بلَقَبٍ لا يُقدَّرُ بثَمنٍ ، وهو زَيدُ حِبُّ رَسُولِ اللَّـهِ ، ولَـمْ يَحُزْ غيرُه عَلَىٰ هَـٰذا اللَّقَبِ .

وقَد قَدَّرَ اللَّـهُ لِهَـٰذا المَولَىٰ أنْ يَكُونَ من السَّابقِينَ إلَىٰ الإسلام ، فكَانَ من الأربعَةِ الأوَائلِ ، النَّبيُّ ﷺ ، وخَديجَةُ بِنتُ خُوَيْلد ، وعَليُّ بنُ أبي طَالِبٍ ، وزَيدُ بنُ حارِثَة رضي الله عنهم أجمَعينَ . فذاكَ شَرفٌ لَـمْ يَنلْهُ أحَدٌ ، مِمَّا جعلَهُم قِمَّةَ هَـٰذه الأُمَّةِ ، بما اكتَسبُوا من خُلُقٍ وعِلمٍ وطُهرٍ وفَضلِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٠ .

ونَرىٰ التَّقويمَ الدَّقيقَ حِينَ يَطعَنُ النَّاسُ بإمارَتِه يَقُولُ ﷺ رادًا ذاكَ الطَّعنَ : «**وَايمُ اللَّـهِ ، إنْ كَانَ لخَلِيقاً بالإمَارَةِ**»(١) .

ونَرىٰ عَظمَةَ هَـٰذه الشَّخصيَّة وثَمرَةَ التَّربيَةِ النَّـبويَّةِ بِقَولِ عائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : «مَا بَعثَ رَسُولُ اللَّـهِ زَيْدَ بنَ الحَارِثَة في سَرِيَّةٍ إلَّا أمَّرَهُ عَلَيها ، ولَوْ بَقِيَ حَيَّـاً بَعدَ الرَّسُولِ لاستَخلَفَه» .

فهَـٰذا المَولَىٰ إذا لَـمْ يَكُنْ في حَياتِه إلَّا أَميراً ، ولَوْ بَقي حَيَّـاً لَكانَ أَحَدَ المُرشَّحينَ إلَىٰ الخِلافَةِ كَما قَالَت عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

فمع أنَّه مَولَىٰ لرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فقَد كَانَ يُعِدُّه ﷺ ليَكُونَ قائداً فَذّاً ، ويُربيهِ ليَكُونَ أميراً ، ويَراهُ خَليقاً وجَديراً بذَلكَ ، ولكِنَّ إرادَةَ اللَّـهِ شاءَتْ أنْ يَسقُطَ شَهيداً وهو أَميرٌ عَلَىٰ المُسلِمينَ في مُؤْتَة .

وقَد ودَّعَ هَـٰذه الدُّنْيـا وهو قائدٌ وأَميرٌ عَلَىٰ ثَلاثَةِ آلافِ مُجاهِدٍ ، من أفرادِ جَيشٍ هو أكبَرُ جَيشٍ في ذَلكَ الحِينِ ، وتَحتَ إمْرَتِه العَربيُّ والهاشِميُّ والمُهاجِرُونَ والأنصارُ رِضوَانُ اللَّـهِ عَلَيهِم جَميعاً .

فالمَوْلَىٰ في هَـٰذهِ الأُمَّةِ وبِمنهاجِ التَّربيَةِ النَّـبَويَّة جَديرٌ بالإمارَةِ والقِيادَةِ والخِلافَةِ .

---

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، باب مناقب زيد بن حارثة مَولَىٰ النَّبيِّ ﷺ ، ص ٦٥٤ ، رقم الحديث : ٣٧٣٠ .

٣ـ عُمَرُ بنُ الخَطَّـابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

نَحنُ أَمَامَ رَجُلٍ من أعظَمِ رِجالِ الأرضِ ، ومن أفضَلِهم بَعدَ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أجمَعينَ ، وعَظَمَةُ عُمَرَ أنَّهُ خَرقَ القاعِدَةَ التي تَربطُ الفَضلَ بطُولِ الصُّحبَة ، فقَد تأخَّرَ سِتَّ سِنينَ بَعدَ البَعثَةِ حَتَّىٰ أسلَمَ ، وفجأةً ارتَفعَ ليَكُونَ الرَّجُلَ الثَّاني في الأُمَّةِ ، ويَتَجاوَزُ العَشَراتِ الذين أَسلَمُوا قَبلَه ، ويَغدُو خَلفَ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١) .

كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جاهِليَّتِه فتىً من فِتيانِ قُرَيش ، يَغشَىٰ مَجالِسَ السُّوءِ ، وبُؤَرَ الشَّـرِّ ، وكَانَ زَعيماً قِياديّـاً ، يَتنافَسُ عَلَىٰ الزَّعامَةِ مع قومِه ، مَعْلَماً للفُتُوَّةِ والغِلظَةِ ، مَعرُوفاً بالقَسوَةِ والشَّراسَةِ ، مُستَعِدّاً في كُلِّ الحالاتِ للتَّسلُّطِ بالأذىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يُخالِفُه ، ولإثارَةِ الفِتنَةِ والشَّغبِ فيما جَلَّ أو صَغُر . لذَلكَ كَانَ من أخطَرِ فِتيَانِ مَكَّةَ عَلَىٰ الدَّعوَةِ المُحمَّديَّةِ ، وأنشَطِهم في أذَىٰ أتْبَاعِها ، فلَمْ يَسلَمُوا من لِسانِه الجَارِح ، ويَدِه الباطِشَة . وهو الذي لَـمْ يَكُنْ تَلامِيذُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطمَعُونَ في هِدايَتِه أكثَرَ من طَمَعِهم في هِدايَةِ الحِمارِ (٢) . لكنْ وَراءَ هَـٰذه المَظاهِرِ كُلِّها فِطرَةٌ ، لَـمْ تَجِدْ مَنْ يُرشِدُها ، ويَأخُذُ بيَدِها إلَىٰ جادَّةِ الصَّوابِ ، فطُمِسَت أمَامَ الاعتِدادِ بالقُوَّةِ والفُتُوَّةِ .

هَـٰذا هُوَ الفَتىٰ الذي اجتَذبَته الدَّعوَةُ المُحمَّديَّةُ ، وخَلُصَت فِطرَتُه من سُلطَانِ العَقائِدِ البَاطِلَةِ ، وأصلَحَتْ قَلبَهُ وفِكرَهُ بالعَقيدَةِ الرَّبَّانيَّةِ الصَّحيحَةِ ، وأصبَحَ عَلَىٰ أَعْلَىٰ مُستَوىً من الانضِباطِ والطَّاعَةِ والوَلاءِ .

---

(١) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، التربية القيادية ، منير الغضبان ، مرجع سابق ، ج١ ، انظر : الرجل الثاني في الأمة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ص ٣٤٥-٣٦٤ .

(٢) «بطل الأبطال» ، عبد الرحمن عزّام ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

إنَّها عِظَم التَّربيَةِ في مَدرسَةِ الحُبِّ النَّـبَويَّة ، التي هَذَّبَت نَفسَهُ ، وغَيَّرت مَجرَىٰ حَياتِه بالقُدوَةِ الحَسنَةِ التي وَجدَها في المَثلِ الأَعْلَىٰ مُحمَّدٍ ﷺ ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (١) ، فلمَّا صَقلَتهُ المَدرسَةُ النَّـبَويَّةُ فَجَّرَت مَواطِنَ العَظمَةِ فيه ، وأخرَجَت منه عَبقَريَّـاً (٢) شَهِدَ لَه الرَّسُولُ ﷺ بذَلكَ ، وغَدا أميراً للمُؤمِنينَ ، وجَعلَت منه المَثلَ الكَامِلَ ، في البُطُولَةِ والرِّفقِ ، والإنصَافِ والعَدلِ ، فَارُوقٌ بَينَ الحَقِّ والبَاطِلِ ، ومن أكبَرِ القُضاةِ والسِّياسِيِّينَ والمُلُوكِ في تَاريخِ البَشَرِ ، قاهِرُ الفُرسِ والرُّومِ .

حَقَّـاً لقَد كَانَ لِهَـٰذه التَّربيَةِ النَّـبَويَّةِ الحَليمَةِ الحَكيمَةِ ، أَثَرٌ جَليٌّ وتَحوُّلٌ جَذرِيٌّ ، في الفَردِ ـ صَغيراً وكَبيراً ـ ليَشمَلَ الجَماعَةَ والمُجتمَعَ ، فبَدَّلَت النَّاسَ غَيرَ النَّاسِ ، والأَرضَ غَيرَ الأَرضِ .

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، انظر : كتاب فضائل أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ص ٦٤٦ ، الحديث رقم : ٣٦٨٢ ، في رؤيا للرسول ﷺ عن عمر رضي الله عنه شهد له فيها بالعبقرية .

المطلَبُ السَّـادِس

احتِرامُ غَيرِ المُسلِمينَ للرَّسُولِ ﷺ

نَبدأُ بذَلكَ من عَصرِ الرَّسُولِ ﷺ ونَأخُذُ منه مِثالاً في مُقاطَعةِ قُرَيشٍ ـ بصَحيفَةِ الظُّلم ـ لأبي طَالِب وبَني هاشِم وبَني عَبدِ المُطَّلِب جميعِهِم مُؤمِنِهِم وكَافِرِهِم . وذَلكَ لأنَّهم لَـمْ يُسَلِّمُوا لهم رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ ، فَأخرَجُوهُم من مَكَّةَ إلَىٰ الشِّعبِ . وكَتبُوا كِتاباً ألَّا يُنكِحُوهُم ، ولا يَنكِحُوا إلَيهِم ، ولا يَبيعُوهُم ، ولا يَبتاعُوا مِنهُم ، ولا يَقبَلُوا مِنهُم صُلحاً ، ولا تَأخُذهُم بِهِم رَأفَةٌ حَتَّىٰ يُسَلِّمُوا رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ للقَتلِ .

وإنْ كَانَ المَرءُ لا يَعجَبُ من ثَباتِ المُؤمِنينَ وصَبرِهِم ، فهُم يَفيئُونَ إلَىٰ عَقيدَةٍ يَبتَغُونَ بها رِضَا اللَّـهِ عَزَّ وجَلَّ ، ويَرجُونَ جَـنَّةً عَرضُها السَّمَـٰوَاتُ والأَرضُ ، وفي كُلِّ لَحظَةٍ يَعيشُها الصَّفُّ المُؤمِنُ مع قائدِهِ عليه الصلاة والسلام تُعطيهِ دَرساً ، وتَبني لَه كَياناً ، وتُعِدُّه لرِيادَةِ البَشَرِيَّةِ فيما بَعدُ .

لكنَّ العَجبَ كُلَّ العَجبِ من هَؤلاء الرِّجالِ أبي طَالِب سَـيِّدِ بَني هاشِم مع بَني هاشِم وبَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ البِضعَة والأربَعينَ رَجُلاً ، الذين وَقَفُوا وَقفَةَ رُجُولَةٍ قَلَّما يَجُودُ التَّاريخُ بمِثلِها ، وتَقبَّلُوا الحِصارَ ببُطُولَةٍ نادِرَةٍ ، وهُم الذين تَقرَّحَت أكبادُهُم من الجُوعِ ، وأكَلُوا وَرقَ الشَّجَرِ ، ورَأوْا أوْلادَهُم يَتضاغَوْنَ جُوعاً ، ومَع ذَلكَ ثَبَـتُوا عَلَىٰ مَبدَئِهِم في الذَّودِ عن مُحمَّدٍ ﷺ مع أنَّه يَدعُو إلَىٰ غَيرِ عَقيدَتِهم ، ويُسَفِّهُ أحلامَهُم ، ويَنالُ من آلِهَتِهِم . ولكنَّه الخُلقُ العَظيمُ

لسَـيِّدِ البَشَريَّةِ الذي كَانَ لَه فِعلُ السِّحرِ ، الذي استَهوَىٰ أفئدَتَهم ، حَتَّىٰ لاقَوْا كُلَّ ما لاقَوْهُ فِداءً لَه .

وذَلكَ يُعطِينا دَلالَةً واضِحَةً عَلَىٰ عَظمَةِ هَـٰذه الشَّخصيَّةِ التي استَحوَذَتْ عَلَيهم ، فأذابَتهُم فيها ، وهُم عَلَىٰ غَيرِ عَقيدَتها رَغمَ شِركِهم ووَثَنيَّـتِهم ، فقد أثبتَت هَـٰذه الواقِعَةُ بصُورَةٍ قاطِعَةٍ حُبَّ قَومِ مُحمَّدٍ لِـمُحَمَّدٍ ﷺ ، حُبّاً لَـمْ يَشهَدْ لَه العَربُ مَثيلاً (١) .

يُمكِنُ أنْ يُفسِّرَ البَعضُ ذَلكَ بدَافعِ العَصَبيَّةِ ، فهُو ابنُهُم! ولكِنْ لا نَنسَىٰ رَأيَ أبي طَالِب بمُحمَّدٍ ﷺ عِندَما قَالَ لابنِه عَليٍّ : أمَا إنَّه لَـمْ يَدْعُكَ إلَّا إلَىٰ خَيرٍ فَالْزَمْه ، وكَذلِكَ لا نُنكِرُ بَعضَ الأَعرافِ الإيجابيَّةِ التي كَانَ عَليها العَربُ في ذَلكَ العَصرِ ، كَالتَّكاتُفِ والتَّضامُنِ فيما بَينَهُم ، واحتِرامِهم لقَراراتِ قيادَتِهم كأبي طَالِب ، في حِمايَةِ مُحمَّدٍ ﷺ ولَو وَاجهُوا قَومَهُم جَميعاً حَتَّىٰ آخِرِ رَمَقٍ من حَياتِهِم .

إنَّ كَثيراً من الشَّخصِيَّاتِ في الصَّفِّ المُشرِكِ كَانَت تُبنَىٰ في داخِلِها بالتَّربيَةِ النَّـبَويَّة ، وتَتأثَّرُ وتَتفاعَلُ في أعماقِها مع المَبادئ التي يُقدِّمُها الدِّينُ الجَديدُ ، لكِنَّ سَيطَرَةَ المَلأ ، وسَطوَةَ الكُبَراءِ ، كَانَت تَحُولُ دُونَ إبْرازِ هَـٰذا التَّفاعُلِ ، وهَـٰذا الحُبِّ ، وهَـٰذه التَّربيَة (٢) .

(١) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، سلسلة التربية القيادية ، منير الغضبان ، ١/ ٣٦٦-٣٧٢-٢٧٣-٣٨٤ ، بتصرف .

(٢) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، سلسلة التربية القيادية ، منير الغضبان ، ١/ ٣٨٥ .

شَهادَةُ المُنصِفينَ في العُصُورِ الحَديثَة

برنارد شـو

يَقُولُ «جُورج برنارد شُو» (١) : «أعتَقِدُ أنَّه إذَا أتَىٰ رَجُلٌ مِثلُ مُحمَّدٍ ، وتَولَّىٰ حُكمَ العَالَـمِ الحَديثِ ، سَوفَ يَنجَحُ في حَلِّ مَشاكِلِه بطَريقَةٍ تَجلِبُ السَّلامَ التي تَشتَدُّ الحاجَةُ إليه والسَّعادَة . لقَد كَانَ الرَّجُلُ أكثَرَ من رائع ، وَطِئت قَدمَاهُ عَلَىٰ هَـٰذه الأرض ، فقد بلَّغَ الدِّينَ ، وأَسَّسَ الدَّولَة ، وبَنَىٰ أُمَّةً ، وأرسَىٰ مَحاسِنَ الأخلَاقِ ، بادَرَ في الإصلَاحاتِ الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة ، وتَأسيسِ مُجتَمعٍ قَويٍّ وديناميكيٍّ لمُمارَسةِ الدِّينِ ، وتَـمَثُّلِ تَعاليمِه ، لقد كَانَ ثَورَةً تَماماً في عالَـمِ الفِكرِ والسُّلُوكِ البَشَريِّ .

وخِلالَ هَـٰذه الفَترَةِ القَصيرَة (٢٣عامًا) ، استَطاعَ تَحويلَ شِبهِ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ من الوَثَنيَّة وعِبادَةِ الأصنامِ إلَىٰ عِبادَةِ اللَّـهِ الوَاحِدِ ، من الحُرُوبِ والصِّراعاتِ القَبليَّةِ إلَىٰ التَّضامُنِ الوَطَنيِّ والتَّماسُكِ ، من السُّكْرِ والعَربَدَةِ إلَىٰ البِرِّ والتَّقوَىٰ ، من الخُروجِ على القَانُونِ والفَوْضَىٰ إلَىٰ الحَياة المُنظَّمَةِ ، من الانحِطَاطِ الخُلُقيِّ إلَىٰ أعْلَىٰ مُستَوىٰ من التَّفوُّقِ الأخلَاقيِّ ، من الفَقرِ المُدقع إلَىٰ الغِنَىٰ والرَّفاهيَةِ . التَّاريخُ البَشَريُّ لَـمْ يَعرِفْ مِثلَ هَـٰذا التَّحوُّلِ التَّامِّ لأُناسٍ أو مَكانٍ قَبلَ ذَلكَ أو بَعدَهُ.. فيما لا يَزيدُ قَليلاً عن عَقدَينِ من الزَّمَنِ» (٢) .

---

(١) وهو مُؤلِّفٌ إيرلَنديٌّ وأحَدُ مَشاهِيرِ المُفكِّرينَ في العصر الحديث .

(٢) موقع البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ www.mercyprophet.com .

مايكل هارت

هو عالِـمُ الفَضاءِ الأمريكيُّ الشَّهيرُ ، لَيسَ مُسلِماً إنَّما كَانَ باحِثاً مَسيحيَّاً ، اختَارَ مائةَ شَخصيَّةٍ من الشَّخصيَّاتِ التي تَركَت أثَراً بارِزاً في حَياةِ الإنسانيَّة ، فقد جَاءَ في كِتابِه الصَّادِرِ مُؤخَّراً عن التَّصويتِ من الرِّجالِ الذين أَسهَمُوا في المَنافعِ والرُّقيِّ للبَشَريَّةِ كَتبَ ما يَلي : «اختياري لُمحمَّدٍ ليَقُودَ قائمَةَ الأشخاصِ الأكثَرِ نُفُوذاً في العالَـمِ قد يُدهَشُ بَعضُ القُرَّاءِ ، ويُمكِنُ استِجوابُه من قِبَلِ الآخَرينَ ، لكنَّه كَانَ الرَّجُلَ الوَحيدَ في التَّاريخِ الذي نَجحَ نَجاحاً مُطلَقاً عَلَىٰ المُستَوَيَينِ الدِّينيِّ والدُّنيَويِّ» (١) .

(١) المرجع السابق ، الموقع العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ www.mercyprophet.com وانظر أيضًا : «عظمة النَّبيِّ محمَّد خاتم رسل اللَّـه ﷺ» ، مصطفى الزرقا ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

لـورد هــيدلي

من الذين دَرسُوا الإسلامَ وأشادُوا به ، وقَالُوا قَولَةَ الحَقِّ في نَبيِّهِ الكَريم . ما قَالَه في الإسلام : «إنَّ زيارَتي للشَّرقِ المُسلِم مَلأتْني احتِراماً للدِّينِ المُحمَّديِّ السَّلِسِ . وإنِّي أَشكُرُ اللَّـهَ أنْ هَداني للإسلَامِ . لقد كُنتُ في سِرْدابٍ مُظلِمٍ ثُمَّ أَخرَجَني في فَسيحِ الأرضِ» .

ومما قاله عن الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ : «إنَّ للنَّبيِّ العَربيِّ أخلَاقاً قَويَّةً مَتينَةً ، وبما أنَّنا في حاجَةٍ إلىٰ نَموذَجٍ كامِلٍ يَفِي باحتياجاتِنا في الحَياةِ ، فشَخصيَّةُ مُحمَّدٍ النَّبيِّ المُقدَّسِ تَسُدُّ تِلكَ الحاجَة ، فهي مِرآةٌ تَعكِسُ عَلَينا التَّعقُّلَ الرَّاقي ، والسَّخاءَ والكَرمَ والشَّجاعَةَ ، والإقْدامَ والصَّبرَ والحِلمَ ، والوَداعَةَ والعَفوَ والتَّواضُعَ والحَياءَ ، وكُلَّ الأخلَاقِ الجَوهَريَّةِ التي تُكَوِّنُ الإنسانيَّةَ في أسمَىٰ صُورِها ، وإنَّا لَنَرىٰ ذَلكَ في صُورَةٍ بألوانٍ وَضَّاءَةٍ» (١) .

تُولِستُوي

ويَقُولُ الأديبُ والمُفكِّرُ الرُّوسيُّ المَشهُورُ «تُولِستُوي» : «لَقد ظَهرَ لَديَّ بأنَّ مُحمَّداً كَانَ يَسمُو على المَسيحِيَّةِ في كُلِّ وَقتٍ . إنَّه لَـمْ يَعُدَّ الإنسَانَ إلَـهاً ، ولَـمْ يُعادِلْ بَينَهُ وبَينَ اللَّـهِ ، يَقُولُ المُسلِمُونَ : «لَا إلَهَ إلَّا اللَّـهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّـهِ» ، فلا نَجدُ مُعضِلَةً ، ولا سِـرّاً غامِضاً» (٢) .

(١) «علموا أولادكم محبة رسول اللّـه ﷺ» ، د. محمد عبده يماني ، مرجع سابق ، ص ١٢٠-١٢١ .

(٢) نقلًا عن «نبي الهدى والرحمة» ، د.عبد المجيد البيانوني ، ص ٤٤١ ، يقول : انظر مجلة المجتمع ، العدد/ ١٧١٣/ رجب ١٤٢٧هـ ، ص ٣٩ .

توماس كارلايل

ويُعبِّرُ «توماس كارلايل» عن حُبِّهِ لمحمَّدٍ مُعلِّلاً ذلكَ بالشَّمائِلِ الخُلقيَّةِ العاليَةِ التي يَتمتَّعُ بها الرَّسُولُ ﷺ، فيَقُولُ: «وإنِّي أُحِبُّ مُحمَّداً لبَراءَةِ طَبعِه من الرِّياءِ والتَّصنُّعِ، ولقد كَانَ ابنُ القِفَارِ هَـٰذا مُستَقلَّ الرَّأيِ، لا يُعوِّلُ إلَّا عَلَىٰ نَفسِه، ولا يَدَّعِي ما لَيسَ فيه، ولَـمْ يَكُ مُتكَبِّراً، ولكنَّه لَـمْ يَكُنْ ذَليلاً ضَائِعاً، فهُو قائمٌ في ثَوبِه المُرقَّعِ كَما أوجَدَهُ اللَّـهُ، وكَما أرادَ، يُخاطِبُ بقَولِه الحُرِّ المُبينِ قَياصِرَةَ الرُّومِ وأكَاسِرَةَ العَجَمِ، يُرشِدُهُم إلَىٰ ما يَجِبُ عَلَيهِم لهَـٰذه الحَياةِ وللحَياةِ الآخِرَة».

ومِستَر «كارلايل» هَـٰذا هو أحَدُ مَشاهيرِ فَلاسِفَةِ القَرنِ التَّاسِعِ عَشَر، وأشهَرُ فَيلَسُوفٍ في القارَّةِ الأمريكيَّة، يُتابِعُ قَولَه عن الرَّسُولِ ﷺ فيَقُولُ: «هُو الرَّجُلُ العَظيمُ، الذي عَلَّمَهُ اللَّـهُ العِلمَ والحِكمَةَ، فوَجبَ عَلَينا أنْ نُصغِيَ إلَيه قَبلَ كُلِّ شَيءٍ..» (١).

تِلكَ الأقوالُ السَّابقَةُ كُلُّها عَلَىٰ اختِلافِ أصحابِها وتَنوُّعِ ثَقافَتِهم وبيئَتِهِم، تَدلُّ عَلَىٰ سَعَةِ اطِّلاعِ أصحابِها ودِقَّةِ تَحليلِهِم في عِظَمِ الشَّخصيَّةِ النَّبَويَّة.

---

(١) نقلًا عن «نبي الهدى والرحمة»، د.عبد المجيد البيانوني، ص ٤٤٢-٤٤٣، يقول: انظر مجلة المجتمع، العدد/ ١٧١٣/ رجب ١٤٢٧هـ، ص ٣٩.

الفصل الرابع

ضَوابِطُ الحُبِّ عِندَ الرَّسُولِ ﷺ

وفيه تمهيدٌ وأربع مَطالِب عَلَىٰ شَكلِ ضَوابِط

تمهـــــيد .

الضَّابِطُ الأوَّلُ : الحُبُّ والبُغضُ في اللَّـهِ (عَدمُ قَبُولِ الشَّفاعَةِ في حَدٍّ من حُدودِ اللَّـهِ) .

الضَّابِطُ الثَّـاني : الحَزمُ في الحُبِّ .

الضَّابِطُ الثَّالث : التَّوازُنُ في الحُبِّ .

١ـ الحُبُّ بَينَ التَّفريطِ والإفْرَاطِ .

٢ـ العَدلُ في الحُبِّ .

٣ـ الحُبُّ والحُـزْنُ .

٤ـ الحُبُّ والغَيرَةُ والغَضَبُ .

٥ـ الحُبُّ والكُرهُ .

الضَّابِطُ الرَّابــعُ : الحِفَاظُ على المَودَّةِ والأُلفَةِ

١ـ الحُبُّ والحُقُوق الفَرديَّةِ .

٢ـ مُراعَاةُ الحُقُوقِ الفَرديَّة في العَلاقَةِ مع المُقرَّبين .

تَمهـــــيد

إنَّ للحُبِّ في العَمليَّة التَّربويَة ضَوابِطُ ، فاللِّينُ في مَوضِعِه ضَروريٌّ ، ومَوقِفُ الحَزمِ ضَروريٌّ أيضاً ، إنما المنهيُّ عَنه هو الفَظاظَةُ وغِلظَةُ الفِعلِ والشِّدَة المُنفِّرَة للقُلوبِ ، لأنَّها لا تَأتي بخَيرٍ ، وتُؤدِّي إلَىٰ الانفِضاضِ والبُغضِ بَدلَ القُربِ والتَّقويمِ .

فالتَّربيَـةُ تَخطيطٌ وأداءٌ وسُلوكٌ يُعبِّرُ عن استِجابَةٍ ، تتِمُّ بمَزيجٍ من الحُبِّ والرِّفقِ والموقِفِ الحازِمِ ، والمُرَبِّي المُتمكِّنُ الحَكيمُ هو الذي يَملِكُ المَقدرَةَ عَلَىٰ مَعرفَةِ مَواطِنِ اللِّينِ ومَواطِنِ الحَزمِ عَلَىٰ قاعدَةٍ دائمَةٍ من الحُبِّ مع المُتابعَةِ والتَّوجيه المُستمِرِّ .

ولَيسَ مَعنَىٰ التَّوجيهِ المُستمِرِّ المُحاسَبةُ عَلَىٰ كُلِّ هَفوَةٍ ، إنَّما تَعني تَنبُّه المُربِّي إلَىٰ سُلُوكِ مَنْ يُربِّيه ، سَواءٌ قَرَّر التَّنبيهَ أو التَّغاضي والتَّجاهُلَ ، دُونَما غَفلَةٍ لأنَّ الغَفلَةَ عَيبٌ في التَّربيَـةِ خَطيرٌ [1] .

وفيما يَلي بَعضٌ من الضَّوابطِ في مَنهَجِ الحُبِّ في التَّربيَـةِ النَّبـويَّةِ من الرَّسُولِ ﷺ لأصحابِه الذين اعتَنَىٰ بهم ووَجَّهَهُم ، فكَانُوا جِيلاً مُتمَيِّزاً ، صَاغَ للعَالَـمِ تَاريخاً مُشرِقاً مُشَرِّفاً .

(١) «منهج التربية الإسلامية» ، محمد قطب ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٦ ، بتصرف .

الضَّـابِطُ الأوَّل
الحُبُّ والبُغضُ في اللَّـهِ
(عَدمُ قبُولِ الشَّفاعَةِ في حَدٍّ من حُدودِ اللَّـهِ)

المحبَّةُ كما ذكرَ الإمامُ الغزاليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحيائِه: «إيثارُ المَحبُوبِ علَىٰ النَّفسِ» (١). وقد استغرقَ قَلبَ الرَّسُولِ ﷺ حُبُّ اللَّـه تعالى واستولَىٰ عَليه، فكَانَ هَواهُ في رِضَا اللَّـهِ، وحُبِّ ما يُحِبُّ ربُّه ويَرضَاهُ، ولا يبغض شَيئاً إلَّا ما يُغضِبُ اللَّـهَ، فلَمْ يَغضَبْ لنَفسِه قَطُّ أو يَنتَصِرْ لها، إلَّا إذا انتُهكَت مَحارِمُ اللَّـهِ، فإذَا انتُهكَت مَحارِمُ اللَّـهِ لَـمْ يَقُمْ لغَضَبِه شَيءٌ حَتَّىٰ يَنتصِرَ للَّـهِ، وتكُونَ كَلمَةُ اللَّـهِ هي العُليَا.

تَتحدَّثُ السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن الرَّسُولِ ﷺ في ذَلكَ فتَقُولُ: «واللَّـهِ ما انتَقَمَ لنَفسِهِ في شَيءٍ قَطُّ، حَتَّىٰ تُنتَهكَ حُرُماتُ اللَّـهِ، فيَنتَقِمُ للَّـهِ» (٢).

جاءَ في صَحيحِ البُخاريِّ أنَّ امرأةً في غَزوَةِ الفَتحِ من بَني مَخزُوم سَرَقَت، فأهَمَّ قُرَيشاً أمرُ هَـٰذه المَرأةِ المَخزُوميَّةِ، وكَبُرَ علَىٰ قُرَيشٍ أنَّ امرأةً منهُم يُقامُ عَليها الحَدُّ، فتَشاوَرُوا فيما بينَهُم من يُكلِّمُ رَسُولَ اللَّـهِ فيها؟ فقَالُوا: ومَنْ يَجترِئُ عَليه إلَّا أُسامَةُ ابنُ زَيْد، حِبُّ رَسُولِ اللَّـهِ، ففَزِعُوا إليه يَستَشفِعُونَه، فقَبِلَ أُسامَةُ ذَلكَ ظَنّـاً منه أنَّها شَفاعَةٌ حَسَنَةٌ، وكَلَّمَ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ فيها، فتلَوَّنَ وَجهُ الرَّسُولِ ﷺ من الغَضَبِ، وقَالَ: «**أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّـهِ؟**».

(١) «إحياء علوم الدين»، للإمام الغزالي، مرجع سابق، ج٤، ص ٣٤٩، ٣٧٩.
(٢) «صحيح البخاري»، كتاب الحدود، ص ١٢٠٧، رقم الحديث: ٦٧٨٦.

عَلِمَ أُسامَةُ عِظَمَ الأمرِ فتَراجعَ في الحَالِ عن شَفاعَتِه، وقَالَ: استَغفِرْ لي يا رَسُولَ اللَّـهِ. فلمَّـا كَانَ العَشيُّ قامَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ خطيباً، وقَالَ بَعدَ أن حمِدَ اللَّـهَ وأثنَىٰ عَليه بما هو أهْلُه: «**أمَّا بَعْدُ فإنَّمـا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيهِ الحَدَّ، والَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»(١).

إنَّ قُرَيشاً عَلِمَت مَكانَةَ أُسامَةَ في قَلبِ الرَّسُولِ ومَدَىٰ حُبِّه الشَّديدِ لَه، فهُو الحِبُّ بنُ الحِبِّ، ومَنْ لَه هَـٰذه المنزلة في قَلبِ الرَّسُولِ إلَّا أُسامَةَ! فأرادَتْ هَـٰذا الجَاهَ القَويَّ عِندَ النَّبيِّ لإسْقاطِ العُقُوبَة عن تِلكَ المرأةِ، ظَنّـاً منهم أنَّ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ الكَبيرَةَ لأُسامَةَ تَنفَعُ فيها هَـٰذه الشَّفاعَةُ، ولَـمْ يَعلَمُوا أنَّ حُبَّ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ للَّـهِ أعظَمُ! فلا تَنفَعُ شَفاعَةُ الحِبِّ بنِ الحِبِّ في حَدٍّ من حُدودِ اللَّـهِ، ولَوْ كَانَ غَيرَ ذَلكَ لقُبِلَت تِلكَ الشَّفاعَةُ بَلْ وأثْمَرَت، وقَد شَفَعَ الرَّسُولُ ﷺ للنَّاسِ في مَواقِفَ كَثيرَة لَـمْ يَكُنْ فيها حَدٌّ. ولكِنْ هَاهُنا لَـمْ تُرفَضْ تِلكَ الشَّفاعَةُ فحَسْب، بَلْ استَدعَتْ غَضبَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ لأنَّها أمرٌ يَتعلَّقُ بحُرُماتِ اللَّـهِ.

وزَادَ ﷺ في إيضاحِ الصُّورَةِ أمَامَ الجَميعِ، بأنَّ انتِهاكَ حُدُودِ اللَّـهِ لا شَفاعَةَ فيها حتَّىٰ لَوْ أتَىٰ أحبُّ وأقربُ النَّاسِ إليه، فَاطِمَةُ ابنَتُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي هي بِضعَةٌ مِنهُ، والتي لها في قَلبه مَنزِلَةٌ وتَكْرِيمٌ وإعْزازٌ لا يُضاهِيهِ أحَدٌ، لأقَامَ عَلَيها الحَدَّ، وأنفَذَ فيها حُكمَ اللَّـهِ، غَيرَ مُلتَفِتٍ لأُبُـوَّتِه لها، ولا لمكانَتِها لَدَيه فلا وَزْنَ لأيِّ حُبٍّ ولا لشَفاعَةٍ أمَامَ حُـبِّه لرَبِّه وتَنفيذِ ما أُمِرَ به من إقامَةِ العَدلِ في القَضاءِ؛ لأنَّ الكُلَّ سَواسِيَةٌ في المُقاضَاةِ أمَامَ حُكمِ اللَّـهِ وشَرعِه.

(١) «صحيح البخاري»، كتاب المغازي، ص ٧٤٩، رقم الحديث: ٤٣٠٤، ص٦٥٥، أرقام الأحاديث: ٣٧٣٢-٣٧٣٣، وص ١٢٠٧، أرقام الأحاديث: ٦٧٨٧-٦٧٨٨.

الضَّـابِطُ الثَّـاني
الحَـزمُ في الحُبِّ

إنَّ الحُبَّ عِندَ الرَّسُولِ ﷺ مظهرُ قُوَّةٍ وعَطَاءٍ مَديدٍ ، لا مَظهَرُ ضَعفٍ واستِكانَةٍ وتَقييدٍ . وقد عَلَّمنا ﷺ في مَواقِفَ نبويَّةٍ تربَويَّةٍ كَثيرَةٍ أنَّ الحُبَّ لا يَعنِي الضَّعفَ ، بَلْ إنَّ القُوَّةَ تكمُنُ فيه . فلَوْ فعلَ المَحبُوبُ أمراً استَدعَىٰ فيه المُراجَعَةَ في بَعضِ المَواقِفِ ، والوُقُوفَ عِندَها فإنَّ من الرَّحمَةِ به استِخدامُ الحَزمِ مَعه والإعراضُ عَنه! واختيارُ العُقوبَةِ التي تُناسِبُ نَوعيَّةَ الخَطأ دُونَ تَهويلٍ أو تَهوينٍ ، ليُقَوِّمَ ذَلكَ من اعْوِجاجِه ، إذا لَـمْ يَكُنْ من ذَلكَ بُدٌّ لتَحقيقِ الإصلَاحِ ، فذَلِكَ من مُقتَضَىٰ العَدلِ وكَمالِ العَقلِ ، وسَنستَعرِضُ بَعضاً من نَماذجِ الحُبِّ مع الحَزمِ في التَّربيَـةِ النَّبـوِيَّةِ :

الهَجرُ الجَميلُ :

تَجلَّت الحِكمَةُ النَّبـوِيَّةُ في مُعالجَة كُلِّ مَوقِفٍ بما يُناسِبُه من المَفاهيم التَّربَويَّةِ ، إمَّا تَغاضٍ عن المُخطِئ ، أو تَوجيهٍ للتَّنبيه ، أو شِدَّةٍ قد تَصلُ إلَىٰ الهجرِ أحيَاناً في مُواجَهةِ الخَطأ ، وذَلكَ لإشعارِ المُخطِئ فدَاحَةَ خَطئِه ، وحَثِّه عَلَىٰ تَعديلِ سُلُوكِه .

وقد سَنَّ لنا ﷺ في ذَلكَ الهَجر الجَميل ، ويَتجَلَّىٰ ذَلكَ عندما طَلبَت منه بَعضُ نِسائه زِيادَةَ النَّفَقةِ ، وهُنَّ نِساءُ النَّبيِّ تابِعَاتٌ له في عَيشِه وتَقشُّفه وتَواضُعِه وزُهدِه في هَـٰذه الفانيَة ، لَـمْ يَرُقْ له ذَلكَ بَلْ وآذاهُ ، لأنَّه هو المُخيَّرُ عِندَ رَبِّه بَينَ أنْ يَكُونَ نَبيّـاً مَلِكاً أو نَبيّـاً عَبداً؟ فاختَارَ أنْ يَكُونَ نَبيّـاً عَبداً ،

وآثَرَ العَيشَ الخَشِنَ عَلَىٰ التَّرفِ والتَّنَعُّم ؛ لأنَّه لا يُريدُ شَيئاً من هَـٰذه الحَياةِ الدُّنيـا ، فما عند رَبِّه في الآخِرَةِ خَيرٌ وأَبقَىٰ .

ولَـمْ يقبَلْ ﷺ من «أَبي بَكْرٍ» أنْ يحتَدَّ مَع «عائشَةَ» ، ولا مِنْ «عُمَرَ» مَع «حَفْصَةَ» في مَوقِفِ هَـٰذه المُراجَعةِ ، فالمَسألَةُ مَسألَةُ مَشاعِرٍ ومُيُولٍ بَشريَّةٍ تُعالَجُ وتُداوَىٰ ، لا تُخمَدُ وتُكبَتُ . لذَلكَ آثَرَ ﷺ هَجرَهُنَّ ، واعْتزَلَـهُنَّ شَهْراً كَامِلاً ، في حَزمٍ لَـمْ يَألَفْنَه من قَبلُ . فرَوَّعَ ذَلكَ الأمرُ نُفُوسَهُنَّ جَميعَهُنَّ ، وانكَمَشْنَ في بُيُوتِهِنَّ نادِمَاتٍ حزيناتٍ ، لأنَّ الأمْرَ تَجاوَزَ ما قَدَّرنَ ، ومالَـهُنَّ من عاصِمٍ إذا لَـمْ تُدرِكْهُنَّ رَحمَةُ اللَّـهِ ، وعَفوُ رَسُولِه ﷺ .

وبَعدَ شَهرٍ من اعتزالِـهِنَّ ، نَزلَت الآيَتَانِ الكَريمَتانِ [1] تُؤيِّدانِ الرَّسُولَ ﷺ في تَخييرِهِنَّ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [2] .

فخَرجَ ﷺ من عُزلَتِه ، وخيَّرهُنَّ بَينَ : الدُّنيـا ، وبَينَ اللَّـهِ ورَسُولِه والدَّارِ الآخِرَةِ ، فاختَرنَ جَميعُهُنَّ اللَّـهَ ورَسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ ، دُونَما أَدنَىٰ تَردُّدٍ ، فانفرَجَ قَلبُ الرَّسُولِ ﷺ بارتِفاعِ قُلُوبِ أزواجِه إلَىٰ هَـٰذا الأُفُقِ السَّامِي الوَضيءِ ، وإلَىٰ مُستَوىٰ القِيَمِ التي يُريدُها اللَّـهُ له ولأهْلِ بَيتِه ، فعَادَ إلَيهِنَّ ، وعَادَ الوُدُّ والوِئامُ .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) «صحيح البخاري» ، باب من خير أزواجه ، الحديث رقم : ٥٢٦٢-٥٢٦٣ ، ص ٩٦٦ ، وانظر : «نبي الهدى والرحمة» ، د.عبد المجيد البيانوني ، ص ٣٥٠ ، وانظر : «عبقرية محمد» ، لعباس العقاد ، ص ١١٣ ، وانظر : «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، ٢/ ٤٠٢ .

ولَنا في مِثالٍ آخر وَقفَةٌ . نَذكُرُ ما جَرَىٰ للسَّـيِّدَةِ «زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ» مع السَّـيِّدَةِ «صَفِـيَّة» رَضِيَ اللهُ عَنهُما ، وقد حَدَّثَت السَّـيِّدَةُ عائشَةُ عن زَيْنَبَ فقَالَت : «كَانَتْ تُسَامِينِي مَنْزِلَةً عِنْدَ الرَّسُولِ ، ولَـمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْراً في الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ ، وأَتْقَىٰ للَّـهِ وأَصْدَقَ حَديثاً ، وأَوْصَلَ لِلرَّحِم ، وأَعْظَمَ صَدَقَـةً وتَقَرُّباً إِلَىٰ اللَّـهِ تَعالَىٰ مِنْهَا ، مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا» (١) .

والقِصَّةُ التي نَحنُ بِصدَدِها الآنَ ، هي : أَنَّ السَّـيِّدَةَ «زَيْنَبَ» والسَّـيِّدَةَ «صَفِيَّةَ» زَوْجَـتا الرَّسُـولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كانَتا مَعَه في سَـفَرٍ ، فاعـتَلَّ بَعـيرُ «صَفِـيَّة» ، وفي بَعـيرِ «زَيْنَبَ» فَضْلٌ (٢) ، فطَلبَ رَسُـولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ من «زَيْنَبَ» بَعِـيراً لـ «صَفِـيَّة» ، فقَالَت : «أَنا أُعْطِي تِلْكَ اليَهُودِيَّة»! ، تَنفيساً منها ؛ لأَنَّها تُنافِسُها في قَلبِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، فالغِيرَةُ طَبيعَةٌ فِطريَّةٌ في النِّساءِ حَتَّىٰ ولَوْ كُنَّ أُمَّهاتِ المُؤمِنينَ ، فوَلَّىٰ عَنها صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مُغضَباً من كَلِمَتِها ضِدَّ أُختِها السَّـيِّدَة «صَفِـيَّة» .

ومَع كُلِّ مَا يَحمِلُه الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ من حُبٍّ للسَّـيِّدَةِ «زَيْنَبَ» كَما أَخبَرَت بذَلكَ السَّـيِّدَةُ «عائشَةُ» ، فقَد تَركَها شَهرَينِ إِلَىٰ ثَلاثَة ، من ذِي الحِجَّة إِلَىٰ مُحرَّم وصَفَر لا يَقرَبُها ، لتَشعُرَ بخَطَئِها من تِلكَ الكَلِمَة في تِلكَ الحِدَّةِ والسَّورَةِ ، وقد حَاوَلَت «زَيْنَبُ» مِراراً خِلالَها استِرضَاءَ زَوجِها الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ .

فلَمَّا كَانَ شَهرُ رَبيع الأَوَّل ، أَتاهَا رَسُولُ اللَّـهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، وتَحقَّقَ لها ما تُريدُ ، فسَعِدَت بذَلكَ سَعادَةً بالِغَةً ، وقَالَت لَه حِينَ دَخلَ عَلَيها : ما أَدرِي ما أَجْزِيكَ؟

(١) انظر في وصف السيدة عائشة للسيدة زينب : «صحيح مسلم» ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة ص ١٨٩١-١٨٩٢ ، رقم الحديث : ٢٤٤٢ .

(٢) زيـادة .

وكَانَ لها جارِيَةٌ ، فأَهدَتْها للرَّسُولِ ﷺ فَرَحاً بعَودَتِه إلَيها ورِضَاهُ عَنها ، وإذْعاناً بخَطَئِها ذَاكَ وكَلمَتِها غَيرِ اللاَّئقَةِ في حَقِّ أُختِهَا السَّيِّدَةِ «صَفِيَّة» ؛ لأنَّ هَـٰذا المَوقِف لَـمْ يكُنْ في بِدايَةِ زَواجِ النَّبيِّ ﷺ من السَّيِّدَةِ «صَفِيَّة» ، وحَيثُ يَقَعُ في الظَّنِّ أنَّها لَـمْ تُعلِنْ إسلامَهَا ، بَلْ حَدَثَ ذَلكَ المَوقِفُ قُربَ وَفَاةِ النَّبيِّ ﷺ ، أي : بَعدَ أنْ أَعلَنَت إسلامَها ، فكَانَ نَعتُ السَّيِّدَةِ «صَفِيَّة» باليَهُوديَّةِ غيرُ مُبَرَّرٍ عَلَىٰ الإطلاقِ ، ويَحتَاجُ إلَىٰ رَدَّةِ فِعلٍ قَويَّةٍ ، وحَزم شَديدٍ يُعِيدُ الأُمُورَ إلَىٰ نِصَابِها ، فكَانَ هَـٰذا الهَجْرُ الطَّويلُ المُدَّةِ نِسبيًّا عِلاجاً ناجِعاً .

ثُمَّ إنَّ الرَّسُولَ ﷺ بعدَ عَودِهِ إلَيها عَادَ إلَىٰ ما كَانَ عَلَيه مَعَها [1] .

وكَذلكَ لَنا مِثالٌ في الثَّلاثَةِ الذينَ تَخَلَّفُوا عَن غَزوَةِ تَبُوك بدُونِ عُذرٍ من مَرَضٍ أو قِلَّةٍ ، وصَدَقُوا اللَّـهَ ورَسُولَه دُوناً عن المُنافِقينَ الذين كَذَبُوا اللَّـهَ ورَسُولَه ، وأتَوا إلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ بأعْذَارٍ ، فتَقبَّلَ ﷺ مِنهُم عَلانِيَتَهُم ، وأوْكَلَ سَرائرَهُم إلَىٰ اللَّـهِ ، وأُجِّلَت عُقُوبَتُهُم إلَىٰ الآخِرَةِ .

أمَّا عُقوبَةُ الثَّلاثَةِ الذينَ تَخَلَّفُوا بغَيرِ عُذرٍ ، والذينَ صَدَقُوا اللَّـهَ ورَسُولَه ، فقَد أمَر ﷺ بهَجرِهِم ، تكفِيرًا لهم حَتَّىٰ يَنزِلَ حُكمُ اللَّـهِ فِيهِم .

يَقُولُ كَعبُ بنُ أُبَي في هَـٰذه الحادِثَة ، وهو أحَدُ الثَّلاثَةِ الذين تَخَلَّفُوا رضي الله عنهم : «كُنتُ أَشَبَّ القَومِ وأجْلَدَهُم ، فكُنتُ أَشْهَدُ الصَّلاةَ مَع المُسلِمينَ ، وأطُوفُ

---

(١) «الطبقات الكبرى» ، لابن سعد ، مرجع سابق ٨/ ١٢٧ ، وانظر أيضاً : «تراجم سيدات بيت النبوة» ، د.عائشة عبد الرحمن ، ص ٢٩٣ ، وانظر : «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، ٢/ ١٤٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٨ .

في الأسْوَاقِ ، ولا يُكَلِّمُنِي أحَدٌ ، وآتِي رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ فأُسَلِّمُ عَليه وهُو في مَجلِسِه بَعدَ الصَّلاةِ ، فأقُولُ في نَفسي : هَلْ رَدَّ السَّلامَ أمْ لا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَريباً منه ، فأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فإذَا أَقبلتُ عَلَىٰ صَلاتِي أقْبَلَ إليَّ ، وإذَا التَفَتُّ نَحوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي» (١) .

حاشَا ﷺ ألَّا يَرُدَّ السَّلامَ ، وما تِلكَ النَّظَراتُ من سَيِّدِ المُحِبِّينَ إلَّا حُبٌّ وحُنُوٌّ وشَفَقةٌ وتَربيَةٌ وتَوجيهٌ ، إنَّه أُسلُوبٌ رائعٌ ، وحِكمَةٌ عَظيمَةٌ من رَسُولٍ أعْظَم ، يُشعِرُهُ بالعَطفِ والوُدِّ ، ويَمُدُّهُ بالحُبِّ بطَريقَةٍ غَيرِ مُباشَرَةٍ ، فإذَا التَفت إلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ مُباشَرةً أعرَضَ عَنه إشْعَاراً لَه بأنَّه الحَزمُ في تَنفيذِ العِقَابِ .

لقَد هَجَرَ ﷺ هؤلاءِ الأصنافِ جَميعاً هَجْراً جَميلاً مُؤثِّراً ، اكتَفَىٰ به عن أيِّ كَلِمَةٍ أو تَأنيبٍ أو تَوبيخٍ ، أو عِتابٍ حَتَّىٰ بَعدَ العَوْدِ والصَّفاءِ ، فالحُبُّ عِندَما يَرسَخُ ، ويَتمَكَّنُ ، ويَكُونُ قَوِيّاً يُصبِحُ الهَجرُ فيه من الحَبيبِ للمُحِبِّ المُخطِئِ أقْسَىٰ عَلَىٰ النَّفسِ من أيِّ عِقابٍ .

بَلْ وتَعجِزُ الكَلِماتُ والعِباراتُ والعِتَاباتُ من أنْ تُؤثِّرَ تَأثِيرَ هَـٰذا الصَّمتِ البَليغِ ، الذي يُراجِعُ فيه المُحِبُّ المُخطِئُ أَوراقَه ، ويُعيدُ تَرتيبَهَا من جَديدٍ ، ويَتحَمَّلُ مَسؤوليَةَ خَطَئِه ، ويُنَمِّي في نَفسِه مَهارَةَ ضَبطِ النَّفسِ ، ليَصِلَ إلَىٰ السُّلُوكِ الصَّحيحِ القَويمِ .

(١) حديث نهي النبي المسلمين عن كلام كعب وأصحابه في «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب : باب ما يجوز من الهجران لمن عصىٰ ، ص ١٠٩٣ ، رقم الحديث : ٦٠٧٨ ، وانظر أيضاً : «فقه السيرة» ، محمد الغزالي ، ص ٤١٠ - ٤١٣ .

الضَّـابِطُ الثَّالث
التَّوازُنُ في الحُبِّ

العَقلُ والعاطِفَةُ نافِذَتانِ يَدخُلُ مِنهُما نُورُ الهِدايَةِ ويَستَقِرُّ في الوَعي، ويَنقَادُ المَرءُ لِما يَتَّجِهانِ إلَيه، ويُبَصِّرانِه بِه، وفي تَكافُلِهِما حِفظٌ من الزَّلَلِ، وفي مُناجاتِهِما تَوافُرٌ لأسبابِ الرُّشدِ [1]، وذَلكَ هو التَّوازُنُ بَينَ العَقلِ والعاطِفَةِ يَمنَحُهُما المُرَبِّي، والذي يُفضي إلى الحِيطَةِ في التَّوجِيهِ، وحُسنٍ في التَّربيَـة. ونَستَعرِضُ فيما يَلي أهَمَّ مُقَوِّماتِ التَّوازُنِ بَينَ العَقلِ والمَشاعِرِ في الحُبِّ:

١ـ الحُبُّ بَينَ التَّفريطِ والإفْراطِ.

٢ـ العَدلُ في الحُبِّ.

٣ـ الحُبُّ والحُـزنُ.

٤ـ الحُبُّ والغِيرَةُ والغَضَبُ.

٥ـ الحُبُّ والكُرهُ.

---

(١) «العاطفة الإيمانية وأهميتها في العمل السياسي»، د. محمد موسى الشريف، دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٧م، ص ٧١.

(١) الحُبُّ بَينَ التَّفريطِ والإفْرَاطِ

قد تَتحَجَّر العاطِفَةُ إذا كُبِتَت ، ولَـمْ يُسمَح للمَشاعِرِ أنْ تَسيلَ وتَنسابَ لتَبُوحَ عن ذاتِها ، وهَـٰذا هو التَّفريطُ ، وقد لا تَتماسَكُ هَـٰذه العاطِفَةُ أيضاً وَحدَها ، بَلْ تَلينُ وتَرِقُّ حَتَّىٰ تَتأَثَّرَ بكُلِّ ما يَعرِضُ لها دُونَ رَوِيَّةٍ أو مُوازَنَةٍ بَينَ ضَارٍّ ونافِعٍ ، وذَاكَ هو الإفراطُ ، ذَلكَ إذا لَـمْ يُسعِفْها تَهذيبٌ أو يُصادِفْها تَوجِيهٌ ، فيَكُونُ للعَقلِ مَوقِفٌ من الرُّشدِ والتَّرجيحِ والاختِيارِ واجتِذابِ العاطِفَةِ نَحوَهُ ، فالعَقلُ لِـجَـامُ العاطِفَةِ .(١)

وقد عَلَّمَنا ﷺ عدمَ التَّفريطِ بالحُبِّ وإضاعَتِه ؛ لأَنَّ البَعضَ يَرَىٰ أَنَّ الحُبَّ المَليءَ بمَشاعِرِ الوُدِّ والشَّفقَةِ والرَّحمَةِ مَظهَر من مَظاهِرِ الضَّعفِ الذي يُودِي بصاحِبِه .

فكُلَّما زادَت مَشاعِرُ الحُبِّ في الظُّهُورِ زادَ الضَّعفُ وفُقدانُ الهَيبَةِ أَمَامَ المَحبُوبِ ، وخُصُوصاً في ذَلكَ العَصرِ الذي عاشَهُ الرَّسُولُ ﷺ بَينَ قَومِه ، والذي قَلَّ المَرءُ أنْ يُظهِرَ فيه مَشاعِرَهُ ، فيَكُونُ التَّفريطُ الذي يُؤدِّي إلى تَحجُّرِ العاطِفَةِ .

وعَبَّر عن ذَلكَ الأَقْرَعُ بنُ حَابِس ، الذي يَملِكُ عَشرَةً من الوَلَدِ ، ولَـمْ يُقَبِّلْ أَحَدَهُم مَرَّةً كَيلا تُخدَشَ هَيبَتُه ، واستَغرَبَ أنْ رَأَىٰ الرَّسُولَ ﷺ وما أُوتيَ من هَيبَةٍ يُقَبِّلُ حَفيدَهُ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ! ولكِنَّ رَسُولَنا ﷺ لَـمْ

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ .

يُعجبْهُ ذَلكَ ، ولامَهُ بشِدَّةٍ قائلاً لَه : «**أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّـهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ**»؟! ، وفي رِوايَة أُخرَىٰ : نَظَر إليه رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ لَه : «**مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ**» (١) .

وعَلَّمَنا ﷺ أيضاً في ذَلكَ المِيزانَ من الهَدي النَّبَـوِيِّ في الحُبِّ عَدمَ الإفْراطِ فيه ، فتَضيعُ الحقُوقُ ، ويَذهَبُ العَدلُ لشِدَّة المَيلِ لِـمَنْ نُحِبُّ ، وذَلكَ ما حَدَّثَ النُّعْمانُ بنُ بَشِيرٍ عن نَفسِه : أَنَّ أَباهُ انطَلَقَ به إلَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ يحمِلُه وهو صَغيرٌ ، فقَالَ : يا رَسُولَ اللَّـهِ! إنِّي أُشْهِدُكَ أَنِّي نَحلتُ النُّعْمانَ كَذا وكَذا ، فقَالَ ﷺ : «**أَكُلُّ وَلَدِكَ نَحلْتَ؟**» قَالَ : لا ، قَالَ : «**فَأَشْهِدْ غَيْرِي**» ، ثُمَّ قَالَ : «**أَلَيسَ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا في البِرِّ سَوَاءً؟**» ، قَالَ : بَلَىٰ ، قَالَ : «**فَلَا إذاً**» (٢) .

وفي رِوايَةٍ أُخرَىٰ عن النُّعْمانِ ، يَقُولُ : أَعطَاني أَبي عَطيَّةً ، فقَالَت عَمرَةُ بِنتُ رَواحَة : لا أَرضَىٰ حَتَّىٰ تُشهِدَ رَسُولَ اللَّـهِ ، فأتَىٰ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ ، فقَالَ : إنِّي أَعطَيتُ ابنِي مِنْ عَمرَةَ بنتِ رَواحَة عَطيَّةً ، فأمَرَتني أنْ أُشهِدَكَ يا رَسُولَ اللَّـهِ ، قَالَ : «**أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَـٰذا؟**» ، قَالَ : لا ، قَالَ : «**فَاتَّقُوا اللَّـهَ ، واعْدِلُوا بَينَ أَوْلَادِكُمْ**» ، قَالَ : فرَجَعَ ، فرَدَّ عَطيَّـتَه (٣) .

لَـمْ يرضَ الرَّسُولُ ﷺ أنْ يَشهَدَ عَلَىٰ هَـٰذه العَطـيَّةِ ، لأَنَّ ذَلكَ التَّفضِيلَ فيه ظُلْمٌ ، وهو يُوغِرُ الصُّدُورَ ، ومُقدِّمَةٌ لقَطعِ الرَّحِمِ والعُقُوقِ فيما بَعدُ ، وهُما

(١) الأحاديث في ذلك في «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، الأحاديث رقم : ٥٩٩٧-٥٩٩٨ ، وانظر : «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، ٥٠ - باب قبلة الصبيان ، الأحاديث رقم : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٨ .

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، باب أدب الوالد وبره لولده ، الحديث رقم : ٩٣ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب الهبة وفضلها ، باب الإشهاد في الهبة ، الحديث رقم : ٢٥٨٧ .

مُحرَّمانِ ، وما يُؤدِّي إلَيهما يَكُونُ مُحرَّماً ، ولا شَكَّ أنَّ هـٰذا التَّفضِيلَ في العَطاءِ لشِدَّةِ المحَبَّـةِ يُؤدِّي إليهما ، فيُورِثُ العَداوَةَ والقَطيعَةَ .

ففي التَّسويَةِ بالهِبَةِ تَأليفٌ للقُلُوبِ ، والتَّخصيصُ يُورِثُ الوَحشَةَ والبُغضَ ، ويَعرِضُ في قَلبِ المَفضُولِ مَا يَمنَعُه من البرِّ ؛ لأنَّ القَرابَةَ يَنْفَسُ بَعضُهُم بَعضاً . لذَلكَ قَالَ النَّبيُّ ﷺ : «**إعْدِلُوا بَينَ أَوْلَادِكُمْ في العَطِيَّةِ**» [1] .

فلا تَفريطَ في الحُبِّ الذي يُفضي إلَىٰ جُمُودِ العاطِفَةِ ، ويُجفِّفُ يَنابيعَ المَشاعِرِ ، ولا إفْراطَ فيه بإعْطاءِ المَحبُوبِ فَوْقَ ما يَستَحقُّ ، وتَخصيصه عَلَىٰ حِسَابِ غَيرِه ، فذَلِكَ يُؤدِّي إلَىٰ الضَّغينَةِ ، بَلْ عَلَينا بالوَسَطيَّةِ والاعتِدَالِ .

(٢) العَدلُ في الحُبِّ

وَرَدَ في تَعريفِ العَدلِ أنَّه ضِدَّ الجَـوْرِ [2] .

والمَقصُودُ بالعَدلِ في الحُبِّ الإنْصَافُ في التَّعامُلِ ، وإعطَاءِ الأفرادِ الذين لَهم دَرجَةٌ واحِدَةٌ من القَرابَةِ مالَهم من حُقُوقٍ دُونَ شَطَطٍ لأحَدِهِم أو إجْحَافٍ بالآخَرِ . فالحُبُّ مَيلٌ قَلبيٌّ لا يُؤاخِذُ اللَّـهُ به ، فهُو مِنحَةٌ من الوَهَّابِ ، والقَلبُ بَينَ أصابعِ الرَّحمَـٰنِ ، يُقلِّبُه كَيفَ يَشاءُ ، ولكِنَّ اللَّـهَ يُؤاخِذُ في عَملِ الجَوارِح ، فالتَّكليفُ بِما يَستَطيعُه المَرءُ ، وبِما بِوسعِه فِعلُه .

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب الهبة وفضلها ، باب الهبة للولد ، وإذا أعطى بعض ولده شيئًا لم يجز ، حتى يعدل بينهم ويعطي الآخرين مثله ، ولا يُشْهَدُ عليه .

(٢) «مختار الصحاح» ، مرجع سابق ، مادة (ع د ل) ، ص ٣٦٧ .

عن عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَت : «كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يَقسِمُ فيَعدلُ (١) ، ويَقُولُ : «**هَـٰذَا قَسمِي فِيمَـا أَمْلِكُ ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَـا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ**» ، يَعنِي القَلبَ (٢) ، وذَلكَ في مَيلِ القَلبِ وزِيادَةِ المَحبَّـةِ .

فالعُلماءُ أَجمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ العَدلَ بَينَ الزَّوجاتِ يَكُونُ في غَيرِ مَيلِ القَلبِ ؛ لأَنَّ الإنسانَ لا يَملِكُه ، ولا يُكلِّفُ اللَّـهُ نَفساً إلَّا وُسعَهَا ، وثابِتٌ في قَواعِدِ الشَّريعَةِ المُقرَّرَةِ أَنَّه لا تكليفَ إلَّا بمَقدُورٍ (٣) .

وقد كَانَ ﷺ يَفعَلُ كُلَّ ما بوسعِه للعَدلِ بَينَ نِسائِهِ ، والمُساوَاةِ بَينَهُنَّ في كُلِّ شَيءٍ سَفَراً وحَضَراً .

فكَانَ ﷺ إذَا أرادَ سَفَراً أَقْرَعَ بَينَ نِسائِه (٤) ، فأَيَّتهُنَّ خَرجَ سَهمُها خَرجَ بها ، وكَانَ يَقسِمُ لكُلِّ امْرأةٍ مِنهُنَّ يومَها ولَيلَتَها ، غَيرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنت زَمْعَة عِندَما كَبُرَ سِنُّها ، وَهَبَت يومَها ولَيلَتَها لعائشَةَ ، بِرضىً منها وطَواعِيَةً ، تُرِيدُ بذَلكَ مَسرَّةَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ (٥) .

وقد عُلِمَ عن النَّبيِّ ﷺ حُبَّهُ الشَّديدَ لعائشَةَ ، غَيرَ أَنَّه لَـمْ يُمَيِّزْها ، أو يَختَصَّها بلَيلَةٍ ولا بسَفَرٍ ولا بعَطَاءٍ ، سِـرّاً ولا جَهراً ولا بشَيءٍ دُونَ سَائِرِ نِسائِه .

(١) يُراعِي العَدلَ .

(٢) «الترغيب والترهيب» من الحديث الشريف ، ج٣ ، الترهيب من ترجيح إحدى الزوجات ، وترك العدل بينهن ، ص ٦٠ ، يقول : رواه أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه .

(٣) انظر : http://www.jameataleman.org موقع جامعة الإيمان ، للأستاذ محمد أحمد الوزير ، قسمي فيما أملك .

(٤) «صحيح البخاري» ، باب القرعة بين النساء إذا أراد سفراً ، رقم الحديث : ٥٢١١ ، ص ٩٥٨ .

(٥) «صحيح البخاري» ، كتاب الهبة وفضلها ، الحديث رقم : ٢٥٩٣ ، ص ٤٤٧ ، وانظر : «تراجم سيدات بيت النبوة» ، عائشة عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص ١٨٨-١٨٩ .

وقد كَانَ المُسلِمُونَ في عَهدِ النَّبيِّ ﷺ يعلَمُونَ ذَلكَ الحُبَّ الكَبيرِ من النَّبيِّ ﷺ للسَّـيِّدَةِ عائشَةَ ، ومَكانَتِها لَدَيه ، لِذَا يَتحَرَّوْنَ بِهَداياهُم يومَهَا ، يَبتَغُونَ بذَلكَ رِضَا الرَّسُولِ ، فكَانَ ﷺ يَقسِمُ ويُرسِلُ لكُلِّ زَوجَةٍ نَصيبَهَا إلَيها مِمَّا يَتلَقَّىٰ ، وهو في بَيتِ عائشَةَ (١) عَدلاً مِنهُ وجَبراً لخَواطِرِهِنَّ ، حَتَّىٰ في مَرضِ وَفاتِه ﷺ عِندَما ثَقُلَ مَرَضُه ، واشتَدَّ أَلَـمُهُ ووَجَعُه ، وبَلَغَ به الإعْياءُ أَشُدَّه ﷺ لَـمْ يَرضَ أنْ يُمَرَّضَ في بَيتِ عائشَةَ إلَّا بَعدَ أنْ استَأذَنَ أزْواجَهُ جَميعَهُنَّ ، وأَذِنَّ لَه بذَلكَ . كُلُّ ذَلكَ لِتَألُّفِهِنَّ وتَألُّفِهِنَّ والتَّوَدُّدِ إلَيهِنَّ بالعَدلِ في القِسمَةِ بَينَهُنَّ (٢) .

فالعَدلُ في المُعامَلَةِ يُشيعُ الحُبَّ بَينَ الأفْرادِ .

(٣) الحُبُّ والحُـزْنُ

إنَّ الرَّحمَةَ والعَطفَ الأبَويَّ فِطرَةٌ ، فَطرَ اللّٰـهُ النَّاسَ عَلَيها ، وتَتجَلَّىٰ قُوَّةُ هَـٰذه العاطِفَةِ عِندَ المَصائبِ وشِدَّةِ الحُزنِ والأَلَـمِ عَلَىٰ مَن فُقِدَ ، فإذَا أَلَـمَّتْ المُصيبَةُ بأَرحَمِ الآباءِ وأعطَفِهِم سَـيِّدِنا مُحمَّدٍ ﷺ فكَيفَ يَكُونُ حُزنُه؟

(١) الحديث في «صحيح البخاري» ، كتاب الهبة وفضلها ، باب قبول الهدية ، ص٤٤٤ ، الحديث : ٢٥٧٤ ، وانظر : «السنن الكبرى» ، للنسائي ، مرجع سابق ، ٨/ ١٥٤ ، الحديث : ٨٨٤٨ ، وانظر : «تراجم سيدات بيت النبوة» ، سيرة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها ، ص ٢٢٣ .

(٢) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الهبة وفضلها ، باب قبول الهدية ، حديث يتحرون يوم عائشة ، رقم : ٢٥٧٤ ، ص٤٤٤ ، وورد في باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض ، الأحاديث رقم : ٢٥٨٠-٢٥٨١ ، ص٤٤٥ ، وأحاديث القرع بين نسائه ﷺ ، رقم : ٢٥٩٣ ، واستئذانه نساءه في مرض الوفاة حديثين الأول : رقم : ٢٥٨٨ ، ص ٤٤٧ ، والثاني رقم : ٣٧٧٤ ، ص ٦٩٥ .

فقد اتَّقَىٰ ﷺ من شِدَّةِ رَحمَتِه وعَطفِه رُؤيَةَ طِفلٍ لابنَتِه وهو يَمُوتُ لشِدَّةِ حَنانِه ورِقَّةِ قَلبِه ، وعِندَما أرسَلَت إلَيه ، تُقسِمُ عَلَيه أنْ يَأتِيَها قَامَ ، وقَامَ مَعَه رِجالٌ كَانُوا عِندَه ، مِنهُم سَعدُ بنُ عُبادَة ، فَرُفِعَ الصَّبيُّ إلَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ونَفسُهُ تَتَقَعْقَعُ ، ففَاضَتْ عَيناهُ ﷺ ، فقَالَ سَعدٌ ، ظَنّاً منه أنَّ النَّبيَّ لا يَحزَنُ : يا رَسُولَ اللَّـهِ ، ما هَـٰذا؟ فقَالَ ﷺ : **«رَحـمَةٌ جَعلَهَا اللَّـهُ في قُلُوبِ عِبَادِهِ ، وإنَّما يَرْحَمُ اللَّـهُ من عِبَادِهِ الرُّحَمَـاءَ»** (١) .

فهو وإنْ كَانَ نَبيَّـاً إلَّا أنَّ نُبُـوَّتَه لَـمْ تُخرِجْه عن بَشَرِيَّتِه ، فهُو يأْلَـمُ كَما يَأْلَـمُونَ ، ويَرِقُّ كَما يَرِقُّونَ ، وهَـٰذه العاطِفَةُ الحَـيَّةُ القَوِيَّةُ مع حَفيدِهِ! فكَيفَ بشُعُورِه وحُزنِه علَىٰ فَلذَةِ كَبِدِه إبْراهِيم؟

لقَد تَهلَّلَ ﷺ كَثيراً لِـمَقدَمِ ولَدِه إبْراهِيم ، فهُو أوَّلُ مَولُودٍ له من نِسائِه جَميعِهِنَّ بَعدَ خَديجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها وبَعدَ طُولِ انتِظارٍ ، وقد أسْماهُ إبْراهِيمُ تَيمُّناً باسمِ أبِيه إبْراهِيم عَلَيهِ السَّلَام .

وكَانَ يُسْتَرضَعُ هَـٰذا الحَبيبُ الصَّغيرُ في ناحِيَةِ المَدينَةِ ، فكَانَ النَّبيُّ ﷺ يَأتي إلَيه مَعَ أصحابِهِ فيُقَبِّلُه ، ويَشُمُّهُ (٢) حُبّاً لَه .

وبمِقْدارِ ابتِهاجِه وفَرحِه الكَبيرِ بِه ، والحُبِّ الذي يَحمِلُه لَه كَانَ الحُزنُ المُوجِعُ والمُؤلِـمُ للرَّسُولِ ﷺ يومَ فِراقِهِ وساعَةَ وَداعِهِ ، يَقُولُ أنَسُ بنُ مَالِك رَضِيَ اللهُ عَنه : دَخَلْنَا علَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ وإبْراهِيمُ يَجُودُ بنَفسِهِ ، فجَعلَتْ عَيْنَا

(١) الحديث كامل موجود في «صحيح البخاري» ، كتاب الجنائز ، رقم الحديث : ١٢٨٤ .

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، باب رحمة العيال ، الحديث رقم : ٣٧٦ ، ص ٢١٤ .

رَسُولِ اللَّـهِ تذرِفَانِ ، فقَالَ له عَبدُ الرَّحمَـنِ بنُ عَوفٍ ﵁ : وأنت يا رَسُولَ اللَّـهِ؟ فقَالَ : «**يَا ابْنَ عَوْف ، إنَّها رَحْمَةٌ**» ، ثُمَّ أَتبَعْها بأُخرَىٰ ، فقَالَ ﷺ : «**إنَّ العَيْنَ لَتدمَعُ ، والقَلْبَ يَحْزَنُ ، ولا نَقُولُ إلَّا مَا يُرضي رَبَّنا ، وإنَّا بِفراقِكَ يا إبْراهِيمُ لَـمَحْـزُونُونَ**» (١) .

مَاتَ الصَّغيرُ وهو دُونَ السَّنتَينِ . في سِنٍّ يَتَّجِهُ العَطفُ الإنْسانيُّ كُلُّه نَحوَهُ ، وحَزِنَ الرَّسُولُ ﷺ علَىٰ فَقدِ مَنْ أحبَّ ، كأشَدِّ ما يَنبَغِي حُزْنَ وَالِدٍ حَنُونٍ جاوَزَ السِّـتِّينَ ثُكلَ بوَلَدِه ، ولَيسَ هُناكَ رَجاءٌ بوَلَدٍ آخر ، يَخلُفُه في مُصيبتِه .

ولكِنَّ ذَلكَ الحُزن لَـمْ يكُنْ لِيستَولِيَ عَلَيه ويُثْنِيهِ عَنْ رِسالَتِه ، ذَلكَ أنَّ الشَّمسَ كَسفَتْ أثناءَ ذَلكَ (٢) ، وفي غَمرَةِ الحُزنِ الذي كَانَ فيه الرَّسُولُ ﷺ حَسِبَ النَّاسُ أنَّ كُسُوفَ الشَّمسِ لِـمَوتِ إبْراهِيمَ ، سَمِعَ ﷺ ذَلكَ . ومَع كُلِّ ما فيه من أَلَـمٍ وأَسَىٰ ، والذي لَوْ كَانَ في جَبَلٍ لَـهَدَّه ، كَما وُصِفَ شُعُورُه ﷺ (٣) لَـمْ يَكُنْ لِيَتوانَىٰ ، أو يُؤَجِّلَ حَتَّىٰ يَخرُجَ من حالَةِ الحُزنِ التي هو فيها ، بَلْ قَامَ مُسرِعاً ، يَجرُّ رِداءَهُ حَتَّىٰ دَخلَ المَسجِدَ ، وَصَفَّ النَّاسَ وَراءَه ، وصَلَّىٰ بِهِم صَلاةً طَويلَةً حَتَّىٰ انْجلَتْ الشَّمسُ ، ثُمَّ قَالَ بَعدَ أنْ حَمِدَ اللَّـهَ وأَثنَىٰ عَلَيه بما هو أَهْلُه :

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب الجنائز ، باب قول النبي ﷺ : «إنَّا بِكَ لَـمَحْزُونُونَ» ، ص ٢٢٧ ، رقم الحديث : ١٣٠٣ .

(٢) حديث كسوف الشمس يوم وفاة إبراهيم مذكور في «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، الحديث رقم : ٦١٩٩ ، ص ١١١١ .

(٣) «خاتم النبيين» ، محمد أبوزهرة ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ١٢١٩ ، كان إبراهيم قرة عين ، وقال ﷺ بعد دفنه متحاملاً على أصحابه ناظراً إلى أحد : «يَا جَبَلُ إنَّكَ لا تَحمِلُ مَا أَحْمِلُ» ، قالها وهو هادئ ولكنه يبكي ﷺ والبكاء من الرحمن .

«إنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَا يُخسَفَانِ لِـمَوْتِ أَحَدٍ ولا لِـحَيَاتِه ، ولَكِنَّهُمَـا آيَتَـانِ مِنْ آيَاتِ اللَّـهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَصَلُّوا» [1] .

إنَّ شُعُورَ الحُزنِ فِطرِيٌّ ، يَختَلِجُ النَّفسَ عِندَ المَصائبِ وفَقدِ الأحِبَّةِ ، ولكِنْ لَه الفَضلُ في ارتِقَاءِ النَّفسِ بالصَّبرِ واحتِسَابِ الأجْرِ والتَّغلُّبِ عَلَيه والخُرُوجِ منه وعَدمِ الجَزَعِ والاستِسلَامِ لَه ، كَما فَعلَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ . فرَسُولُ اللَّـهِ بَشَرٌ قَبلَ أَنْ يَكُونَ نَبيّـاً ، وتَتجَلَّىٰ الرَّحمَةُ في نُبُـوَّتِه وأُبُـوَّتِه أَنَّه حَزِنَ ، وذَرَفَت عَيناهُ ، وبَكَىٰ في مَصائِبِه الكَثيرَةِ ، ولَيسَ في مُصابِه هَـٰذا فَحسْب .

وقد قَالَ ﷺ عن شُعُورِ الألَـمِ عِندَ نُزُولِ المِحَنِ : **«تَدْمَعُ العَيْنُ ، ويَحزَنُ القَلْبُ»** [2] ؛ لأنَّ القَلبَ الذي لا يَعرِفُ قِيمَةَ الـمَالِ لا فَضلَ لَه في الكَرَمِ ، والقَلبَ الذي لا يَخافُ لا فَضلَ لَه في الشَّجاعَة ، كَذلكَ القَلبُ الذي لا يَحزَنُ عَلَىٰ مَا فَقَدَ لا فَضلَ لَه في الصَّبرِ [3] ، فالحُزنُ شُعورٌ إنسَانيٌّ طَبيعِيٌّ لازَمَ الرَّسُولَ البَشَرَ كَثيراً ، لَكنَّ ذَلكَ الحُزنُ لَـمْ يَكُنْ ليَشغَلَ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ عَن واجِبِه وعَظِيمِ رِسالَتِه في جَميعِ صَفَحاتِ حَياتِه .

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب اللباس ، ص ١٠٥٣ ، الحديث رقم : ٥٧٨٥ .
(٢) «صحيح البخاري» ، كتاب الجنائز ، ص ٢٢٧ .
(٣) «عبقرية محمد» ، عباس العقاد ، مرجع سابق ، ص ١٢١ .

(٤) الحُبُّ والغيرَةُ والغَضَبُ

الغيرَةُ الشَّديدَةُ والتَّنافُسُ عَلَىٰ الفوزِ بقَلبِ الزَّوجِ فِطرَةٌ ، أوْدَعَها اللَّـهُ تعالَىٰ قُلوبَ النِّساءِ ، تَظهَرُ في تَغيُّرِ القَلبِ ، وتُؤدِّي إلى الغَضَبِ ، وسَبَبُها الإحسَاسُ بمُشَارَكَةِ الآخرين فيما يَعتَقدُ أحَدُ الطَّرَفَينِ أنَّه حَقٌّ لَه ، وخُصُوصاً إنْ كُنَّ أكثَرَ من واحدَةٍ لرَجُلٍ واحِدٍ .

كَانَت السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُنثَىٰ سَليمَةَ الفِطرَةِ ، يَنزِعُ فيها مِيراثُها العاطِفيُّ إلى حوَّاءَ ، فتَستَجيبُ له دُونَ أيِّ تكلُّفٍ أو مُداراةٍ ، أو كَبتٍ أو قَهرٍ . وكَانَت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أشَدِّ نِساءِ النَّبيِّ غَيرَةً عَليه ، ونِضَالاً في سَبيلِ الاستِئثَارِ بحُبِّه ، وعُذرُها أنَّها أوَّلُ مَنْ تَفتَّحَ لَها قَلبُه بَعدَ خَديجَة ، وهي وَحدَها التي تزَوَّجَها بِكْراً ، وهي عائشَةُ بِنتُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق .

وما تِلكَ الغَيرَةُ الشَّديدَةُ إلَّا مَظهَرُ حُبٍّ عَميقٍ لرَجُلِها الفَريدِ ، حُبّاً لا يُدانِيه حُبٌّ ، مَلَكَ عَلَيها حَياتَها وكُلَّ أحاسيسِها ، ما جَعَلَها تَغارُ عَلَيه من كُلِّ شَيءٍ ، فكَانَت تَقُولُ : «ومَالي لا يَغارُ مِثْلي عَلَىٰ مِثلِكَ» . وكَانَ الزَّوجُ المُحِبُّ الحَنُونُ النَّبيُّ الكَريمُ يُوسِعُ لها العُذرَ مُراعِياً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِدَّةَ حُبِّها له ، وتَعلُّقِها الشَّديدِ به ، ورَغبَتِها في الاستِئثارِ به ، فيَقُولُ : «**وَيْحَهَا لَوْ تَسْتَطِيعُ مَا فَعَلَتْ!**» [١] .

أمَّا إذا اشتَدَّت هَـٰذه الغَيرَةُ ، وتَعدَّتْ المَرحلَةَ العاطِفيَّةَ الوِجْدانيَّةَ ـ عِندَها أو عِندَ غَيرِها من أُمَّهاتِ المُؤمنِينَ ، لتَصِلَ إلَىٰ مَرحلَةِ الغَضَبِ والنُّزُوعِ والتَّنفيذِ ـ

(١) «السنن الكبرى» ، النسائي ، مرجع سابق ، ٨/ ١٦١ ، الحديث : ٨٨٦٣ ، وانظر : «تراجم سيدات بيت النبوة» ، د. عائشة عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢١١ .

كَانَ رَسُولُنا المُرَبِّي المُوَجِّهُ العَظيمُ يَتدخَّلُ ، ويَتعامَلُ بأُسلُوبِه الحَكيمِ ليُعِيدَ الحَقَّ إلَىٰ نِصابِه .

وقَد حَدثَت قِصَصٌ في بَيتِ النُّبُـوَّةِ جَرَّاءَ تِلكَ الغَيرَةِ الفِطرِيَّة ، والتي حَمَلت رَايَتَها السَّـيِّدَةُ «عائشَةُ» رَضِيَ اللهُ عَنها ، وذَلكَ لحبِّها الشَّديدِ ـ كَما أسلَفنا سابِقاً ـ لِزَوجِها الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ نَرَىٰ من خِلالِـها كَيفَ كَانَ تَعامُلُ الزَّوجِ الرَّسُولِ الحَليمِ الكَريمِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مَع تِلكَ المَواقِفِ .

حَدَّثنا أَنَسُ بنُ مَالِك رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ : كَانَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عِندَ بَعضِ نِسائِه ، فأَرسَلَتْ إحدَىٰ أُمَّهاتِ المُؤمنينَ بِصَحفَةٍ فيها طَعامٌ ، فضَرَبَت التي كَانَ النَّبيُّ في بَيتِها يَدَ الخادِمِ ، فسَقَطَت الصَّحفَةُ فانفَلَقَت ، فجَمعَ النَّبيُّ فِلَقَ الصَّحفَةِ ، ثُمَّ جَعَلَ يجمَعُ الطَّعامَ الذي كَانَ في الصَّحفَةِ ، ويَقُولُ : «**غَارَتْ أُمُّكُمْ**» .

وفي رِوايَةٍ لأَنَسٍ أيضاً أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِـمَنْ عِندَهُ : «كُلُوا» (١) .

وفي السُّنَنِ الكُبرَىٰ للنَّسائِيِّ أيضاً عن هَـٰذه القِصَّة أنَّ أُمَّ المُؤمِنينَ عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها قَالَت : مَا رَأيتُ صَانِعَةَ طَعَام مِثلَ صَفِـيَّة ، أَهدَتْ إلَىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إناءً فيه طَعامٌ ، فما مَلَكْتُ نَفسي أنْ كَسَرتُه ، فسَأَلتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عن كَفَّارَتِه فقَالَ : «**إنَاءٌ كَإنَاءٍ وطَعَامٌ كَطَعَامٍ**» (٢) .

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب النكاح ، باب الغيرة ، الحديث رقم : ٥٢٢٥ ، ص ٩٦٠ ، و باب إذا كسر قصعة أو شيئًا لغيره ، ص ٤٢٦ ، رقم الحديث ٢٤٨١ ، وانظر : «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق شرف المصطفى» ، ورد في رواية أنه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قال : «غَارَتْ أُمُّكُمْ ، غَارَتْ أُمُّكُمْ» ، مرتين ، ص ٥١٤ ، رقم الحديث : ١٨٣٩ .

(٢) «السنن الكبرى» ، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، مرجع سابق ، ٨/ ١٥٦-١٥٧ ، الحديث : ٨٨٥٥ .

كَانَ اليَومُ الذي أَرسَلَت فيه «صَفِـيَّةُ» يومَ «عائشَةَ» ، وطَهتْ السَّـيِّدَةُ «صَفِـيَّةُ» طَعَاماً شَهِيّـاً ، وكَانَت ماهِرَةً في إعدادِ الطَّعام ، وأَدخَلَت عَلَىٰ بيتِ «عائشَةَ» منه ، ومع عِلم السَّـيِّدَةِ «عائشَة» أنَّها الزَّوجَةُ المُفَضَّلَةُ عِندَ الرَّسُولِ أخذَتها الغَيرَةُ الشَّديدَةُ ، فما تَمالَكَت نَفسَها أنْ غَضِبَت ، وأَسقَطَتْ الإناءَ بما فيه .

لقَد ضَربَ النَّبيُّ ﷺ المثَلَ الأَعْلَىٰ لكُلِّ الأزْوَاجِ في كَيفيَّة مُواجَهَة المَواقِف المُحرجَة ، وما أكثَرُها بينَ الأزواجِ والزَّوجَاتِ ، خُصُوصاً في حَالِ وُجُودِ ضُيُوفٍ في البَيتِ . فأَنَسُ رَاوِي الحَديثِ شَاهِدٌ عَلَىٰ هَـٰذه القِصَّة ، والحِكمَةُ تَعنِي وَضعَ الشَّيءِ في مَوضِعِه المُناسِب ، والحَكيمُ مَنْ يُحسِنُ تَقديرَ المَوقِفِ وتَحديد رَدَّةِ الفِعلِ المُناسِبَة له ، كَي لا تَتفاقَمَ الأُمُورُ ويَستَعصِيَ الحَلُّ ، وتَسيرَ سَفينَةُ الحَياةِ الزَّوجيَّة وَسَطَ أَمْواجٍ مُتلاحِقَةٍ من العَواصِفِ والرِّياحِ (١) ، فيَحدُثُ ما لا يُحمَدُ عُقباهُ .

نَرَىٰ في هَـٰذا المَوقِفِ أنَّ الزَّوجَ أدرَكَ حالَةَ زَوجَتِه وعَرَفَها ، وتَعامَلَ مع المَوقِفِ بهُدُوءٍ تامٍّ دُونَ انفعالٍ أو عَصَبيَّة ، ولَـمْ يَخلِطْ الغَيرَةَ بالكُرْهِ أو الحِقدِ أو الحَسَدِ ، وهو ما يَسمُو بالمَشَاعِرِ ويُحافِظُ عَلَىٰ الوُدِّ بينَ الزَّوجَاتِ .

وكَانَ باستِطاعَتِه ﷺ أنْ يَطلُبَ من «عائشَةَ» التي كَسَرَت القَصعَةَ ، أو الخَادِمَ المَوجُودَ أنْ يُلَمْلِمَ الإناءَ الذي انكَسَرَ! لكنَّهُ ﷺ وبكُلِّ سَماحَةٍ وتَواضُعٍ وخُلُقٍ رَفيعٍ وحِلمٍ لَـمْلَمَ بنَفسِه أَمامَ ضُيُوفِه بَقَايا الإناءِ والطَّعامِ الذي انسَكَبَ .

(١) «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٣٣٧-٣٣٨-٣٣٩ ، بتصرف .

وببَساطَةٍ وعَفويَّةٍ مُتناهِيَةٍ قَالَ مُهوِّناً ما حَصَلَ ، «**غَارَتْ أُمُّكُمْ .. غَارَتْ أُمُّكُمْ**» .

وفي هَـٰذا تَذكيرٌ للسَّامع أنَّ هَـٰذه المَرأة هي أمُّكُم ، فلتَغفِرُوا لَها زَلَّتَها ، فمَنْ مِنَّا لا يَغفِرُ لأُمِّه! ومِنْ ثَمَّ دَعَاهُم إلَىٰ الطَّعامِ دُونَ أيِّ حَرَجٍ أو تكلُّفٍ ، وكَأنَّ شَيئاً لَـمْ يكُنْ .

فَما كَانَ من «عائشَةَ» بهَـٰذا الخُلُقِ الكَريم إلَّا أنْ رَاجعَت نَفسَها ، واستَغفَرَت ، وأتَت النَّبيَّ ﷺ تَسألُه كَفَّارَةَ صُنعِها ذَاكَ ، فأرشَدَها ﷺ إلَىٰ ما تَصنَعُ .

ولَـمْ يَشفَعْ حُـبُّه الشَّديدُ لها وتَقديرُهُ لِغَيرَتِها أنْ يَتشَفَّعَ لها عِندَ «صَفِـيَّة» بمُسامَحتِها بالإناء التَّالفِ ، بلْ ألزَمَها ﷺ بتَعويضِ أُختِها «صَفِـيَّة» عن إنائِها الذي انكَسَر ، وعن طَعامِها الذي انسَكَبَ .

وفي مَوقِفٍ طَريفٍ آخر : أنَّ «عائشَةَ» صَنعَت حَريرَةً وأتَت بها النَّبيَّ ﷺ و«سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ» عِندَه ، فقَالَت «عائشَةُ» لـ «سَوْدَة» : كُلي ، فقَالَت : لا أُحِبُّه ، فقَالَت : واللَّـه لَتأكُلينَه أو لأُلَطِّخَنَّ به وَجهَكِ ، فقَالَت : ما أنا بذائقَتِه ، فأخَذَت «عائشَةُ بيَدِها من الصَّحفَةِ شَيئاً ولَطَّخَتْ بِه وَجهَ «سَوْدَة» ، فضَحِكَ النَّبيُّ ﷺ ، وكَانَ جَالِساً بَينَهُما ، فخَفَضَ لـ«سَوْدَة» رُكبَتَه لتَستَقِيدَ من «عائشَة» ، فتَناوَلَتْ من الصَّحفَةِ شَيئاً ، فمَسَحَت بِه وَجهَ «عائشَة» ، ورَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يَضحَكُ [1] ، رَضِيَ اللهُ عَنهُما .

---

(١) «السنن الكبرى» ، النسائي ، مرجع سابق ، ٨/ ١٦٢ ، رقم الحديث : ٨٨٦٨ ، وانظر : «إحياء علوم الدين» ، الإمام الغزالي ، مرجع سابق ، ج٣ ، المزاح وما يستحب منه ، ص ١٣٩ .

كان رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يُقـدِّرُ غيرَةَ زَوْجاتِه جميعِهنَّ وفِطرَتهُنَّ البَشرِيَّة ، ولا يَحمِلُ السَّـيِّدَةَ «عائشَةَ» ولا غيرَها من نِسائِه عَلَىٰ التَّجـرُّدِ منها ، بَلْ يُعالجُها برُوحِ الدُّعابَةِ والحُبِّ .

كَما أنَّنا نَجدُ هُنا أنَّ هَيبَةَ الرَّسُولِ ﷺ لَـمْ تَمنَعْهُ مِنْ أنْ يَتَمازَحَ أهْلُهُ أمَامَه ، ويَطلِينَ وُجُوهَ بَعضِهِنَّ ، بَلْ كانَ ﷺ يُشَجِّعُهُنَّ عَلَىٰ تِلكَ المُمازَحاتِ الفَكِهَةِ الطَّرِيفَةِ ، التي تُشِيعُ جَوَّ المَرَحِ والمُداعبَةِ والمَوَدَّةِ والمَحَـبَّةِ في البَيتِ ، بَعيداً عن الكَآبَةِ والصَّرامَةِ .

ومَع أنَّ هَـٰذا المُزاحَ مُباحٌ بَينَ الزَّوجاتِ إلَّا أنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ أخذَ لـ «سَوْدَةَ» بحَقِّها من «عائشَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا (١) . فالأخذُ بالقَصاصِ واجِبٌ ولَو كانَ مُزاحاً ما لَـمْ يَعفُ صاحِبُه .

وفي بَعضِ المَواقِف أيضاً تَحتَدُّ المُنافَسَةُ أحياناً بَينَ نِسائِه في حَضرَتِه ﷺ فيَدَعُهُنَّ وشَأنَهُنَّ ، لعَلَّ في هَـٰذا راحَةً لَـهُنَّ ، وتَنفِيساً عن مَشاعِرِهِنَّ . وقد استطاعَت «عائشَةُ» مرَّةً أنْ تَغلِبَ «زَينبَ» فما زادَ عَلَىٰ أنْ تبَسَّمَ وقَالَ : «**إنَّها ابْنَةُ أَبي بَكْر**» (٢) .

وفي رِوايَةٍ أُخرَىٰ : أنَّ «زَينبَ» وَقَعَت في «عائشَةَ» أمامَ الرَّسُولِ ﷺ وسَـبَّتها ، فقَالَ النَّبيُّ ﷺ لعَائشَةَ : «**دُونَكِ فَانْتَصِرِي**» (٣) .

---

(١) «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، اللجنة التربوية مرجع سابق ، ج٢ ، أم المؤمنين السيدة سودة بنت زمعة ، مزاح وقصاص ، وجوب القصاص ما لم يعف صاحب الحق ، ص ٢٩٥ .

(٢) «صحيح مسلم» ، كتاب فضائل الصحابة ، ص ١٨٩٢ ، رقم الحديث : ٢٤٤٢ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب الهبة وفضلها ، باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه.. ، ص ٤٤٥ ، رقم الحديث : ٢٥٨٠ ، وانظر : «رش البرد شرح الأدب المفر»د ، محمد لقمان السلفي ، مرجع سابق ، باب من انتصر من ظلمه ، ص ٣١٠-٣١١ ، الأحاديث رقم : ٥٥٨-٥٥٩ .

وفي قِصَّةٍ أيضاً : حَدثَ أنْ أَفلَتَ لِسَانُ «عَائشَةَ» بكَلمَةٍ ، غَضِبَ لها المُصطفَىٰ ﷺ فقَد تَلقَّىٰ هَديَّةً وهو في بَيتِها ، فأرسَلَ إلَىٰ كُلِّ زَوجَةٍ نَصيباً منها ، لكِنَّ «زَينَب» رَدَّتْ ما جاءَها ، فلَمْ تَملِكْ «عَائشَةُ» أنْ قَالَت كَلمَةً جارِحَةً ، فقَامَ عَنها ﷺ مُغضَباً (١) .

وفي حدَثٍ آخَرَ ، عِندَما دَخلَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَىٰ السَّـيِّدَةِ «صَفِـيَّةَ بنتِ حُيَيِّ بنِ أَخْطَب» ، وهي حَزينَةٌ غَضْبَىٰ ، تَبكِي لافْتِخارِ بَعضِ ضَرائِرِها عَلَيها «حَفْصَة» بأنَّهُنَّ قُرَشِيَّاتٍ عَربيَّاتٍ ، وأنَّها الأجنبِيَّةُ الدَّخيلَةُ ، تَلمِيحاً بالدَّمِ اليَهُوديِّ الذي يَجرِي في عُرُوقِها ، نَرَىٰ عَطفَ الزَّوجِ الحَنُونِ ، أنَّه ﷺ لَـمْ يَتجاهَلْ مَشَاعِرَها بالصَّمتِ!! أو يَقُولُ لَها مَثلاً عَلَىٰ أَقَلِّ تَقديرٍ : مَعَكِ حَقٌّ أنْ يُغضِبُكِ كَلامُهُنَّ . ولكِنَّ الذي جَرَّأَهُما عَلَىٰ مَقُولَتِهِما تِلكَ والِدُكِ اليَهُوديُّ ، والفِعلُ الذي فَعَل ، فاصْبِري ولَكِ جَزيلُ الأجْرِ!

بَلْ عَلَىٰ العَكسِ من ذَلكَ تَماماً نَجدُه ﷺ قَد أَهَمَّهُ أمرَها ، وتَفهَّمَ شُعُورَها ، وأَشْفَقَ عَلَيها ، لا بَلْ طَيَّبَ خاطِرَها ، وعَلَّمَها كَيفَ تُدافِعُ عن نَفسِها ، وتَرفَعُ رَأسَها ، وتَفخَرُ عَلَىٰ أخَواتِها العَربيَّـاتِ بِهَـذا الأصْلِ الكَريم ، وذَلكَ بكَلماتٍ لَطيفَةٍ تَعصِمُها مِنهُما ، وتَغلِبُهُما بها ، قَالَ لَها ﷺ : «**إنَّكِ لابْنَةُ نَبيٍّ ، وإنَّ عَمَّكِ نَبيٌّ ، وإنَّكِ لَتَحتَ نَبيٍّ ، فَبِمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ**» ، ثُمَّ قَالَ : «**اتَّقِي اللَّـهَ يَا حَفْصَةُ**» (٢) . فقَد عَلِمَ ﷺ أنَّها ظُلِمَت من بَعضِ أخَواتِها ، ولا بُدَّ أنْ

(١) «تراجم سيدات بيت النبوة» ، عائشة عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص ٢٧٤ .

(٢) «السنن الكبرى» ، للنسائي ، ٨/ ١٦٣ ، الحديث : ٨٨٧٠ ، وانظر قصة السيدة صفية في «تراجم سيدات بيت النبوة» ، د.عائشة عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص٢٩٣ ، وانظر : «فقه السيرة النبوية» ، منير الغضبان ، مرجع سابق أيضاً ، ص٦٧١ ، وانظر : «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٣٢٣-٣٢٤ .

تَنتَصِرَ لِنَفسِها ، لِتَقِفَ الأُمُورُ عِندَ حَدِّها . فكَانَ كَلامُ المُصطَفَىٰ ﷺ للسَّـيِّدَةِ «صَفِـيَّة» بَرداً وسَلاماً ، وحِمَىً ومَلاذاً .

إنَّ الزَّوجَةَ لا يَكفيها من زَوجِها صَمتٌ مُطبَقٌ ، فيه إقْرارٌ بأنَّها عَلَىٰ حَقٍّ ، كَما أنَّها لا تَحتاجُ لِـمُحاضَراتٍ عَقليَّـةٍ في مَواقِفِها العاطِفيَّـةِ ، بَلْ تَحتاجُ من زَوجِها أنْ يَتفَهَّمَ مَشاعِرَها ، ويَربتَ عَلَيها بحَنانٍ ولُطفٍ فيما يُزعِجُها ، ويُشعِرَها أنَّه بقَلبِه وكَيانِه وتَفكيرِه مَعَها ، وأنَّ شَأنَها يُهِمُّه ، ولا يَسمَحُ لأحَدٍ مِنْ أنْ يَنالَـها بما يُزعِجُها مَهْما كَانَت مَنزِلَـتُه عِندَه .

إنَّ هَـٰذه المَواقِفَ للرِّجالِ الذين لا يُطيقُونَ الغَيرَةَ الطَّبيعيَّةَ لزَوجاتِهنَّ ، ويَطلُبُونَ صَبراً جَلداً خَالياً من أيِّ رُوحٍ أو دَعمٍ عاطِفيٍّ في أدَقِّ أحاسِيسِ المَرأةِ دُونَ تَفهُّمٍ لِـمَشَـاعِرِها لِيُهَـوِّنُوا الأمرَ عَلَىٰ أنفُسِهم وغَيرِهم ، ويَتقَـبَّلُوا ذَلكَ برَحابَةِ صَدرٍ ، فإنَّ من الغَيرَةِ ما يَدعَمُ الحُبَّ بَينَ الأزْواجِ ، ويُعلِّمُ أحَدَ الزَّوجَينِ المُحافَظَةَ عَلَىٰ مَشاعِرِ الطَّرفِ الآخَرِ ، وطَلَبِ إرْضائِه واخْتيارِ أحسَنِ الألْفَـاظِ في الحَديثِ .

ولَنا جَميعاً في تَعامُلِ الرَّسُولِ ﷺ الزَّوجِ أُسوَةٌ حَسنَةٌ ، وفي زَوْجاتِ النَّبيِّ ﷺ أُسوَةٌ وسَلوَىٰ ، وهُنَّ مَنْ هُنَّ في الذِّروَةِ العُليَـا من الفَضلِ .

(٥) الحُـبُّ والكُـرْهُ

تَعتَري الحَياةَ الزَّوجيَّةَ والاجتماعيَّةَ بَينَ الأفرادِ الكَثيرَ من الخَلافاتِ المُفاجئةِ والإشْكَالاتِ، وذَلكَ بسَببِ اخْتلافِ الطَّبائعِ والأخلَاقِ والبيئاتِ. فهَلْ يَنفرُ كُلُّ طَرفٍ من صاحِبِه لتَستَحيلَ الحَياةُ بَينَ الطَّرفَينِ، فتَفقدُ البُيوتُ والمُجتَمعاتُ أَمنَها واستِقرارَها؟! أمْ أنَّ هُناكَ تَوجيهاً نَبوياً حَكيماً، نَستَضيءُ بهَديِه؟

فعَنْ أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: «**لا يَفْـرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**»، ومَعنَىٰ «**يَفْرَكْ**»، أي: يَبغَضُ (١).

لقَد وجَّه رَسُولُنا الكَريمُ بهَـٰذا الحَديثِ كُلَّ مُؤمنٍ ومُؤمِنةٍ، بأنْ يَحفَظَ كُلُّ واحِدٍ منهما الجَميلَ لصَاحِبه، مع وُجُوبِ ذِكرِ الحَسناتِ قَبلَ بناءِ الأمُورِ عَلَىٰ السَّيِّئاتِ، وتِلكَ هي العِشرَةُ بالمَعرُوفِ في الحَياةِ الزَّوجيَّة، لأنَّ الاعتِدالَ في الأمُورِ يُسبِّبُ طُمأنينَةً وسَكينَةً.

كَما أنَّ رَسُولَنا الحَبيبَ أيضاً أرْشَدَنا في هَـٰذا الحَديثِ إلَىٰ التَّرَوِّي في التَّفكيرِ والمَزجِ بَينَ العَقلِ والعاطِفَةِ، وإحسَانِ التَّعامُلِ مع الطَّرَفِ الآخَرِ، فلا يُعادِيهِ ويُبغِضُه إذَا ظَهرَ منه خُلُقٌ يَكرَهُه، بلْ يُوازِنُ بَينَ الإيجابيَّاتِ والسَّلبيَّاتِ، والحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ويَكُونُ مُنصِفاً، لا يُنكِرُ لصاحِبه مَعرُوفاً ولا فَضلاً. فلَرُبَّما تَنصَهِرُ المَساوئُ ولا تَقُومُ لها قائمَةٌ بجانبِ المحاسِنِ التي تُذكَر! أو لَعلَّ أخلاقَ صَاحِبه الحسَنة تَرجحُ عَلَىٰ أخلاقِه المَكرُوهَة بهَـٰذا الأُسلُوبِ الحَكيمِ، فتَدُومُ العِشْرَةُ والصَّفاءُ.

(١) «صحيح مسلم»، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ٢/ ١٠٩١، رقم الحديث: ١٤٦٩.

ولَنا في قِصَّةِ أبي أيُّوبٍ الأنْصاريِّ مِثالٌ عَلَىٰ ذلكَ :

أبُو أيُّوب الأنْصاريُّ صاحِبُ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، أرادَ أبُو أيُّوب طَلاقَ امْرأتِه ، فاستَأذَنَ النَّبيَّ ﷺ في ذَلكَ ، فلَمْ يَأذَنْ له النَّبيُّ ، ووَصَفَ ذَلكَ الفِعلَ بأنَّه حَوبٌ ، فأمْسَكَ أبُو أيُّوب زَوجَه ولَـمْ يُطَلِّقْها (١) .

لَقَد كَانَت لأُمِّ أيُّوبَ مع زَوجِها مَواقِفُ جَليلَةٌ في خِدمَةِ النَّبيِّ ﷺ ، فقَد اجتَمَع قَلبَاهُما عَلَىٰ حُبِّ اللَّـهِ ورَسُولِه ، وجَمَعَهُما طَريقٌ واحِدٌ ، وتَوافَقَت نَفساهُما الكَريمَتانِ عَلَىٰ الحَقِّ .

فعِندَما نَزلَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ ضَيفاً عَلَيهِما في الأيَّامِ الأُولَىٰ من هِجرَتِه للمَدينَة قامَت أُمُّ أيُّوبَ مع زَوجِها ببَذلِ كُلِّ أسبابِ الرَّاحَةِ لرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وكَانَت وزَوجُها يَتكَلَّفانِ صُنعَ طَعامٍ بِكُلِّ حُبٍّ وسَخاءٍ وكَرَمٍ وجُودٍ للنَّبيِّ ﷺ ولِـمَنْ يَنزِلُ عَلَيه من أصْحَابِه .

وكَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يَأتِيهِما فيما بَعدُ مَع بَعضٍ من صَحبِه ، فتَصنَعُ أُمُّ أيُّوب أجوَدَ الطَّعامِ للرَّسُولِ ﷺ ومَنْ مَعَه .

وبَعدَ تِلكَ الحَياةِ الحافِلَة بالفَضائلِ والجَلائلِ والمُشارَكَةِ في كُلِّ أسبَاب البِرِّ والخَيرِ والخِصَالِ الحَميدَةِ ، التي تَحمِلُها أُمُّ أيُّوب لَـمْ يَنْسَ الرَّسُولُ لأُمِّ أيُّوبَ ذَلكَ الفَضلَ منها وتِلكَ المَحامِدَ ، فلَمْ يَأذَنْ ﷺ لأبي أيُّوبَ بطَلاقِ أُمِّ أيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، بلْ وَصَفَ ذَلكَ ﷺ بأنَّه حَوْبٌ أي إثْمٌ ، وفي ذَلكَ تَقديرٌ من

(١) «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ٢/ ٤٢ .

الرَّسُولِ ﷺ لتِلكَ المَرأةِ الصَّالـحَةِ التَّقـيَّةِ الكَريمَةِ ، ذَاتِ الهِـمَّةِ العالِـيَةِ ، ولِـمَواقِفِها الرَّائعَةِ الجَليلَةِ (١) .

وقَد ضَربَ أَبُو أَيُّوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للمُؤمِنينَ نَمُوذَجاً عَمليّاً فَذّاً في كَيفِيَّةِ المُتابَعَةِ الصَّحيحَةِ لسُنَّةِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، حيثُ لَـمْ يُبادِرْ إِلَىٰ تَطليقِ زَوجه باعتِبارِ ذَلك شَأناً شَخصيّاً ، بَلْ ذَهبَ يَستأذِنُ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ . ولَـمْ تكُن مُجرَّدَ استِشارَةٍ غيرِ مُلزمَةٍ ، بَلْ كَانَت تَقيُّداً بما قَالَه رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ ، فأمْسَكَ أَبُو أَيُّوب زَوجَهُ ولَـمْ يُطلِّقْها ، وتَركَ رَغبَتَه في ذَلكَ نُزُولاً عَلَىٰ رَغبَةِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ في إمْساكِها (٢) .

إنَّ أكثَرَ ما يَهزُّ الأُسَرَ وأمْنَ البُيُوتِ وسَكينَتَها الغَفلَةُ عن ذَلكَ المَنهَجِ الحَكيمِ ، وعَدمُ الاستِضاءَةِ بِهَدي رَسُولِنا عَليه أفضَلُ الصَّلاةِ والتَّسليمِ .

ويَأتي أيضاً التَّوازُنُ والوَسَطيَّة في مَشاعِرِ الحُبِّ والكُرهِ لَيسَ فَقط بَينَ الأَزْوَاجِ ، بَلْ بَينَ القَريبِ والصَّاحِبِ ، وبَينَ كُلِّ مَنْ بَينَنا وبَينَه عَلاقَةٌ واتِّصالٌ ، وفي العَلاقَاتِ الاجتِماعيَّةِ عامَّةً .

ومِنْ مُنطَلَقِ الوَسطيَّةِ والاعتِدالِ في الحُبِّ والكُرهِ رُويَ عن سَيِّدِنا عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَوقُوفاً قَولُه : «**أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنَاً مَا ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمَاً مَا ، وأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنَاً مَا ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا**» (٣) .

(١) «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، ج٢ ، مرجع سابق ، انظر : ص ٣٢-٣٣-٣٥-٤٢ ، بتصرف .

(٢) المرجع السابق ٢/ ٤٣ .

(٣) «الحديث وفقهه وشرحه من «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، د. محمد لقمان السلفي ، مرجع سابق ، ٦٤٣ ، باب : أحبب حبيبك هونًا ما ، رقم الحديث : ١٣٢١ ، ص ٧٣٧ .

أي : يَنبغِي للمَرءِ أنْ لا يُسرِفَ في الحُبِّ ولا في البُغضِ ، بَلْ هي وَسَطيَّةٌ واعتِدالٌ . إذ رُبَّما بتَغَـيُّرِ الزَّمانِ والأحْوَالِ يَنقَلِبُ الحُبُّ بُغْضاً ، فيَندَمُ المَرءُ عَلَىٰ الإسْرَافِ في حُبِّه ، وإنْ أسرَفَ في البُغضِ أيضاً قَد يَنقَلِبُ البُغضُ حُبّاً بِتغَـيُّرِ الزَّمانِ والأحْوَالِ ، فيَستَحِي مِمَّن أَبغَضَه فيما بَعدُ إذا أحَـبَّه .

فَلا بُدَّ أنْ نُوطِّنَ أنفُسَنا عَلَىٰ عَدمِ المُبالَغَةِ والإفْراطِ الشَّديدِ في إظهَارِ العَواطِفِ واندِفاعِها حُـبّاً أو بُغضاً ، فذلكَ أمرٌ مَذمُومٌ إذا جَاوزَ الحَدَّ .

كَما أنَّ مَا يُوافِقُ الشَّرعَ هو عَدمُ الإسْرافِ في الحُبِّ والكُرهِ ، والقَصدُ والاعتِدالُ والاتِّزانُ في الأمُورِ كُلِّها .

فذَلكَ من أسبَابِ طُمأنينَةِ النَّفسِ وانشِراحِ الصَّدرِ ، الذي يَعُودُ أثَرُهُ عَلَىٰ الفَردِ بناءً وإعْدادَ شَخصيَّةٍ مُعتَدِلَة ، وعَلَىٰ المُجتَمَعِ صَلَاحاً واستِقْراراً وفَلاحاً .

الضَّـابِطُ الرَّابع
الحِفَاظُ على المَودَّةِ والأُلفَةِ

ورَدَ من أحاديثِ الرَّسُولِ ﷺ في السِّـيرَةِ النَّبـويَّة آدابٌ ووَسائل للحِفاظِ عَلَىٰ المَودَّةِ والأُلفَةِ ، فللحُبِّ آدابٌ ، وعَلَىٰ المُتَحَابَيْن مُراعاتها لدَيْمُومَةِ المحبَّـةِ بَينَهُما ، وِفْقاً لِـما جاءَ في المَنهَجِ التَّربويِّ النَّبَـويِّ . ولَيسَ مَجالَ البَحثِ هُنا السَّردُ التَّفصيليُّ لجَميعِ الآدابِ ، ولَكِنَّا سَنتَناوَلُ بَعضاً منها عَلَىٰ سَبيلِ المثالِ والتَّوضيحِ :

١ـ الحُبُّ والحُقُوقُ الفَرديَّةِ .

٢ـ مُراعَاة الخُصُوصيَّـةِ الفَرديَّة في العَلاقَةِ مع المُقرَّبين .

(١) الحُبُّ والحُقُوقُ الفَرديَّة

الحبُّ لَيسَ سِلعَةً يَتداوَلُها النَّاسُ فيما بينَهُم ، بَلْ هو عَلاقَةٌ إنسانيَّةٌ ثَمينَةٌ راقِيَةٌ ، يَجبُ الحِفاظُ علَىٰ مَعانيها السَّاميَةِ بَعيداً عن شَوائبِ العَلاقَاتِ المَاديَّةِ . فَلا يَعنِي وُجُودُ عَلاقَةٍ أَخَويَّةٍ وحُبٍّ في اللَّـهِ هَدرُ حُقوقِ الآخَرينَ ، وإلغاءُ حُدُودِ المِلكيَّةِ الشَّخصيَّةِ ـ بمَعناها الإيجَابي ـ لأحَدِ الأطرافِ أو كِلَيهما ، بَلْ يَجِبُ حِفظُ الحُقُوقِ الفَرديَّةِ بِغَضِّ النَّظرِ عن مَدَىٰ هَـٰذا الحُبِّ المُتبادَلِ وعُمقِه .

ولَنا في نَهجِ الرَّسُولِ ﷺ أُسوَةٌ حَسنَةٌ مع أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ صاحِبِه الذي تَجمَعُ بَينَهُما صَداقَةٌ حَميمَةٌ ، ومَحبَّةٌ كَبيرَةٌ ، وتَعامُلٌ ماليٌّ بَينَهُما قَديمٌ من قَبلِ البعثَةِ وبَعدَ البعثَةِ أيضاً ، كَانَ أحَبَّ الرِّجالِ إلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ (١) ، فلا يَكادُ ﷺ يَصبرُ عن رُؤيَتِه يَوماً إلَّا ويَزُورُه صَباحاً ومَساءً .

تَقُولُ السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رضي الله عنها في ذَلكَ : «لَـمْ أَعقِلْ أَبَوَيَّ إلَّا وَهُما يَدينَانِ الدِّينَ ، ولَـمْ يَمُرَّ عَلَيهما يَومٌ إلَّا يَأتِينا فيه رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ طَرَفَي النَّهارِ بُكرَةً وعَشِيَّةً ..» (٢) ، وقَد قَالَ النَّبيُّ ﷺ عن مَحبَّـتِه لأخِيهِ وصاحِبه : **«لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَليلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي»** (٣) .

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب فضائل أصحاب النبي ، باب قول النَّبيِّ ﷺ : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً» ، ص ٦٤٢ ، حديث : أيُّ الناس أحب إليك؟ رقم ٣٦٦٢ .

(٢) «صحيح البخاري» ، باب هل يزور صاحبه كل يوم أو بكرة وعشيا ، ص ١٠٩٣ ، رقم الحديث : ٦٠٧٩ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب فضائل أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، باب قول النَّبيِّ ﷺ : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً» ، ص ٦٤١ ، رقم الحديث : ٣٦٥٦ .

وأبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ من التُّجَّارِ المُوسرينَ في مَكَّةَ ، وكَانَ لِـمَالِه دَورٌ رِيادِيٌّ مع مَالِ السَّـيِّدَةِ «خديجَة» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في تَحمُّلِ أعْباءِ الدَّعوَةِ وتَكاليفِها الباهِظَةِ في مِحنَتِها الصَّعبَةِ .

وقَد نَزَلَ القُرآنُ الكَريمُ ، يَشهَدُ اللَّـهُ فيه ـ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ ـ من عَليائِه بتَجَرُّدِ أبي بَكْرٍ عن المالِ ، وذَلكَ في قَولِه تَعالَىٰ [1] : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى (١٧) ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾ [2] .

ولقَد بادَلَ أبُو بَكْرٍ الرَّسُولَ ﷺ حُبّاً فَاقَ فيه كُلَّ حُبٍّ.. فعِندَما أثْنَى عَليه الرَّسُولُ ﷺ يوماً وعَلَىٰ سَماحَتِه وبَذلِه وتَجرُّدِه عن المالِ بَكَىٰ أبُو بَكْرٍ وقَالَ : «وهَلْ أنَا ومَالي إلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّـهِ» [3] .

لقَد بَلغَ مِنْ حُبِّ أبي بَكْرٍ للرَّسُولِ ﷺ أيضاً أنَّ أبا بَكْرٍ كَانَ يُريدُ الهِجرَةَ إلَىٰ الحَبشَةِ فِراراً بدينِه ، فقَالَ النَّبيُّ ﷺ له : «**عَلَىٰ رِسْلِكَ فَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**» ، فقَالَ أبُو بَكْرٍ : أوَتَرجُوهُ بأبي أنتَ؟ قَالَ : «**نَعَمْ**» ، فحَبسَ أبُو بَكْرٍ نَفسَه عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ طَمعاً في صُحبَتِه بالهِجرَةِ ، وعَلَفَ راحِلَتَين كَانَتا عِندَه ورَقَ السمرِ أربَعةَ أشهُرٍ يَنتَظِرُ هَـٰذه اللَّحظَةَ [4] .

(١) سورة الليل ، الآيات : ١٧-٢١ .

(٢) «تفسير الخازن للبغدادي» ، مرجع سابق ٦/ ٤٤١-٤٤٢ ، في تفسير الآيات السابقة من سورة الليل .

(٣) «المنهج التربوي للسيرة النبوية» ، -٤-التربية القيادية ، منير الغضبان ، مرجع سابق ، ج١ ، سماحة أبا بكر ونظرته إلى المال ، ص ٥٣ .

(٤) انظر حديث الهجرة في «صحيح البخاري» ، كتاب اللباس ، ص ١٠٥٧ ، رقم الحديث : ٥٨٠٧ .

وعِندما أذن اللَّـه لرسوله بالهجرة ، واختار النَّبيُّ ﷺ أبا بَكْرٍ صاحِباً له ، أَقبَلَ إلَىٰ بيتِ أبي بَكْرٍ مُتقَنِّعاً في سَاعَةٍ لَـمْ يَكُنْ لِيأتِيَهُم بها ، وكَانَ ذَلكَ في نَحرِ الظَّهيرَةِ ، أي في وَقتٍ يَشتَدُّ فيه الحَرُّ ، فتَقِلُّ فيه أقدام النَّاسِ ، فعَرَفَ أَبُو بَكْرٍ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ ما كَانَ لِيأتيَ في هَـٰذه السَّاعة إلَّا لأَمرٍ جلَلٍ .

واستَأذَنَ النَّبيُّ ﷺ فأُذِنَ له ودَخلَ ، فأخبرَ ﷺ أبا بَكْرٍ بالإذْنِ له بالهِجرَةِ وبالصُّحبَةِ ، فبَكَىٰ أَبُو بَكْرٍ فَرَحاً ، وقَالَ للنَّبيِّ ﷺ : فخُذْ بأبي أنتَ يا رَسُولَ اللَّـهِ إحدَىٰ راحِلَتيَّ هاتَينِ ، فقَالَ النَّبيُّ ﷺ : «**لَا أَرْكَبُ بَعِيراً لَيْسَتْ لِي**» ، فقَالَ الصِّدِّيقُ : هو لَكَ فِدَاكَ أبي وأُمِّي ، فقَالَ الحَبيبُ ﷺ : «**لَا ، إلَّا بالثَّمَنِ الذي ابْتَعتَها بِه**» ، فقَالَ أَبُو بَكْرٍ هُو كَذَا وكَذَا ، فقَالَ النَّبيُّ ﷺ : «**قَدْ أَخَذْتُهَا بِهِ**» ، ونَظرَ أَبُو بَكْرٍ إلَىٰ الرَّاحِلَتَينِ يَفحَصُهُما ، ثُمَّ اختَارَ أَفضَلَهُما فقَرَّبَها إلَىٰ المُصطَفَىٰ ﷺ (١) .

هَـٰذا ما كَانَ يَنتظِرُه الصِّدِّيقُ زَمَناً ، ويُمَنِّي نَفسَه بصُحبَةِ الرَّسُولِ ﷺ في الهِجرَةِ ويَرنُو لذلك ، حَتَّىٰ إنَّ السَّـيِّدَةَ «عائشَةَ» رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا تُحدِّثُ عن ذَلكَ الفَرحِ الشَّديدِ الذي غَمرَ أبا بَكْرٍ وَقتَها ، بأنَّها مَا شَعرَتْ أَنَّ أَحداً يبكِي من الفَرَحِ ، حَتَّىٰ رَأَتْ أَبَاها يفعَلُ يومَئذٍ . وقد كَانَ يُجـهِّزُ ـ من فترَةٍ ليسَت بالقَصيرَةِ تَطوُّعاً منه ـ أفضَلَ ما عِندَه من رَواحِلَ ، ويُعْدِقُ عَليهِما من وَرَقِ السَّمرِ ، طَمَعاً في شَرفِ الصُّحبَةِ .

(١) انظر في ذلك : «صحيح البخاري» ، عن عروة : قالت عائشة : ..تتمة الحديث السابق في كتاب اللباس باب التقنع ، ص ١٠٥٧ ، رقم الحديث : ٥٨٠٧ ، وانظر أيضاً : «تراجم سيدات بيت النبوة» ، عائشة عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، وانظر أيضاً : «هذا الحبيب يا محب» ، مرجع سابق ، ص ١٠٨ .

رَغمَ ذَلكَ كُلِّه ، نَجِدُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَـمْ يرضَ أنْ يَأخُذَ الرَّاحِلَةَ إلَّا بعدَ أنْ استوثَقَ أنَّها بالثَّمَنِ ، ومَع أنَّ الوَقتَ جِـدُّ حَرِج ، فقَد علِمنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أتىٰ مُتخَفيّاً مُتقَنِّعاً ، كَي لا تَراهُ العُيونُ وتُلاحِقُه . فقُرَيشُ أجمَعَت وَقتَها علَىٰ قَتلِه ، وأعدَّت شَباباً من مُختَلَفِ القَبائلِ للقِيامِ بهَـٰذِه المُهمَّةِ ، وهي تُراقِـبُه لإتمامِها ، ومع كُلِّ ذَلكَ لَـمْ يُؤجِّل الحَديثَ عَن الثَّمَنِ رَيثَما تَستَقِرَّ الأمُورُ ، بَلْ تَعجَّلَ واشتَرطَ عَدمَ القَبولِ إلَّا بالثَّمَنِ .

فهَلْ هُناكَ حُبٌّ أعظَمُ من حُبِّ النَّبيِّ ﷺ لأبي بَكْرٍ؟ وحُبِّ أبي بَكْرٍ للنَّبيِّ ﷺ؟ وهَلْ هُناكَ رُقيٌّ كرُقيِّ الرَّسُولِ ﷺ! ، وتَجرُّدٍ عن المَالِ كتَجرُّدِ أبي بَكْرٍ؟! ومَع كُلِّ ذَلكَ أبَىٰ النَّبيُّ ﷺ وبصُورَةٍ حازِمَةٍ إلَّا أنْ يَحفَظَ لأبي بَكْرٍ حَقَّهُ المالي . فالقَضيَّةُ لَيسَت للإنفاقِ علَىٰ الدَّعوَةِ ، بَلْ قَضيَّةٌ شَخصيَّةٌ فَرديَّةٌ ، لذَلكَ لَـمْ يَرضَ ﷺ إلَّا بعدَ أنْ أصبحَت حَقّاً في ذِمَّتِه يُؤدِّيه لأبي بَكْر .

إنَّه دَرسٌ تَربَويٌّ راسِخٌ في الحِفاظِ علَىٰ الحُقُوقِ الماليَّة المُتبادلَة بينَ المُتحابِّينَ . تَعلَّمْناهُ من قِصَّةِ الهِجرَةِ ، والهِجرَةُ كُلُّها دُرُوسٌ وعِبَرٌ .

فالمحَبَّـةُ والصُّحبَةُ الحَميمَةُ لا تَعنِي التَّجاوُزَ المالي للآخَرينَ ، فكَمْ مِنْ الخِلافاتِ تَنشُبُ ، ويَضعُفُ الحُبُّ الذي يَربطُ بينَ الأقَارِبِ والأحْبابِ ، وتَتخَلْخَلُ الرَّوابِطُ الاجتِماعيَّة بسَببِ عَدمِ التِزامِ الحُقُوقِ الماليَّة الفَرديَّة واختِلاطِها بالفَوْضَىٰ .

(٢) مُراعَاة الخُصُوصيَّةِ الفَرديَّة في العَلاقَةِ مع المُقرَّبين

في خِضَمِّ الحَياةِ المُعاصرَة نَجدُ أنَّ هُناكَ أمُوراً قَد اختَلطَت ، حَيثُ كَانَ لتَطوُّرِ وَسائلِ الاتِّصالِ الحَديثَة ـ التي تُسَرِّعُ في التَّواصُلِ ونَقلِ الأخبارِ ـ أثَراً سَلبيَّاً في تجاوُزِ حُدُودِ الخُصُوصيَّاتِ الفَرديَّةِ .

وهو ما يُحتِّمُ عَلَينا إعادَةَ ضَبطِ هَـٰذه الأمُورِ وِفْقَ مَوازينِ الهَدي النَّبَـويِّ ، للحِفَاظِ عَلَىٰ الأُلفَةِ والموَدَّة بَينَ المُسلِمينَ والعَلاقَاتِ المُتَلاحِمَة بأحسَنِ صُوَرِها . يَقُولُ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ : «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْـمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**» (١) .

أي أنَّ مِنْ كَمالِ إسلَام المَرءِ ، وما يَزيدُهُ حُسناً أنْ يَترُكَ مَا لَا يَعنِيهِ عِندَ الآخَرينَ ، مِمَّا لا يهمُّه ولا يُفيدُه من أمرِ دُنياهُ ولا آخِرَته .

فقَد كَانَ ﷺ حَريصاً أشَدَّ الحِرصِ عَلَىٰ أنْ يَسُودَ الوُدُّ وتَعُمَّ الأُلفَةُ بين المُسلِمينَ ، فكَانَ يُوصِيهم ـ فيما يُوصِيهِم ـ بتَوجيهاتِهِ النَّبَـويَّة التَّربَويَّةِ للحِفاظِ عَلَىٰ مَشاعِرِ الفَردِ والعَلاقاتِ الوُدِّيَّة .

فمِنْ ثَمرَةِ الالتِزام بتَطبيقِ تَعاليم الإسلَام عَدمُ التَّدخُّلِ فيما لا يَعنِي مِنْ شُؤونِ الآخَرينَ ، مهما كَانَت دَرجَةُ مَوَدَّتِهم وقَرابَتِهم .

وقد اتَّسَمَ الحَديثُ السَّابقُ بالبَساطَةِ والشُّمولِ ، إذ أنَّ آدابَ الخَير وزِمَامَه يَتفرَّعانِ منه ، وهو أصلٌ من أُصُولِ الآدابِ الإسلاميَّة لصِيانَةِ خُصُوصيَّاتِ كُلِّ فَردٍ ، للحِفاظِ عَلَىٰ المَودَّةِ ومَتانَ الرَّوابِطِ الاجتِماعيَّة .

(١) «رياض الصالحين» ، مرجع سابق ، باب المراقبة ، ص ٦٨ ، رقم الحديث : ٦٧ ، حديث حسن ، رواه الترمذي .

وهَـٰذا النَّهيُّ عَامٌّ في الأقْوالِ والأفْعالِ ، وفيه تَوجيهٌ للأُمَّةِ في البُعدِ عن الفُضُولِ ، أو تَتبُّعِ أخْبارِ الآخَرينَ فيما لَيسَ فيه ضَرورَةٌ . فالكَثيرُ يَتدخَّلُ في شُؤونِ بَعضِهِم ، ويَنصَحُونَهُم دُونَ أنْ يُطلَبَ مِنهُم أدنَىٰ استِشارَةٍ ، بدَعوَىٰ المحبَّـةِ والقَرابَةِ والتَّوجيهِ والإرشَادِ ، ويَتوسَّعُونَ في أسئلَةٍ خاصَّةٍ ، مِمَّا يُدخِلُ الطَّرفَ الآخَرَ في حَرجٍ كَبيرٍ ، قد يَصِلُ أحياناً إلَىٰ النُّفورِ ويُوغِرُ الصُّدُورَ .

فرَفعُ الكُلفَةِ والحَرَجِ بَينَ الأحبابِ والأقارِبِ لا يَعنِي حُكمَ الوِصايَةِ والتَّدخُّلِ في الشُّؤونِ الشَّخصيَّةِ في صَغيرِ الأُمُورِ وكَبيرِها ، والذي لا يَعُودُ بنَفعٍ سِوَىٰ الهَمِّ والغَمِّ ، وقَلقٍ ومَشاكِلَ لا حَصرَ لها ، فكَمْ من القُلُوبِ تَحطَّمَت؟ و بُيُوتٍ تَهدَّمَت؟! بسَببِ التَّدخُلِ فيما لا يَعنِي .

فلا بُدَّ من التِزامِ هَـٰذا الهَدي النَّبَـويِّ ، لِـما فيه من إبقَاءٍ عَلَىٰ صَفاءِ النُّفوسِ ، ونَقاءِ العَلاقاتِ ، وبَقاءِ المودَّةِ والتَّواصُلِ بَينَ القُلُوبِ .

كَما أنَّ فيه رَاحَةً للتَّفكيرِ وللنَّفسِ والقَلبِ والبَدَنِ . فلكُلِّ إنسانٍ ظُروفُه ، ولكُلِّ بيتٍ حُرمَتُه وخُصوصيَّـتُه ، لذا يَجبُ احتِرامُ خُصُوصيَّاتِ الآخَرينَ . وقد وَردَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قَالَ : «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» (١) . فَما يُحِبُّه المرءُ لنَفسِه من أمْنٍ وطُمأنينَةٍ وخُصُوصيَّةٍ واحتِرامٍ وحُريَّةٍ فإنَّه يَجِبُ أنْ يمنَحَ الآخَرينَ هَـٰذه الرَّغائِبَ .

كَما نَهَىٰ ﷺ أيضاً في أحاديثَ عِدَّةٍ أنْ يَتتَبَّعَ بَعضُهُم عوراتِ وعَثَراتِ بَعضِهِم الآخَرِ ، لِـما في ذَلكَ من أذَىً وانتِهاكٍ لخُصوصيَّةِ الآخَرينَ وإفْسادِ المُجتَمَعِ .

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب الإيمان ، باب أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ص ٢٠ ، رقم الحديث : ١٣ .

رَوَىٰ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ صَعدَ المِنبَرَ ونادَىٰ بصَوتٍ رَفيعٍ فقَالَ : «**يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ ولَـمْ يَدْخُلِ الإيمَـانُ قَلْـبَهُ ، لَا تُؤْذُوا المُسْلِمِينَ ، ولَا تُعَـيِّرُوهُم ، ولَا تَطْلُبُوا عَثَرَاتِهِم ..**» (١) ، ويَسرِي حُكمُ هَـٰذا الحَديثِ سَواءٌ الرَّجُلُ مع أهْلِه ، أو بَينَ النِّساءِ مَع بَعضِهِنَّ .

وفي حَديثٍ آخَرَ عن مُعاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : «**إنَّكَ إنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ المُسْلِمِينَ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ تُفْسِدُهُم**» (٢) . فذَلكَ يَفتَحُ بَابَ الإصْرارِ والتَّجرُّؤ عَلَىٰ المعاصي .

ومَهما بَلغَت العَلاقَةُ من عُمقٍ ومَحبَّةٍ فهُناكَ أمُورٌ أُخرَىٰ يَجبُ مُراعاتُها أيضاً ، منها : ألَّا يَطرُقَ البَابَ أحَدٌ في وَقتٍ مُتأخِّرٍ ، يُصِيبُ فيه أهْلَ البيتِ بالذُّعْرِ ، ويَبغَتهُم عَلَىٰ حِينِ غِرَّةٍ! حَتَّىٰ «الزَّوجُ» إنْ كَانَ مُسافِراً أرشَدَهُ ﷺ أنْ لا يَأتيَ أهْلَهُ طَرُوقاً ، أي : يَتريَّثُ في دُخُولِه إلَىٰ بَيتِه إذَا حَضَرَ في وَقتٍ لا يُتوَقَّعُ فيه مَجيئُه ، كَي لا يَفجَأهُم أو يَلتَمِسَ عَثَراتِهم ، وكَي يَتهَـيَّأَ الأهْلُ لاستِقبالِه .

فقَد رَوَىٰ جابِرُ بنُ عَبدِ اللَّـهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ «**يَكْرَهُ أنْ يَأتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طَروقاً**» (٣) .

فهَلْ هُناكَ ارتِباطٌ أشَدُّ من ارتِباطِ الرَّجُلِ بأهْلِه؟! فكَيفَ بمَنْ يَتَّصِلُ عَلَىٰ

(١) «الترغيب والترهيب» ، ج٣ ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ، رواه ابن حبان في صحيحه .
(٢) نفس المرجع السابق ، ٣/ ٢٤٠ ، رقم الحديث : ١٢ ، وانظر : «إحياء علوم الدين» ، مرجع سابق ، ج٢ ، في آداب المعاشرة.. ص ٥٢ ، نَهيُ الرسولِ عن تتبع عثرات وعورات النساء .
(٣) «صحيح البخاري» ، باب : لا يطرق أهله ليلاً ، الحديث رقم : ٥٢٤٣ ، ص ٩٦٢ .

صاحِبِه هاتِفيَّاً في وَقتٍ مُتأخِّرٍ ويُطيلُ مَعه؟ أو يَزُورُه في وَقتٍ غَيرِ مُناسِبٍ دُونَ سابِقِ مَوعِدٍ أو إخْبارٍ؟ أو يُطيلُ الجُلُوسَ عِندَه، فيُسَبِّبُ حَرجاً كَبيراً لصاحِبِه، ويَكُونُ عِبئاً ثَقيلاً عَلَىٰ أَهْلِ البَيتِ، وقَد قَالَ ﷺ: «.. **وَلا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّىٰ يُحْرِجَهُ**»(١). كُلُّ ذَلكَ لتَبقَىٰ المَحبَّـةُ والمَودَّةُ قَويَّةً مُزهِرَةً في المُجتَمَعِ.

لَوْ أَنَّ كُلَّ مُسلِمٍ التزَمَ هَـٰذه التَّوجيهاتِ النَّبَـوِيَّةِ السَّاميَة وفَقِهَهَا لتَلَاشَت الكَثيرُ من الخِلَافاتِ العائليَّة والاجتِماعيَّة، وحافَظَ كَثيرٌ من الأُسَرِ عَلَىٰ وُدِّها وأَمنِها، مِمَّا يَجعَلُ المُجتَمعَ المُسلِمَ مُتحابَّاً قَويَّاً مُترابِطاً.

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الأدب: باب إكرام الضيف..، رقم الحديث: ٦١٣٥، ص ١١٠١.

الفصل الخامس

الحُبُّ النَّبَـويُّ والوَاقِـعُ المُعـاصِر

وفيه تَمهيدٌ وثَمَـانيَـةُ مَطالِب

المَطلَبُ الأوَّلُ : الرَّسُولُ الزَّوجُ

المَطلَبُ الثَّانيُ : الرَّسُولُ الأَبُ

المَطلَبُ الثَّالِثُ : الرَّسُولُ والـجَـار

المَطلَبُ الرَّابِـعُ : الرَّسُولُ الصَّاحِبُ

المَطلَبُ الخَامِسُ : الرَّسُولُ القَائِدُ

المَطلَبُ السَّادِسُ : الـمُـرَبِّي

المَطلَبُ السَّـابِعُ : الرَّسُولُ العَطُوفُ عَلَىٰ المَخلُوقَاتِ

المَطلَبُ الثَّـامِنُ : الرَّسُولُ القُدوَة

تَمهـــيد

ضَربَ لَنا رَسُولُ اللّـهِ ﷺ المثَلَ الأَعْلَىٰ بالتَّعامُلِ والتَّربيَـةِ بالحُبِّ في جَميعِ شُؤونِ حَياتِه ، ليُؤَسِّسَ لَنا النَّهجَ الحَياتي والمسَارَ الإنسانيَّ السَّليمَ للحَياةِ الإنسانيَّة ، وهو أشَدّ ما تَحتاجُ إلَيه أجْيالُنا المُعاصِرَة ، كَي يَعيشَ النَّاسُ في أمْنٍ واطْمِئنانٍ وسَعادَةٍ وهَناءٍ .

فالتَّربيَـةُ بالحُبِّ عَلَىٰ مَنهَجِ رَسُولِ اللّـهِ ﷺ وهَديه ، والتَّربيَـةُ بالتَّرغيبِ لا بالتَّخويفِ والتَّرهيبِ أساسٌ لحَياةٍ يُحيطُها الوُدُّ ويَغمُرُها الحَنانُ ، فتُعقَدُ أوَاصِرُ المحَبَّـةِ العَميقَة ، وتُرسِّخُ القِيَمَ الإنسانيَّة المُثلَىٰ .

ولا يَكُونُ ذَلكَ إلَّا من خِلَالِ المَعرِفَةِ الدَّقيقَةِ بحَياتِه الشَّريفَةِ وهَديِه الكَريمِ في كُلِّ شَأنٍ ، وبالوَسائلِ والأَساليبِ المُناسِبَةِ . فما تُعانيهِ اليَومَ الحيَاةُ الزَّوجيَّة والأُسَريَّة والمُجتَمَعات في الأُمَّة الإسلَاميَّة من جَفافٍ رُوحيٍّ ، ونضبٍ عَاطِفيٍّ ، وضَعفٍ في الجَانبِ النَّفسيِّ والأَخلَاقيِّ والاجتِماعيِّ سَببُه الأساسيُّ خَلَلٌ ناجِمٌ عن إهْمالِ التَّعامُلِ بالحُبِّ ، وغِيابِ الوَعي بأَهَميَّةِ دَوْرِ الحُبِّ في التَّربيَـةِ وفي الحَياةِ عامَّةً ، وفي البُعدِ عَن مَنهَجِ رَسُولِ اللّـهِ ﷺ وأُسلُوبه الحَكيمِ .

فالنَّجاحُ والنَّجاةُ والسَّعادَةُ في اتِّباعِ هَديِه ﷺ وتَرجَـمَةِ سِيرَتِه إلىٰ مَناهِجَ عَمليَّةٍ وبَرامِجَ سُلُوكيَّةٍ تفصيليَّةٍ، تُغذِّي القُلُوبَ، وتُقَوِّي عزائمَ النُّفُوسِ، لتَعُودَ للأُسَرِ سَعادَتُها، وللإسلَامِ رِيادَتُه. ولأجْيالِ المُسلِمينَ عِزَّتُهُم.

ولَنا نَماذجُ من الهَدي النَّبَـويِّ في كُلِّ شُؤونِ حياتِنا: الأُسوَةُ الحسَنَةُ، والمِثَالُ الواقِعيُّ، والصُّورَةُ العَمليَّةُ لكُلِّ فَردٍ من أفْرادِ المُجتَمعِ علىٰ مُختَلفِ مَسؤُوليَّاتِهِم ومَواقِعِهِم.. ونَبدأُ بالنَّمُوذَجِ الأوَّلِ.

المطلَبُ الأَوَّل
الرَّسُولُ الزَّوجُ

إنَّ حياةَ النَّبيِّ ﷺ مع أهْلِه تُمَثِّلُ لَنا الصُّورَةَ الرَّائعَةَ والبَسيطَةَ للحَياةِ الزَّوجيَّةِ الهانِئةِ في إنسانيَّتِها ، فقَد كانَ ﷺ يَعيشُ بينَ أزْواجِه رَجُلاً ذا قَلبٍ وعاطِفَةٍ ووِجْدانٍ . فيُشفِقُ أنْ يَرينَهُ غيرَ باسِمٍ في وُجُوهِهِنَّ ، أو مُنشَغِلاً عَنهُنَّ ، فيَزُورُهُنَّ جَميعاً كُلَّ يومٍ .

ولَـمْ يَجعَلْ من هَيبَةِ النُّبـوَّةِ سُوراً رَادِعاً بَينَه وبَينَ نِسائِه ، بَلْ أنْسَاهُنَّ بِرفْقِه ومُؤانَسَتِه أنَّهُـنَّ يُخاطِبنَ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ في بَعضِ الأَحْيانِ [(١)] .

فكَانَ يَحمِلُ لَـهُنَّ من الرِّفقِ والرَّحمَةِ ، والعَطفِ وحُسنِ الخُلُقِ والشَّفقَةِ ، والصَّبرِ وسَعَةِ الصَّـدرِ ، والوَفَـاءِ والبِرِّ ، والتِمـاسِ العُـذرِ لَـهُـنَّ ، وتَقـديرِ مَشاعِرهِنَّ ، ما يَتجَلَّىٰ في كُلِّ وَقتٍ وحِينٍ .

تُبهِرُنا صَفحاتُ حَياتِه الزَّوجيَّةِ وما فيها من حَيويَّةٍ عاطِفيَّةٍ لَـمْ تَشِخْ يوماً ، أو يَتسَرَّبْ إلَيها الجُمُودُ والفُتُورُ ، أو اليَأسُ والمَلَلُ ، يَقطُرُ العَطفُ والحَنانُ من وِجْدانِه وقَلبِه ، وما ذاكَ إلَّا لأنَّه سَوِيَّ الفِطرَةِ جَيَّاشَ العاطِفَةِ .

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب النكاح ، باب : دخول الرجل على نسائه في اليوم ، ص ٩٥٨ ، رقم الحديث : ٥٢١٦ ، وانظر : «عبقرية محمد» ، للعقاد ، معاملته لزوجاته ﷺ ، ص ٩٤ .

وقد أوْصىٰ ﷺ عامَّةَ المُسلمينَ بأهليهم ، وذلك أدنىٰ بكثيرٍ ممَّا أوْجبه علىٰ نفسه . فقد قالَ ﷺ : «**خيْرُكُم خيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وأنا خيْرُكُمْ لِأَهْلي**» (١) .

لَقَدْ عاشَ ﷺ ما عاشَ ، فتِيَّ القَلْبِ ، رَحْبَ الصَّدرِ ، فـيَّاضَ المَشاعِرِ ، حَيَّ العَواطِفِ والوِجْدانِ حَتَّىٰ بعدَ أنْ جاوزَ السِّتِّينَ من العُمرِ ، لِيُقـدِّمَ للبَشريَّةِ الصُّورَةَ المُثلَىٰ عن العَلاقَةِ الإنسانيَّةِ التي أرادَها اللَّـهُ للأزْواجِ ، والتي تُسعِدُ الإنْسانَ وتَسمُو بحَياتِه .

تُحدِّثُنا السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن الرَّسُولِ الزَّوجِ فتَقُولُ : «**كَانَ في مِهْنَةِ أَهْلِه ، فإذَا حَضَرَت الصَّلَاةُ قَامَ إلَىٰ الصَّلَاةِ**» (٢) .

وتَعني في مِهنَةِ أهْلِه ، أي : أنَّه يَتولَّىٰ خِدمَةَ البَيتِ مَعَهُنَّ ، يَخدِمُ مَع أهْلِه في عَملِهنَّ ، ولا يرَىٰ في ذَلكَ غَضاضَةً أو عَيْباً ، فيُلَمْلِمُ الإناءَ إذا انْكسَرَ ، ويَحلِبُ الشَّاةَ ، ويُصلِحُ النَّعلَ إذَا وَجدَ فيه خَلَلاً في زَمنٍ كَانَ يُستَعَرُّ فيه من النِّساءِ ، حَتَّىٰ أنَّ البِنتَ فيه تُوأَدُ ، وتُدفَنُ وهي حَـيَّةٌ .

إنَّ النَّاظِرَ إلَىٰ سِيرَةِ المُصطَفَىٰ ﷺ يَرَىٰ الرَّسُولَ الزَّوجَ البَشَرَ النَّمُوذَجيَّ في كُلِّ شَيءٍ : فهُو المُحِبُّ الوَفيُّ ، المَرِحُ المُتعاوِنُ ، الحَليمُ البَارِعُ في فَنِّ التَّواصُلِ والحِوارِ .

---

(١) «الترغيب والترهيب» ، للحافظ المنذري ، مرجع سابق ، ج٣ ، ترغيب الزوج في الوفاء بحق زوجته وحسن عشرتها ، ص ٤٩ ، رقم ٥ ، رواه ابن حبان في صحيحه .

(٢) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، باب : كيف يكون الرجل في أهله ، ص ١٠٨٧ ، الحديث رقم : ٦٠٣٩ .

إنَّ الحَياةَ بزَحمتِها ومَشاغِلِها وهرولَتِنا مَعَها قد تُنْسِينا مَنْ يَعيشُ مَعنا تَحت سَقفٍ واحِدٍ وهُم أهْلُنا ، ونَخدَعُ أنفُسَنا بعِبارَةِ : «لا نَعمَلُ كُلَّ هَـٰذا إلَّا من أجْلِ أهْلِنَا وأوْلادِنا .. لأجْلِكُم» نَعم نَتعَبُ في العَملِ ، لا نُنكِرُ صُعوبَةَ الحَياةِ والبَحثِ عن الرِّزقِ في هَـٰذا العَصرِ وغَيرِه ، ولَكِنْ هَلْ يَحمِلُ أحَدُنا هَمَّ أُمَّته؟ هَلْ يَقُودُ الجُيُوشَ؟ هَلْ يَنفَعُ أُمَّتَهُ بعِلمِه؟ لَوْ قَامَ أحَدُنا بهَـٰذه المَهامِّ كُلِّها مَرَّةً واحِدَةً فماذَا كَانَ سَيقُولُ؟!

لِنَنظُرَ إلَىٰ الرَّسُولِ العَظيم ﷺ الذي حَمَلَ هَمَّ أُمَّةٍ وعَلَّمَها ، وجَهَّزَ الجُيُوشَ وقادَها ، هَلْ مَنَعَهُ كُلُّ هَـٰذا من الاهتِمامِ بأهْلِ بَيتِه! وتَلَمُّسِ أحْوالِهم ، والصَّبرِ عَلَيهم والرِّفقِ بِهم!؟ إنَّ سِيرَةَ الحَياةِ الزَّوجيَّةِ لِهَـٰذا الرَّجُلِ العَظيم تُوقِفُ القارئَ ، لِيَنظُرَ فيها مَلِيَّاً ، فيَستَمتِعُ بجَمالِ تِلكَ المَشَاعِرِ ، ولُطفِ ذَلكَ التَّعامُلِ .

لَقَد علَّمَنا الرَّسُولُ الزَّوجُ كَيفَ تُبنَىٰ الأُسرَةُ السَّعيدَةُ ، ولَنا في هَـٰذا ما رَوَتهُ أُمُّ المُؤمِنينَ السَّيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا إذ قَالَت : كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يَخصِفُ نَعْلَهُ ، وكُنْتُ جَالِسَةً أَغزِلُ ، فَنظَرْتُ إلَيه فَجعَلَ جَبينُهُ يَعْرَقُ وجَعلَ عَرَقُهُ يَتَوَلَّدُ نُوراً ، فَبُهِتُّ ، فَنظَرَ إلَيَّ ، فقَالَ : «**مَالَكِ بُهِتِّ؟**» فقُلتُ : يا رَسُولَ اللَّـهِ لَوْ رَآكَ أبُو كَبيرٍ الهُذليُّ لَعَلِمَ أنَّكَ أَحقُّ بِشِعْرِه ، قَالَ : «**وَمَا يَقُولُ يُا عَائِشَةُ؟**» قَالَت :

وإذَا نَظَـرْتَ إلَىٰ أَسِـرَّةِ وَجْهِـهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ

تَقُولُ : فوَضَعَ ﷺ ما بيَدِهِ وقَامَ إليَّ وقبّلَ ما بَينَ عينَيَّ ، وقَالَ : «**جزَاكِ اللَّـهُ خيْرًا يَا عَائِشَةُ مَا سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُورِي مِنْكِ**» (١) .

حَقًّا إنّها قِصَّةُ حُبٍّ فتيَّةٍ مَليئَةٍ بالحَيَويَّةِ ، مع انسِجَامٍ رائعٍ ، وتعاوُنٍ بَينَ الرَّسُولِ وزَوجِه ، يَتبادَلانِ الأحاديثَ الوديَّة العاطِفيَّة ، ويَتسامَرانِ مع بَعضِهما ، وهما يَتساعَدانِ في الشُّؤونِ المَنزليَّة .

يُرافِقُ ذَلكَ دِقَّةُ مُلاحظَةٍ ، واهتِمامٍ من الرَّسُولِ الزَّوجِ علَىٰ الرَّغمِ من انهماكِه ﷺ في عَمَلٍ بينَ يَدَيه ، فقَد استَرعَىٰ انتباهَه موقِفُ السَّيِّدَةِ عائشَةَ ، فحَوَّلَ هَـٰذا الاهتِمامَ ﷺ إلَىٰ دِفقٍ من المَشاعِرِ الحانيَةِ علَىٰ زَوجِه الحَبيبَة .

وفي قِصَّةٍ أُخرَىٰ أيضاً تُنَبِّئُنا عن الاستِمتَاعِ في الحَياةِ الزَّوجيَّة مَهْما كَانَت الظُّرُوفُ ، تَقُولُ السَّيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : خَرجتُ مع رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ في غَزوَةٍ ، فقَالَ : «**تَعَالَي حَتَّىٰ أُسَابِقَكِ**» ، فشَدَدتُ دِرعِي علَىٰ بَطنِي ، ثُمَّ خَطَطْنا خَطًّا فقُمْنا عَليه ، واستَبَقنا فسَبَقَنِي ، وقَالَ : «**هَـٰذِهِ مَكَانُ ذِي المَجَازِ**» . وذَلكَ أنّه ﷺ جاءَ يوماً ونَحنُ بِذِي المَجَازِ وأنَا جارِيَةٌ ، قَد بَعثَني أبي بِشَيءٍ فقَالَ : «**أَعْطِنيهِ**» ، فأبَيتُ ، وسَعَيتُ وسَعَىٰ في إثْرِي فلَمْ يُدْرِكْنِي (٢) .

إنَّها رُوحُ المَرَحِ والشَّبابِ لإدْخَالِ السُّرُورِ عَلَىٰ قَلبِ زَوجِهِ في أَحْلَكِ

---

(١) «إحياء علوم الدين» ، للغزالي ، مرجع سابق ٣/ ١٣٦ .

(٢) «إحياء علوم الدين» ، للغزالي ، مرجع سابق ، ٣/ ١٣٨ ، وانظر : «نضرة النعيم» ، مرجع سابق ، ج٥ ، المثل التطبيقي من حياة الرسول ﷺ في (حسن المعاملة) ، ص ١٦٣٦ ، رقم الحديث : ٥٥ .

الظُّروفِ وأصْعَبِها ، لإزالَةِ التَّوتُّر والقَلَق الذي يَصحَبُ عادَةً تلكَ المَواقِف ، كَما يَدُلُّ عَلَىٰ الهُدُوءِ والتَّوازُنِ النَّفسيِّ العَميقِ من الرَّسُولِ الزَّوجِ ، ورَحمَتِه وشَفقَتِه وحُبِّه الكَبيرِ لأهْلِه .

ولَـمْ يُعلِّمْنا ﷺ كَيفَ تُبنَىٰ الأُسرَةُ السَّعيدَةُ فَحسْب ، بَلْ علَّمَنا ﷺ أيضاً بسُلُوكِه كَيفَ تُعالَجُ المُشكِلاتُ الزَّوجيَّة وتُحَلُّ الخِلَافاتُ التي تَعتَريها ، والتي قد تَعصِفُ أحْيانا بأرْكَانِ الحَياةِ الزَّوجيَّة إنْ لَـمْ يَكُنْ هُناكَ أَناةٌ أو تَعقُّلٌ .

فقَد كَشفَ حَديثُ الإفْكِ في حَياةِ الرَّسُولِ الزَّوجيَّةِ عن أَطيَبِ مُعامَلَةٍ للزَّوجَةِ في أَحْرَجِ الحَالاتِ . حَيثُ كَانَت حَالَةَ أَلَـم بالِغَةٍ عِندَ الرَّسُولِ الزَّوج ﷺ ، ولَيسَت حَالَ رِضَا وطُمأْنِينَة ، بَلْ حَالَةٌ تُثِيرُ النِّقْمَةَ ، ولَكنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ المَثَلَ الأَعْلَىٰ في مُعامَلَتِه الطَّيبَةِ . فقَد كَانَ عَلَيه : إمَّا أنْ يَزُورَ زَوجَهُ المُتَّهمَةِ المَرِيضَة ، أو أنْ يَجفُوهَا رَيثَما تَظهَرُ البَيِّـنَةُ ، ولكِنَّه ﷺ كَانَ يَعُودُها وبِه مِنَ الرِّفْقِ والإنْصَافِ ما يَأبَىٰ أنْ يُفاتِحَهَا في مَرَضِها بِما يَدُورُ من حَولِـهَا فيُؤذِيَها .

كَمْ من البُيوتِ تَهدَّمَت بسَببِ مَقُولَةٍ أو شائِعَةٍ دُونَما أدنَىٰ تَريُّثٍ أو تَثبُّتٍ!

ولكِنَّنا نَرَىٰ الرَّسُولَ الزَّوجَ ﷺ بِحلمِه وحُسنِ تَعامُلِه لَـمْ يُكَذِّبْ ماضِياً عَرِيقاً ، وتَجربَةً وثِقَةً قَوِيَّةً مَبنيَّةً عَلَىٰ واقع وحَقائِقَ ، لَـمْ تَهدِمْ كَلِمَةٌ أو إشَاعَةٌ ذَاكَ المَاضِي العَرِيقِ بالثِّقَةِ والمَحبَّـةِ والإخْلَاصِ ، بَلْ تَمهَّلَ وتَحقَّقَ .

فتِلكَ التُّهمَةُ يَتنَزَّهُ عَنها مَنْ هُم أَقَلُّ مَنزِلَةً من السَّـيِّدَةِ عائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا مَنبتاً ، ومَنزِلَةً ، وخُلُقاً ، وأَنفَةً ، فكَيفَ بِها وهِي أُمُّ المُؤمِنينَ ، زَوجَةُ خَيرِ الأَنْبِياءِ

والمُرسَلينَ؟! إلَّا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أرادَ لَـها البَراءَةَ أمامَ الخَلقِ عامَّةً ، وأمامَ نَفسِه المُحِبَّة ، حَذَراً أنْ تكُونَ تَبرِئَـتُه إيَّاها عن مَحَبَّةٍ وضَعفٍ لا عَن تَبـيُّنٍ واستِيثَاقٍ (١) .

ما أَروَعَ أنْ يَقتَدِيَ الأزْواجُ في عَلاقاتِهِم فيما بَينَهُم بالرَّسُولِ الزَّوجِ ﷺ ، ويُحسِنُوا الظَّنَّ ببَعضِهِم بَعضاً ، وتَكُونَ الثِّـقَةُ راسِخَةً بَينَهم ، ويَستَرجِعُوا الماضي ، ويَكُونُوا كَالطَّودِ الشَّامِخِ في الثِّـقَةِ وحُسنِ الظَّنِّ ، ويَتَثَـبَّـتُوا ولا يَتَسَـرَّعُوا .

ومَنْ قَالَ أنَّ بَيتَ النُّبـوَّةِ خَلَا من المَشاكِلِ فإنَّه لَـمْ يَعرِفْ ذَلكَ البَيتَ حَقَّ مَعرفَتِه ، ولَـمْ يَتَعمَّقْ في دِراسَتِه ، إذ لَـمْ يَخْـلُ حَتَّىٰ من التَّنافُسِ أو الغَيرَةِ بَينَ نِسائِه ، فهُنَّ بَشَـرٌ غَيرُ مَعصُوماتٍ ، ولَـمْ يَنزِلْ وَحيٌ يُحدِّثُ أنَّهُـنَّ من المَلائكَةِ .

ولَكِنَّ القَلبَ الكَبيرَ والتَّعامُلَ مَعَهُنَّ بالحُبِّ الذي غَمَرهُنَّ به ﷺ ، والتَّغاضي عن هَفَواتِهِنَّ ، ومَعرفَة شُعورِ الأُنثَىٰ ومَواضِعِ ضَعفِهَا تَقديراً منه لَـهُنَّ ، واحتِواءَه ﷺ لتِلكَ المَواقِفِ جَميعِها ، كُلُّ ذَلكَ كَانَ يُؤدِّي دائماً إلَىٰ التَّهدئةِ من حِدَّةِ التَّوتُّرِ والانفِعالِ بَينَهُنَّ ، ومن ثَمَّ عَودَة الأُمُورِ إلَىٰ مَجراها الطَّبيعي . حَيثُ يَبلُغُ حُسنُ عِشرَةِ النَّبيِّ ولُطفِ مُعامَلَتِه مع أَهْلِه وتَقديرِه لِـمَشـاعِرهِنَّ أقصَىٰ ما يُتصَوَّرُ في مَواقِفِ الغَيرَةِ التي تكُونُ بَينَ نِسائِه ﷺ دُونَ أنْ يَتجاوَزَ العَدلَ بَينَهُنَّ ، وإنْصافَ مَنْ يُساءُ إلَيها أو يُتَجاوَزُ حَقُّها (٢) .

(١) «عبقرية محمد» ، عباس العقاد ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .
(٢) «نبي الهدى والرحمة» ، د. عبد المجيد البيانوني ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

إنَّ هَـٰذهِ المواقِف التَّربويَّة في حَياةِ الرَّسُولِ الزَّوجيَّة وإدراكها عَلَىٰ حَقيقَتِها ، هي الرَّابطُ الحَيُّ الذي يَربطُ بَيننا وبَينَ شَخصِ الرَّسُولِ ﷺ وشَخصيَّاتِ أزواجِه رَضيَ اللَّـهُ عَنهُنَّ وهو ما يَدعُو إلَىٰ التَّأسي العَملي ، والاقتِداءِ الواقِعي (١) بشَخصِه ﷺ بَعيداً عن المِثاليَة الخَياليَة .

إنَّ الزَّوجَ المُعاصرَ يَستَطيعُ من خِلالِ التَّأسي العَملي بنَهجِ المُصطَفَىٰ ﷺ يُحقِّقُ سَعادَةً كَبيرَةً ، وذَلكَ بأنْ يَفصِلَ بَينَ عَمَلِه وهُمومِه ومَشاكِلِه خارجَ المَنزِلِ وبَينَ داخِلِه ، فقَد يَكُونُ مُدرِّساً أو مُهندِساً أو مِهنيّاً . ولكِنَّه داخِلَ المَنزلِ يَجبُ أنْ يَكُونَ زَوجاً مُحِبّاً ، وَدُوداً ، لَطيفَ المَعشَرِ ، لَيِّنَ الجانِبِ مع أهْلِه كما كَانَ ﷺ مع أهْلِ بَيتِه ، وهو القَائلُ : «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**» (٢) .

فالزَّوجَةُ تَحتاجُ إلَىٰ مُلاطَفَةٍ ومُمازَحَةٍ ومُساعَدَةٍ وكَلِماتٍ بَسيطَةٍ تُدخِلُ الأُنسَ والبَهجَةَ إلَىٰ قَلبِها ، وتُنسيها تَعبَ يَومِها ومَشقَّتِه . كَما تَحتاجُ إلَىٰ تَغاضٍ عن هَفَواتِها ، فهي الإنسانُ الذي يُخطِئُ ويُصيبُ ، لذا أَوْصَىٰ ﷺ بالتَّجاوُزِ عن عَثَراتِ النِّساءِ .

وقَد كَانَ آخرُ عَهدِ الرَّسُولِ ﷺ بأصْحابِه وهُو يُودِّعُهُم ، قَبلَ انتِقالِه إلَىٰ الرَّفيقِ الأَعْلَىٰ ، أنْ استَوْصاهُم بالنِّساءِ خَيراً (٣) ، شَفقَةً عَلَيهِنَّ ورَحمَةً بِهِنَّ ، وتَأكيداً منه ﷺ عَلَىٰ أهَميَّةِ ذَلكَ في الحِفاظِ عَلَىٰ الأَمْنِ الأُسَريِّ في حَياةِ أَصْحابِه ومُستَقبَلِ أُمَّتِه .

---

(١) «موسوعة المفاهيم التربوية في أسر الآل والأصحاب» ، مرجع سابق ٢/ ٤٠٤ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) انظر الحديث الوارد في الوصية بالنساء في حجة الوداع ، «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين» ، مرجع سابق ، ص ١٧٣ ، رقم الحديث : ٢٧٤ ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

مِمَّا سَبقَ يُمكِنُ أنْ نَستَنتِجَ نِقاطاً عَمليَّة لحياةٍ زَوجيَّةٍ سَعيدَةٍ في مَوقِفِ الرَّجُلِ من أهْلِ بَيتِه ، من أهمِّها :

١ ـ العَطفُ والحَنانُ :

إنَّ التَّعامُلَ النَّاجحَ بَينَ الزَّوجَينِ يَقتَضي أنْ يَتعامَلَا بوُدٍّ ، ورَحمَةٍ ، ورِعايَةٍ خاصَّةٍ ، وحَنانٍ ، وعَطفٍ ، وحِرصٍ ، وتَجاوُزٍ . فلَوْ أخْطَأ أحَدُهُما فعَلىٰ الآخَرِ أنْ يَتجاوَزَ عن خَطَئِهِ ، ويُعطِيهِ الحَنانَ والأمَانَ ، لأنَّه مَهْما حَصلَ بَينَهُما لَنْ يَتخَلَّيا عن بَعضِهِما لأجْلِ هَـٰذهِ الأخْطَاءِ ، فهُما كَيانٌ واحِدٌ ورُوحٌ واحِدَةٌ ، وقَد رَأينا في حَديثِ الإفْكِ تَعامُلَ الرَّسُولِ ﷺ مَع زَوجِه ، وكَيفَ أنَّه لَـمْ يَقطَعْ صِلَتَه بها رَغمَ فَداحَةِ الأمرِ ، فكَانَ أدعَىٰ للاستِقرارِ والأمْنِ الأُسَريِّ في ظِلِّ فَيضٍ من المحبَّـةِ والسَّعادَةِ .

٢ ـ وُجُوبُ إظْهَـارِ الحُبِّ للزَّوجَةِ وعَدمُ كِتْمـانِه :

فقَد كَانَ ﷺ حَريصاً عَلىٰ إظهَارِ حُبِّه لزَوجاتِه كَما مَرَّ مَعنا في (الفَصلِ الثَّـاني) ، كَانَ يَتلَمَّسُ مَواضِعَ شُربِها ، ومُناداتِها بأحَبِّ أسْمائِها ، فذَلكَ أدْعَىٰ للرَّاحَةِ والطُّمأنينَةِ بَينَ الزَّوجَينِ .

٣ ـ أنْ يُشـعِرَها أنَّ أعْمَـالَـها أعْمَـالُه :

لما سُئلت السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ كَما مَرَّ مَعنا ـ مَاذَا يَفعَلُ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ في بَيتِه؟ قَالَت : مَا يَعمَلُ الرَّجُلُ في بَيتِه ، أي : أنَّه كَانَ يَخدِمُ في البَيتِ . وذَلكَ

في زَمَنٍ لَـمْ يَكُنْ للمَرأةِ شَأنٌ ، بَلْ كَانَت تُدفَنُ وهي فَتاةٌ حَـيَّةٌ ، أو تُورَثُ كَالمَتاع ، أمَّا ﷺ فكَانَ يَخدِمُ أهْلَه ، أي : يُساعِدُها في شُؤونِ المَنزِل بِرِضىً ، وتَواضُعٍ ، ومَحبَّةٍ ، دُونَ أَنَفَـةٍ أو استِعلَاءٍ .

٤ ـ يَجعَـلُ رَحِمَـها مِنْ رَحِمِـه :

كَانَ ﷺ يُسَرُّ برُؤيَةِ أهْلِ زَوجِه ، وكَانَ دائِمَ التَّواصُلِ مَعَهم ، فبَعدَ وَفاةِ السَّـيِّدَةِ خَديجَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كَانَ يَستَبشِرُ كَثيراً بزيارَةِ أُختِها «هَالَة» في بَيتِه ، قائلاً عند طَرقِها البَابَ وسَماعِه صَوتَها الذي يُذَكِّرُه بصَوتِ خَديجَة : «**اللَّهُمَّ هَالَةَ بِنتِ خُوَيلِد**» (١) ، وكَذلكَ حُبُّه الشَّديدُ لأهْلِ السَّـيِّدَةِ عائشَةَ لا سِـيَّما أبُوها الصِّدِّيقُ ، أبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

٥ ـ امتِصاصُ غَضَبِها بصُورَةٍ إيجـابيَّـة :

وهَـٰذا يَستَوجِبُ التَّحلُّمَ ، وتَفهُّمَ مَشاعِرِ الغَيرَةِ الفِطريَّةِ للمَرأةِ ، وعَدمَ الغَضبِ ، والتَّحلِّي بالحِكمَةِ والحِلم ، كَما رَأينا من نَهجِ الرَّسُولِ ﷺ وتَعامُلِه مع زَوجاتِه الغَضْباواتِ . (قِصَّةُ الصَّحفَة) .

٦ ـ الثَّـناءُ الدَّائمُ عَلَيها وإكْرامُها :

كَالاعترافِ بفَضلِها ، والإقْرارِ بإحْسانِها ، وذِكْرِ مَواقِفِها الحَسنَةِ مَعَه ، كَما كَانَ ﷺ يُثني عَلَىٰ السَّـيِّدَةِ خَديجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ومَواقِفِها مَعَه .

---

(١) «صحيح مسلم» ، ج٤ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب : فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، ص ١٨٨٩ ، رقم الحديث : ٢٤٣٧ .

٧ ـ تجنُّبُ اتِّهامِها بما قد يَعصِفُ بالحَياةِ الزَّوجيَّـة :

إنَّ مِنْ حُسنِ المُعاشَرةِ الثِّـقَةُ بالزَّوجَةِ ، وعَدمُ تَصديقِ المُغرضينَ والمُفسدينَ ، مِمَّنْ يُريدُونَ التَّفريقَ بَينَ المَرءِ وزَوجِه ، وعَدمُ التَّسرُّعِ بإصْدارِ الأحْكامِ قَبلَ التَّثبُّتِ والتَّأكُدِ . قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [(١)] ، ولَنا في رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ في مَوقِفِه من حادِثَةِ الإفْكِ قُدوَةٌ وسَبيلُ .

٨ ـ احْـترامُ خُصُوصِيَّـتِها :

لقَد حَافَظَ ﷺ عَلَىٰ خُصُوصيَّةِ السَّـيِّدَةِ خَديجَة الماليَّـة ، والتِّجاريَّة ، فلَمْ يَتدخَّلْ بشُؤونِها ولَـمْ يَمنَعْها ، بَلْ بَقِيَت كَما كَانَت قَبلَ ارتِباطِها به ، واعتَبرَ ﷺ ذَلكَ من خُصُوصيَّتِها . كَما أنَّ من أهَمِّ دَعائمِ الحياةِ الزَّوجيَّةِ الحِوارَ والتَّواصُلَ بَينَ الزَّوجَينِ .

مِمَّا سَبقَ في النَّهجِ النَّبَـويِّ نَجدُ العِلاجَ الشَّافي لِكَثيرٍ من المُشكِلاتِ الزَّوجيَّة المُعاصِرَة التي كَـثُرَت فيها حَالاتُ الطَّلاقِ بصُورَةٍ مُخيفَةٍ بسَببِ :

(أ) عَدمِ تَفهُّمِ الرَّجُلِ شُعورَ المَرأةِ في الغَيرَةِ بَلْ وإنْكارِها .

(ب) عَدمِ تَحمُّلِ غَضَبِ المَرأةِ وانفعالاتِها الحادَّةِ النَّاجِـمَةِ عن شِدَّةِ العاطِفَةِ والضَّعفِ البَشَريِّ للأُنثَىٰ .

(١) سورة الحجرات ، الآية : ٦ .

(ج) عَدَم تَعاوُنِ الرَّجُلِ مَع أهْلِه في أعْمالِ المَنزلِ ، وجَعل المَسؤوليَّاتِ الأُسَريَّةِ كُلِّهَا عَلَىٰ عاتِقِها بدَعوَىٰ الانشِغَالِ .

(د) عَدَمِ احتِرامِ وتَقديرِ أهْلِ الزَّوجَةِ .

(هـ) عَدَمِ احتِرامِ الزَّوجِ خُصُوصيَّة الزَّوجَةِ في مالِـها ، إذ انتَشَرَت في هَـٰذا العَصرِ ظاهِرَةُ التَّطاوُلِ عَلَىٰ حُقُوقِ الزَّوجاتِ الماليَّة كُلِّـيًّا أو جُزئيًّا ، حَيثُ نَجدُ أنَّ بَعضاً من هؤلاء يَشتَرطُونَ إمَّا أخذَ نِسبَةٍ ، أو الاستيلاءَ عَلَىٰ الدخْلِ كامِلاً ، أو حِرمانَ الزَّوجَة من العَملِ ، ولا يَتمُّ تَوظيفُ طَاقَاتِ الزَّوجَة التي تَعِبَت في تَحصيلِها لصالِح المُجتمَعِ .

(و) عَدَمِ الاهتِمام بتَعليم المَرأةِ وتَثقيفِها ، إنَّ من اهتِمام الرَّسُولِ ﷺ بأهْلِ بَيتِه أنْ أصبحَت السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رضي الله عنها الفَقيهَةَ الأُولَىٰ لهَـٰذه الأُمَّة ، مع ما كَانَت عَليه باقي أزواجِه ﷺ بتَفاوُت .

لقَد عَلَّمَنا الرَّسُولُ الزَّوجُ ﷺ كيفَ يَقُودُ «الرَّجُلُ» مَسيرَةَ الحَياةِ بالتَّعاوُنِ مَع نِصفِه الآخَر «المَرأةِ» ، وأعْلَىٰ من شَأنِ المَرأةِ بقَولِه : «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسؤُولٌ عَن رَعِيَّـتِه ، ... والرَّجُلُ رَاعٍ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْـتِهِ ، والـمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَىٰ بَيْتِ زَوْجِهَا ... ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّـتِه**» (١) .

عِلماً أنَّ في وَصايا الرَّسُولِ ﷺ جَميعِها ونَهجِه في التَّعامُلِ ما يَنطَبِقُ عَلَىٰ

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب النكاح ، باب المرأة راعية في بيت زوجها ، ص ٩٥٦ ، رقم الحديث : ٥٢٠٠ .

الرَّجُلِ في الحَياةِ الزَّوجيَّة يَنطَبِقُ أيضاً عَلَىٰ المَرأَةِ . فكَما استَوْصَىٰ بالنِّساءِ خَيراً أوْصَىٰ المَرأَةَ أيضاً بالإحسانِ إلَىٰ زَوجِها ، وتَقديرِه ، وحُسنِ التَّعامُلِ مَعَه ، وعَدمِ إنْكارِ مَعرُوفِه وفَضلِه ، وعِظَمِ حَقِّه عَلَيها بقَولِه ﷺ : «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْـمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**» (١) . وبإحسانِ الزَّوجَينِ لِبَعضِهِما وعَدمِ إنْكارِ أحَدِهِما فَضلَ الآخَرِ (٢) ، تَسيرُ الحَياةُ الزَّوجيَّة بمَركَبِ الوُدِّ والرَّحمَةِ والأُلفَةِ والتَّعاوُنِ ، فتَكُونُ الأُسرَةُ لَبِـنَةً صَالحَةً في مُجتَمعٍ مُتَماسِكٍ مَتينٍ .

(١) كتاب «مناحل الشفا ومناهل الصفا» ، بتحقيق كتاب شرف المصطفىٰ ﷺ ، مرجع سابق ، ٣/ ٤١٦ ، رقم الحديث : ١١٥١ ، وانظر : «الترغيب والترهيب» ، مرجع سابق ، ج٣ ، أعظم الناس حقاً على المرأة زوجها ، ص ٥٣-٥٤ ، أرقام الأحاديث : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) الأحاديث في ذلك من «صحيح البخاري» ، كتاب النكاح ، باب كفران العشير ، ص ٩٥٥-٩٥٦ ، الأحاديث رقم : ٥١٩٦ ، ٥١٩٧ ، ٥١٩٨ .

المطلَبُ الثَّـاني
الرَّسُولُ الأَبُ

لقَد كَانَ مُحمَّدٌ ﷺ مِثالَ الأبِ الرَّحيم الشَّفُوقِ ، حيثُ ما كَانَ له نَسلٌ ، قَريبٌ أو بَعيدٌ ، ذَكرٌ أو أُنثَىٰ ، صَغيرٌ أو كَبيرٌ (١) . وقَد كَانَ يَهَشُّ ويَبَشُّ لأطفَالِ أَصْحابِه ، ويُقَـبِّلُهم ، ويُلاطِفُهُم ، ويُلاعِبُهُم ، فَكَيفَ بأَوْلَادِه وأَحْفادِه!؟

أُبُـوَّةُ البَنَـاتِ في شَخصِ الرَّسُولِ ﷺ :

إنَّ مُحمَّدَ بنَ عَبدِ اللَّـهِ ﷺ في إنْسانيَّـتِه الرَّفيعَة وبَشريَّتِه المِثاليَّة وأُبُوتِه الرَّحيمَةِ ، التي تَفيضُ بأَرَقِّ العَواطِفِ وأنْبَلِها اصْطَفاهُ اللَّـهُ رَسُولاً ، وأَرادَ لَه أنْ يَكُونَ أباً لِبناتٍ أربَعٍ . فقَد عَاشَ لَه البَنَاتُ دُونَ الذُّكُورِ في مُجتمعٍ يَفتَخِرُ بالبَنِينِ ، ويَفتَتِنُ بِهم ، ويَئِدُ البَنَـاتِ ، ويَنتَقِصُ مِنهُنَّ ، قَالَ تعالَىٰ : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ (٢) ، وقَالَ تَعالَىٰ : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ (٣) ، ولكِنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ كَانَ مَوقِفُه من ولادَةِ البَناتِ مَوقِفَ الأبِ الإنْسانِ السَّويِّ الفِطرَةِ ، الذي يَستَقبلُ الواحِدَةَ مِنهُنَّ سَعيداً مُشرِقَ الوَجهِ ، مُتهلِّلَ

(١) «عبقرية محمد» ، عباس محمود العقاد ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(٢) سورة التكوير ، الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٣) سورة النحل ، الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .

الأسارير ، ليَكُونَ قُدوَةً لأُولئكَ الذين قَسَتْ قُلوبهم ، وغَلُظَت أَكْبادُهُم ، وخَلَتْ نُفُوسُهُم من الرَّحمَةِ (١) ، فنشأت الزَّهْراتُ الأربَعَةُ : «زَيْنَبُ ، ورُقَـيَّةُ ، وأُمُّ كُلْثُوم ، وفَاطِمَةُ الزَّهْراءُ» في جَوٍّ من الحُبِّ والعِنايَةِ ، والحَنانِ والرِّعايَةِ المُحمَّديَّةِ الأبويَّة في أبهَىٰ صُوَرِها . وما رُئِيَ أكْرَمَ منه ﷺ قَطُّ في مُعامَلَةِ الأُنثَىٰ ـ بَناتِه خاصَّة والإناثِ عامَّة ـ والتَّرفُّقِ بهِنَّ ، والانْتِصافِ لَـهُنَّ (٢) ، فقَد كَانَت مُعامَلَـتُه لِبَناتِه عَلَىٰ قُربِ العَهدِ بالجَاهِليَّةِ فَوقَ ما تَطمَحُ لَه كُلُّ أُنثَىٰ مِنْ حُبٍّ وحَدبٍ وكَرامَةٍ ، وحَنانٍ وعِزَّةٍ ومَرُوءَةٍ .

لقَد كَانَت البِيئَةُ في الجَاهِليَّةِ ـ وما نَراهُ اليَومَ كَذلكَ من بَقايا تِلكَ الجَاهِليَّةِ ـ التي تَستَبشِرُ بالبَنِينِ وتكرَهُ البَناتِ مُحتاجَةٌ إلَىٰ هَـٰذا المَثَلِ الصَّالحِ والقُدوَةِ الطَّيِّبة في شَخصِ النَّبيِّ الأبِ الكَريمِ ، لتُقاوِمَ ما ألِفَتهُ في استِقبالِ الإناثِ ومُعامَلَتِهِنَّ .

الأبُ الحَـنُونُ المُرَبِّي :

لقَد ماتَت بَناتُه الثَّلاثَة ﷺ ، وثَكلَهُنَّ واحِدَةً تِلوَ الأُخرَىٰ «زَينَبُ ، ورُقَـيَّةُ ، وأُمُّ كُلثُومٍ» ، وعاشَت لَه «فاطِمَةُ الزَّهراءُ» تَملأُ دُنيَـاهُ بَهجَةً وأُنساً وحَيويَّةً .

لقَد أحَبَّ الرَّسُولُ الزَّهراءَ وزَوجَها عَلِيّـاً ووَلَدَيهِما حُـبّاً عَميقاً ، وهو ما

(١) علِّموا أولادكم محبة رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ، د.يماني ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .
(٢) «تراجم سيدات بيت النبوة» ، مرجع سابق ، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، مرجع سابق ، ص ٣٦٢ .

جعلَهُ يرنُو إلَىٰ بيتِها كُلَّ ما مرَّ به ، فإذَا وجدَ مِنْ وقتِه سَعةً عرَّجَ علَىٰ دارِ الأحِبَّةِ ، فأسْعَدَ أهلَها بعَطفِه ، وأسْبَغَ علَىٰ سِبطَيْهِ الحَسَنِ والحُسَينِ فَيْضاً من حَنانِه .

وقَد بَلغَ حُبُّه هَـٰذا لأحفادِه أنَّه مَرَّ ببيتِ فاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يوماً علَىٰ عَجَلٍ ، فبَلغَ مَسمَعه صَوتُ بُكاءِ الحُسَينِ ، فدَخلَ يَقُولُ لابنَتِه مُعاتِباً : «**أوَمَا عَلِمْتِ أنَّ بُكَاءَهُ يُؤذِينِي**» ، وفي مرَّةٍ أُخرَىٰ كَانَ الحَسَنُ يَبكِي ويَطلُبُ طَعاماً ، وكَانَت فاطِمَةُ وزَوجُها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَد غَلبَهُما النُّعاسُ ، فلَمْ يرضَ الأَبُ الكَريمُ أنْ يُوقِظَ العَزيزَيْنِ النَّائمَينِ ، بَلْ أسرَعَ إلَىٰ غَنمَةٍ كَانَت تَقِفُ في ساحَةِ الدَّارِ ، فحَلبَها وسَقَىٰ الحَسَنَ من لبَنِها حَتَّىٰ ارتَوَىٰ [1] . ولَنا أنْ نَتخَيَّلَ الشَّفقَةَ والرَّحمَةَ والحُبَّ الأَبويَّ في أبهَىٰ صُورِه مُتَمثِّلاً برَسُولِ اللَّـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

لقَد كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقيقاً حانِياً عَلَىٰ أولَادِه وأحْفادِه ، يَحتَضِنُهم ويُقَـبِّلُهُم ، ويَبدَؤُهُم بالمُلاطَفَةِ واللَّعِبِ ، ويُؤنِسُهُم كَأبهَجِ ما يَكُونُ الأُنْسُ ، ويُنادِيهِم بأرَقِّ العِباراتِ وأحْناهَا .

وقَد مَرَّ مَعَنا بَعضٌ من تِلكَ الصُّوَرِ المُحمَّديَّةِ الأبويَّةِ الرائِعَةِ ، وكَيفَ كَانَ يَذهَبُ إلَىٰ العَوالي وهي مَنطقَةٌ في أطرافِ المدينَةِ ليَرَىٰ وَلدَهُ «إبْراهيمَ» ، فيُقبِّلُهُ ، ويُلاعِبُه ، مع كُلِّ ما كَانَ يَحمِلُ من أعباءٍ ومَسؤوليَّاتٍ ، لا يُقارَنُ بها أحَدٌ من رِجالاتِ الأُمَّةِ لا قَبلَهُ ولا بَعدَهُ ، وكَيفَ كَانَ يُسرِعُ إلَىٰ أحفادِهِ في الطَّريقِ ليَعتَنِقَهُم ، ويُقبِّلَهُم مُعلِناً حُبَّهُ لهم أمَامَ أصحابِه ، مُعَبِّراً ببَساطَةٍ وعَفويَّةٍ بَعيدَةٍ عن التَّكلُّفِ عن أُبوَّتِه وعَطفِه وسَماحَتِه .

---

(١) «تراجم سيدات بيت النبوة» ، مرجع سابق ، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، مرجع سابق ، ص ٤٨٢ .

لقَد كَانَ الرَّسُولُ الأبُ ﷺ يرحَمُ ضَعفَ الطُّفولَةِ ، ويُحبُّ أنْ يُبهجَها ، ولـمْ يُنقِصْ ذَلكَ من هَيبَتِه ولا وَقارِه . فقَد بَقِيَ الرَّسُولُ الأبُ ﷺ القُدوَةُ لكُلِّ أبٍ ، العَظيمُ في بَساطَتِه ، والبَسيطُ في عَظَمَتِه ﷺ .

وقد كَانَ الرَّسُولُ الأبُ ﷺ يُمارِسُ فَنَّ التَّواصُلِ بأنْواعِهِ مع بَناتِه وأحفادِهِ :

(أ) التَّواصُلُ اللَّفظيُّ بالعِباراتِ اللَّطيفَةِ والجَميلَةِ والحَديثُ مَعَهُم : «**فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي ...**» ، «**اللَّهُمَّ أَحِـبَّهُ فَإنِّي أُحِـبُّهُ ...**» (١) .

(ب) والتَّواصُلُ الجَسديُّ بالتَّقبيلِ والمُعانَقَةِ والاحتِضانِ . حَيثُ كَانَ يُقَـبِّلُ الحَسَنَ والحُسَينَ ويُعانِقُهُما .

(ج) والتَّواصُلُ النَّفسيُّ بالتَّرحيبِ بِهِم بأرَقِّ العِباراتِ وأحْناها ، والرَّحمَةُ والشَّفقَةُ عَلَيهِم ، والتَّحبُّب إلَيهِم واللَّعِب مَعَهُم . وذَلكَ مُهِمٌّ جِدَّاً للتَّفاعُلِ بَينَ الآباءِ والأبنَـاءِ .

ومَع كُلِّ ما يَحمِلُه الرَّسُولُ من حُبٍّ وحَنانٍ لسِبْطَيهِ الحَسَنِ والحُسَينِ ابنَيْ فاطِمَةَ ، تَأتي التَّربيَـة النَّبـويَّة ، ذَلكَ عِندَما أكَلَ الحَسنُ «الغُلامُ الصَّغيرُ» من تَـمرِ الصَّدَقَةِ (٢) ، ولكِنَّ الرَّسُولَ الأبَ لَـمْ يَرضَ ذَلكَ! ونَهاهُ عَن أكلِ تِلكَ التَّمرَةِ وأخَذَها منه ، وذَلكَ بأُسلُوبٍ تَربَويٍّ عَظيمٍ يَتناسَبُ مَع سِنِّ الصِّغَرِ ومَرحَلَةِ الطُّفُولَةِ . فلَمْ يَسمَحْ لَه بذَلكَ مَع أنَّه صَغيرٌ ، لا يُدرِكُ ، وأنَّها تَمرَةٌ واحِدَةٌ اشتَهَىٰ أكلَها ، بَلْ منَعهُ ﷺ ليَتجَلَّىٰ الحُبُّ في التَّربيَـةِ النَّبـويَّةِ ، والذي يَكُونُ فيه المَنعُ مِثلُ العَطاءِ لِصالحِ المُتلَقِّي .

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث في الفصل الثاني .

(٢) انظر حديث تمر الصدقة «صحيح البخاري» ، كتاب الزكاة ، باب : أخذ صدقة التمر.. ، ص ٢٦٠ ، رقم الحديث : ١٤٨٥ .

فالرَّسُولُ الأبُ أرادَ ألَّا يدخُلَ إلىٰ جوفِ الغُلام شيءٌ من الصَّدقةِ التي لا تَجُوزُ لآلِ البيتِ ، ولِئلَّا يعتادَ علىٰ فِعلِ الخطأِ ولَوْ كانَ صَغيراً ، لِيُثبتَ في ذِهنه أنَّه تصرُّفٌ خاطِئٌ ، ويُعظِّمَ في نُفُوسِ أصْحابه الآباءِ المُربِّينَ مِمَّنْ كانُوا حولَه ، ألَّا يَتهاوَنُوا في السُّلُوكِ الخاطِئِ بدافعِ من الحَنانِ الأبويِّ ، أو بدَعوىٰ صِغَرِ الطِّفلِ ، أو أنَّه لا يعقِلُ . كما كانَت تِلكَ التَّربِيَة النَّبـَويَّة مُمارَسةٌ عمليَّةٌ من الرَّسُولِ الأبِ لسِبْطِه . والتي لها أثَرُها العَميقُ في النَّفسِ .

وتَستمِرُّ عِنايَةُ المُصطفَىٰ ﷺ حَتَّىٰ يَبلُغَ الأولادُ مَبلغَ الفُتوَّةِ والشَّبابِ . أتَتْ فاطِمَةُ رضي الله عنها النَّبيَّ ﷺ يوماً تَشكُو إلَيه ما تَلقَىٰ في يَدَيها من الرَّحَىٰ ، وبلَغها أنَّه جاءَه رَقيقٌ ، فلَمْ تُصادِفْهُ ، فذَكرَت ذَلكَ لعائشَةَ رضي الله عنها ثُمَّ انصرَفَت ، فلمَّـا جاءَ الرَّسُولُ ﷺ أخبَرَتهُ عائشَةُ رضي الله عنها قَالَ عليٌّ رضي الله عنه فجاءَنا ، وقَد أخَذْنا مَضاجِعَنا ، فذَهبنا نَقُومُ ، فقَالَ ﷺ : «**علىٰ مَكانِكُما**» ، فجاءَ ، فقَعدَ بَينِي وبَينَها حَتَّىٰ وَجدتُ بَردَ قَدَمَيه علىٰ بَطنِي ، فقَالَ : «**ألا أَدُلُّكُمـا علىٰ مَا هُوَ خيْرٌ مِمَّا سَألْتُمـا؟ إذا أخَذْتُـما مَضاجِعَكُما أَوْ أَوَيْتُما إلىٰ فِراشِكُما ، فَسبِّحا ثَلاثاً وثَلاثِينَ ، واحْمَدا ثَلاثاً وثَلاثِينَ ، وكَـبِّرا أَرْبعاً وثَلاثِينَ فَهُوَ خيْرٌ لَكُما مِنْ خادِمٍ**» (١) .

إنَّ حُـبَّه للسَّـيِّدَةِ فاطِمَة وإدراكِه لتَعبِها في خِدمَةِ المَنزلِ ، وهي أحَبُّ أهْلِه إلَيه ، مَنعاهُ من أنْ يُؤجِّلَ حَديثَه إلىٰ الصَّباحِ لشِدَّةِ شُعورِه بما تُعانيهِ ابنَـتُه وشَفقَـتِه عَلَيها ، لكِنَّه ﷺ أرشَدَها لِـما يُقَـوِّيها علىٰ القِيامِ بما عَلَيها أنْ تَقُومَ

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب النفقات ، باب : عمل المرأة في بيت زوجها ، ص ٩٨٥ ، رقم الحديث : ٥٣٦١ .

به من شُؤونٍ مَنزليَّةٍ ، لتَكُونَ لِـمَنْ خلفَها أُسوَةً حَسَنةً في الصَّبرِ عَلَىٰ تَحمُّلِ شَظفِ العَيشِ مَع الزَّوجِ وتَحمُّلِ المَسؤوليَّةِ ، مَع أنَّها بنتُ سَيِّدِ العَالَـمينَ وأشرَفِ المُرسَلينَ . هَكَذا الأُبُـوَّةُ الصَّادِقَةُ حَنانٌ وإرْشَادٌ وتَوجِيهٌ .

إنَّ الأُبُـوَّةَ في السُّلُوكِ النَّبَـويِّ تَأخُذُ وَضعاً سَامياً ، والتَّاريخُ الإنسانيُّ يَرقُبُ مَبهُوراً بأُبُوَّةِ هَـٰذا النَّبيِّ ﷺ وإنَّ الإنسانيَّةَ جَمعَاءَ لَتُصغِي بكُلِّ فَخرٍ واعتِزازٍ إلَىٰ ما تَواتَرَت به الأَخبَارُ عن ذَلكَ القَلبِ الكَبيرِ الذي مُلِئَ حُبّاً ، والذي يَكشِفُ عن جانِبٍ من عَظمَةِ الرَّجُلِ الرَّسُولِ الأبِ المُصطَفَىٰ ﷺ ، فهُو القُدوَةُ الصَّالحَةُ للمُؤمنينَ والمَثَلُ الأعْلَىٰ فيهِم .

وقَد رَأىٰ المُسلِمُونَ من أفْعالِه وسُلُوكِه ، وسَمِعُوا من أحاديثِه وهَديه ﷺ ما لَـمسَ أعمَقَ مَشاعِرِ الأُبُـوَّةِ فيهِم ، واستَثارَ أدَقَّ وأنبَلَ ما في نُفُوسِهم ، من عِنايَةٍ وحُبٍّ ورِعايَةٍ وتَوجيهٍ للأبنَـاءِ .

مِمَّا سَبقَ عن نَهجِ الرَّسُولِ الأبِ في التَّربيَـةِ نَستَنتِجُ ما يلي :

١ ـ إظْهارُ الحُبِّ من المُربِّي له الدَّورُ الفَعَّالُ في التَّربيَـةِ (٢) ، فالعَلاقَةُ الجَـيِّدَةُ بَينَ الأبِ المُربِّي وأبنائه ، أساسُها إظْهارُ المحبَّـةِ والمُعامَلةِ الحَسنَةِ ، فيَسبقُ التَّوجيهُ رَصيداً عاطِفيّاً كَبيراً في قَلبِ المُتربِّي . مِمَّا يُوفِّرُ استِعداداً نَفسيّاً قَويّاً لتَقبُّلِ التَّوجيهاتِ بقَناعَةٍ تامَّةٍ وسَعادَةٍ وحُبورٍ . فقَد كَانَ لِـحُبِّ الرَّسُولِ الأبويِّ لسِبْطَيهِ الحَسَنِ والحُسَينِ رضي الله عنهما أثَرٌ بَعيدٌ وعَميقٌ ، فقَد

(١) انظر الفصل الأول من الرسالة ، دور الحب بالتربية ، والفصل الثاني مبحث إعلان الحب .

أثمَرت المحبَّـةُ والمودَّةُ في التَّربيـةِ النَّبـويَّةِ للسِّبطَين . فالنَّاظِرُ في سيرَتهما ، يَرىٰ العَفوَ والكَرمَ والسَّخاءَ والعَطاءَ ، وجَبرَ الخَواطِرِ والتَّواضُعَ ، ويَرىٰ سِيرَةَ جَدِّهِم في ذَلكَ لهم نِبْراساً .

٢ ـ تعلُّمُ القِيَمِ والأخلاقِ الفَاضِلَة للمُتَربِّي من المُرَبِّي ، لَيسَ بإلقَاءِ الأوَامِرِ والنَّواهِي المُباشِرَة ، بَلْ بِمُمارَسَةٍ عَمليَّةٍ وسُلُوكٍ حَسَنٍ مِنْ المُرَبِّي ، فإنَّ ذَلكَ يُؤدِّي إلَىٰ الإعجابِ ، وبالتَّالي إلَىٰ الحُبِّ العَميقِ للأبِ المُرَبِّي ، والذي يُفضي إلَىٰ التَّقليدِ والاقتِداءِ .

٣ ـ الحُبُّ في التَّربيـةِ النَّبـويَّةِ حَنانٌ لا يُفسِدُ .

٤ ـ إنَّ التَّربيـَةَ الحَقَّةَ تعني : تَنميَةَ جَميعِ المَهاراتِ ، وتَحمُّلِ المَسؤُوليَّاتِ .

٥ ـ التَّواصُلُ بأنْواعِه مُهمٌّ كَطَبعٍ إنسانيٍّ بَينَ كُلِّ أفْرادِ المُجتَمَعِ ، وتكبُرُ هَـٰذه الأهَميَّةُ في العَلاقَةِ بَينَ الأبِ وأبنائِه . ويَكُونُ هَـٰذا التَّواصُلُ من خِلَالِ :

(أ) إظْهارِ العَطفِ والحَنانِ للأبنَـاءِ ، وعَدَمِ كِتمانِ مَشاعِرِ الحُبِّ الفِطريِّ الأَبويِّ ، بَعيداً عن المُيوعَةِ والشَّطَطِ ، فَلا يَعنِي الحُبُّ والحَنانُ عَدَمُ التَّوجيهِ والإرشَادِ .

(ب) رِعايَةِ الأبِ لأبنَـائِه والقِيامِ ببَعضِ شُؤونِهِم كَما وَجدنا الرَّسُولَ يَسقِي حَفيدَهُ الحَسَنَ الحَليبَ .

(ج) مُشارَكَةِ الأبِ اهتِمَامَاتِ أبنَـائِه في جَميعِ مَراحِلِهم العُمريَّةِ ، لِتَنميَةِ العَلاقَةِ والتَّفاعُلِ الدَّائمِ بَينَ الآباءِ والأبنَـاءِ .

وهَـٰذا ما يُؤدِّي إلَىٰ :

١ ـ برِّ الأبنَـاءِ بالآبَـاءِ مُستقبَلاً .

٢ ـ تَعزيزِ أوَاصِرِ الأُسرَةِ .

٣ ـ إنتاجِ أُسَرٍ إيجابيَّةٍ سَعيدَةٍ ، مُتفاعِلَةٍ مع نَفسِها أوَّلاً ، ومع المُجتَمَعِ ثانياً .

ولَنا في عَصرِنا الحَديثِ وَقفَةٌ في بُعدِ الآبَـاءِ عن الأبنَـاءِ ، وما يُحدِثُ انكِماشَ الأبنَـاءِ عن آبائِهم . إنَّنا نَجدُ أنَّ في انْشِغالِ الآباءِ عن أبنَائِهم وتَربيَتِهم وتَوجيهِهم ، وعَدمِ الاهتِمامِ بشُؤونِهم انْشِغالَ الأبنَـاءِ عن آبائِهم بمُلْهِـياتِ العَصرِ الحَديثَةِ المُتنَـوِّعَةِ ، وأصبَحَت التَّربيَـةُ مجموعَةَ أوَامِرٍ ونَواهٍ تُلقَىٰ جُزافاً في فَتَراتٍ مُتباعِدَةٍ ، لا تُقدِّمُ خَيراً ولا تُبعِدُ شَـرّاً ، وفَقدَ أبناؤنا القُدوَةَ الوَالِديَّةَ ، وهَـٰذا ما يُنبِئُ بمُستقبَلٍ خَطيرٍ عَلَىٰ حَياةِ الأُسَرِ خاصَّةً والمُجتمَعِ عامَّةً .

ولا سَبيلَ لإنْقاذِ هَـٰذه الأُسَرِ وهَـٰذا المُجتمَعِ ، إلَّا بتَمسُّكِ الآباءِ المُربِّينَ بالنَّهجِ التَّربَويِّ النَّبَـوِيِّ وهَديِه ﷺ في ذلكَ .

المطلَبُ الثَّالث
الرَّسُولُ والـجَــار

بُعثَ النَّبيُّ ﷺ وَسطَ بِيئَةٍ تَفتَقِرُ إِلَىٰ مَعاني الإحسانِ إِلَىٰ الجَارِ . ويَشهَدُ بذَلكَ الصَّحابيُّ جَعْفَرُ بنُ أبي طَالِبٍ ابنُ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ ، وهو يَصِفُ حالَهم الذي كَانُوا عَلَيه قَبلَ بَعثَةِ النَّبيِّ عِندَما خَاطَبَ النَّجاشيَّ مَلكَ الحَبشَةِ ، فوَصَفَ حالَهم وَصْفاً دَقيقاً قائِلاً : «أيُّها المَلِكُ كُنَّا قَوماً أهْلَ جاهِليَّةٍ نَعبُدُ الأصنَامَ ، ونَأتي الفَواحِشَ ، ونَقطَعُ الأرْحَامَ ، ونُسيءُ الجِوارَ ، ويَأكُلُ القَويُّ مِنَّا الضَّعيفُ ، حَتَّىٰ بَعثَ اللَّـهُ إِلَينَا رَسُولاً نَعرِفُ نَسَبَهُ وصِدقَهُ . فدَعانا إِلَىٰ اللَّـهِ لِنُوَحِّدَهُ ونَعبُدَهُ ، وأمَرَنا بِصِدقِ الحَديثِ ، وصِلَةِ الأرْحَامِ ، وحُسْنِ الجِوَارِ ، والكَفِّ عن المَحارِمِ والدِّماءِ ..» (١) .

فالنَّبيُّ ﷺ أوْصَىٰ بالجارِ ، وأثبَتَ لَه حُقُوقاً كَثيرَةً ، رَفعَ فيها من قيمَةِ حُسنِ الجِوَارِ ، مِمَّا جَعلَ المُجتَمعَ آمِناً مُطمَئنّاً مُتَرابِطاً كالجَسدِ الواحِدِ .

وقَد كَانَ الرَّسُولُ ﷺ القُدوَةُ العَمليَّةُ لغَيرِه في ذَلكَ ، ففي مَكَّةَ قَبلَ الهِجرَةِ كَانَ جِيرانُه جِيرانَ سُوءٍ ، وكَانَ أحَدُهُم يَطرَحُ عَلَيه رَحِمَ الشَّاةِ وهو يُصَلِّي (٢) ، وآذَىٰ الرَّسُولَ ﷺ في مَكَّةَ أقرَبُ النَّاسِ إِلَيه ، جارُهُ وعَمُّهُ أبُولَهبٍ وزَوجَتُه . وبَعدَ الهِجرَةِ إِلَىٰ المَدينَةِ أيضاً كَانَ جِيرانُه اليَهُودُ يُؤذُونَه ، فقَد غَدَرُوا بالعُهُودِ والمَواثيقِ ، ودَسُّوا السُّمَّ لَه ولأصحَابِه ، وسَحرُوهُ ، لكِنَّ

(١) «خاتم النبيين» ، الإمام أبوزهرة ، مرجع سابق ، المجلد الأول ، ص ٤١١ .
(٢) نفس المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٤٧ .

الرَّسُولَ ﷺ ما كَانَ بالذي يَرُدُّ الإساءَةَ بالإساءَةِ ، فهُو الذي لَـمْ يَنتَصِفْ لنَفسِه قَطُّ ، إنَّما يَحلُمُ ، ويَصفَحُ ، ويَتجاوَزُ ، ويُحسِنُ . وَصَفَتهُ بذَلكَ زَوجُه السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قائلَةً : ما نِيلَ منه شَيءٌ قَطُّ فيَنتَقِمُ من صاحِبه ، إلَّا أنْ يُنتَهَكَ شَيءٌ من مَحارِمِ اللَّـهِ فيَنتَقِمُ للَّـهِ عَزَّ وجَلَّ (١) .

وكَانَ من ثَمرَةِ هَـٰذا الإحسانِ في تَعامُلِ الرَّسُولِ ﷺ وسُلُوكه الحسَنِ مع جيرانِه اليَهُودِ في المدينَةِ أنْ غَرسَ حُـبَّه ﷺ في قُلُوبهم ، مِمَّا دَفعَ لاعتِناقِ الإسلَامِ أو للإعجَابِ بالرَّسُولِ ﷺ وخُلُقِه وتَعالِيم دِينِه . وفي قِصَّةِ الغُلَامِ اليَهُوديِّ خَيرُ شَاهِدٍ ، فقَد كَانَ من جِيرانِ الرَّسُولِ ﷺ في المدينَةِ غُلامٌ يهوديٌّ يَخدِمُ النَّبيَّ فمَرِضَ ، فأتَاهُ النَّبيُّ يَعُودُه ، فقَعدَ عِندَ رَأسِه ، فقَالَ لَه : «**أَسْلِمْ**» ، فنَظرَ إلَىٰ أبيه وهو عِندَه ، فقَالَ لَه : أَطِعْ أبَا القَاسِم فَأَسْلَمَ ، فخَرجَ النَّبيُّ ﷺ وهو يَقُولُ : «**الحَمْدُ للَّـهِ الَّذِي أَنْقَـذَهُ مِنْ النَّارِ**» (٢) .

وقد حثَّ النَّبيُّ ﷺ عَلَىٰ الإحسَانِ للخَلقِ عامَّةً ، والوَالِدَينِ والأرحَامِ والجِيرانِ خاصَّةً ، فقَد جَعلَ الرَّسُولُ ﷺ الجَارَ في سِياقِ الرَّحِم والقُربَىٰ . وقد أَوْصَىٰ جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيَّـنا ﷺ وَصِيَّةً خالِدَةً ، فقَالَ ﷺ : «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**» (٣) .

والجَارُ قَديماً كَانَ يَشتَرِكُ مَع جَارِه بالجُدرانِ وتَقابُلِ الأبوَابِ ، أمَّا الآنَ فقَد

---

(١) «موسوعة نضرة النعيم» ، مرجع سابق ٥/ ١٦٢٠ ، حسن العشرة ، رقم : ٣٥ .

(٢) «صحيح البخاري» ، كتاب الجنائز ، ص ٢٣٥ ، باب إذا أسلم الصبي فمات ، رقم : ١٣٥٦ .

(٣) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الأدب ، ص ١٠٨٤ ، باب الوصاية بالجار ، رقم الحديث : ٦٠١٤ ، ٦٠١٥ .

يَكُونُ شَريكاً لَه في أكثَر من ذَلكَ بكَثيرٍ ، إمَّا فَوقَهُ أو أسفَلَ منه! فتَشتَدُّ الحاجَةُ أكثَر لِـمُراعاةِ الحُقوقِ والوَاجباتِ التي سَنَّها الرَّسُولُ ﷺ ، وأنْ يَكُونَ التَّسامُحُ والتَّعاوُنُ قائمَينِ في العَلاقاتِ فيما بَينَ الجِيرانِ لشِدَّةِ التَّقارُبِ والاحتِكَاكاتِ .

وقد وَرَدَت وَصايا أُخرَىٰ تَفصيليَّة كَثيرَةٌ من أحادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ لحِفْظِ الجِوَارِ والاعتِناءِ بالجَارِ ، نُورِدُ بَعضاً منها :

١ ـ الأمرُ بالإحسَانِ في التَّعامُلِ مَع الجِيرانِ ، والبُعدُ عن أذاهُم ، قَالَ ﷺ : «**واللَّـهِ لا يُؤمِنُ ، واللَّـهِ لا يُؤمِنُ ، واللَّـهِ لا يُؤمِنُ**» ، قِيلَ : مَنْ يا رَسُولَ اللَّـهِ؟ قَالَ : «**الَّذي لَا يَأمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**» ، وفي حَديثٍ آخَرَ : «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّـهِ وَاليَوْم الآخِرِ فَلا يُؤْذِي جَارَهُ**» ، وحَديثٍ آخرَ أيضاً : «**مَنْ آذَىٰ جَارَهُ فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَىٰ اللَّـهَ ، وَمَنْ حَارَبَ جَارَهُ فَقَدْ حَارَبَنِي وَمَنْ حَارَبَنِي فَقَدْ حَارَبَ اللَّـهَ**» (١) . كُلُّ ذَلكَ تَعظِيماً لشَأنِ المُشاحَنَةِ بينَ الجِيرانِ .

٢ ـ الحَثُّ عَلَىٰ إطْعام الجِيرانِ وتَفقُّدِ أحوَالِهم ، يَقُولُ ﷺ : «**لَيْسَ الْـمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ ، وَجَارُهُ جَائِعٌ**» (٢) . وكَانَ ﷺ يُطعِمُ أهلَ الصُّفَّةِ فُقَراءَ الصَّحابَةِ الذين لا مَالَ لَدَيهم مِمَّا يَأتِيهِ من طَعام قبلَ أنْ يَأكُلَ مِنهُ (٣) . كَما أنَّ النَّبيَّ ﷺ حَثَّ الجَارَ ألَّا يُؤذِي جَارَه برَائِحَةِ طَعامِه إلَّا أنْ يَغرِفَ له

(١) «صحيح البخاري» ، مرجع سابق ، كتاب الأدب ، ص ١٠٨٤-١٠٨٥ ، رقم الأحاديث : ٦٠١٦-٦٠١٨ ، وانظر «الترغيب والترهيب» ، ص ٣٥٤ ، رقم ١٣ .

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب لا يشبع دون جاره ، ص ٧٩ ، رقم الحديث : ١١٢ .

(٣) انظر حديث أبي هريرة في إطعام النبيِّ ﷺ أهلَ الصفة قبل أن يأكل ، من «موسوعة نضرة النعيم» ، ٥/ ١٦٧٢-١٦٧٣ ، المثل التطبيقي من حياة النبيِّ ﷺ في حق الجار ، رقم ٢٦ .

منه ، وإنْ أَدخَلَ فَاكِهَةً فَلْيُهدِ جارَه مِنها ، وإلَّا فَليُدخِلْها سرّاً ، ولا يَخرُجُ بها أحَدُ أبنائه فيَغِيظُ بها وَلدَهُم [(١)] ، وكَانَ ﷺ يُوصي أَبا ذَرٍّ قائلاً لَه : «**يَا أَبَا ذَرٍّ إذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَ المَرَقَةِ ، وتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**» [(٢)] ؛ لِـمَا في ذَلِكَ من أَهَمِيَّةٍ عَظيمَةٍ في تَرابُطِ المُجتمَعِ المُسلِم وذَهابِ التَّحاسُدِ والتَّباغُضِ ، ودَوامِ الأُلفَةِ والمَودَّةِ بَينَ الجِيرانِ .

٣ ـ تَبادُلُ الهَدايا بَينَ الجِيرانِ مَهما قَلَّتْ ، فالهَديَّةُ تُبعِدُ الشَّحناءَ والضَّغينَةَ وتُورِثُ المحبَّةَ ، يَقُولُ ﷺ : «**يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِـجَارَتِها وَلَوْ فِرْسَنَ شَاةٍ**» [(٣)] ، أي : حَتَّىٰ ولَو قَلَّت ؛ لأَنَّ في الحَضِّ عَلَىٰ الهَدِيَّةِ بَينَ الجيرانِ ـ وإنْ كَانَت مُتَواضِعَة ـ تَواصُلٌ بَينَ المُسلمينَ عامَّةً ، والجيرانِ خاصَّةً .

٤ ـ الحَثُّ عَلَىٰ التَّعاوُنِ والتَّضامُنِ والتَّسامُحِ فيما بَينَ الجيرانِ بما يَنفَعُهُم ، ولا يَضُرُّهم . فقد قَالَ ﷺ : «**لَا يَمْنَعُ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ**» [(٤)] .

ويَشتَدُّ البِرُّ وأداءُ المَعرُوفِ والصِّلَةُ بتَقارُبِ البُيُوتِ والأبوابِ ، فالأَوْلَويَّةُ في الإكْرامِ للجَارِ القَريبِ ، بغَضِّ النَّظَرِ عن تَقواهُ أو ما يَدينُ به ، فقَد سَأَلَت السَّيِّدَةُ عائشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنها رَسُولَ اللّـهِ ﷺ أنَّ لَها جارَينِ ، فإلَىٰ أَيِّهما تُهدِي؟ قَالَ : «**إِلَىٰ أَقْرَبِهِمَـا مِنْكِ بَاباً**» [(٥)] ، لِـمَا في ذَلكَ من حِكمَةٍ ، بأَنَّ الأَقربَ أَسرَعَ لِـمَا يَقعُ لجارِه من المُلِمَّـاتِ لا سيَّما في أوقاتِ الغَفلَةِ ، والأَقْرَبُ يَرَىٰ ما يَدخُلُ بيتَ جارِه بخِلَافِ الأَبْعَدِ .

(١) انظر الحديث في «الترغيب والترهيب» الذي يتكلم عن حقوق الجار ، ٣/ ٣٥٧ ، رقم ٢٠ .
(٢) «رش البرد في شرح الأدب المفرد» ، د. محمد لقمان السلفي ، مرجع سابق ، ص ٨٠ ، رقم ١١٢-١١٤ .
(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١٠٨٥ ، رقم الحديث : ٦٠١٧ .
(٤) «رياض الصالحين» ، باب حق الجار والوصية به ، ص ١٨٤ ، رقم الحديث : ٣٠٥ .
(٥) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١٠٨٥ ، رقم الحديث : ٦٠٢٠ .

أمَّا كَلمَةُ الجَـارِ فهي تَشمَلُ المُؤمِنَ ، والكَافِرَ ، والفَاسِقَ ، والصَّالِحَ ، والقَريبَ ، والغَريبَ ، والصَّدِيقَ ، والعَدُوَّ .. الخ .

ومن شِدَّة عِنايَةِ الرَّسُولِ ﷺ بالجَارِ طَلبَ من السَّـيِّدَةِ عائشَةَ ألَّا تُؤذِي الجِيرانَ حَتَّىٰ في بَهائِمِهم ودَواجِنِهم ، وذَلكَ عِندَما رَأتْ شَاةَ الجِيرانِ تَأخُذُ قُرصَ الخُبزِ الذي كَانَت تُعِدُّهُ رَضِيَ اللهُ عَنها ، فقَالَ لها النَّبيُّ ﷺ : «**خُذِي مَا أَدْرَكْتِ مِنْ قُرْصِكِ وَلَا تُؤْذِي جَارَكِ فِي شَاتِهِ**»(١) .

إنَّ المُتتبِّعَ لحالِ المُسلِمينَ اليَومَ ، يَجدُ البَوْنَ الشَّاسِعَ بَينَ حالِهم وحَالِ الجِيرانِ في العَهدِ النَّبويِّ ، وما كَانُوا عَليَه من تكاتُفٍ وتكافُلٍ ومَحبَّةٍ ووِئامٍ . وما ذَلكَ إلَّا للبُعدِ عَن المنهَجِ النَّبويِّ في التَّعامُلِ مع الجِيرانِ ، والانجِرَافِ وَراءَ بَريقِ الحَضارَةِ الغَربيَّةِ ببُعدِها الماديِّ البحتِ ، فغَدَت عَلاقاتُ بَعضِ الجِيرانِ مَع بَعضِهِم بَعيدَةً عَن مَعاني الأُخُوَّةِ والتَّكافُلِ والتَّراحُمِ والتَّعاضُدِ ، بَلْ إنَّ البَعضَ يَسكُنُ دارَهُ ، ويَخرُجُ منها ، ولا يَعرِفُ جَارَهُ الذي بجانِبه!

وكَم من سُكَّانِ عِمارَةٍ واحدَةٍ لا يَعرِفُ بَعضُهم بَعضاً ، ولا يُؤدِّي بَعضُهُم حَتَّىٰ واجِبَ السَّلامِ! مَع أنَّ الوَصِيَّةَ بالجَارِ والاعتِناءَ به من صُلبِ العَقيدَةِ ، ففي الحَديثِ : «..**وَأَحْسِنْ إِلَىٰ جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً**..» و : «**خَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللَّـهِ خَيْرُهُم لِـجَارِهِ**»(٢) .

كَما أنَّنا نَجدُ أيضاً أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد لَفتَ انتِباهَنا إلَىٰ أنَّ هُناكَ مَوقِفاً خاصَّاً

(١) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، ص ٨٤ ، رقم الحديث : ١٢٠ .

(٢) «الترغيب والترهيب من الحديث الشريف» ، مرجع سابق ، ٣/ ٣٥٩-٣٦٠ ، رقم الأحاديث : ٣٠-٣١ ، وانظر : «الأدب المفرد» ، ص ٨١ ، رقم ١١٥ .

يومَ القِيامَةِ يُحاسَبُ المَرءُ فيه عَلَىٰ تَعامُلِه مع الجَارِ، فإمَّا أنْ يُؤجَرَ أو يُوزَر. فقَد قَالَ ﷺ: «**أَوَّلُ خَصْمَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَارَانِ**» (١)؛ لأنَّ التَّفاضُلَ في دُخُولِ الجَـنَّة لَيسَ بكَثرَةِ النَّوافِلِ التي يَقُومُ بها المُسلِمُ، وأصْنافِ العِبَاداتِ والصَّدَقاتِ والصِّيامِ، بَلْ بحُسنِ الأخْلاقِ والصَّبرِ في التَّعامُلِ مَع الجيرانِ، وهَـٰذا ما يَرفَعُ المرءَ ويَنفَعُه. وقد ذُكِرَت عِندَ الرَّسُولِ ﷺ امْرَأةٌ، بكَثرَةِ صَلَاتِها وصِيامِها غَيرَ أنَّها تُؤذِي جِيرانَها، قَالَ: «**هِيَ فِي النَّارِ**»، وذُكِرَت أُخرَىٰ لَيسَ عِندَها زِيادَةُ عِبادَةٍ وصَدَقَةٍ، غَيرَ أنَّها تُحسِنُ تَعامُلَها مع جِيرانِها، قَالَ: «**هِيَ فِي الجَـنَّةِ**» (٢).

إنَّ امتِثالَ الوَصيَّةِ بالجَارِ تَطبيقاً لهَدي الرَّسُولِ ﷺ يَكُونُ: بإيصَالِ ضُرُوبِ الإحسَانِ إلَيه حَسبَ الطَّاقَةِ، كالهَدِيَّةِ والسَّلامِ وطَلاقَةِ الوَجهِ عِندَ لِقائِه، ومُساعَدتِه فيما يَحتاجُ إليه، وكَفِّ الأذَىٰ المادِيِّ والمَعنَويِّ عنه.

كَما أنَّ مُراعاةَ الحُقُوقِ أثناءَ التَّعامُلِ مع الجِيرانِ يَكُونُ بامتِثالِ الآدَابِ العامَّةِ في: عَدمِ إيذائِهِم بالصَّوتِ، وغَضِّ البَصرِ، وعَدمِ التَّدخُّلِ في شُؤونِهِم الشَّخصيَّةِ أو الدُّخُولِ عَليهِم إلَّا بإذنٍ، كَي لا نَجعَلَ هَـٰذا التَّقارُبَ وَسيلَةً لِـهَتكِ أسرارِ البُيوتِ وتَتبُّعِ عَوراتِها (٣)، هَـٰذا مع النَّاسِ عامَّةً، والجَارِ خاصَّةً لشِدَّةِ الالتِصاقِ به ودَوامِ التَّعامُلِ مَعَه.

---

(١) «الترغيب والترهيب من الحديث الشريف»، مرجع سابق، ٣/ ٣٥٥، رقم ١٥.

(٢) «رش البرد شرح الأدب المفرد»، مرجع سابق، ص ٨٢، باب لا يؤذي جاره، رقم ١١٩.

(٣) «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق كتاب شرف المصطفىٰ ﷺ»، مرجع سابق، ج٤، انظر في: جامع أبواب صفة أخلاق النَّبيِّ ﷺ وآدابه، ص ٤٩١، ٤٩٣.

إنَّ لِقيامِ الجَارِ بحُقُوقِ جارِه آثاراً طَيِّبَةً في المُجتمَعِ ، فبِذَلكَ تتآلَفُ القُلُوبُ وتَتقارَبُ النُّفُوسُ ، ويَكُونُ المُسلِمُونَ مِثْلَ الجَسدِ الواحِدِ ، يَتعاوَنُونَ عَلَىٰ الخَيرِ ويَفعَلُونَه ، ويَتناهَوْنَ عن الشَّرِّ ويَحذَرُونَه ، ويَتناصَحُونَ فيما بينَهُم ، ويُحِبُّ كُلُّ واحدٍ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لنَفسِه ، وهَـٰذا من كَمالِ الإيمانِ ، وحُسنِ اتِّباعِ سُـنَّةِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ونَهجِه في الجِوَارِ ، كَما أَنَّه مَظهَرٌ حَضارِيٌّ غايَةٌ في الرُّقيِّ . واسمُ الجَارِ يَشمَلُ عُمُومَ المُجتمَعِ ، فإذَا حَسُنَت العَلاقَةُ بَينَ العَوائلِ المُتجاوِرَةِ ، سَادَ الحُبُّ والوِئامُ وسَعِدَ المُجتمَعُ كُلُّه .

إنَّ رِسالَةَ النَّبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ لَـمْ تكُنْ رِسالَةً دينيَّةً لإصلَاحِ الدِّين فقَط ، لقَد كَانَت رِسالَةً إصلاحيَّةً لشَتَّىٰ جوانبِ الحَياةِ ؛ لأنَّ الدِّينَ لا يَثبُتُ إلَّا بإصلَاحِ المُجتمَعِ كُليَّـاً ، وتَحسينِ صُنُوفِ المُعامَلاتِ بَينَ أفرادِه كَافَّةً ، ولا يَكُونُ ذلكَ إلَّا بالتِزامِنا نَهجَ النَّبيِّ الحَكيمِ فيما أمَرَنا بِه من الصَّبرِ وحُسنِ الخُلُقِ في المُعامَلاتِ عامَّةً والإحسَانِ إلَىٰ الجَارِ خاصَّةً ، هَـٰذا الذي يُساعِدُ عَلَىٰ تأمينِ المُجتمَعِ ، وإرسَاءِ قَواعِدِ المحَبَّةِ والتَّـآلُفِ والسَّعادَةِ والتَّعاوُنِ بَينَ أفرادِه .

كَمْ تَحتاجُ الإنسانيَّةُ جَمعاءُ إلَىٰ الأدَبِ النَّبـويِّ في التَّعامُلِ مع الجِيرانِ ، فلا المَدَنيَّـةُ الحَديثَةُ ، ولا الحَضارَةُ المُعاصِرَةُ أتَتْ بهَـٰذا الرُّقيِّ في التَّعايُشِ والتَّكافُلِ والتَّضامُنِ بَينَ الجِيرانِ .

المطلَبُ الرَّابع
الرَّسُولُ الصَّـاحِبُ

أهميَّـةُ الصُّحبَة :

الصُّحبَةُ مَطلَبٌ نَفسيٌّ لا يَستَغني عَنه إنسانٌ ، كَما أنَّها سُلُوكٌ اجتماعِيٌّ لا يَكادُ يَنفَكُّ عَنه تَاريخُ البَشريَّةِ ، فهِيَ مَصدَرٌ من مَصادِرِ تَربيَتِه ومَعرِفَتِه وثَقافَتِه وأُنسِه وسُرُورِه ، فللصُّحبَةِ أثَرٌ كَبيرٌ في حَياةِ المَرءِ النَّفسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والثَّقافيَّةِ ، وللصَّاحِب تَأثيرٌ قَويٌّ وفعَّالٌ عَلَىٰ طَبع وسُلُوكِ صَاحِبه . والمَقصُودُ بالصُّحبَةِ المُلازَمَةُ والمُرافَقَةُ والمُعاشَرَةُ . فالصُّحبَةُ وَسيلَةٌ اجتماعيَّةٌ عَظيمَةٌ من وَسائلِ التَّربيَـةِ بالحُبِّ والتَّآلُفِ ، بَلْ هِيَ من أخْطَرِها وأشَدِّهَا فَاعِليَّةً بَينَ المُتآلِفينَ المُتصَاحِبينَ .

قَالَ الشَّاعِرُ (١) :

عَنْ المَرْءِ لا تَسَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُـلُّ قَـرينٍ بِالمُقَـارَنِ يَقْـتَدِي
إذَا كُنْتَ في قَومٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُم ... وَلَا تَصْحَبْ الأَردَىٰ فتَردَىٰ مَعَ الرَّدِي

وما فَازَ الصَّحابَةُ بالشَّرَفِ العَظيم والرُّتبَةِ العُليا عَلَىٰ جَميع القُرُونِ وعَلَىٰ مَرِّ العُصُورِ إلَىٰ يَومِ الدِّينِ إلَّا لِـما كَانَ لَهم من شَرَفِ الصُّحبَةِ لرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ .

ورَسُولُ اللَّـهِ ﷺ الذي بُعِثَ ليُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخلَاقِ هو الإنْسَانُ الكَامِلُ

(١) الشاعر طرفة بن العبد .

الذي كَانَ خَيرَ صَاحِبٍ ، والذي تَعلَّمَ مِنهُ أصحَابُه الأدَبَ الجَمَّ ، واللُّطفَ ، والتَّواضُعَ ، والإكْرَامَ ، وحُسنَ المُعاشَرَةِ ، وفُنُونَ التَّعامُلِ ، وسَائِرَ الخِصَالِ والخِلَالِ الحَميدَةِ التي تَزيدُ من تَآلُفِ المُجتمَعِ وتَعاضُدِهِ ووَحدَتِه .

لقَد كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يُربِّي أصحَابَه من خِلَالِ تَواصُلِه مَعَهُم في كُلِّ آن وحِينَ ، يُعلِّمُهُم أُمورَ دِينِهم ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ (١) ، ويَغرِسُ فيهِم الأخلَاقَ الإسلَاميَّةَ السَّامِيَةَ من خِلَالِ عِشرَتِه لهم ، ومُلازَمَتِهم إيَّاهُ ، ومُرافَقتِهِم له ﷺ .

تَقُولُ السَّـيِّدَةُ عائِشَةُ رضي الله عنها ما كَانَ أحَدٌ أحسَنَ خُلُقاً من رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ ما دَعاهُ أحَدٌ من أصحابِه ، ولا أهْلِ بَيتِه إلَّا قَالَ : «**لَبَّـيْكَ**» (٢) .

ونَذكُر مُجمَلَ وَصفِ الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه النَّبيَّ ﷺ لابنِه الحسَنِ رضي الله عنهما وكَيفَ كَانَ ﷺ مع أصحَابِه قائلاً : كَانَ ﷺ دَائِمَ البِشْرِ ، سَهْلَ الخُلُقِ ، لَيِّنَ الجَانبِ ، يَتغافَلُ عَمَّـا لا يَشتَهِي ، ولا يُؤيِسُ منه رَاجِيَهُ ، يَتفقَّدُ أصحابَه ويَسأَلُ النَّاسَ عمَّـا في النَّاسِ ، وإذا انتَهَىٰ إلَىٰ مَجلِسِ قَومٍ جَلسَ حَيثُ يَنتَهِي به المَجلِسُ . قد تَركَ نَفسَه من ثَلاثٍ : المِرَاءِ والإكثَارِ وما لا يَعنِيهِ ، وتَركَ النَّاسَ من ثَلاثٍ : لا يَذُمُّ أحَداً ولا يَعيبُه ولا يَتتبَّعُ عَثرَتَه . يُعطِي كُلَّ واحِدٍ من جُلَسائِه نَصيبَهُ من البِشْرِ ، فلا يَحسَبُ جَليسُه أنَّ أحَداً أكرَمَ عَلَيه مِنهُ ، وسِعَ النَّاسَ بِشْرُهُ وخُلُقُه ،

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

(٢) «الشفا» للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٨٤ .

أجْوَدُ النَّاسِ صَدْراً ، وأصْدَقُ النَّاسِ لَـهجَةً ، وألْيَنُهُم عَريكَةً ، وأكْرَمُهُم عِشْرَةً ، لا يَقطَعُ عَلَىٰ أحَدٍ حَديثَهُ حَتَّىٰ يَجُورَ (١) فيَقطَعُهُ بنَهيٍ أو قِيَام ، يَخزنُ لِسانَه إلَّا فيما يَعنِيهِ ، ويُؤَلِّفُ النَّاسَ ولا يُنَـفِّرُهُم (٢) . فللصُّحبَةِ عِندَ الرَّسُولِ شَأنٌ عَظيمٌ .

وقد كَانَ ﷺ أشَدَّ النَّاسِ تكرِمَةً لأصحابِه ورَحمَةً (٣) . فقَد رَفَعَ ﷺ من شَأنِهِم ، ولَـمْ يُعامِلْهُم مُعامَلَةَ الأتبَاعِ ولا التَّلامِذَةِ ، بَل المُصاحَبَة والمُباسَطَة . امتَزجَ بهِم وخالَطَهُم ، وعَاشَ بَينَهُم كأحَدِهِم ، يَجرِي عَلَيه ما يَجرِي عَلَيهِم ﷺ .

ولقَد سَجَّلَت لَنا سِيرَتُه العَطِرَةُ وسُـنَّتُه الشَّريفَة أجمَلَ صُوَرِ التَّعامُلِ الإنسانيِّ ، ليتَّخِذَها النَّاسُ قُدوَةً ، منها :

١ ـ إظْهارُ الفَرَحِ والبَشَاشَةِ عِندَ رُؤيَتِهِم ، فقَد كَانَ ﷺ من أكثَرِ النَّاسِ تَبَسُّماً في وُجُوهِ أصحَابِه (٤) .

٢ ـ مُناداتُهُم بأسـماءَ لَطيفَةٍ تَحبُّباً وإكْراماً وتَوَدُّداً ، فقَد كَانَ يُنادِي «عُثْمـانَ» بـ «**عُثْمٍ**» (٥) ، و أبَا هُرَيْرَةَ «**يَا أبَا هِرٍّ**» ، ولغُلَامِه «أَنْجَشَةَ» الذي يَسُوقُ الإبِلَ التي فيها النِّسَاءُ «**يَا أَنْجَشُ رُوَيْدَكَ سَوْقُكَ بالقَوَارِيرِ**» ولزَوجِهِ «عائشَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنهَا «**يَا عَائِشُ هَـٰذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلَامَ ...**» (٦) .

---

(١) يُجاوِزُ الحَقَّ .

(٢) «قبسات من نور النبوة» ، تأليف مجموعة من العلماء ، مرجع سابق ، انظر : ص ١٢٤ ، ١٢٧ بتصرف ، وانظر : «الشفا» للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٨٣-٨٤ .

(٣) «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق كتاب شرف المصطفىٰ ﷺ» ، مرجع سابق ٤/ ٥٤٩ ، رقم : ١٨٨٨ .

(٤) نفس المرجع السابق ٤/ ٥٥٥ ، رقم ١٩٠٠ .

(٥) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، ص ٤٦١ ، رقم الحديث : ٨٢٨ .

(٦) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١١١١ ، رقم ٦٢٠١- ٦٢٠٢ .

٣ ـ كَرمُهُ وإكْرامُهُ لَهم ، فقَد كَافأَ ﷺ الأنْصَارَ بإكْرامِهِم إيَّاهُ ، فقَالَ : «**إذَا لَقِيتُمْ الأنْصَارَ فَأَجِلُّوهُم فَإنَّه طَالَـمَا تَنَعَّمْتُ بَيْنَهُم**» (١) ، وأبْقَىٰ لَهم شَرفَ بَقائِهِ في بَلَدَتِهِم ، بَعدَما فَتَحَ مَكَّةَ ، فلَمْ يَرجِعْ إلَيها ، بَلْ عَادَ إلَىٰ المَدِينَةِ بَينَ أَظْهُرِهِم وفَاءً وإخْلَاصاً للأنْصَارِ ، فأيُّ قائدٍ عظيمٍ يَفتَحُ بَلدَهُ التي أُخرِجَ منها عُنوَةً ، ثُمَّ يَعُودُ ليَسكُنَ في بَلَدِ الهِجرَةِ!؟ .

٤ ـ إيثارُهُ أحَدَ أصحَابه عَلَىٰ أهْلِ بَيتِه : وَعَدَ الرَّسُولُ ﷺ «أبَا الهَيْـثَم بنَ التَّيهانِ» خادِماً ، فأُتِيَ بثَلاثَةٍ من السَّبيِ ، فأعْطَىٰ اثنَينِ وبَقِيَت واحِدَةٌ ، فَجَـاءَتهُ «فاطِمَـةُ» تَطلُبُ منه وهِيَ تَقُولُ : أَلَا تَرَىٰ أثَرَ الرَّحَىٰ بِيَدَيَّ يا رَسُولَ اللَّـهِ؟ فذَكَرَ مَوعِدَهُ «أبَا الهَيْـثَمَ» حَتَّىٰ جاءَهُ «أبُو الهَيْـثَم» فآثَرَهُ عَلَىٰ «فَاطِمَةَ» لِـمَا سَبَقَ من وَعدِه لَه (٢) .

٥ ـ تَقديمُ النَّصيحَة والمَشُورَة بأُسلُوبِ الصَّاحبِ المُحِبِّ المُرشِدِ ، والنَّاصِحِ الأمينِ ، ولَيسَ بأُسلُوبِ المُعلِّمِ النَّاقِدِ ، فقَد مَرَّ مَعنا في الفَصلِ الثَّاني حِينَ أرادَ مِنْ «عَبدِ اللَّـهِ بنِ عُمَر» أنْ يَقُومَ اللَّيلِ قَالَ ﷺ : «**نِعْمَ العَبْدُ عَبْدُ اللَّـهِ لَوْ أنَّهُ يَقُومُ اللَّيلَ**» (٣) ، ولِـمُعَـاذِ بنِ جَبَل : «**يَا مُعَاذُ إنِّي أُحِبُّكَ ..**» (٤) .

---

(١) «مناحل الشفا ومناهل الصفا ، بتحقيق كتاب شرف المصطفىٰ ﷺ» ، مرجع سابق ٤/ ٥٣٢ ، رقم ١٨٦٠ .

(٢) «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق كتاب شرف المصطفىٰ ﷺ» ، مرجع سابق ٤/ ٥٣٨ ، رقم ١٨٦٨ .

(٣) «صحيح مسلم» ، ج٤ - كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل عبد اللَّـه بن عمر رضي الله عنهما ، ص ١٩٢٧ ، رقم الحديث : ٢٤٧٩ .

(٤) «الترغيب والترهيب» ، للمنذري ، مرجع سابق ، ج٢- الترغيب في آيات وأذكار بعد الصلوات المكتوبات ، ص ٤٥٤ ، رقم الحديث : ١٣ .

٦ ـ تَبادُلُ المَشُورَةِ مَع أصحَابِه ، فالنَّاظِرُ في كُتبِ السِّيرَةِ يَجِدُ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَثيراً ما كَانَ يَقُولُ : «**أشِيرُوا عَلَيَّ أيُّها النَّـاسُ**» .

٧ ـ مُشارَكَتُه لَهم في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ كَما في حَفرِ الخَندَقِ ، فقَد كَانَ الحَفرُ شَاقَّاً ، وكَانَ ﷺ أوَّلَ أصحَابِه جُوعاً وآخِرَهُم شِبَعاً .

٨ ـ الصَّبرُ وتَحمُّلُ الأذَىٰ والتَّجاوُزُ عَن المُسيءِ : ومِنْ ذَلكَ مَوقِفُه من أحَدِ الأنصارِ عِندَما قَالَ : واللَّـهِ إنَّها لَقِسمَةٌ ما أُرِيدَ بها وَجهُ اللَّـهِ ، فشَقَّ ذَلكَ عَلَىٰ النَّبيِّ ﷺ عِندَما بَلغَهُ الخَبرُ ، وتَغيَّرَ وَجهُهُ وغَضبَ ، ثُمَّ قَالَ : «**قَد أُوذِيَ مُوسَىٰ بِأكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ**» (١) .

٩ ـ حِفظُ المَودَّةِ والصُّحبَةِ القَديمَة ومُراعاتِه لأصحَابِ الحُقُوقِ ، فقَد لَقيَتهُ امْرأةٌ سَودَاءُ ـ فوَقَفَ لها ـ ورَحَّبَ بها وألحف مَسألَتِها ، فقيل من هَـٰذه يا رَسُولَ اللَّـهِ؟ قال : «**امْرأةٌ كَانَتْ تَأتِينا أيَّامَ خَدِيجَةَ بِمَكَّةَ ، وكَانَتْ تُـمَشِّطُها ، وإنَّ حُسْنَ العَهْدِ من الإيمَـانِ**» ، وكانت تَأتيه بعد ذلك في مَنزِله ﷺ ، وكان يَذبَحُ الشَّاةَ ثم يتبع بها صَدائقَ «خَديجَة» بعد مَوتِها مُكافأةً لَـهُنَّ (٢) .

ووَفدَ عليه مرَّةً وَفدٌ للنَّجاشيِّ، فقَامَ النَّبيُّ ﷺ يَخدِمُهم ، فقَالَ له أصحابُه : نَكفِيكَ ، فقَالَ : «**إنَّهم كَانُوا لأصْحابِنَا مُكرِمِينَ وإنِّي أُحِبُّ أنْ أُكافِئَهُم**» (٣)

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١٠٩٦ ، رقم : ٦١٠٠ .

(٢) انظر القصتين : «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق كتاب شرف المصطفىٰ ﷺ» ، مرجع سابق ، ٤/ ٥٤٠-٥٤٢ ، رقم : ١٨٧٢-١٨٧٣ .

(٣) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

جَميلٌ أن نَقتَديَ في تَعامُلِنا بالرَّسُولِ الصَّاحِبِ ، لإرْساءِ السُّلُوكِ الحَسَنِ ، والمحَبَّـةِ والتَّـآلُفِ ، والصِّفاتِ الإيجابيَّـةِ الفَعَّـالَة .

إنَّ الدَّاعيَةَ المُؤثِّر هو الذي يُخالِطُ النَّاسَ ويُصاحِبُهم ويتعَهَّدُهم ، ويتَوَدَّدُ إلَيهِم ، ويَتفقَّدُهم بنَفسِه ، ولا يَدَعُ حُدوداً ولا حَواجِزَ بَينَه وبَينَ مَنْ يَعتَني بِهم ويُربِّيهِم ، بلْ يَتألَّفُهُم ، ويَمتَزِجُ بِهِم ، ويَصبِرُ عَلَىٰ ما يَصدُرُ مِنهُم من أخطَاءٍ تجاهَه مُباشَرةً ، ولا يَعظُمُ عليه ذَلكَ ، فلَه في رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ أُسوَةٌ حَسنَةٌ ، ويُشارِكُهُم الأُمورَ الحَياتيَّة العامَّة ، ويُشعِرُهم بأنَّه واحِدٌ مِنهُم ، يَشعُرُ بشُعُورِهم ، ويَحرِصُ عَلَىٰ مَصلحَتِهِم ، ويُرشِدُ جاهِلَهُم بشَفقَةٍ وحُـنُوٍّ ، كَما يُرشِدُ الصَّاحِبُ المُحِبُّ النَّاصِحُ صَاحِبَه .

فإنَّ من أعظَمِ الفِتَنِ أنْ يَبتَعدَ العُلَماءُ والدُّعاةُ ومَنْ هُم في عِدادِ المَسؤُوليَّة التَّربَويَّة عن واقعِ المُجتمَعِ ، ويَكُونُ تَواصُلُهُم من خِلالِ المُحاضَراتِ والوَعظِ والأوامِرِ والنَّواهِي فقط ، فلا يَصحَبُونَ شَبابَ الأُمَّة وشِيبَها وفِتيَانَها ، ويَعِيشُونَ معهم آلامَهُم وآمالَـهُم .

إنَّ أَتبَاعَ الرَّسُولِ ﷺ لا بُدَّ أنْ يَعُوا هَـٰذا الأمرَ ، لأهَـمِّيته العُظمَىٰ في المَنهَجِ الإصلاحيِّ التَّربَويِّ .

المطلَبُ الخامِس
الرَّسُولُ القَائدُ

نَتحدَّثُ عن مُحمَّدٍ القَائدِ المُربِّي بعد أنْ تحدَّثنا عن مُحمَّدٍ الصَّاحِبِ المُربِّي ، لأنَّ الرَّسُولَ القائِدَ مُحمَّداً ﷺ كَانَ الصَّاحِبَ لجَميعِ الجُنودِ الذين كَانُوا تحتَ قيادَتِه ، بسُلطَانِ الحُبِّ والرِّضَا والاختِيارِ ، لا السَّيطَرةِ والقَهْرِ والإجْبارِ . يَحنُو عَلَيهِم كَما يَحنُو الأبُ عَلَىٰ أبنَـائِه .

سُـنَّةُ القيادَةِ عِندَه المحبَّـةُ والصُّحبَةُ ، والصَّداقَةُ والتَّواضُعُ والتَّضحِيَةُ ، يَتقدَّمُ الصُّفوفَ إلَىٰ مَواقِعِ الرَّدَىٰ غَيرَ هَـيَّابٍ ولا وَجِلٍ ، يُلزِمُ نَفسَه بما يُلزِمُ به أصغَرَ أتباعِه ، ويُؤلِّفُ بَينَ النَّاسِ ويَجمَعُهُم ، فَلا يَبتَغِي الرِّيبَةَ فيهم كَي لا يُفسِدَهُم ويَشُقَّ صَفَّهُم ، فيُوكِلُ الضَّمائرَ إلَىٰ اللَّـهِ ، ويُحاسِبُ النَّاسَ بما يُجدِي فيه الحِسَابُ .

وبنَهجِه وسُلُوكِه وتَربيَتِه القِياديَّة الفَذَّةِ أصبَحَ العَربُ أسياداً بعد أنْ كَانُوا أَتباعاً ، وأصبَحُوا إخواناً يَنصُرُ بَعضُهُم بعضاً ، بَعدَ أنْ كَانُوا قَبائِلَ مُتناحِرَة كَما وَصفَهُم جعفَرُ بنُ أبي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنهُ بكَلام واضِحٍ بَيِّنٍ فَصلٍ للنَّجاشيِّ [1] ، وكَانُوا يَحنُونَ رُؤوسَهُم لكِسْرَىٰ وقَيصَرَ ، فَأصبَحَت جُيوشُ كِسْرَىٰ وقَيصَرَ تَخضَعُ لسُلطانِهم .

---

(١) انظر بعضاً من كلام جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنهُ للنجاشي ، في مطلب الرَّسُولِ والجار : المطلب الثالث من الفصل الخامس .

حَصلَ هَـٰذا التَّحوُّلُ الجذريُّ بتأييدِ اللَّـهِ تعالَىٰ للرَّسُولِ ﷺ وعلَىٰ قِمَّةِ هَـٰذا التَّأييدِ تمتَّعَ النَّبيُّ ﷺ بصفاتٍ أخلاقيَّة عظيمةٍ ، قَالَ تعالَىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (١) ، ومهاراتٍ قياديَّة عاليَةٍ ، مَكَّنَتهُ من إجراءِ هَـٰذه التَّحوُّلاتِ الكَبيرَة في حَياةِ العَرَب ، وبقُدرَتِه ﷺ عَلَىٰ استيعابِ أصحابِه ، وتَربيتِهم ، ورِعايَتِهم ، وتَمتُّعِه بمَهاراتٍ عَديدَةٍ أُخرَىٰ ، عَلَىٰ رَأسِها القيادَةُ بالحُبِّ ، والتَّواضُعُ لأصحابِه ، فقد كانَ يَقُودُ السَّرِيَّةَ بقَلبٍ واحدٍ وجَسَدٍ واحدٍ كَالبُنيانِ المَرصُوصِ ، فكُلُّهم رَهنُ إشارَتِه ، وكُلُّهم طَوعُ بَنانِه ، فهو القائدُ المَحبُوبُ الذي لا تُردُّ لَه كَلمَةٌ مَهما كَانَ ثَمنُ التَّضحيَةِ والفِداءِ . ولقد مَرَّ مَعنا في قِصَّةِ الصَّحابيِّ الجَليلِ «خُبَيْبِ بنِ عَدِيٍّ» الذي كَانَ آخِرَ عَهدِه من الكَلام قَبلَ استِشهادِه قَولُه : «مَا أُحِبُّ أنْ أكُونَ مُعافًى بَينَ أهْلي ، ورَسُولُ اللَّـهِ ﷺ تَشُوكُهُ شَوكَةٌ» .

قَـائدُ الحُبِّ والعَـفْوِ :

لقَد كَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَائدًا يدعُو إلَىٰ دِينِه بسَلام ، ويَدعُو إلَىٰ عَقيدَةٍ تُؤمِنُ بالحُبِّ والتَّسامُح وحُبِّ الآخَرينَ ، فلَمْ تكُن الغَزَواتُ النَّبـويَّةِ تسعَىٰ للانتِقامِ من أحَدٍ ، بلْ هَدفُها الأوَّلُ والأخيرُ هِدايَةُ الشُّعُوبِ ورَدُّها إلَىٰ خالقِها ، فإذا ما انتهت الحَربُ بانتصارِ الرَّسُولِ ﷺ والمسلِمينَ نَجدُ السَّماحَةَ والرِّفقَ والرَّأفَةَ والرَّحمَةَ مُهيمِنةً في التَّعامُلِ مع غَيرِهم (٢) .

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .

(٢) «التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي» ، تأليف : ناصر محمدي محمد جادي ، دار الميمان للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م ، ص ٢٥٢ .

فعندما انتهت حَربُ قُريش في فَتحِ مَكَّةَ بانتِصارِ النَّبيِّ ﷺ انتِصاراً مُدوِّياً ، وهَزيمَةِ قُريش هَزيمَةً نكْراءَ ، واستسلامِها لَـمْ يَقُلْ مَقالَةَ القادَةِ المَزهُوِّينَ الغاشِمينَ : وَيْلٌ للمَغلُوبِ . بلْ كَانَت السَّماحَةُ ، والرِّفقُ ، والعَفوُ المُحمَّديُّ بقَولِه ﷺ : «**اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءُ**» .

إنَّه لَموقفٌ تَنحَني الجِباهُ له! فهَلْ عَرفَ التَّاريخُ قائداً غُلِبَ عَلَىٰ أمره ، وطُرِدَ من بَلدِه ، وأُوذِيَ في نَفسِه وأهْلِه ومَالِه ، فلَمَّـا استطاعَ العَودَةَ ، وتَمكَّنَ من رُؤوسِ أعدائه لَـمْ تَمتَدَّ يَدُه إلَيهم بسُوءٍ ، ولَـمْ يَأخُذْهُم بثَأرٍ؟ رَغمَ أنَّه كَانَ في زَمنِ غَلبَتهُ عادَةُ الأخذِ بالثَّـأرِ . وهَلْ عَرفَ التَّاريخُ عَدُوَّينِ يَلتَقِيانِ بَعدَ طُولِ صِراعٍ وإراقَةِ دِماءٍ فلا يَكُونُ في لقائِهما شَحناءُ ولا بَغضَاءُ؟!

لقَد كَانَت عادَةُ الأَخذِ بالثَّـأرِ قاعِدَةً مَشرُوعَةً ، لكن أنَّىٰ لهَـٰذا القَلبِ الذي مُلِئَ حُبَّاً وفاضَ رَحمةً أن يَكُونَ للثَّـأرِ إلَيه سَبيلاً . لقد شَهِدَ التَّاريخُ يومَ فَتحِ مَكَّةَ لرَسُولِ اللَّـهِ ﷺ بأمرَينِ :

أوَّلُـهما : رَفضُه ﷺ الثَّـأرَ والانتقامَ ، فحقَّقَ أعظَمَ قاعِدَةٍ في انتصارِ القادَةِ العِظامِ ، (العَفوَ والتَّسامُحَ) وأبطَلَ تِلكَ العادَةَ الذَّميمَةَ . (الثَّـأرَ والانتِقامَ) .

ثانيهما : عَلَّمَ أصحابَه الكِرامَ ـ كَما عَلَّمَ القادَةَ جميعاً ـ سُمُوَّ القائدِ ، وبَيَّنَ لهم أنَّ القيادَةَ الحَقيقيَّةَ تكُونُ بالحُبِّ والعَفوِ ، ولَيسَ بالحِقدِ والانتقامِ .

فقد أعطَىٰ ﷺ الرَّايةَ يومَ الفَتحِ لسَعدِ بنِ عُبادَة ، ثم ما كانَ إلَّا أنْ استرَدَّها منه ؛ لأنَّه قَالَ : «اليَومَ يومُ المَلحَمة اليَومَ تُستَحلُّ المَحرُمَة ، اليَومَ أذَلَّ اللَّـهُ قُرَيشاً» ، فأخذَها ﷺ ، منه وقَالَ له : «**اليَومَ يَومُ المَرْحَمَةِ ، اليَوم أعزَّ**

اللَّـهُ فيه قُرَيْشاً» ، «**هَـٰذَا يومٌ يُعظِّمُ اللَّـهُ فيه الكَعبَةَ**» ، ثم إنَّه ﷺ أعطاها ابنَه «قَيْسَ بنَ سَعد» لكَيْلا يكُونَ في نَفسِ «سَعدِ بنِ عُبادَة» شَيءٌ من نَزعِهَا ـ التَّربيَـةُ القِياديَّةُ بالحُبِّ ـ وكَي لا يَحمِلَ رَايَةَ الأنصارِ إلَّا أنصارِيٌّ ، ليَكُونَ لهم مَقامُ الفَتحِ برِجالِهم وقيادَتِهم (١) .

كما كانَ الرَّسُولُ القائدُ المُربِّي ﷺ أسرَعَ النَّاسِ إلَىٰ العَفوِ والبِرِّ وأَوْلاهُم به ، ففي تَصَرُّفِه مع أعدائه دُرُوسٌ بَليغَةٌ لكُلِّ مَنْ أرادَ أنْ يَقتَدي به ، وهو ما دَفعَ أبناءَ صَناديدِ الكُفرِ إلَىٰ الدُّخُولِ في دينِ اللَّـهِ أفواجاً ، كَعِكْرِمَةَ بنَ أبي جَهلٍ ، وخَالدَ بنَ الوَليدِ بنَ المُغيرَةِ رضي الله عنهم ، وبَادَلُوهُ حُبّاً بحُبٍّ ، وأصبَحَ أَحَبَّ إلَيهِم من نُفوسِهم التي بَينَ جَنبَيهِم .

وفي قصَّةِ إسلَامِ عِكْرِمَة بنِ أبي جَهْل خَيرُ شَاهِدٍ : حِينَ فَتحَ الرَّسُولُ القائدُ ﷺ مَكَّةَ ، فرَّ عِكرِمَةُ هارِباً من رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ إلَىٰ اليَمنِ ، فلَحِقَ به من أَهْلِه مَنْ يُخبِرُهُ بكَرَمِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وعفوِه . فرَجعَ حَتَّىٰ دَخلَ المَسجِدَ الحَرامَ وهو خائفٌ ، فلَمَّـا نَظرَ إليه الرَّسُولُ القائدُ الفَاتحُ ﷺ ، قَامَ إلَيه ، ونَشرَ رِداءَهُ حَتَّىٰ استَقبَله وقَـبَّل بَينَ عَينَيه استِئلَافاً وكَرماً وعَفواً ، فقَالَ عِكرِمَةُ : ما فَارَقتُ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ حَتَّىٰ كانَ أحَبَّ إليَّ من النَّفسِ والوَلدِ والوَالِدِ ، ثمَّ أَسلَمَ وحَسُنَ إسلَامُه ، حَتَّىٰ استُشهِدَ يومَ أَجنادِينَ (٢) .

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب المغازي ، ص ٧٤٥ ، باب أين ركز النَّبيُّ ﷺ رايته يوم الفتح ، رقم الحديث : ٤٢٨٠ ، وانظر أيضاً : «خاتم النبيين» للإمام أبوزهرة ، مرجع سابق ، المجلد الثاني ، ص ١٠٠٤ ، وأيضاً : «تعامل الرَّسُولِ ﷺ مع الكفار في العهد النبوي» ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

(٢) «مناحل الشفا بتحقيق كتاب المصطفىٰ ﷺ» ، مرجع سابق ٤/ ٥٢٣ ، رقم : ١٨٥١ .

ولنَنظُر أيضاً إلىٰ نُبلِ الأخلاقِ النَّبـويَّةِ ، وتِلكَ الإنسانيَّة العَظيمَة في قَلبِ ونَفسِ الرَّسُولِ القائِدِ العَظيم ﷺ الذي يَهتَمُّ بمَشاعِرِ مَنْ كَانُوا أَعدَىٰ أعدائه ، ذلكَ عِندَما جَعلَ النَّاسُ يَتنادَوْنَ بَينَهم عن «عِكْرِمَةَ» بَعدَ دُخُولِه الإسلامَ هَـٰذا ابنُ أبي جَهْل ، هَـٰذا ابنُ أبي جَهْل ، فآذَىٰ ذلكَ عِكرِمَةَ ، فلَمْ يَرضَ ﷺ هَـٰذا القَولَ من المسلِمينَ ولَـمْ يُبـرِّرهُ لهم ، بَلْ صَعدَ المِنبَر وخَطبَ يَنهاهُم قائلاً : «**لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَـتُحْزِنُوا بِهِ الأَحْيَاءَ**» ، وفي رِوايَة أُخرَىٰ : «**لا تُؤذُوا الأحياءَ بِسَبِّ الأمْوَاتِ**» (١) . فما كَانَ ﷺ إلَّا هَادياً يَدعُو للإسلَامِ ، بَعيداً عن الانتِقامِ ، وناشِراً للحُبِّ والفَضيلَةِ والسَّلامِ .

ويَومَ غَزوَةِ حُنَين أيضاً تَظهرُ رَحمَةُ النَّبيِّ ﷺ بإرادَته إسلَامَ المُنهَزمينَ ، فلَمْ يُوزِّع الغَنائمَ بمُجرَّدِ انهزامِهم كَما يَفعَلُ أيُّ قائدٍ فاتحٍ ! فقَد انتَظرَ رَجاءَ أنْ يَأتُوهُ مُسلِمينَ ، فتَأخَّرُوا ولكنَّهم أتَوْهُ مُسلِمينَ ، فرَدَّ سَبايَا الحَربِ مُكرَّماتٍ ، وكَساهُنَّ كِسوَةً كَريمَةً ولِسانُ حالِه يَقُولُ : مَغلُوبُونَ مُكرَمُونَ (٢) .

كَما أنَّه ﷺ لَـمْ يُحارِبْ قَطُّ مَنْ كَانَ بوسعِه أنْ يُسالِـمَه ويتَّقِي شَرَّه ، كعَبدِ اللَّـهِ بنِ أُبَي الذي صارَ لَقبُه رَأسُ النِّفاقِ لكَثرَةِ ما عاهَدَ وغَدرَ . وهكذا كَسبَ الرَّسُولُ القائدُ حُبَّ النَّاسِ بأخلاقِه ، واجتَذبَ قُلُوبَهم بنُبلِ تَصرُّفاتِه ، فنَقلَ أعدَىٰ أعدائه من دَياجيرِ الكُفرِ وطُغيانِه إلىٰ رِحابِ الإيمانِ بتَسامُحِه وكَريمِ سِجَالِه (٣) .

(١) «مناحل الشفا بتحقيق كتاب المصطفىٰ ﷺ» ، مرجع سابق ٤/ ٥٢٣-٥٢٤ ، رقم : ١٨٥٢ .
(٢) «خاتم النبيين» ، للإمام أبوزهرة ، مرجع سابق ، ص ١٠٤٧-١٠٤٩ .
(٣) «علموا أولادكم محبة رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ» ، د. محمد عبده يماني ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

لقَد كَانَ مُحمَّدٌ ﷺ رَسُولًا مُربِّياً قائداً يدعُو إلَىٰ الإسلَام ، رَجاؤُه رَجاءَ هَادٍ مُرشِدٍ يُريدُ طَهارَةَ القُلُوبِ ، ولَيسَ رَجاءَ مُحارِبٍ يُريدُ الحَربَ لِذاتِها أو السُّلطَةَ والغَنائمَ .

رَحمَتُه بالأعـداءِ :

كَانَ من هَديه ﷺ أنَّ مَنْ أسلَمَ قَبلَ الأسْرِ لَـمْ يُسترَقّ . ومن رَحمَتِه يَمنَعُ التَّفريقَ في السَّبي[1] بَينَ الوالِدَةِ وولَدِها ، يُؤتَىٰ بالسَّبيِ فيُعطِي أهْلَ البيتِ جَميعاً كَراهِيَةَ أنْ يُفـرَّقَ بينَهم[2] .

ويَحترِمُ ﷺ الكَرامَةَ الإنسانيَّةَ إلَىٰ أبعَدِ الحُدودِ ، ويَستَوي في ذلكَ الإنسانُ حَـيًّا أو مَـيِّتاً . فلَمْ يَترُكْ قَتلَىٰ المُشرِكينَ للوُحُوشِ والسِّباعِ في العَراءِ ، بَلْ كَرَّمَهُم كنَفسٍ بَشرِيَّةٍ كَرَّمَها اللَّـهُ ، فدَفنَهم .

ولَـمْ يَرضَ ﷺ أنْ يَبيعَ جُثثَ القَتلَىٰ يوماً . وذَلكَ حِينَما بَعثَ المُشرِكُونَ ليَطلُبُوا جَسدَ «نَوفَل بن عَبد اللَّـهِ المَخزُوميّ» بَعدَ مَقتَلِه ، وعَرضُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ الدِّيةَ قائلينَ : إنَّا نُعطِيكُم الدِّيةَ عَلَىٰ أنْ تَدفعُوهُ إلَينا فنَدفِنَه ، لكِنَّ النَّبيَّ ﷺ أعطاهُم إيَّاهُ دُونَ مُقابِلٍ[3] .

لقَد كَانَ حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ الدَّافعَ الأساسيَّ لإخراجِ النَّاسِ من الظُّلُماتِ

(١) هم الأسرى من النساء والأطفال .

(٢) «التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي» ، ناصر محمدي محمد جادي ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩-٢٥٠ ، وانظر : «الترغيب والترهيب» ، للمنذري ، مرجع سابق ، ج٢ ، الترهيب من التفريق بين الوالدة وولدها بالبيع ونحوه ، ص ٥٩٥ ، رقم الحديث : ١ ، ٢ .

(٣) «التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوي» ، ناصر محمدي محمد جادي ، مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

إلَىٰ النُّورِ ، ومن الجَوْرِ إلَىٰ العَدلِ ، ومن الشَّقاءِ إلَىٰ السَّعادَةِ ، ووقايَتِهِم من نَارِ يَومِ القِيامَةِ .

وعَليه فقَد سَنَّ ﷺ أُصُولاً شَرعيَّةً لغَزَواتِه اهتَدَىٰ بهَدِيها أَتباعُهُ ، منها :

١ ـ الحُبُّ والمَوَدَّةُ أساسُ العَلاقاتِ الإنسانيَّة .

٢ ـ تَحريمُ قَتلِ مَنْ لَـمْ يَبدأ العُدوانَ ؛ لأنَّ اللَّـهَ حَرَّمَ القَتلَ .

٣ ـ لَـمْ يَنقُضْ عَهداً ولَـمْ يَقتُلْ ضَعيفاً ولَـمْ يُقاتِلْ غَيرَ المُحاربين .

٤ ـ حَرَّمَ قَتلَ الأطفالِ والنِّساءِ والشُّيوخِ والرُّهْبانِ والمُقعَدينَ والمُسالِمِينَ والمَدنيِّينَ .

٥ ـ إنْ جَنَحُوا للسَّلمِ أثناءَ القِتالِ يَجنَحْ لها .

٦ ـ عَدمُ التَّمثيلِ بجُثَثِ القَتلَىٰ .

٧ ـ تَركُ النَّاسِ وما يَدينُونَ وتَحريمُ إكْراهِ أحَدٍ عَلَىٰ الدُّخُولِ في الدِّينِ .

٨ ـ يُعصَمُ العَدوُّ المُقاتِلُ في ساحَةِ المَيدانِ الذي يُعلِنُ كَلمَةَ لا إلَهَ إلَّا اللَّـهُ ، نَفسُهُ ودَمُهُ ومَالُه ، بِغَضِّ النَّظرِ عن صِدقِ نيَّـتِه ، ولَوْ كَانَ السَّيفُ عَلَىٰ رَقبَـتِه .

٩ ـ هَدفُ القِتالِ جَعلُ كَلمَةِ اللَّـهِ هي العُليَا ، لا لثَأرٍ أو طَمعٍ أو غَنيمَةٍ .

هَـٰذا التَّشريعُ الرَّاقي من الرَّسُولِ القائدِ سَبقَ كُلَّ القَوانينِ والمَواثيقِ الدَّوليَّة التي سَعَت إلَيها المُجتمَعاتُ الحَديثَةُ ، والتي كَانَ دَأبَها وَضعُ قَواعِدَ ونُظُم تُخفِّفُ عن البَشريَّة وَيْلاتِ الحُروبِ ولكِنَّها لَـمْ تُفلِحْ .

وهكَذا تتمَـيَّزُ صِفاتُ الرَّسُولِ القائدِ المُرَبِّي لإعلاءِ كَلمَةِ اللَّـهِ ، وهُو هَدفٌ يَسَعُ كُلَّ القيَمِ الإنسانيَّة السَّاميَةِ . وغَرسَ في أتباعِه مَنهَجاً وسُلُوكاً حَـيَّاً يُطبَّقُ في الحَياةِ العمَليَّة إلَىٰ يوم الدِّينِ ، ولَيس شِعاراتٍ زائفَة لخِداعِ الشُّعوبِ وتَضليلِها لِـمُمارَسَةِ مَزيدٍ من السَّيطَرةِ والنُّفوذِ والسَّلبِ والنَّهبِ .

إنَّها رُوحُ الرَّسُولِ القائدِ الدَّاعيَةِ الكَريم ، الذي لَـمْ يُرِدْ بدَعوَتِه مُلكاً ولا سَيطَرةً ، بلْ هِدايَةً وإيماناً وفَتحاً وتَفتُّحاً في القُلُوبِ والعُقُولِ .

لقَد أعادَ صِياغَةَ فِكرِ وسُلُوكِ مَنْ اتَّبعَه بمَنهَجِه الحَكيم ، وجَمعَ كَافَّةَ النَّاسِ عَلَىٰ مُختَلَفِ مَشارِبهم وأشكالِهم ، وجَعلَهُم إخوَةً مُتعارِفينَ مُتحابِّينَ تحَتَ لِواءِ اللَّـهِ . فسَارَ أَتباعُه من خِلالِ تَربيَـتِه هَـٰذه عَلَىٰ نَهجِه ، وكَانُوا أرحَمَ الفَاتِحينَ عَلَىٰ مَرِّ التَّاريخ بشَهادَةِ أعدائِهم المُنصِفينَ ، فقَد شَهدَ العَديدُ من المُؤرِّخينَ الغَربيِّينَ عَلَىٰ ذلكَ ، وعَلَىٰ رَأسِهم المُؤرِّخُ الغَربيُّ الشَّهيرُ «غُوستاف لُوبُون» ، عِندَما تحَدَّثَ عن الفُتُوحاتِ الإسلاميَّة وأخلاقِ المُسلمينَ القادَةِ الفاتِحينَ في مَقُولَتِه الشَّهيرَةِ : «لَـمْ يَعرِفْ التَّاريخُ فاتِحاً أرحَمَ ولا أعدَلَ من العَرَبِ» .

الردُّ عَلَىٰ مَنْ قَالَ : «مُحَمَّدٌ نَشَرَ الإسلامَ بالسَّيفِ» :

لقد انتَهجَ النَّبيُّ ﷺ في قِتالِه مع أعداءِ الإسلام مِنْ الآدابِ والأخلَاقِ كُلَّ رَحمَةٍ وفَضيلَةٍ ، وحَدَّ حُدُوداً لا يَتعَدَّاها المُقاتِلُونَ المُسلِمُونَ ، مِمَّا جعلَ أتباعَه مُحرِّرينَ حَقيقيِّينَ للأُمَمِ في زَمنٍ كَانَت العَلاقَةُ بَينَ سائرِ الأُمَمِ فَوضَىٰ لا تَثُوبُ إلَىٰ ضابطٍ ، ولا يَستَقِرُّ فيها سَلامٌ . فلَمْ تكُنْ غَزواتُه ﷺ إلَّا دفاعيَّةً

دَفعاً للعُدوانِ عَملاً بقولِه تَعالَىٰ: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (١)، ووِقائيَّةً حِمايَةً للدَّعوَةِ الإسلاميَّة ونَشرِها، أو لتَحقيقِ العَدلِ، وتَحريرِ الضَّمائرِ والعُقُولِ، ورَفعِ الظُّلمِ عن قَبائلَ أو شُعوبٍ مُضطَّهدَة. فإذا ما انتَهت المعركَةُ بانتِصارٍ، فلا انتِقامَ ولا سَلبَ ولا نَهبَ ولا اغتِصابَ، كَما هي عادَةُ قَوانينِ الحُروبِ السَّائدَة في ذلك الوَقتِ، إنَّما الطُّمأنينَةُ والرَّحمَةُ والعَفوُ والتَّسامُحُ والوَفاءُ بالوَعدِ والحِفَاظُ عَلَىٰ إنْسانيَّةِ المُنهزمين.

ولَـمْ يُسجِّلْ التَّاريخُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَتلَ شَيخاً أو طِفلاً أو امْرأةً أو راهِباً، بلْ كَانَ يُوصي بالإحسانِ إلَيهم جميعاً، ويُغلِظُ عَلَىٰ قادَةِ الجُندِ، ويُشَدِّدُ عَليهم وهم مُتوَجِّهونَ لمُواجَهةِ الأعداءِ، بأنْ لا يَقتُلُوا أيّـاً من أُولئكَ الأصنافِ (١)، والمَواقِفُ والشَّواهِدُ مُستَفيضَةٌ في كُتبِ التَّاريخِ والمغَازي تَشهَدُ بذَلكَ.

وما الانتِصارُ الذي حقَّقهُ الرَّسُولُ القائدُ ﷺ والذي غَيَّر به وَجهَ الدُّنيـا والحَضارَة والتَّاريخ في غَزواتِه جميعاً إلَّا بذَاكَ الحُبِّ وتِلكَ الرَّحمَةِ التي حَبا بها أصحابَه وأعداءَه، بلْ حَبا بها البَشريَّةَ جمعاء.

لَـمْ يَنتَشر الإسلامُ بالسَّيفِ، أو التَّخويفِ، أو إراقَةِ الدِّماءِ! إذ لَـمْ يكُنْ يَتجاوَزُ عَددَ ضَحايا المعَارِكِ كُلِّها التي دارَت بَينَ فَريقَي المُسلِمينَ والمُشركِينَ سِوَىٰ (٣٨٦ قَتيلاً) (١٨٣) شُهداءُ المُسلِمينَ، و(٢٠٣) هم جميعُ قَتلَىٰ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(١) «خاتم النبيين»، للإمام أبوزهرة، مرجع سابق، ص ١٠٤٣، كيف ألحق الرسولُ ﷺ بمن يقول لخالد بن الوليد: «لا تَقتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وعَسيفا».

المُشرِكينَ . بَينما نَجدُ الحَربَ الدِّينيَّـةَ التي دامَت أكثرَ من قَرنَينِ داخِلَ النَّصرانيِّـة ذاتِها بَينَ الكَاثُوليك والبُروتستانت في القَرنينِ السَّادس عَشَر والسَّابع عَشَر ، قد أُبيدَ فيها (٤٠٪) من شُعوبِ وَسطِ أُوربا ، فقد بَلغَ ضَحاياها عَشرَةَ مَلايينِ شَخصٍ (١)!!

كَما نَرىٰ في الحَربَينِ العالَـميَّتين الأُولىٰ والثَّانيَة ، التي شَهدَت البشَريَّةُ فيها ضَحايا لَـمْ يَشهَدها التَّاريخُ من قَبلُ! أنَّ عَددَ الضَّحايَا من المَدنيِّينَ الأبرياءِ والجُنودِ قارَبَ (١٠٠) مليون قَتيل مُعظَمُهم من المَدنيِّينَ . وما شَهدَهُ العِراقُ في وَقتِنا الرَّاهِن من سَفكٍ للدِّماءِ مُنذُ الغَزوِ الأمريكيِّ عَلَيها ، حَيثُ فَاقَ عَددُ ضَحاياها مِئاتِ الأُلوفِ .

ونَجدُ الحُروبَ والضَّحايا في ظِلِّ المَدنيَّـةِ الحَديثَةِ القَتلُ فيها عَشوائيٌّ لا يَحكُمُه قانُونٌ إنسانيٌّ ولا نِظامٌ أخْلاقيٌّ ، ولا يَرقُبُ الجاني فيه إلًّا ولا ذِمَّةً ، فتِلكَ المَلايينُ التي قُتلَت في الحُروبِ العالميَّة لَـمْ تكُنْ لنَشرِ مَبدَأ أو تَحقيقِ عَدلٍ أو حُريَّةٍ! وإنَّما سَعياً وَراءَ الانتِقامِ أو السَّيطرَةِ والنُّـفُوذِ!

لقَد كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ قائداً يَحقِنُ الدِّماءَ ، ولا يَقطَعُ زَرعاً ولا يَقتُلُ ماشِـيَةً ، فهَلْ نَرىٰ هَـٰذه الأخلاقيَّاتِ في الحرُوبِ المُعاصَرةِ مع كُلِّ ما وَصلَت إلَيه من مَدنيَّـةٍ؟!!

(١) «الغرب والإسلام أين الخطأ؟.. وأين الصواب؟؟» ، د. محمد عمارة ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م . ص ٤٨ .

المطلَبُ السَّـادِس
الرَّسُولُ الـمُـرَبِّي

التَّربيَـةُ موهِـبَةٌ وعِلمٌ وفَـنٌّ ..

فهيَ مَوهِبةٌ لأنَّها تَجعلُ إنساناً من النَّاسِ ، بتَركيبِه الجِسميِّ والعَقليِّ والنفسيِّ والرُّوحيِّ أقدَرَ علَىٰ التَّربيَـةِ والتَّوجيهِ من إنسانٍ آخر . وهي عِلمٌ لأنَّ الإنسانَ يتَعلَّمُه من الخِبرَةِ ومن تَجارب الآخرينَ أو من تَجاربِه الشَّخصِيَّةِ ، وهي فَنٌّ لأنَّه يُطبِّقُ به العِلمَ الذي تَعلَّمَه بصُورَةٍ صَحيحَةٍ تُناسِبُ الحالَةَ التي أمامَه . وقد أُوتيَ المُربِّي الأعظَمُ ﷺ ذَلكَ كُلَّه وأكثرَ منه ، إلهاماً وعِلماً من اللَّـهِ تبَارَكَ وتَعالَىٰ ، فقد صَنعَهُ اللَّـهُ علَىٰ عَينه ليَكُونَ للعَالَـمِـينَ نَذيراً (١) .

فمَنْ زَعمَ أنَّ التَّربيَـةَ بالحُبِّ والرِّفقِ والرَّحمَةِ ، وتَركَ العُنفِ والقَسوَةِ هي دَعوَةٌ من دَعواتِ المُربِّينَ المُصلِحينَ العصريِّينَ الذين لَـمْ يُسبَقُوا إليها ، لَـم يَعرِف المُربِّي الأوَّلَ النَّبيَّ ﷺ حَقَّ مَعرِفَته ، ودَعوَتَه التي لَـمْ تكُنْ إلَّا رِفْقاً . فقَد قالَ ﷺ : **«إنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّهِ»** (٢) . وفي حَديثِه ﷺ لأُمِّ المُؤمِنينَ عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها : **«عَلَيْكِ بالرِّفْقِ ، وإيَّـاكِ والعُنْفَ والفُحْشَ»** (٣) .

ويَصِفُ لنا سُلُوكَ الرَّسُولِ وهَديَه الصَّحابيُّ الجَليلُ أَنَسُ ابنُ مَالِك ، الذي

(١) «منهج التربية الإسلامية» ، محمد قطب ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .
(٢) «صحيح البخاري» ، ص ١٠٨٥ ، كتاب الأدب ، باب الرفق في الأمر كله ، رقم الحديث : ٦٠٢٤ .
(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١٠٨٦ ، باب لم يكن النَّبيُّ ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ، رقم الحديث : ٦٠٣٠ .

لازمَه وخدمَه عشرَ سنينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلاً : «**إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَـمْ يَكُنْ سَبَّاباً ولا فَحَّاشاً ولا لعَّاناً**» ، وأنَّه خِلالَ خِدمَتِه الطَّويلَة للرَّسُولِ ﷺ لَـمْ يَسمَعْ منهُ يوماً أُفٍّ ، أوْ لِـمَ صَنعتَ ، أوْ ألَا صَنعتَ [1] .

وفي حَديثِ مُعاويَةَ بنِ الحَكَم السُّلَميِّ أيضاً ما يَدُلُّ علَىٰ رِفقِه ﷺ بالمُتعلِّمينَ أثناءَ التَّوجيهِ ، يَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «.. **بِأبِي هُوَ وأُمِّي مَا رَأيْتُ مُعلِّماً قَبلَهُ ولا بَعدَهُ أحْسَنَ مِنهُ تَعليماً ، مَا كَهَرَنِي ولا ضَرَبَنِي ولا شَتَمَنِي** ..» [2] .

فقد كَانَ الرَّسُولُ ﷺ من الحُبِّ والشَّفقَةِ ، والرَّأفَةِ والرَّحمَةِ ، وتَركِ العَنَتِ ، وحُبِّ اليُسرِ ، والبُعدِ عن اللَّوْمِ والعِتابِ ، والرِّفقِ بمَنْ حولَه من مُتربِّينَ ومُتعلِّمينَ ، والحِرصِ عليهم ، وبَذلِ العِلمِ والخَيرِ لهم في كُلِّ وَقتٍ ومُناسَبةٍ ، بالمَكانِ الأسمَىٰ والخُلقِ الأعلَىٰ [3] ، لقَد قَالَ اللَّـهُ تَعالَىٰ عَنهُ : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [4] .

ولا بدَّ من فَهمٍ دَقيقٍ لعَمليَّةِ التَّربيَـةِ قَبلَ الشُّروعِ في مُمارَستِها ، فالمنهَجُ الصَّحيحُ : «العِلمُ قَبلَ العَمَلِ» و«الاعتِقادُ السَّويُّ أساسُ العَملِ الصَّحيحِ» [5] .

---

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١٠٨٦و١٠٨٧ ، أرقام الأحاديث : ٦٠٣١ - ٦٠٣٨ .
(٢) سبق تخريجه .
(٣) «الرسول المعلم» ، للشيخ عبد الفتاح أبوغدة ، مرجع سابق ، ص ٢١ .
(٤) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨ .
(٥) «الأطفال المزعجون» ، د. مصطفى أبوسعد ، استشاري نفسي وتربوي ، برنامج عملي تدريبي في مهارات تعديل السلوك لدى الطفل ، شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م ، صفحة الخاتمة رقم : ٢ .

الرَّسُولُ المُرَبِّي والتَّربيَـةُ الإيجَـابيَّـةُ الفعَّـالَة :

الغايَةُ من العَمليَةِ التَّربَويَّةِ تَوليدُ وغَرسُ اتِّجاهٍ مُستَقيم في السُّلوكِ ، ونمُوُّ مَهاراتٍ كامنَةٍ في سَبيلِ تَنميَةِ الذَّاتِ ، والإعلاءِ من شَأنِ الفَردِ ليَكُونَ لَه أثَرٌ في بيئَتِه ومُجتَمَعِه .

ونَجاحُ المُرَبِّي يُبنَىٰ عَلَىٰ عدمِ الإكْراهِ ، وتِلكَ أفضَلُ وَسيلَةٍ للتَّربيَـةِ ، وذَلكَ في أنْ يَفتَحَ المُرَبِّي قَلبَ المُتَربي ليَتمكَّنَ من غَرسِ القِيَم الحسَنَةِ ، فلا تَكُونُ أثَراً سَطحياً مادِّياً سُرعانَ ما يَزُولُ ، فقد نَحُولُ بَينَ المُجرِمِ والإقدام عَلَىٰ السَّرِقَة بوَضعِه في السِّجنِ ، ولكنَّ ذَلكَ لا يَحمِلُه عَلَىٰ التَّوبَةِ ، ولا يُغيِّرُ من مُيولِه إلَىٰ السَّرِقَة ، وقد يُساقُ الحِصَانُ إلَىٰ الماءِ بالقُوَّةِ ولكن لا نَستَطيعُ إرغامَهُ عَلَىٰ الشُّربِ .

فالتَّربيَـةُ الفَعَّالَةُ لإصلَاحِ السُّلُوكِ وتَعديلِه لَيسَت بالإرْغامِ ، ولكنْ في فَتحِ قَلبِ المُتَربِّي مع الحِوارِ الهادِئِ النَّاجحِ ، ومَعرفَةِ مِفتاحِ كُلِّ إنسانٍ ، فذَلكَ من أنجَحِ الأسَاليبِ والنَّظريَّاتِ التَّربَويَّةِ وأحدَثِها . وقد تَمَّ التَّوصُّلُ إلَىٰ ذَلكَ المَنهَجِ لاحِقاً في البِلادِ الغَربيَّـةِ ، ولكنَّ الرَّسُولَ المُرَبِّي كان لَه السَّبقُ التَّربَويُّ الحَضاريُّ في ذَلكَ .

فهُناكَ الكَثيرُ من النَّظَريَّاتِ التَّربَويَّة التي تَوصَّلَ إليها الغَربُ مُؤخَّراً ، بَينَما كَانَت سُلُوكاً عَمليَّـاً رائعاً أسَّسَهُ ومارَسَهُ الرَّسُولُ ﷺ كَما مَرَّ مَعنا في الفَصلِ الثَّاني .

مِنْ أهَمِّ هَـٰذِه النَّظَريَّـاتِ [1] :

١ ـ إظْهارُ العاطِفَةِ وإعْلَانُ الحُبِّ .

٢ ـ غَرسُ الثِّـقَةِ بالنَّفسِ [2] وتَقديرُ الذَّاتِ .

٣ ـ الثَّـناءُ والمَدحُ الدَّائمُ للسُّـلُوكِ الإيجابيِّ .

٤ ـ اكتِشـافُ التَّمـيُّزِ والإبداعِ .

٥ ـ الدَّعمُ بالإيحاءِ ومَنحِ الألقَـابِ الإيجابيَّـة .

٦ ـ التَّشجيعُ والتَّحفِـيزُ .

٧ ـ الفَصلُ بَينَ السُّـلُوكِ السَّلبيِّ والشَّخصِ .

٨ ـ المُصارَحَةُ وحُسنُ الاستِماعِ والإيجابيَّـةُ في الحِـوارِ .

٩ ـ اتِّخاذُ الأساليبِ والوَسائلِ المُتنوِّعَة للتَّوجيهِ والإرشَادِ والتَّأديبِ من خِلالِ المَحـبَّةِ ، وذَلكَ حَسبَ المَوقفِ والشَّخصِ ، فتارَةً بالحِوارِ والإقنَاعِ ، وتارَةً بالحِلمِ والتَّعريضِ ، وتارَةً بالتَّوجِيهِ ، وأحياناً بالتَّسامُحِ والإغْضاءِ عن الأخطاءِ والهَـفَواتِ .

---

(١) «النظريات التربوية في الكتب التربوية الحديثة» ، في بيتنا مكار ، للدكتور إبراهيم الخليفي ، مرجع سابق ، وانظر : «الحاجات النفسية للطفل الوالدية الإيجابية» ، للدكتور مصطفى أبوسعد ، مرجع سابق ، وانظر : «الأطفال المزعجون» ، للدكتور مصطفى أبوسعد ، مرجع سابق أيضاً ، وانظر : «نحو نفس مطمئنة واثقة» ، للدكتور طارق علي الحبيب ، مرجع سابق أيضاً .

(٢) «أولادنا مراهقة بلا أزمة» ، د. أكرم رضا ، ج١ ، ترويض العاطفة ، وج٢ ، فنون تربوية ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط١ ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م ، ١/ ٢١٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ و٢/ ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

١٠ ـ التَّوجيهُ غَيرُ المُباشر من المُرَبِّي من خِلالِ المُمارسَةِ العَمليَّـةِ للسُّلُوكِ الإيجابيِّ ، فذَلكَ أعمَقُ أثراً في النَّفسِ من الكَلامِ النَّظَـريِّ في زَرعِ القِيَمِ والمُـثُلِ والسُّلُوكِ الحَسَنِ .

وقد وَظَّفَ الرَّسُولُ ﷺ تلكَ النَّظريَّاتِ توظيفًا رائعاً للوُصُولِ إلَىٰ الأهدافِ التَّربَويَّة التَّاليَةِ :

١ ـ تَغييرُ السُّلوكِ السَّلبيِّ .

٢ ـ تَعزيزُ السُّلوكِ الإيجابيِّ .

٣ ـ تَحلِّي النَّفسِ بالفَضائلِ .

٤ ـ اكتِشافُ الإبداعِ والتَّمَـيُّزِ والمَواهِب وتَنميتُها والتَّشجيعُ عَليها ، استِعداداً للحَياةِ ومُتطَلَّباتِها .

وإنَّ أبرزَ ما يَلحظُه الدَّارِسُ لأُسلُوبِ الرَّسُولِ ﷺ في التَّوجيهِ والتَّربيَـةِ بالحُبِّ في كُلِّ مَواقِفِه التَّربَويَّةِ ـ لتُؤتي التَّربيَةُ ثِمارَها ـ ما يَلي :

١ ـ **الرِّفقُ واللِّينُ** : شَهدَ اللّـهُ للرَّسُولِ المُربِّي من عَليائه بسَماحَتِه وعَدَمِ فَظاظَتِه ﷺ ، فقَالَ تعالَىٰ : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾** ﴾ (١) ، وفي آيَةٍ أُخرَىٰ يَقُولُ تعالَىٰ : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (٢) . فإذا لَـمْ يَشعُر المُتلقِّي أنَّ مُربِّيهِ يُحِبُّه ، ويُحِبُّ لَه الخَيرَ ،

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .

فلَنْ يقبلَ التَّلقِّي رَغمَ أنَّكَ تُحبُّ له الخَيرَ ، ولكِنْ طَريقَتكَ تُوهِمُه أنَّكَ تكرَهُه ، وتُشكِّكُه في حُبِّكَ له ، وأنَّ توجيهاتِكَ صادِرَةٌ عن البُغضِ لا عن الحُبِّ ، لأنَّكَ تُقدِّمُها له في صُورةٍ فَظَّةٍ لا رِفْقَ فيها ولا لِينَ (١) .

٢ ـ **البُعدُ عن المِثاليَّـةِ غَيرِ الواقِعيَّـةِ** : حَيثُ كَانَ ﷺ يَتعاهَدُ مَنْ يُعلِّمُهُم ويُرَبِّيهم ، ويَعرِفُ احتياجاتِهم ويَرفُقُ بهم ، ولا يُهمِلُ النَّوازِعَ الإنسانيَّـةَ ، ولا يَتعامَلُ مَع مَنْ يُرَبِّيهم عَلَىٰ أنَّهم مَلائكَةٌ ، بَلْ هُم بَشَرٌ من البَشَرِ (٢) .

٣ ـ **اكتِشافُ المَواهِبِ وتَنميَتُها** (٣) : لقد أدركَ المُصطفَىٰ ما عِندَ شَبابِ الصَّحابَة من المَواهِبِ والاستِعداداتِ ، فعَمِلَ عَلَىٰ تنميتِها وتَوجيهِها ، وفَجَّرَ الطَّاقاتِ والمُؤهِّلاتِ ، ووَظَّفَها في مَكانِها المُناسِب ، فقد اكتَشفَ عِندَ زَيدِ بنِ ثابت رضي الله عنه عِدَّةَ مَواهِب منها الدِّقَّـةُ في كِتابَة العِلم (٤) ، فكَانَ أحَدَ كُتَّابِ الوَحي ، وسُرعَةَ الحِفظِ ، فطَلبَ ﷺ منه تعَلُّمَ لُغةِ يَهُودٍ ، فتعَلَّمَها رضي الله عنه في خَمسَة عشَرَ يوماً (٥) .

كَما نُلاحِظُ العِنايَةَ النَّبَـويَّةَ بتكوينِ الفَردِ وعَدمِ الاكتِفاءِ بالتَّوجيهِ الجَماعيِّ ؛ لأنَّ التَّربيَـةَ البَنَّـاءَة في تكوينِ الجيلِ الصَّالحِ هي التي تَبني الأفْرادَ فَرداً فَرداً ، فصَلاحُ الجَماعاتِ الكُبرَىٰ إنَّما هو بصَلاحِ الأفرادِ الذين تتكَوَّنُ منهم كَالبُنيانِ ، فإنَّ قُـوَّتَه بقُـوَّةِ أساسِه ولَبِـناتِه (٦) .

---

(١) «منهج التربية الإسلامية» ، محمد قطب ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٥-٤٦ .

(٢) «نحو تربية إسلامية راشدة» ، محمد بن شاكر الشريف ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

(٣) «المعلم الداعية» ، عبد الرحمن بن محمد الفارس ، دار القاسم - الرياض ، ط١ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ص ٧٣ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٥) «الرسول المعلم» ، للشيخ عبد الفتاح أبوغدة ، ص ٢١٥ ، وانظر الحديث في «صحيح البخاري» كتاب الأحكام ، باب ترجمة الحكام ، ص ١٢٧٨ ، رقم الحديث : ٧١٩٥ .

(٦) «عظمة محمد ﷺ خاتم رسل اللّـه» ، مصطفى أحمد الزرقا ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

٤ ـ حُسنُ اغْتِنام الفُرَص التَّربَويَّة ، والظُّروفِ المُناسِبةِ التي يَكُونُ فيها التَّوجيهُ والمَوعِظَةُ والتَّوعيَةُ أبلَغُ ، والاستِعدادُ النَّفسيُّ للتَّلقِّي أكبَرُ ، فإنَّ ما يُلقَىٰ من التَّربيَـةِ والتَّوجيهِ في المُناسَباتِ والظُّروفِ المُلائمَةِ يَكُونُ فيه التَّلقِّي والتَّقبُّلُ أكثَرُ (١) ، وما صُنعَ هَـٰذا المَجدُ للأُمَّةِ إلَّا لأنَّ مَنْ قَامَ بعَمليَّةِ التَّربيَـةِ والتَّزكيَـةِ لِهَـٰذه المجمُوعاتِ الفَريدَةِ التي لا تَتجاوَزُ الأربعمائة فَرد إلَّا المُعلِّمُ والمُربِّي رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ . فتِلكَ النَّماذجُ المُعلِّمَةُ الهاديَةُ التي شاهَدَتها البَشريَّةُ بَعدَ الرَّسُولِ المُرشِدِ المُعلِّم لَتدُلُّ أقوَىٰ دِلالَةٍ عَلَىٰ عِظَمِ هَـٰذا المُعلِّمِ المُربِّي الكَبيرِ ، فأيُّ مُعلِّمٍ مِنْ المُربِّينَ تَخرَّجَ عَلَىٰ يدَيْه عَددٌ أوْفَرَ وأهْدَىٰ من هَـٰذا الرَّسُولِ الكَريمِ ، الذي خَرَّجَ هَؤُلاءِ الأصحابِ!

أنْجبَت للدِّينِ أُمِّيينَ ما دَرسُوا بالعِلمِ سادُوا مُلُوكَ العَرَبِ والعَجَمِ .

فكَيفَ كَانُوا قَبلَه وكَيفَ صَارُوا بَعدَه؟ إنَّ كُلَّ واحدٍ مِنهُم دَليلٌ ناطِقٌ عَلَىٰ عِظَمِ هَـٰذا المُربِّي الفَريدِ الأوْحَدِ (٢) ، الذي لَـمْ يَكُنْ مِثلُه أو يُدانيهِ أيُّ عَظيمٍ من عُظَماءِ التَّاريخ البَشريِّ ، فقَد رَبَّىٰ جِيلاً قياديَّـاً مُنقَطِعَ النَّظيرِ في مُقَوِّماتِ الدَّعوَةِ والتَّضحيَةِ في سَبيلِها ، وإيصالِـها إلَىٰ أجْيالٍ قياديَّـةٍ مُتعاقِبَة تَشعُر بمَسؤوليَّـتِها عَنها (٣) .

ممَّا سَبقَ عَرضُه من النَّهجِ التَّربَويِّ للهَدي النَّبـويِّ ، نَتلمَّسُ قَواعِدَ تَربَويَّة فعَّالَة للمُربِّي النَّاجِحِ الإيجابي الفَعَّالِ في العَصرِ الحَديثِ ، هي :

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٥٦-٥٧ .

(٢) «نبي الهدى والرحمة» ، للبيانوني ، مرجع سابق ، ص ١٦٣ .

(٣) «عظمة محمد ﷺ خاتم رسل اللَّـه» ، مصطفى أحمد الزرقا ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

١ ـ لُزومُ صُورَةٍ ذِهنيَّة إيجابيَّة ـ ضَرورَةٌ تَربَويَّة ـ في أذْهانِ مَنْ يُحيطُونَ بِه .
٢ ـ أنْ يَكُونَ المُرَبِّي مَحبُوباً أخلاقيّاً ، ناجِحاً في حَياتِه .
٣ ـ يَحترِمُ الآخرينَ ويُقدِّرُهم ويَتعامَلُ مَعهُم بأدَبٍ .
٤ ـ يُنصِتُ إلَيهم جَيِّداً .
٥ ـ أنْ يَكُونَ مُبتَسِمَ الوَجهِ ليُعَـبِّرَ عن حُـبِّه .
٦ ـ أنْ يُشَجِّعَ ويَمدَحَ ويَدعَمَ مَنْ يُربِّيهِم .
٧ ـ أنْ تكُونَ لَه لَـمسَةُ حَنانٍ فيهِم .
٨ ـ أنْ يُحاوِرَهم فلا يَنصَحُهُم ولا يَعِظُهم .
٩ ـ أنْ يَصبِرَ عَلَيهم فإنَّ الصَّبرَ في التَّعامُلِ يُؤتي أُكُلَه بَعدَ حِينٍ .
١٠ ـ عَدمُ تَصَيُّد الأخطاءِ ، والصَّبرُ في مُعالَجتِها .
١١ ـ أنْ يكُونَ مُلتَزماً بالقَوانينِ والقَواعِدِ .

فكُلُّ ذَلكَ يُفضي إلَىٰ الإعجابِ بالمُرَبِّي ، وهو الطَّريقُ المِثاليُّ للوُصُولِ إلَىٰ مَحبَّتِه ، فعِندَما يُعجَبُ المُتربِّي بالمُربِّي يُحِبُّه حُبّاً عَميقاً ، هَـٰذا الحُبُّ العَميقُ يُؤدِّي إلَىٰ التَّقليدِ ، وبالتَّالي تكُونُ القُدوَةُ الحَسنَةُ . فالحُبُّ يَعني التَّقليدَ ، والتَّقليدُ يَعني وُجودَ القُدوَة ، والقُدوَةُ الرَّاسِخَةُ هي التي تَجعَلُ الإنسانَ يَفعَلُ في سِـرِّه كَما في عَلانيَـتِه ، ويَحترِمُ القَوانينَ والقَواعِدَ .

هَـٰذا ما كَانَ من بَعضِ نَهجِه ﷺ في بَيتِه زَوْجاً وأباً ، ومع أصحابِه في تَربيَةِ الرَّعيلِ الأوَّلِ ، وسَيبقَىٰ هَـٰذا النَّهجُ لِـمَنْ اهتدَىٰ بهَديه إلَىٰ يَوم الدِّينِ في كُلِّ وَقتٍ وحِينٍ إلَىٰ أنْ نَصلَ إلَىٰ نَهضَةٍ شَامِلَةٍ وحضَارَةٍ مُتكامِلَةٍ من خِلالِ التَّربيَـةِ النَّبَـويَّةِ بالحُبِّ .

المطلَبُ السَّـابِع

الرَّسُولُ العَطُوفُ عَلَىٰ المَخلُوقَاتِ

لقد شَملَت رَحمَةُ الرَّسُولِ ﷺ وشَفقَتُه العَالَمينَ ، وفاضَت لتَصِلَ إلَىٰ المَخلُوقاتِ الأُخرَىٰ من حَيواناتٍ وجَماداتٍ .

فقَد كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ رَحيماً رَفيقاً بالحَيواناتِ والبَهائم ، تَمرُّ به القِطَّةُ فيُصغِي الإناءَ لها لتَشرَبَ (١) ، لَـمْ يَضربْ أَحداً منها قَطُّ ، بلْ كَانَ يَرفُقُ بها ، ويُوصي بها خَيراً ، فأَحَـبَّتهُ جَميعُها لشِدَّةِ عَطفِه ورِفقِه وحَنانِه . وهَـٰذه سِيرَتُه العَطِرَةُ مَليئةٌ بالمَشاهِد الدَّالَّةِ عَلَىٰ ذلكَ .

تُحدِّثُنا السَّـيِّدَةُ عائشَةُ رضي الله عنها فتَقُولُ : أَنَّها كَانَت عَلَىٰ بَعيرٍ فيه صُعوبَةٌ ، وجَعَلَت تُردِّدُه ، فأَوْصاها ﷺ الرِّفقَ به قائلاً لها : «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، ولا يُنزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**» (٢) .

كَما كَانَ ﷺ يُوصي بالرِّفقِ بالبَهائم حِينَ استِخدامِها ، وأَنْ لا يُتابَعَ السَّيرُ عَليها مُتابَعةً تُرهِقُها تَعباً وكَدّاً ، بقَولِه ﷺ : «**إِذَا سَافَرْتُمْ بِالخَصْبِ فَأَعْطُوا الإِبِلَ حَظَّهَا مِنْ الأَرْضِ**» (٣) .

(١) «سنن النسائي» ، لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي ، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليها العلامة المحدث ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض ، الطبعة الأولى ، كتاب الطهارة ، سؤر القطة ، ص ١٩ ، الحديث : ٦٨ .

(٢) انظر : الحديث في «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، باب الرفق ، ص ٢٦٣ ، رقم الحديث : ٤٦٩ ، وانظر : «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، فصل في الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق ، ص ٨٦ .

(٣) رواه مسلم ، ج٣ ، كتاب الإمارة : باب مراعاة مصلحة الدواب في السير ، ص ١٥٢٥ ، رقم الحديث : ١٩٢٦ .

ونَهَىٰ عن إرهاقِ الحَيواناتِ بإيقافِها وإطالَةِ الجُلوسِ عَلَيها ، وجَعْلِ تِلكَ البَهائمَ كَراسيَّ للأحاديثِ في الطُّرُقِ والأسْواقِ من غَيرِ ضَرورَةٍ (١) .

ونَهَىٰ عن وَسمِها أو التَّمثِيلِ بها ، وأنْ لا نَجعَلَها غَرَضاً للعَبَثِ والتَّسليَةِ والرَّمي ، ولَعنَ مَنْ يَفعَلُ ذَلكَ تَقبيحاً لهَٰذا الأَمرِ (٢) .

وحذَّرَ ﷺ أيضاً من القَسوَةِ عَلَىٰ البَهائمِ وتَعذيبِها وأذيَّتِها ، وأنَّ جزاءَ مَنْ يَفعَلُ ذَلكَ عَذابٌ في النَّارِ ، فقَالَ ﷺ : «**عُذِّبَت امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا ولَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا ، ولا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**» (٣) .

ودَخلَ ﷺ مَرَّةً حائطاً (٤) لرَجُلٍ من الأنصارِ (٥) ، فلمَّـا رَأَىٰ الجَملُ النَّبيَّ ﷺ سَرَتْ رَحمَةُ الرَّسُولِ وشِـدَّةُ شَفقَتِه إلَىٰ ذاكَ الجَملِ ، فجاءَ يَمشي إلَيه ، وجَلسَ مُستَغيثاً يَئِنُّ بَينَ يَدَيه ، وذَرفَتْ عَيناهُ يَشتَكِي إلَىٰ القَلبِ الرَّحيمِ الحَنُونِ أصحابَه وإرهاقَهم لَه ، وكَثرَةَ العَملِ وقِلَّةَ العَلَفِ ، وأنَّهم أخَذُوهُ

(١) «محمد الإنسان الكامل» ، السيد علوي المالكي ، مرجع سابق ، انظر : رحمته بالحيوان ، ص ١٤٠ .

(٢) «صحيح البخاري» ، كتاب الذبائح والصيد : باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة ، ص ١٠١١-١٠١٢ ، أرقام الأحاديث الواردة في ذلك : ٥٥١٣ ، ٥٥١٤ ، ٥٥١٥ ، ٥٥١٦ .

(٣) «صحيح البخاري» ، كتاب الأنبياء ، باب -٥٤- ص ٦١٧ ، رقم الحديث : ٣٤٨٢ .

(٤) بُستانا .

(٥) «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق شرف المصطفىٰ ﷺ» ، مرجع سابق ، ج٣ ، فصل في آياته مع الحيوانات وما في طاعتها له وانقيادها له مع الدلائل ، ص ٤١٦ ، وانظر : «حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النَّبيِّ المختار ﷺ» ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ ، وانظر : «محمد الإنسان الكامل» ، مرجع سابق ، رحمته بالحيوان ، ص ١٤٠ ، وكتاب «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، فصل في الآيات في ضروب الحيوانات ، ص ١٩٠ .

فَصِيلاً صَغيراً يَخدِمُهم حتَّىٰ بَلغَ من السِّنِّ ، ثُمَّ أرادُوا ذَبحَهُ . فسَمعَ ﷺ لشِكَايَتِه ، وهَدَّأ من رَوعِه ، ومَسحَ ذِفراهُ [1] فسكتَ ، ثُمَّ قَامَ ﷺ ، وأَوْصَىٰ أصحابَه بِه رَحمَةً وخيراً ، وما كَانَت شَفاعَةُ الرَّسُولِ لِتُردَّ ، بَلْ تُقبِّلَت بقبُولٍ حَسنٍ ، فسَرَّحَه أصحابُه إكْراماً للرَّسُولِ ﷺ يرتَعُ حيثُ يَشاءُ .

وفي مَرَّةٍ أُخرَىٰ حيثُ كَانَ ﷺ في سَفرٍ مع أصحابِه ، فوَجَدَ أصحابُه حُمَّرَةً [2] مَعها بيضُها ، فأخذَ رَجلٌ البَيضَ ، فجَاءَت الحُمَّرةُ وجَعلَتْ تَرِفُّ عَلَىٰ رَأسِ الرَّسُولِ ﷺ ، فرَقَّ لها رِقَّةً شَديدَةً لِـما رَأىٰ من حالها ، وقَالَ بقلبٍ تَغمُرُه الشَّفقَةُ والرَّحمَةُ لها : «**أَيُّكُمْ فَجعَ هَـٰذِه بِبَيْضَتِها؟**» فقَالَ رَجُلٌ يا رَسُولَ اللَّـهِ أنا أخذتُ بيضَتَها! فقَالَ النَّبيُّ ﷺ : «**ارْدُدْهُ رَحْـمَـةً لَـهَا**» [3] .

فمَع أنَّ هَـٰذه الحُمّرةَ طائرٌ صَغيرٌ لا يُساوي شَيئاً أمامَ هَـٰذا العالَـمِ الكَبيرِ! وأمَامَ مَسؤُوليّاتِ النَّبيِّ ﷺ الكَثيرَةِ! لكنَّها دَعوَةٌ من الرَّسُولِ للإحسَانِ إلَىٰ تلكَ المَخلُوقاتِ الضَّعيفَةِ ورَحمَتِها ، فقَد أحسَّ ﷺ بمَشاعِرها وقَدَّرَ لها لَهفَتَها ، ولَـمْ يَرضَ أنْ يَدخُلَ عَليها الحُزنُ بفَجيعَتِها ، بل أرادَ لها أنْ تَبقَىٰ في فَرحٍ وسُرورٍ . إنَّها النَّفسُ المَطبُوعَةُ عَلَىٰ الحُبِّ والرَّأفَةِ والشَّفقَةِ والرَّحمَةِ .

وقد أوْصَىٰ ﷺ بالرِّفقِ حِينَ ذَبحِ الحَيوانِ ، فقَالَ ﷺ : «**إنَّ اللَّـهَ كَتَبَ الإحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ فَإذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ ، وإذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا**

(١) موضع أُذنَيه من مؤخِّرة رأسِه .
(٢) طائر صغير كالعصفور .
(٣) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، مرجع سابق ، باب أخذ البيض من الحمّرة ، ص ٢١٧ ، رقم : ٣٨٢ .

الذَّبحَ ، ولْيُحِدَّ أحدُكُم شفرَتَه ، فَلْيُرِحْ ذَبيحَتَهُ» (١) ، كما استنكرَ ﷺ فِعلَ مَنْ أضْجعَ شاةً وهو يُحِدُّ شَفرَتَه أمامَها ، وهي تَلحَظُ إليه ببَصرِها ، فقالَ لَه : **«أتُريدُ أنْ تُميتَها مَوْتَتَينِ!؟ هَلَّا حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبلَ أنْ تُضْجِعَها!؟»** (٢) .

ممَّا سَبقَ من نَهجِ النَّبيِّ ﷺ في الرِّفقِ بالحَيواناتِ والبَهائمِ ، نَجدُ أنَّه ﷺ قَد سَنَّ حُقُوقًا لها لَـمْ تكُنْ مَألُوفَةً أو تُذكَرُ في ذَلكَ العَصرِ ، منها :

١ ـ حُسنُ رِعايَتِها ، كَما كَانَ ﷺ يُصغِي الإناءَ للهِرَّةِ لتَشرَبَ .

٢ ـ عَدمُ أذيَّتِها بالوَسْمِ .

٣ ـ حِمايَتُها والبُعدُ عن القَسوَةِ والعُنفِ مَعها ، فقَد نَهىٰ الرَّسُولُ ﷺ عن اتِّخاذِها هَدَفاً ومَرمَىً من أجلِ العَبثِ والتَّسليَةِ .

٤ ـ عَدمُ حَجرِ الطَّعامِ والشَّرابِ عَنها ، كَما في قِصَّةِ المَرأةِ التي حَبسَت هِرَّةً عن الطَّعامِ والشَّرابِ حَتَّىٰ ماتَت فدَخلَت النَّارَ .

٥ ـ رَفعُ الظُّلمِ عَنها ، كَما في قِصَّةِ الجَملِ .

٦ ـ الشَّفقَةُ عليها ، وعَلَىٰ الضَّعيفِ منها خاصَّةً ، كَما في قِصَّة الحُمَّرة .

٧ ـ الدَّعوَةُ إلَىٰ الرَّحمَة والرِّفقِ بالحَيواناتِ والبَهائمِ جَميعِها والإحسانُ إليها ، في حياتها بعَدمِ إرهاقِها ، والرِّفقُ بها عند ذَبحِها بحَدِّ الشَّفرَةِ جَيِّداً ، دون أنْ تَشهَدَ البَهيمَةُ ذَلك ، فهَـٰذا يُخفِّفُ ألَـمَ الحَيوانِ عندَ الذَّبحِ .

---

(١) رواه مسلم ، ج٣ ، كتاب الصيد والذبائح باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة ، ص ١٥٤٨ ، رقم الحديث : ١٩٥٥ .

(٢) «الترغيب والترهيب» ، الحافظ المنذري ، مرجع سابق ، ج٢ ، ما جاء في الأمر بتحسين القتلة والذبحة ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، رقم الحديث : ٢ .

إنَّ مِمَّا تَأسَفُ له القُلُوبُ في العَصرِ الحالي ، أنْ تُؤَسَّسَ جمعيَّاتُ الرِّفقِ بالحَيوانِ في بلادِ الغَربِ ، ويَرتَفعَ صَوتُ الدَّعوَةِ إلَىٰ الرَّحمَةِ بها أكثرَ مِمَّا يرتَفعُ في بلادِ الإسلامِ ، فتوهَّمَ مَنْ توهَّمَ أنَّ أولئك هم أوَّلُ مَنْ اختُصُّوا بذَلكَ وإليهم يَرجعُ الفَضلُ ، وما عَلِموا أنَّ الرَّسُولَ ﷺ هو أوَّلُ مَنْ وَضعَ مَبدأَ الرِّفقِ بالحَيوانِ ، وأسَّسَ له حُقوقاً عَلَىٰ أحسَنِ ما يُمكِنُ قَبلَ أكثرَ من ١٤٠٠عام! ، ولَفتَ انتباهَنا إلَىٰ أنَّ الإحسَانَ إلَيها والشَّفقَةَ عَلَيها والرِّفقَ بها هو من صَميمِ العِبادَةِ والتَّقرُّبِ إلَىٰ اللَّـهِ سُبحانَه ، فقد قَالَ ﷺ : «**في كُلِّ ذاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْـرٌ**» (١) .

وأخبَرنا ﷺ أنَّ اللَّـهَ جَلَّ وعَلَا غَفرَ لبَغِـيَّةٍ من بَغايا بَني إسرائيلَ ولرَجُلٍ أيضاً بِشَربةِ ماءٍ لكَلبٍ يَلهَثُ ، يَكادُ أنْ يَمُوتَ من شِدَّةِ العَطشِ ، فأوْجَبَ اللَّـهُ برَحمَتِه لهما الجَـنَّةَ (٢) ، برَحمَتِهما ذَاكَ الكَلبَ الذي أعْياهُ العَطشُ ، وكَادَ أنْ يَفتِكَ به .

هكَذا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُوصي دائماً الرَّحمَةَ بالبَهائم ، ويَنهَىٰ أنْ يُجيعَها أصحابُها ، أو يُدئبوها ، ويُتعِبُوها بإدامَةِ الحَملِ عليها ، أو إثْقالِها ، أو إرْهاقِها بكُلِّ ما فيه نَوع من التَّعذيبِ لها .

فالرَّحمَةُ من أَنبَلِ الصِّفاتِ الإنسانيَّة ، يَنبَغي لكُلِّ إنسانٍ أنْ يَلتزِمَها فهي جُزءٌ لا يَتجزَّأ منها . وهي كَمالٌ في الطَّبيعَة البَشريَّة ، تَجعَلُ المَرءَ يَرِقُّ لآلامِ

(١) «صحيح البخاري» ، كتاب الأدب ، ص ١٠٨٣- ١٠٨٤ ، رقم الحديث : ٦٠٠٨ .

(٢) انظر : حديث المرأة الزانية التي غفر اللّـه لها ، وحديث الرجل في : «صحيح البخاري» ، كتاب الأنبياء : باب -٥٤- ص ٦١٤ ، رقم ٣٤٦٧ ، وكتاب الأدب ، ص ١٠٨٤ ، رقم الحديث : ٦٠٠٩ .

الخَلقِ ، ويَسعَىٰ لإزالَتِها . وعِندَما يَفقِدُ المَرءُ الرَّحمَةَ يَفقِدُ إنسانيَّـتَه وفِطرَتَه ، لتَحلَّ القَسوَةُ مَكانَها ، ويَتبلَّدُ الشُّعورُ والإحساسُ عندَه . قالَ ﷺ : «**ارْحَـمُوا تُرْحَـمُوا..**» ، وفي حَديثٍ آخَر : «**مَنْ رَحِمَ وَلَوْ ذَبِيحَةً رَحِمَهُ اللَّـهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١) .

كَما شَملَت رَحمَتُه وعَطفُه ﷺ الجَمادات فأحَبَّتْهُ ، وأحَسَّ نَبضَ حُبِّها لَه ، فقَد كانَ يَستَنِدُ إلىٰ جِذْعِ حِينَ يَخطُبُ بالنَّاسِ ، فلمَّـا كثُرَ النَّاسُ اتَّخذَ مِنبَراً ، فلمَّـا صَعدَه سَمعَ لِذَاكَ الجِذْعِ أنيناً كَحنينِ النَّاقَة إذا فقَدَت وَلَدَها ، وارتَجَّ المَسجِدُ لبُكاءِ النَّاسِ لِـما رَأوا من ذَاكَ الجِذعِ ، ثُمَّ تَصدَّعَ وانشَقَّ ، فنَزلَ إلَيه ﷺ والتَزمَهُ واحتَضنَهُ فسَكنَ . وأخبرَ ﷺ أنَّه لَوْ لَـمْ يَلتَزِمْه لَـمْ يَزَلْ هكَذا إلىٰ يومِ القِيامَة تحَزُّناً علَىٰ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ(٢) .

فإنْ كَانَ سُلُوكُه ورَحمَتُه هكَذا بالحَيوانات والجَمادات! فكَيفَ ـ وهو رَسُولُ الإنسانيَّة ـ رَحمَتُه بالإنسانِ الذي كَرَّمَه اللَّـهُ تَعالَىٰ وجَعلَه خَليفَتَه في الأرضِ؟!

حَقاً إنَّ هَـٰذا الرَّسُولَ العَظيمَ الذي منَّ اللَّـهُ به عَلينا هو الرَّحمَـةُ المُهْداةُ للعَالَـمين .

---

(١) «رش البرد شرح الأدب المفرد» ، د. محمد لقمان السلفي ، مرجع سابق ، الحديثين باب رحمة البهائم ، ص ٢١٦-٢١٧ ، رقم ٣٨٠-٣٨١ .

(٢) «الشفا» ، للقاضي عياض ، مرجع سابق ، ص ١٨٥-١٨٦ ، وانظر : «مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق شرف المصطفىٰ ﷺ» ، مرجع سابق ، ج٢ ، انظر باب الآيات في تكليم الأحجار وإطاعة الأشجار وسائر الجمادات له ﷺ ، ص ٣٩٣ ، رقم الحديث : ١١٢٨ .

المطلَبُ الثَّـامِن
الرَّسُولُ القُدوَة

أهمـيَّة القُدوَةِ في حـياتنا :

إنَّ التَّربيَـةَ بالقُدوَةِ لها أثَرٌ عَظيمٌ في التَّأثيرِ ، كَما أنَّها من أنجَحِ الوَسائلِ التَّربَويَّةِ ، فهي الصُّورَةُ الحَـيَّةُ للفِكرَةِ ، والتَّطبيقُ العَمليُّ والتَّوضيحُ الجَليُّ ، وهي من أعظَمِ أسبابِ بَذرِ المحبَّـةِ في القُلوبِ ووُجُودِ القَناعَة في العُقُولِ (١) .

فوُجُودُ القُدوَةِ الحسَنَةِ في الحَياةِ ضَرُورَةٌ لا بُدَّ منها ، ليَحتَذي بها الإنسانُ ، ويَكتَسبُ منها المَعالِـم الإيجابيَّـة لحَركَتِه في الحَياةِ ، سَواءٌ مع اللَّـهِ تَعالَىٰ في أداءِ العِباداتِ والفَرائضِ ، أو مع النَّفسِ وتَزكيَتِها وتَربيَتِها وتَدريبِها عَلَىٰ الأخلَاقِ الفاضِلَة ، أو مع الأهلِ والأبناءِ داخلَ الأُسرَةِ من أجلِ بناءِ أُسرَةٍ مُتماسِكَةٍ ، أو مع المجتمَعِ من حَولِه .

ورَسُولُنا ﷺ هو إمَامُ الدُّعاةِ ، وهو القُدوَةُ والأُسوَةُ والدَّاعيَةُ المُعلِّمُ ، الذي أمَرَ اللَّـهُ تَبارَكَ وتَعالَىٰ باقتِفاءِ نَهجِه ، وأنْ نَقتَدي به في عِبادَتِنا ودَعوَتِنا وخُلُقِنا وتَربيَـتِنا وسُلُوكِنا ومُعـامَلاتِنا وجَميعِ أمُورِ حَـياتِنا ، قَالَ تَعالَىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٢) .

---

(١) «مقومات الداعية الناجح» ، د. علي بادحدح ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

إنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ قُدوَةٌ لَنا بِفِعلِه وسُلُوكِه ونَهجِه ، فهُو الرَّسُولُ المُربِّي والهادي المُرشِد ، والمزكِّي المُعلِّمُ ، قَالَ جَلَّ وعَلَا : ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [(١)] .

فتكامُلُ شَخصيَّةِ النَّبيِّ ﷺ أُسلُوبُ تَربيَةٍ للمُربِّينَ ، وهَدىً للمُستَرشِدين ، بأنْ يَكُونُوا كَمثلِه ، وأنْ يَنتَهجُوا هَديَه في التَّربيَـةِ والتَّوجيه . وفي ظِلِّ المُتغيِّراتِ التي تُواجهُ المُسلِمَ المُربِّي المُعاصِر ، تُصبحُ العَودَةُ إلَىٰ القُدوَةِ النَّبـوِيَّةِ ضَرُورَةً لإعادَةِ صِياغَةِ حَياةِ المُسلِم في عَلاقاتِه الخاصَّة ، وفي تَعامُلِه وتَفاعُلِه مع كُلِّ مُجرَياتِ العَصرِ .

إنَّ دِراسَةَ الهَدي النَّبَـويِّ في تَربيَـةِ الفَردِ وإصلَاحِ الأُمَّة ، تُساعِدُ التَّربَويِّينَ والدُّعاةَ عَلَىٰ مَعرفَةِ الطَّريقِ الذي فيه عِزُّ الإسلَامِ والمُسلِمينَ ، وتَعرِّفُهُم فِقهَ النَّبيِّ ﷺ في تَربيَةِ الأفرادِ ، وبناءِ مُجتمَع ، وإقامَةِ دَولَةٍ ، وإحياءِ أُمَّةٍ ، كما يَتعرَّفُونَ كَذلكَ عَلَىٰ الأساليبِ النَّبَـويَّةِ التَّربَويَّةِ في تَنشِئةِ الأفرادِ وصَلاحِهم وإصْلاحِهم ، وكَيفَ كَانَت قُدرَةُ النَّبيِّ ﷺ هائلَةً في استيعابِ أنْماطٍ شَتَّىٰ ومُختلفَة من البَشَـر ، فقد أَحَبَّه أُناسٌ بَينَهم من التَّفاوُتِ في المِزاجِ والخِصالِ ما بَينَ أبي بَكْرٍ ، وعُمَرَ ، وعُثمانَ ، وخَالِدَ ، وأبي عُبيدَة ، فاجتمَعُوا عَلَىٰ حُبِّه ، وكَانَ قُدوَةً لهم ، عَلَىٰ الرَّغمِ من اختِلافِ طَبعائهِم ومَشارِبهم . فكَانَ القُدوَةَ حَقًّا في التِفافِ القُلُوبِ جَميعِها حَولَه .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٤ .

وبتَربيَـةِ الرَّسُولِ ﷺ الفَذَّةَ لهم صارُوا من عُظَماءِ الرِّجالِ . فأيُّ مُرَبٍّ أثَّرَ في البَشَـريَّةِ تأثيرَه!

فقد كَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يَعيشُ مع النَّاسِ ، ولا يَحتَجبُ عَنهُم ، يَختلِطُ بهم ، ويَختلِطُونَ به صَباحَ مَساءَ في المَسجِد ، وفي السُّوق ، فرَأَوْهُ في جَميعِ أحوالِه البَشَريَّة ، في الغَضَبِ والرِّضا ، والفَرحِ والحُزنِ ، بلا تَكلُّفٍ ولا تَصنُّعٍ ، وعَرفُوا أخْلاقَه ، فما رَأَوْا فيها إلَّا كُلَّ خَيرٍ وفَضيلَةٍ وكَمالٍ ، ومَحبَّةٍ وشَفقَةٍ ورَحمَةٍ في كُلِّ آنٍ [1] . فكَانَ مِثالًا للرَّحمَةِ في كُلِّ صِلَةٍ من صِلاتِه ، حَيثُ تتجَسَّدُ جَوانِبُ العَظمَةِ فيها ، حَتَّىٰ صارَت مِثالًا يُحتَذىٰ بها .

فالزَّوجُ لَه في رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ أُسوَةٌ حَسنَةٌ ، كَيفَ كَانَ زَوْجاً وَدُوداً وَفِـيَّاً يَرفُقُ بأزْواجِه ، ويُعينُهُنَّ ويَعدِلُ بَينَهُنَّ .

والأبُ المُربِّي له في رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ أُسوَةٌ حَسنَةٌ ، بحَنانِه وعَطفِه وتَربيَتِه المُثلَىٰ التي تَقطُرُ حَناناً ورِقَّةً وعَطفاً لأوْلادِه وأوْلادِ أصحابِه ﷺ .

والقائدُ المُنتَصِرُ والفاتحُ الغالِبُ له في رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ أُسوَةٌ حَسَنةٌ أيضاً ، فقد أَدهَشَ ﷺ العَالَـمَ بعَظمَةِ تَعامُلِه مع أعدائه ، ورَحمَتِه وعَفوِه مع القُدرَةِ عَلَىٰ الانتِقامِ ، فاستَلَّ من قُلُوبِهم الحِقدَ والحَسدَ ، وأقبَلُوا إلَىٰ دينِه ودَعوَتِه مُسلِمينَ مُستَجيبينَ ، وانقَلبَ خُصُومُ الأمْسِ إلَىٰ أتْباعٍ أوْفياءَ .

والمُعلِّمُ المُربِّي المُرشِدُ يَقتَدي أيضاً برِفقِ النَّبيِّ ﷺ ورَحمَتِه ، وحِلمِه وصَبرِه عَلَىٰ جَهلِ الجاهِلِ وجَفوَةِ الجافي .

(١) «نبي الهدى والرحمة» ، الدكتور عبد المجيد البيانوني ، مرجع سابق ، ص ٣٩٩ .

وفي العَلاقاتِ الاجتماعيَّة المُختلِفَة بَينَ النَّاسِ ، نَجدُ قُدوَتنا به ﷺ في وُدِّه ولُطفِه وأُنسِه وحِلمِه ، وإكْرامِه لجُلَسائِه وأصْحابِه ، حَتَّىٰ يظُنَّ كُلُّ واحدٍ منهم أنَّه الآثَرُ عِندَه . فلنَا في كُلِّ ذلكَ الأُسوَةُ الحسَنَةُ والقُدوَةُ المُثلَىٰ ، ولَن نَجدَ في غَيرِ سِيرَةِ المُصطَفىٰ ﷺ ما يُغني أو يُجدِي (١) . والبَشَريةُ اليَومَ ، بأمَسِّ الحاجَةِ إلَىٰ المنهَجِ السُّلوكيِّ في التَّربيَـةِ المتمَثِّل بالقُدوَةِ الحسَنةِ ، والنَّمُوذَج الحيِّ في الرَّسُولِ البشَرِ العَظيمِ .

وتتَّضحُ أهَميَّةُ مَوضُوعِ الرَّسُولِ القُدوَةِ في عَصرِنا الحالي في النِّقاطِ الآتية :

١ ـ إنَّ النَّاظرَ في الأوْساطِ التَّربَويَّةِ اليومَ يَلحَظُ نُدرَةَ القُدوَةِ الصَّالحة المؤثِّرَة في المُجتمَعاتِ الإسلاميَّة ، رَغمَ كَثرَةِ أهْلِ العِلمِ والتَّقوَىٰ والصَّلاحِ .

٢ ـ إنَّ المتأمِّلَ في خِضَمِّ الحَياةِ المُعاصِرَة يَجدُ الأمُورَ قَد اختلَطَتْ ، والشُّرورَ قد سادَت ، وأصبحَ النَّشءُ والشَّبابُ يُردِّدُونَ : نَحنُ لا نَجدُ القُدوَةَ الصَّالحةَ .

٣ ـ إنَّ كَثيراً من النَّاسِ اليَومَ بَدلاً من أن يَتَّخذُوا سِيرَةَ نَبيِّهم وقُدوَتِهم مُحمَّدٍ ﷺ تَراهُم قد انشَغلُوا بالمَشاهيرِ من المُمثِّلينَ أو اللَّاعِبينَ ، وما تَراهُم إلَّا استَبدَلُوا الذي هو أدنَىٰ بالذي هو خَير (٢) .

لقد كَانَ سُلُوكُ النَّبيِّ ﷺ نَمُوذَجاً حَيَّـاً للكَمالِ البَشريِّ والحَياةِ الصَّالحةِ الخَـيِّرَةِ (٣) ، فرَسُولُ اللَّـهِ ﷺ زَوْجاً وأباً وصاحِباً وقائداً هو مُربٍّ ، وقُدوَةٌ ،

(١) «نبي الهدى والرحمة» ، الدكتور عبد المجيد البيانوني ، مرجع سابق ، انظر : ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، بتصرف .

(٢) موقع صيد الفوائد : الرَّسُولُ ﷺ القدوة ، د. عبد اللطيف بن إبراهيم الحسين ١٩/ ١١/ ١٤٣٢هـ .

(٣) عظمة النَّبيِّ محمد النَّبيِّ ﷺ خاتم رسل اللَّـه ، مصطفى الزرقا ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .

وسَيِّدٌ ، ذُو مَقام رَفيع ، وقَلبٍ رَحيمٍ ، ونَفسٍ زَكيَّةٍ ، وأَدَبٍ جَمٍّ ، وصَبرٍ جَميلٍ ، فمِنْ حَقِّه عَلَينا أَنْ نَدرُسَ جَميع جَوانبِ حَياتِه السُّلوكيَّةِ والتَّربَويَّة لنَهتَدِيَ ونَقتَدِيَ بـ «الرَّسُولِ القُدوَةِ» ﷺ .

وما دامَ للقُدوَةِ الحَسنَةِ والتَّلازُمِ بينَ القَولِ والفِعلِ من أَهَميَّةٍ ، فلا بُدَّ لكُلِّ مُرَبٍّ أو داعِيَةٍ أو أبٍ أو مِمَّنْ هُم في عِدادِ المَسؤوليَة التَّربَويَّةِ أَنْ يَرتَقُوا إلَىٰ هَـٰذا الأُفُقِ السَّامي من الاتِّباعِ والاقتِداءِ بهَدي التَّربيَـةِ النَّبـويَّةِ ؛ لأَنَّ الاقتِداءَ هو الاهتِداءُ ، ويكُونُوا بذاتِهم قُدوَةً حَسنَةً لغَيرِهم ، وذَلكَ بتَطابُقِ أفعالِهم مع أقوالِهم . ليَأسِرُوا القُلُوبَ والعُقُولَ ، ويَنالُوا الرِّضَىٰ والقَبُولِ (١) . حِينَ ذَلكَ يُصغِي الوُجودُ لهم ، ليُعيدُوا بناءَ الحَضارَةِ الإنسانيَّةِ ، ويَقُودُوا البَشريَّةَ ، كَما قادَها الجيلُ المحمَّديُّ الرَّائدُ من قَبلُ .

فمَهما عَرفَت الإنسانيَّةُ ـ عَلَىٰ كَثرَةِ ما عَرفَت ـ في تاريخِها الطَّويلِ من رُسُلٍ ونَبيِّينَ وقادَةٍ ومُربِّينَ ، ستَظَلُّ أَبدَ الدَّهرِ تَرنُو إلَىٰ هَـٰذا النَّبيِّ المُربِّي الرَّؤُوفِ الرَّحيمِ ، الذي اصطَفاهُ اللَّـهُ تَعالَىٰ بَشَراً رَسُولاً هادِياً مُعلِّماً ورَحمَةً للعَالَمينَ ، فكَانَت بَشريَّةُ النَّبيِّ ﷺ آيَةَ عَظمَتِه ، وتَكريماً للبَشريَّةِ أجمَعين .

---

(١) «مقومات الداعية الناجح» ، د. علي بادحدح ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

الخَـــاتِـمَـة

الحَمدُ للَّـهِ الذي بنعمَتِه تَتمُّ الصَّالحاتِ ، وعَلَىٰ مِنَّتـِه وتوفيقِه : ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ (١) . اللَّهُمَّ هَـٰذا جَهدُ المُقِلِّ ، فتَقبَلهُ مِنِّي وألحِقهُ في ديوانِ المُصلِحينَ ، مِمَّنْ أرادَ اتِّباعَ سُـنَّةِ نبيِّكَ مُحمَّدٍ ﷺ فإنْ أصبتُ فمن اللَّـهِ تَعالَىٰ ولَه الحَمدُ والشُّكرُ ، وإنْ أَخطَأتُ فمن نَفسي ، فاغْفِر لي يا رَبُّ ، ولا تَحرمني من الأجرِ . هَـٰذا ما وَفَّقني اللَّـهُ تَعالَىٰ إلَيه وأَسألُه أنْ يَنفَعَ به . والحَمدُ للَّـهِ رَبِّ العَالَـمِـينَ .

فيما يَلي أهَمُّ النَّتائجِ والتَّوصِياتِ التي انتَهيْتُ إلَيها :

(١) سورة هود ، الآية : ٨٨ .

النَّـتَــائج

١ ـ الحُبُّ من أعظَمِ الآياتِ الكَونيَّة التي خَلقَها اللَّـهُ تَعالىٰ، وهو سِرٌّ من أسرارِ الوُجُودِ، به يَتحقَّقُ الكَمالُ البَشريُّ. كَما أنَّه فِطرَةٌ قَهريَّةٌ، من خِلالِه يُحفَظُ الوُجُودُ، وهو عَلاقَةٌ مُقدَّسةٌ لا تَقبَلُ الاندِثارَ.

٢ ـ الحُبُّ ضَرورَةٌ نَفسيَّةٌ يَحتاجُه الإنسانُ في مَراحلِ عُمرِه المُختلفَة، فهو كَالماءِ والهَواءِ، وهو مَشاعِرُ يُعزِّزُها السُّلوكُ، ومُؤسِّسُ الوَلاءِ والتَّضحيَةِ والعَطاءِ.

٣ ـ تَنتقِلُ العَقائدُ الخاطِئةُ بالحُبِّ، وتَترسَّخُ في عُقولِ الأبناءِ. وبِفُقدانِه تَغيبُ العَقائدُ الرَّبانيَّة عن نُفوسِ النَّاشِئة.

٤ ـ الإسلامُ يُدعِّمُ الحُبَّ ويَأمُر به، ويَعتبرُه من القُربَاتِ إلىٰ اللَّـهِ.

٥ ـ الحُبُّ أعظَمُ قُوَّةٍ دافِعَةٍ وعاطِفَةٌ مُحرِّكَةٌ للسُّلُوكِ الإنسانيِّ، وهو طاقَةٌ باعِثَةٌ فعَّالَةٌ لوْ تَمَّ تَوظيفُها في الجَوانبِ الإيجابيَّةِ، لوَلَّدَتْ طاقاتٍ هائلَةٍ في تَحقيقِ الاستِخلَافِ علَىٰ الأرضِ.

٦ ـ الحُبُّ إرثٌ نَبويٌّ، حَيثُ كَانَ سُلُوكاً راسِخاً في حَياتِه مُتأصِّلاً في فِطرَتِه ﷺ في السِّلمِ والحَربِ.

٧ ـ الحُبُّ الذي أَغدَقَتهُ السَّيِّدةُ خَديجَةُ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، كَانَ أحَدَ الأركَانِ التي ثَبَّتَتهُ في دَعوَتِه.

٨ ـ اللِّينُ والرَّأفَةُ هُما الأصلُ في التَّعامُلِ، والرَّسُولُ الإنسَانُ ﷺ غَيَّرَ التَّاريخَ بالحُبِّ والرَّحمَةِ، لا بالبَطْشِ والسَّيطرَةِ.

٩ ـ سَبقَ الرَّسُولُ ﷺ عِلمَ التَّربيَـةِ الحَديثِ في أهَمِّ نَظريَّاتِه ، كـ(الفَصلِ بَينَ السُّلُوكِ السَّلبيِّ وفاعِلِه) ، ونَظريَّاتٍ أُخرىٰ كَثيرَةٍ ذُكِرَت في ثَنايا البَحثِ .

١٠ ـ مارَسَ الرَّسُولُ ﷺ في حَياتِه جَميعَ أنْواعِ الحُبِّ : الخُلَّةُ مع اللَّـهِ ، والحُبُّ العاطِفيُّ مع أزْوَاجِه وأهْلِ بَيـتِه ، والجَذبُ العاطِفيُّ في التَّربيَـةِ والتَّعليمِ ، وغَيرُ ذلكَ كَثيرٌ .

١١ ـ عاشَ ﷺ هـٰذا الحُبَّ سُلُوكاً عَمليّاً رائعاً فاستَمتَعَ به ، وأَمتَعَ مَنْ حَولَه ، فأثَّرَ في المُسلِمِ وغَيرِ المُسلِمِ .

١٢ ـ عَلَىٰ الرَّغمِ من أنَّ الإسلَامَ هو الدِّينُ الكامِلُ ، إلَّا أنَّ الشَّخصيَّةَ المُحمَّديَّةَ المُتميِّزةَ بالحُبِّ ، كَانَت السَّبَبَ الأساسيَّ في قَبولِ الدَّعوَةِ وانتِشارِ الدِّينِ وتَثبيتِ الأصْحَابِ .

١٣ ـ مارَسَ الرَّسُولُ ﷺ الحِوارَ وفَنَّ الإصْغَاءِ بأجمَلِ صُوَرِه وأنجَحِها مع المُسلِمِ وغَيرِ المُسلِمِ ، وهما من وَسائلِ التَّربيَـةِ الحَديثَة .

١٤ ـ أبْدَعَ المَنهَجُ التَّربويُّ النَّبَـويُّ أرْوَعَ وَسائلِ ومَهاراتِ الاتِّصالِ الإنسانيِّ ، لَـمْ يَتوصَّلْ إلَىٰ بَعضِها عِلمُ الاتِّصالِ إلَّا في عَصرِنا الحَديثِ : كالابتِسامَة والتَّواصُلِ العَينيِّ .

١٥ ـ امتَلكَ ﷺ مَفاتيحَ مُميَّزَة لكَسبِ القُلُوبِ ، وتَفنَّنَ في تَوظيفِها وِفْقَ حالِ المُخاطَبِ وطَبيعَتِه ، لإصلاحِ النُّفوسِ .

١٦ ـ من ثَمراتِ التَّربيَـةِ بالحُبِّ أنَّها أنتَجَت جيلاً مُميَّزاً من الجِنسَينِ ، لَـمْ يَلِد التَّاريخُ مِثلَه ، وأَوجَدَت مُجتَمعاً حَضاريّـاً فَريداً .

١٧ ـ شَدَّتْ الشَّخصيَّةُ النَّبَـويَّـةُ بمَنهَجِها التَّربَويِّ الرَّائدِ الفَريدِ الكَثيرَ من غَيرِ المُسلِمينَ في العَصرِ النَّبَـويِّ وما بَعدَه ، واجتَذبَتهُم بقُـوَّةٍ إلَيها .

١٨ ـ كَانَ حُـبُّه ﷺ مُتوازِناً ذا ضَوابِطَ دَقيقَة ورائعَةً ، بِلَا إفْراطٍ ولا تَفريطٍ .

١٩ ـ إعلَانُ الحُبِّ يُؤدِّي إلَىٰ الطُّمأنينَة والشُّعورِ بالانتِماءِ والثِّـقَةِ بالنَّفسِ ، ويُنتِجُ الشَّخصيَّةَ الهادئَةَ المُتوازِنَةَ .

٢٠ ـ تَميَّزَ المنهَجُ النَّبَـويُّ في الحُبِّ بثَرائه المُتنَـوِّع ، فشَملَ حَياةَ الإنسانِ في ظُروفِه كافَّة ، أُسَريَّاً واجتماعيَّاً وسِياسِـيَّاً .

٢١ ـ التَّعايشُ وفَنُّ التَّخاطُبِ مع المُخالِفِ ضَرُوراتٌ حَضاريَّةٌ ، عاشَها الرَّسُولُ ﷺ في حَياتِه ، ويُعدُّ أوَّلُ مَنْ أسَّسَ دَعائمَها الصَّحيحَةَ في العالَـمِ عَلَىٰ مُستوَىٰ حَضاراتِ الإنسانيَّـة .

٢٢ ـ امتازَ ﷺ عن باقي المُصلِحينَ التَّربَويِّينَ ، بأنَّه قُدوَةٌ عَمليَّةٌ مُثلَىٰ ، فكَانَ بسُلُوكِه نَموذَجاً تَطبيقيَّاً لِـما يَدعُو إلَيه .

التَّوصِـيات

١ ـ عَلَىٰ المُرَبِّي أنْ يَعلمَ أنَّ الحُبَّ لَيسَ مُجرَّدَ عَواطِفَ ومَشاعِرَ فحَسب ، بلْ مَواقفَ تُهدَىٰ .

٢ ـ مِنهاجُنا «العِلمُ قَبلَ العَملِ» ، لأنَّ المُرَبِّي الذي يُرَبِّي عَلَىٰ غَيرِ عِلمٍ ، يُفسِدُ أكثَرَ مِمَّا يُصلِح .

٣ ـ التَّربيَةُ بالحُبِّ يَجِبُ أنْ تكُونَ وِفْقَ مَنهَجٍ واعٍ سَليمٍ ، لبناءِ المُجتمَعِ الصَّالحِ والنُّهوضِ بالأُمَّة .

٤ ـ لا يُمكِنُ فَصلُ الحُبِّ عن التَّربيَـةِ ، فالتَّربيَـةُ هي مَزيجٌ من الحُبِّ والتَّوجيهِ ، وهُما كَجَناحَي طائرٍ في العَمليَّةِ التَّربَويَّةِ .

٥ ـ عَلَىٰ الدَّاعي تَقديرُ حالِ المَدعُو .

٦ ـ عندما يَترسَّخُ الحُبُّ يُصبِحُ الهَجرُ الجَميلُ لتَعديلِ السُّلُوكِ أقسَىٰ أنْواعِ العِقابِ .

٧ ـ في تَربيَتِنا للنَّشءِ عَلينا توظيفُ الحُبِّ في صُورٍ جَذَّابةٍ ومُتنَوِّعةٍ .

٨ ـ في تَعامُلِنا فيما بَينَنا ، عَلينا الإفْصاحُ عن الحُبِّ وإعلَانِه ، وتَحويلِه إلَىٰ سُلُوكٍ عَمليٍّ ، لأهَمِّيَّتِه في التَّفاعُلِ الإنسانيِّ .

٩ ـ تَعيشُ كَثيرٌ من البُيوتِ عَلَىٰ صَمتِ المَشاعِرِ ، والذي يَترُكُ آثاراً سَلبيَّةً عَلَىٰ مُستَقبَلِ أفرادِها ، مِمَّا يَدعُونا إلَىٰ إعادَةِ النَّظَرِ في أُسلُوبِ التَّنشئةِ الاجتماعيَّةِ الرَّاهِنَة .

١٠ ـ لا بُدَّ من إظهارِ المُشارَكةِ الوُجدانيَّـة والشُّعورِ الحِسِّي في التَّعامُلِ مع الآخرينَ ، تأسِّـياً بالرَّسُولِ ﷺ ، لِـما في ذَلكَ من التَّفاعُلِ الإيجابيِّ والإصْلاحِ .

١١ ـ عَلينا الابتِعادُ في العَمليَّـةِ التَّربويَّـةِ عن العُنفِ والقَسوَةِ ، وجَعلُ الرِّفقِ والرَّحمَةِ عِمادُ مَنهَجِ التَّربيَـةِ لَدينا ، لتَربيَةٍ إيجابيَّةٍ فعَّالَةٍ ومُثلَىٰ في إصلَاحِ السُّلُوكِ الإنسانيِّ وتَعديلِه .

١٢ ـ بالحُبِّ الصَّحيحِ المُتوازِن تُحلُّ أكبَرُ المَشاكِلِ المُستعصِيَة .

١٣ ـ المُربِّي يَحتاجُ إلَىٰ عاطِفَةٍ واهتِمامٍ يَتحسَّسُ بِهما خَلَجاتِ النَّفسِ ، ليَتدخَّلَ في الوَقتِ المُناسِبِ وبالعِلاجِ الأنسَبِ .

١٤ ـ تَعزيزُ السُّلُوكِ الإيجابيِّ يكُونُ بالشُّكرِ والتَّقديرِ .

١٥ ـ غَرسُ الثِّقةِ بالنَّفسِ والصُّورَةِ الإيجابيَّةِ عن الذَّاتِ ، والتَّحفيزُ والتَّشجيعُ والإيحاءُ عَوامِلُ يَستَخدمُها المُربِّي في صِناعةِ المُبدِعين .

١٦ ـ التَّواصُلُ الناجحُ بين الآباءِ والأبناءِ يُبنَىٰ عَلَىٰ التَّواصُلِ النَّفسيِّ واللَّفظيِّ والجَسديِّ مَعاً .

١٧ ـ عَلَىٰ المُربِّي الالتِزامُ بالإصْغاءِ الكامِلِ والاهتِمامِ بالمُحاوَر ، للوُصُولِ إلَىٰ الحِوارِ النَّاجِح .

١٨ ـ عَلَىٰ المُربِّينَ والمُصلِحينَ فَتحُ القُلُوبِ قَبلَ العُقُولِ .

١٩ ـ عَلَىٰ المُربِّينَ العِنايَةُ بتكوينِ الفَردِ ومُخاطَبتُه والاهتِمامُ به ، وعَدمُ الاكتِفاءِ بالتَّوجيهِ الجَماعي .

٢٠ ـ لابُدَّ من تَوعيَةِ الأفرادِ قَبلَ بُلوغِ سِنِّ تَأسيسِ الأُسرَةِ وإنجابِ الأطْفالِ ، ليَتعلَّمُوا كَيفَ يَتعامَلُوا مَع أبنائِهِم .

٢١ ـ إنَّ الوَالدَينِ والمُربِّينَ ومَنْ هُم في عِدادِ المَسؤوليَّة التَّربَويَّة ، هُم أحوَجُ النَّاسِ إلَىٰ إعادَةِ التَّقييمِ ومُراجَعةِ المفاهيمِ التَّربَويَّة ، ليَتسنَّىٰ لهم القُدرَةُ عَلَىٰ تَوجيهِ أولادِهم .

٢٢ ـ عَلَىٰ الفِكرِ التَّربَويِّ الإسلَاميِّ ، تَحويلُ المَنهَجِ السُّلُوكيِّ النَّبَـوِيِّ إلَىٰ دَليلِ عَملٍ تَطبيقِي ، ونَشرِه في العالَـم الإسلَاميِّ وباقي العالَـم ، من خِلالِ المُؤسَّساتِ التَّعليميَّةِ والتَّدريبيَّةِ ووَسائلِ الاتِّصالِ الجَماهيريِّ .

المَـراجِــع

١ ـ «**القرآن الكريم**» .

٢ ـ «**إحياءُ عُلوم الدِّين**» ، الإمام أبو حامد محمد الغزالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان ، ط١ ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ، ج٣ ، ٤ .

٣ ـ «**أدَبُ الحِوار وقَواعِدُ الاختِلاف**» ، إعداد : د.عمر بن عبد اللَّـه كامل ، اللجنة العلمية للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب ، المملكة العربية السعودية ، وزارة التعليم العالي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .

٤ ـ «**أدَبُ الدُّنيا والدِّين**» ، لأبي حسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ، حققه وعلق عليه المرحوم مصطفى السقا ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٥ ـ «**الأربَعُونَ النَّوَويَّـة والفَوائدُ التَّربَويَّة**» ، للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، إعداد : عبدالرحمن صالح بن حلي ، دار الأندلس الخضراء ، ط٣ ، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م .

٦ ـ «**استَمتع بحَياتِك**» ، د.محمد بن عبد الرحمن العريفي ، فنون التعامل مع الناس في ظل السيرة النبوية ، دار الحميد للنشر .

٧ ـ «**الاستِيعاب في أسماءِ الأصحاب**» ، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ١٤٢٦هـ- ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

٨ ـ «**الإسلامُ والحُبُّ**» ، عبد اللَّـه ناصح علوان ، سلسة بحوث إسلامية هامة (٢٤) ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، الإصدار الأول نسخة إلكترونية .

٩ ـ «**الأطفالُ المُزعِجُون**» ، الإبداع الفكري ، برنامج عملي تدريبي في مهارات تعديل السلوك لدى الطفل ، د. مصطفى أبوسعد استشاري نفسي وتربوي ، مدرب في مهارات التنمية الذاتية ، شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع-الكويت ، ط٢ ، ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٦م .

١٠ ـ «**إلَيكِ أيَّتُها الفَتاةُ المُسلِمَة**»، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار - الزرقاء - الأردن، ط٣، ١٤٠٥هـ - ١٤٨٥م.

١١ ـ «**أَنوارُ التَّنزيلِ وأَسْرارُ التَّأويل**»، للبيضاوي، التفسير على هامش المصحف، المطبعة العثمانية، استنبول ١٣٠٥هـ.

١٢ ـ «**أهدافُ التَّربيَـة الإسلاميَّـة وغايَتُها**»، دراسة لغوية وفكرية وتاريخية على ضوء من الأصالة والمعاصرة، د.رياض صالح جنزرلي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٣ ـ «**بَطلُ الأبْطالِ أو أبرَزُ صِفاتِ النَّبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ**»، تأليف عبدالرحمن عزام، مكتبة لبنان- ساحة رياض الصلح - بيروت، طبعة جديدة، ١٩٧٩م.

١٤ ـ «**تَراجِمُ سَيِّداتِ بَيتِ النُّبوَّةِ رَضيَ اللّـهُ عَنهُنَّ**»، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار الحديث - القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٥ ـ «**تَعامُلُ الرَّسُولِ ﷺ مَع الأَطفالِ تَربَوياً**»، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن مركز البحوث والدراسات، قطر، د.حصة بنت محمد بن فالح الصغير، العدد ١٢٨، ذو القعدة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، السنة الثامنة والعشرون.

١٦ ـ «**التَّربيَـةُ الإيجابيَّـةُ من خِلالِ إشْباع: الحاجَاتِ النَّفسيَّة للطِّفلِ**»- الوالدية الإيجابية. د.مصطفى أبوسعد، سلسلة نحو منهج تربوي إسلامي لرعاية الطفل(٢)، مركز الراشد، ط٤، رمضان ١٤٢٥هـ - نوفمبر/ ٢٠٠٤م.

١٧ ـ «**التَّرغيبُ والتَّرهيبُ من الحَديثِ الشَّريفِ**»، تأليف الإمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري، علّق عليه مصطفى محمد عمارة، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ج٣، ٤.

١٨ ـ «**التَّعامُلُ مع غَيرِ المُسلِمينَ في العَهدِ النَّبَـويِّ**»، تأليف ناصر محمدي محمد جاد، قدّم له فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد السيد الجلنيد، دار الميمان للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

١٩ ـ «تَفسيرُ الخَازنِ المُسمَّىٰ لُبابُ التَّأويلِ في مَعاني التَّنزيلِ» ، للإمام علاء الدين البغدادي الشهير بالخازن ، ومعه تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل للإمام الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤١٥ هـ -١٩٩٥م ، جـ١ ، ٢ ، ٦ .

٢٠ ـ «تَفسيرُ الفاتحَة الكَبير المُسمَّىٰ بـ (البَحرِ المَديدِ)» ، تأليف الإمام العالم أحمد بن عجيبة الحسني ، تحقيق : بسام محمد بارود ، دار الحموي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

٢١ ـ «التَّوجِـيهُ غَيرُ المُباشِـر وأَثَرُه في التَّربِيَـة وتَغيُّر السُّـلوك» ، بحوث ودراسات إسلامية ، تأليف د. صالح بن عبد اللّـه بن حميد ، إمام الحرم المكي ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤١٥هـ .

٢٢ ـ «الجَوابُ الكافي لِـمَن سَأَلَ عن الدَّواءِ الشَّافي» ، تأليف الإمام الحافظ محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية ، حققه وخرّج نصوصه وعلّق عليه مصطفى الشلبي ، مكتبة السوادي للتوزيع ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٢٣ ـ «حاشِيَةُ الشِّهابِ المُسمَّاة عِنايَة القاضي وكِفايَة الرَّاضي على تَفسير البَيضاوي» ، محمد بن أحمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي ، دار صادر ـ بيروت .

٢٤ ـ «حاجاتُ البَشَـريَّة في رسالَةِ النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ» ، سلسلة رحمة للعالمين(١) ، إعداد البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ، ط١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

٢٥ ـ «الحُبُّ في القُرآنِ الكَريم» ، صاحب السمو الملكي الأمير غازي بن محمد بن طلال الهاشمي ، سنة النشر : ٢٠١٠م ، الناشر : دار الرازي للطباعة والنشر ، عمان ـ الأردن .

٢٦ ـ «الحُبُّ في التُّراثِ العَربيِّ» ، عالم المعرفة ، العدد : ٣٤ ، د. محمد حسن عبد اللّـه .

٢٧ ـ «حَدائقُ الأَنوارِ ومَطالعُ الأَسْرارِ في سِيرَةِ النَّبيِّ المُختار ﷺ» ، للعالم الفقيه القاضي علامة اليمن محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي ، اعتنى به محمد غسان نصوح عزقول ، دار المنهاج ، ط١ ، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م .

٢٨ ـ «الرِّجالُ من المَرِّيخ والنِّساءُ من الزُّهرَة» ، جون جراي ، مكتبة جرير ، ط١ ، ٢٠٠٧م .

٢٩ ـ «**خاتَمُ النَّبيِّـين**» ، الإمام محمد أبوزهرة ، دار الفكر العربي .

٣٠ ـ «**رَوضَةُ المُحبِّين ونُزهَةُ المُشتاقين**» لابن قيم الجوزية ، تحقيق سمير مصطفى رباب ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ لبنان ، ٢٠٠٩م-١٤٣٠هـ .

٣١ ـ «**الرِّسالَة القُشَيريَّة في عِلم التَّصوُّف**» ، تأليف العلامة العارف باللّـه أبي القاسم عبد الكريم بن هوزان القشَيري النيسابوري ، تحقيق : معروف مصطفى زريق ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ لبنان ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

٣٢ ـ «**رَشُّ البَرد شَرح الأدَب المُفرَد**» ، للإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ، تأليف الشيخ الدكتور محمد لقمان السلفي ، دار الداعي للنشر والتوزيع الرياض ، مركز العلامة ابن باز للدراسات الإسلامية جامعة الإمام ابن تيمية ، مدينة السلام ٨٤٥٣١٢ بيهار ـ الهند ، ط٢ ، رجب ١٤٢٧هـ .

٣٣ ـ «**الرَّحيقُ المَختُوم**» ، تأليف فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ لبنان ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م .

٣٤ ـ «**الرَّسُولُ المُعلِّمُ ﷺ وأسَاليبُه في التَّعليم**» ، بقلم الشيخ عبد الفتاح أبوغدة ، الناشر : مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب ، قامت بطباعته وإخراجه دار البشائر الإسلامية للطباعات والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان .

٣٥ ـ «**الرَّسُولُ ﷺ القُدوَة**» ، د. عبد اللطيف بن إبراهيم الحسين ، ١٩/ ١١/ ١٤٣٢هـ ، مقال من موقع صيد الفوائد .

٣٦ ـ «**رِجالٌ حَولَ الرَّسُولِ**» ، تأليف : خالد محمد خالد ، دار الفكر ، بيروت- بغداد ، رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد : ١٥٦٨ ، لسنة ١٩٨٥م .

٣٧ ـ «**رِياضُ الصَّالحِينَ من كَلام سَيِّد المُرسَلين**» ، تأليف : الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ، حقَّقَه : د.عبد المعطي أمين قلعجي ، وحمدان جعفر ، دار الغد العربي ـ القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٢م .

٣٨ ـ «**رياضُ أُنسِنا في زَهراءِ حُبِّنا**» كتاب مجتمع الإيمان (٣) ، تأليف : محمود فؤاد الطباخ ، جدة – المملكة العربية السعودية ، شركة دار العلم للطباعة والنشر .

٣٩ ـ «**سِلسِلَة الأحَاديثِ الصَّحيحَة وشَيءٌ مِنْ فِقهِها وفَوائِدِها**» ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، سنة النشر : ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، طبعة جديدة ومنقحة .

٤٠ ـ «**سُـنَن أبي داوُد**» ، سليمان بن الأشعث أبوداود السجستاني ، حققه وضبطه : شعيب الأرنؤوط ، محمد علي قرة بللي ، عبد اللطيف حرز اللّـه ، دار الرسالة العالمية - دمشق ، الطبعة الأولى ، طبعة خاصة ٢٠٠٩م/ ١٤٣٠هـ .

٤١ ـ «**السُّـنَنُ الكُبرَىٰ**» ، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شُعيب النَّسائي ، أشرف عليه : شعيب الأرنؤوط ، حقَّقه وخرَّج أحاديثَه : حسن عبد المنعم شَلبي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م .

٤٢ ـ «**سُـنَنُ التِّرمِذِيِّ**» ، الجامع الكبير ، ط١ ، سنة النشر : ١٩٩٦م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت - حقَّقه وخرَّجه : د. بشَّـارعوَّاد مَعروف .

٤٣ ـ «**سُـنَنُ بن ماجة**» ، محمد بن يزيد القزويني عبد اللّـه بن ماجة ، المحقق : فؤاد عبد الباقي ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية .

٤٤ ـ «**سُـنَنُ النسائي**» ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي ، حكم على أحاديثه وآثاره وعلَّق عليها العلَّامة المحدِّث : محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ الطبعة الأولىٰ .

٤٥ ـ «**السِّيرةُ النَّبَـويَّـة**» عرض وقائع وتحليل أحداث ، د. علي محمد الصلابي ، مكتبة صيد الفوائد الإلكترونية .

٤٦ ـ «**سَـيِّدُنا مُحَمَّدٌ نَبيُّ الرَّحمَةِ ورَسُولِ الهُدَىٰ ﷺ**» ، تأليف الأستاذ : محمد محيي الدين ، جمهورية مصر العربية ، المجلس الأعلَىٰ للشؤون الإسلامية ، لجنة التعريف بالإسلام ، مطابع الأهرام التجارية ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

٤٧ ـ «**شَـرحُ الكَـبائر**» الإمام الحافظ الذهبي ، الشيخ : محمد بن صالح العثيمين ومجموعة علماء ، إعداد وتحقيق : حامد أحمد الطاهر ، دار الفجر للتراث ـ القاهرة ، ط٢ ، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م .

٤٨ ـ «**الشِّـفَا بتَعريفِ حُقوقِ المُصطَفىٰ ﷺ**» ، العلامة القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي ، اعتنى به وراجعه : هيثم الطعيمي ، ونجيب ماجدي ، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م .

٤٩ ـ «**صَحيحُ البُخاري**» ، الإمام الحافظ أبي عبد اللّـه محمد بن إسماعيل البخاري ، مراجعة وضبط وفهرسة الشيخ : محمد علي القطب ، والشيخ هشام البخاري ، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م .

٥٠ ـ «**صَحيحُ مُسلِم**» ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م .

٥١ ـ «**صَحيفة الوَسط البَحرينيَّة**» ، العدد ٢٥٣٤ ـ الجمعة ١٤ أغسطس ٢٠٠٩م ـ الموافق٢٢شعبان ١٤٣٠هـ ، انظر مقالة عن التعايش الحضاري ، للشيخ سلمان بن فهد العودة .

٥٢ ـ «**ضَوابط الوَسطيَّة بين الفِطرَة والأمانَة والفِتنَة**» ، تأليف : محمد سالم بن عبد الحي بن دودو ، المستشار الشرعي لوزير الشؤون الإسلامي والتعليم الأعلى موريتانيا ، تقديم فضيلة العلامة د.عبد اللّـه بن بية ، معهد مكة المكرمة ، جدة ، مؤسسة طريق الأمة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م .

٥٣ ـ «**الطَّبقات الكُبرىٰ**» ، محمد بن سعد بن منيع الزهري ، تحقيق الدكتور : علي محمد عمر ، ط١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م ، مكتبة الخانجي – بالقاهرة .

٥٤ ـ «**الطَّريقُ إلَىٰ القُلُوب**» ، عباس السيسي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٩هـ –١٩٩٨م .

٥٥ ـ «**طَريقُنا إلَىٰ القُلُوب**» ، عبير بنت فهد الفيصل آل سعود ، مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض ، ١٤٢٤هـ .

٥٦ ـ «**طَوقُ الحمَامَة في الأُلفَة والألاف**» ، للإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي ، المتوفي سنة ٤٥٦ هـ ، عنيت بنشره مكتبة عرفة – بدمشق .

٥٧ ـ «**عِلمُ نَفس النُّمو (الطفولة والمراهقة)**» ، د.حامد عبد السلام زَهران ، عالم الكتب ، ط٥ ، ١٩٩٠م .

٥٨ ـ «**العاطِفَةُ الإيمانيَّة وأهَميَّتُها في العَملِ الإسلامي**» ، د. محمد موسى الشريف ، دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .

٥٩ ـ «**عَبقَريةُ مُحمَّد ﷺ**» ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ لبنان ، ط٣ ، ٢٠٠٨م ـ ١٤٢٩هـ .

٦٠ ـ «**عَظمَةُ مُحمَّد خاتَم رُسُل اللَّـهِ ﷺ**» ، مجمع عظمات البشرية ، مصطفى أحمد الزرقا ، دار القلم ـ دمشق ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .

٦١ ـ «**عَلِّمُوا أوْلادكُم مَحبَّةَ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ**» ، د.محمد عبده يماني ، شركة دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ جدة ، مؤسسة علوم القرآن ـ بيروت .

٦٢ ـ «**الغَربُ والإسلَامُ أينَ الخَطأُ وأينَ الصَّوابُ؟**» د.محمد عمارة ، مكتبة الشروق الدولية ، ط١ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م .

٦٣ ـ «**فَتحُ البَاري بشَرح صَحيحِ البُخاري**» ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار مصر للطباعة ، ط١ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

٦٤ ـ «**فِقهُ اللُّغَة وأسْرارُ العَربيَّة**» ، لأبي منصور الثعالبي ، وضع الشروح والتعليق والفهارس د.ديزيره سقال ، دار الفكر العربي ـ بيروت ـ لبنان ، مطابع يوسف بيضون ، ط١ ، ١٩٩٩م .

٦٥ ـ «**فِقْـهُ السِّـيرَة**» ، محمد الغزالي ، خرَّج أحاديث الكتاب المحَدِّثُ العلَّامة الشيخ : محمد ناصر الدين الألباني ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي .

٦٦ ـ «**فِقْـهُ السِّـيرَة النَّبـَويَّة**» ، منير محمد غضبان ، المملكة العربية السعودية ، وزارة التعليم العالي ، جامعة أم القرى ، سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية (٥) ، ط٤ ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .

٦٧ ـ «فَنُّ إدارَة المشَاعِر»، تَجاوَزي القَلقَ والخَوفَ وعَدمَ الثِّقةِ بالنَّفسِ، وتَعلَّمي السَّيطرةَ على مَشاعِركِ السَّلبيَّة»، رَضوىٰ أسامة، وهج الحياة للنشر والتوزيع، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء التوزيع، ط١، ٢٠١٠م-١٤٣١هـ.

٦٨ ـ «فَيضُ القَديرِ شَرحُ الجامعِ الصَّغير»، العلامة المناوي، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

٦٩ ـ «في أُصُولِ الحِوَار»، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٥، مزيدة ومنقحة، مطابع سحر، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٧٠ ـ «في بَيتِنا مَكَّار»، كيف نتعامل مع حاجات الأبناء؟ أفكار جديدة لوالدية سعيدة، تأليف د.إبراهيم محمد الخليفي، أستاذ علم النفس التربوي، دار إقرأ للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٧١ ـ «قَبسَاتٌ من نُورِ النُّـبُوَّة»، تأليف الشيخ: عبد الفتاح أبوغدة، الشيخ أحمد عز الدين البيانوني، تقديم د. الشيخ محمد أبوالفتح البيانوني، اعتنى به عبد المجيد البيانوني، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٧٢ ـ «قَبسَاتٌ من الرَّسُول»، محمد قطب، المملكة العربية السعودية، وزارة المعارف، دار الشروق، ط٨، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٧٣ ـ «القُـدوَة: مَبادئُ ونَماذجُ»، بحوث ودراسات إسلامية للشباب (٢)، تأليف د.صالح بن عبد اللّـه بن حميد إمام الحرم المكي، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٢، ١٤١٥هـ.

٧٤ ـ «كتابُ السُّـنَّة»، للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني، ومعه «ظِلالُ الجَـنَّة تَخريجُ السُّـنَّة»، بقلم محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٧٥ ـ «الكَشفُ والبَيـانُ» للثعلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٧٦ ـ «كَيفَ تُحاوِر؟»، أ.د. طارق بن علي الحبيب، بروفيسور واستشاري الطب النفسي بكلية الطب والمستشفيات الجامعية، مؤسسة الجريسي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١٥، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٧٧ ـ «**كَيفَ تُؤثِّرُ عَلَىٰ الآخَرينَ وتكتَسبُ الأصدقاءَ**» ، ديل كارنيجي مكتبة جرير ، إعادة طبع الطبعة الثانية ٢٠١٠م .

٧٨ ـ «**كَيفَ تكسبُ حُبَّ النَّاسِ**» كتاب في الإدارة وتطوير الذات ، للدكتور عبد الكريم الفريح ، تصميم وتنفيذ مكتبة الكتاب العربي .

٧٩ ـ «**كَيفَ تكسبُ أخَاً في اللّـهِ**» ، د. محمد بن فهد الودعان ، العبيكان ، ط١ ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

٨٠ ـ «**لِسَانُ العَرَبِ**» لابن منظور ، دار المعارف طبعة جديدة ومحققة ، الناشر : ١١١٩كورنيش النيل ـ القاهرة ، ج.م.ع .

٨١ ـ «**مَحبَّةُ الرَّسُولِ ﷺ**» ، الإصدار الثاني من مؤلفات سماحة العلامة الشيخ محمد بن الحسن الددّو الشقنيطي ، اعتنى به : علي بن حمزة العمري ، معهد مكة بجدة ، ط١ ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .

٨٢ ـ «**مُحمَّدٌ ﷺ الإنسَانُ الكَامِل**» ، تأليف السيد محمد بن السيد علوي المالكي الحسني ، خادم العلم الشريف في البلد الحرام ، ط١٠ ، مزيدة ومنقحة ، ١٤١١هـ .

٨٣ ـ «**مُختارُ الصِّحاح**» ، للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، طبعة مدققة كاملة التشكيل ومميزة المداخل ، مكتبة لبنان ـ بيروت ، ١٩٨٩م .

٨٤ ـ «**مَدارِجُ السَّالكِين في شَرح مَنازِلِ السَّائرين**» ، تأليف الإمام ابن قيم الجوزية ، تحقيق الداني بن منير آل زهوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م ، المجلد الأول ، والمجلد الثاني ، والمجلد الثالث .

٨٥ ـ «**مُراهَقَة بِلا أزمَة**» ، ج١ ، ترويض العاطفة ، ج٢ ، فنون تربوية ، د/ أكرم رضا ، ج١ ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م .

٨٦ ـ «**المُعجَم الوَسيط**» ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م ، مكتبة الشروق الدولية ، جمهورية مصر العربية .

٨٧ ـ «**مُعجَم الطَّبَراني الكَبير**» ، للحافظ سليمان بن أحمد الطبراني ، حققه وخرج أحاديثه : حمدي عبد المجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ج٤ .

٨٨ ـ «**المُعلِّمُ الدَّاعيَة**» ، عبد الرحمن بن محمد الفارس ، دار القاسم ، الرياض ، ط١ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .

٨٩ ـ «**المُفرَداتُ في غَريبِ القُرآن**» ، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تم التحقيق والإعداد بمركز نزار مصطفى الباز ، الناشر نزار مصطفى الباز .

٩٠ ـ «**مَفهُومُ الحِكمَة في الدَّعوَة**» ، بحوث ودراسات إسلامية للشباب (٤) د.صالح بن عبد اللّـه بن حميد إمام الحرم المكي ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي .

٩١ ـ «**مُقوِّماتُ الدَّاعيَة النَّاجِح**» ، بقلم د/ علي بن عمر بن أحمد بادحدح ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي .

٩٢ ـ «**مَناحِلُ الشِّفا ومَناهِلُ الصَّفا بتَحقيقِ كتابِ شَرَفِ المُصطَفىٰ ﷺ**» ، تصنيف الإمام أبي سعد عبد الملك بن إبراهيم الخركوشي ، رواية الأستاذ القدوة أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، قابل أصوله الخطية ورتب أحاديثه وخرجها السيد نبيل بن هاشم الغمري آل باعلوي ، دار البشائر الإسلامية ، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر ، ط١ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ، ج٢ ، ٣ ، ٤ .

٩٣ ـ «**المنهَجُ التَّربَويُّ للسِّيرَة النَّبـَويَّة**» التربية القيادية ، ٤/ ٥/ ٦/ ٧ ، الأجزاء : ١/ ٢/ ٣/ ٤ ، منير الغضبان ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ج.م.ع ، المنصورة ، ط١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

٩٤ ـ «**مَنهَجُ التَّربيَة الإسلاميَّة**» ، محمد قطب ، دار الشروق ، ط٧ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ج٢ ، دار الشروق ، ط٤ ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م .

٩٥ ـ «**مَنهَجيَّة التَّربيَة الدَّعَويَة**» ، إحياء فقه الدعوة الكتاب السابع ، تأليف : عبد المنعم صالح العلي العربي المعروف باسمه المستعار محمد أحمد الراشد ، دار المحراب للنشر ، ط٣ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

٩٦ ـ «**مَنهَجُ الإسلام في تَزكيَة النَّفسِ وأثَرُه في الدَّعوَةِ إلَىٰ اللّـهِ تَعالَىٰ**» ، د.أنس أحمد كرزون ، دار نور المكتبات ـ جدة ـ المملكة العربية السعودية ، دار ابن حزم بيروت ـ لبنان ، ط٤ ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .

٩٧ ـ «**مَهاراتُ الاتِّصال**» تحرير د. نوح بن يحيى الشهري ، دار حافظ للنشر والتوزيع ، تأليف ١/ د. نوح بن يحى الشهري ، ٢/ د. عبد المنعم بن عبد السلام الحياني ، ٣/ د . أحمد عبد اللَّـه الغامدي ، ٤/ د. سعيد بن عبداللَّـه نجيدة ، ٥/ د. أميرة محمد النمر ، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية ، ط١ ، ١٤٣١هـ .

٩٨ ـ «**مَوسُوعَة نَضرَة النَّعيم في مَكارِم أخلَاقِ الرَّسُولِ الكَريم** ﷺ» ، ١٢ مجلد ، إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن عبد اللَّـه بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي ، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح مدير دار الوسيلة للنشر والتوزيع ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع ـ جدة ، ط٤ ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م ، المجلد ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ .

٩٩ ـ «**مَوسُوعَة المَفَاهيم التَّربَويَّة في أُسَر الآلِ والأصْحاب**» ، الديوان الأميري ، اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، اللجنة التربوية ، مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر ، ط١ ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م .

١٠٠ ـ «**المُواطَنَـة في غَيرِ ديارِ المُسلِمين بين النَّافينَ والمُثبتين**» ، دراسة فقهية نقدية ، إعداد د.صلاح الدين سلطان المستشار الشرعي للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية البحرين ، بحث مقدم للدورة السابعة عشر للمجلس، البوسنة مؤسسة طريق الأمة للنشر والتوزيع ، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ، معهد مكة المفتوحة بجدة ، ط : ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

١٠١ ـ «**نَحو نَفس مُطمئنَّة واثِقَة**» ، أ.د. طارق بن علي الحبيب ، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر ، ط١ : ١٤١٥هـ/ ٢٠٠٤م .

١٠٢ ـ «**نَبيُّ الهُدَىٰ والرَّحمَة ومَا أرْسَلنَاكَ إلَّا رَحمَةً لِلعَالَـمين**» ، دراسة منهجية معاصرة للشخصية النبوية الخاتمة ، من مشكاة الرحمة الكبرىٰ والأسوة الحسنة والخلق العظيم ، بقلم د.عبد المجيد البيانوني ، ط١: ١٤٢٩هـ .

١٠٣ ـ «**نَحو تَربيَـة إسلاميَّـة راشِدَة من الطُّفولَة حتَّىٰ البُلوغ**» ، تأليف : محمد بن شاكر الشريف ، سلسلة تصدر عن مجلة البيان ، كتاب البيان ، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر ، ط١ : ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م .

١٠٤ ـ «**هَـٰذا الحَبيبُ يا مُحِبُّ**» ، تأليف أبي بكر جابر الجزائري ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م .

المواقعُ الالكترونيَّة

١ ـ «**موقع البرنامج العالمي للتعريف بنَبيِّ الرَّحمة ﷺ**»
http://www.mercyprophet.org

٢ ـ «**موقع التربية بالحب**» : د. ميسرة طاهر .

(أ) «**موقع جامعة الإيمان**» ، للأستاذ محمد أحمد الوزير ، قسمي فيما أملك .
http://www.jameataleman.org

(ب) «**موقع حواء**» **www.balgh.com**

٣ ـ «**مكتبة صيد الفوائد الالكترونية**» .

٤ ـ «**موقع صيد الفوائد**» .

٥ ـ «**مكتبة الكتاب العربي**» .

٦ ـ «**مَوسُوعة النَّابلسي للعُلُوم الإسلامية**» ، **http://www.nabulsi.com**
سيرة الصحابيات الجليلات ـ أمهات المؤمنين ـ سيرة السيدة خديجة بنت خويلد ، وفي الموقع نفسه انظر : الإخاء الإسلامي المسيحي ـ المواطنة والتعايش .

الفهـــرَس

إهْـــدَاء ٥
شُـكْـرٌ وتَقْـدير ٧
الـمـقـدمَّـة ٩
تَعريفٌ بالمَوضُوع ٩
تمهـــيد ١٥

الفَصلُ الأوَّل : الحُبِّ والتَّربيَـة ١٧
المَبْحَثُ الأوَّلُ : تَعريفُ الحُبِّ ٢٠
درجَـاتُ الحُـبِّ ٢٤
العَلاقَة بين الحُبِّ والخَوْفِ والرَّجاءِ ٣١
تَعريفُ التَّربيَـة ٣٤
المَبْحَثُ الثَّـانيُ : عَـلاقَـةُ الحُبِّ بالتَّربيَـة ٣٩
مَفهُوم الحب باعتباره سلوكاً في العلاقات الإنسانية ٤٠
أهَمـيَّةُ الحُبِّ ٤٣
دَورُ الحُبِّ الفَعَّـال في التَّربيَـة ٤٥
التَّربيَـةُ والحُبُّ في القُرآنِ والسِّـيرَة ٤٩
المَبْحَثُ الثَّـالِثُ : عَلاقَـةُ الحُبِّ بالتَّربيَة ٥١
تَعريفُ الأصَـالَةِ والمُعـاصَرَة ٥٢
الحُبُّ في القُرآنِ والسُّـنَّة ٥٣
الإسلَامُ والعَاطِفَةُ الجِنسِيَّة ٥٩

الإسـلامُ والحُبُّ المُعَـاصِر ٦٤
صُورٌ من الحُبِّ الفَاسِـد ٦٦
الإسلامُ يُهـذِّبُ الحُبَّ ٦٨
الحُبُّ الأَصِيلُ المُعاصِر ٧٢

الفَصلُ الثَّـاني : أشكالُ ومَهاراتِ الحُبِّ في التَّربيَـة النَّبـوِيَّة ٧٥
تمهـــيد ٧٧
نَعيمُ الحُبِّ في رَوْضَةِ الحَبيبِ المُصطَفىٰ ﷺ ٧٨
المَبْحَثُ الأوَّلُ : صُورٌ من التَّربيَةِ بالحُبِّ في حَياةِ الرَّسُولِ ﷺ ٨٥
المطلَبُ الأوَّلُ : الحُبُّ العَاطِفيُّ ٨٦
المطلَبُ الثَّـــانيُ : حُبُّ الوَفَـاءِ ٩٤
المطلَبُ الثَّـالِثُ : حُبُّ التَّقدير والإكْـرام ١٠١
المطلَبُ الرَّابِـعُ : الدَّعْـوَةُ بالحِكْمَة ١٠٥
المطلَبُ الخَـامِسُ : التَّعليمُ والنَّصيحَةُ بالمُلاطَفَةِ والحُبِّ ١١١
المطلَبُ السَّادِسُ : الإقْنَـاعُ بالحِـوَارِ والحُـبِّ ١١٥
المطلَبُ السَّـــابعُ : تَغييرُ السُّلُوكِ والإصْلَاحُ بالحُـبِّ ١٢٠
المطلَبُ الثَّـامِنُ : الحِـلْمُ والتَّغَـاضي ١٢٤
المَبْحَثُ الثَّـــانيُ : مَهارَاتُ التَّربيَةِ بالحُبِّ وفَنُّ التَّخاطُبِ وِفْقَ الهَدي النَّبويِّ ١٢٧
المطلَبُ الأوَّل : فَـنُّ التَّعـايُـش ١٢٨
المطلَبُ الثَّاني : غَرسُ الثِّقَةِ بالنَّفسِ وتَقديرُ الذَّاتِ ١٣٦
المطلَبُ الثَّالث : التَّحفيزُ والتَّشجيعُ والإيحَاءُ ١٤١
المطلَبُ الرَّابع : التَّسامُحُ والإغْضاءُ عَن الهَفَوَاتِ والأخْطَاءِ : (الفَصلُ بَينَ السُّلُوكِ والشَّخصِ) ١٤٤

المطلَبُ الخامِس : الانشِغَالُ بهُمُوم الأصْحَاب ١٤٨
المطلَبُ السَّـادِس : إكْرَامُ الأصْحَابِ عن طَريقِ الاهْتِمام بصِغَارِهِم ١٥٢
المطلَبُ السَّابع : إيقَـادُ شُعلَةِ الحُبِّ لإصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ ١٥٧
المطلَبُ الثَّامن : التَّعْـريضُ ١٥٩
المطلَبُ التَّاسع : إعْـلَانُ الحُـبِّ ١٦١

الفَصلُ الثَّـالث : مَفاتيحُ الحُبِّ وثَمَراتِه في التَّربيَـة النَّبَـويَّة ١٦٩
تَمهـــيد ١٧١
المَبحَثُ الأوَّل : مَفاتيحُ الحُبِّ في التَّربيَـةِ النَّـبَويَّة ١٧٣
المطلَبُ الأوَّل : الابْتِسَـامَةُ ١٧٥
المطلَبُ الثَّاني : المُبادَرَةُ بالسَّلامِ والمُصافَحَـة ١٨٠
المطلَبُ الثَّالث : الرِّفْـقُ ١٨٦
المطلَبُ الرَّابع : الكَـرَمُ والعَطَـاءُ ١٩٤
المطلَبُ الخامِس : الإيثَـارُ ١٩٦
المطلَبُ السَّادِس : الْـهَديَّـةُ ١٩٨
المطلَبُ السَّابع : التَّواضُعُ ٢٠١
المطلَبُ الثَّامن : إشعارُ الجَليسِ بالاهتِمام ٢٠٩
المطلَبُ التَّاسع : الحِلمُ والعَفوُ والصَّفْحُ ٢١٦
المَبْحَثُ الثَّـاني : ثمرات الحُبِّ الذي غَرسَهُ الرَّسُولُ مُحمَّدٌ ﷺ ٢٢٦
تَمهـــيد ٢٢٦
المطلَبُ الأوَّل : بِنَـاءُ مُجتَمَع نَمُوذَجيٍّ حَضاريٍّ ٢٢٨
المطلَبُ الثَّاني : نَقَلُ مُجتمَع صَغيرٍ لقِيادَةِ العَالَـم ٢٣٦
المطلَبُ الثَّالث : الحُبُّ والطَّـاعَـة ٢٣٩

المطلَبُ الرَّابع : تَحـويلُ الأعداءِ إلى دُعَـاةٍ ٢٥٠
المطلَبُ الخامِس : بِنَـاءُ قَـادَةٍ مُمَـيَّزين ٢٥٣
المطلَبُ السَّادِس : احترامُ غَيرِ المُسلِمينَ للرَّسُولِ ﷺ ٢٦٣
شَهادَةُ المُنصِفينَ في العُصُورِ الحَديثَة ٢٦٥
برنارد شــو ٢٦٥
مايكل هارت ٢٦٦
لـورد هــيدلي ٢٦٧
تُولِستُوي ٢٦٧
توماس كارلايل ٢٦٨

الفَصلُ الرَّابع : ضَوابِطُ الحُبِّ عند الرَّسُولِ ﷺ ٢٦٩
تَمهــــيد ٢٧١
الضَّابِطُ الأوَّلُ : الحُبُّ والبُغضُ في اللّـهِ (عَدمُ قَبُولِ الشَّفاعَةِ في حَدٍّ من حُدودِ اللّـهِ) ٢٧٣
الضَّابِطُ الثَّـاني : الحَـزمُ في الحُبِّ ٢٧٥
الضَّابِطُ الثَّالث : التَّوازُنُ في الحُبِّ ٢٨٠
١ـ الحُبُّ بينَ التَّفريطِ والإفْرَاطِ ٢٨١
٢ـ العَدلُ في الحُبُّ ٢٨٣
٣ـ الحُبُّ والحُزْنُ ٢٨٥
٤ـ الحُبُّ والغَيرَةُ والغَضَبُ ٢٨٩
٥ـ الحُبُّ والكُرهُ ٢٩٦
الضَّابِطُ الرَّابع : الحِفَاظُ على المَودَّةِ والأُلفَةِ ٣٠٠
١ـ الحُبُّ والحُقُوق الفَرديَّةِ ٣٠١
٢ـ مُراعَاةِ الحُقُوقِ الفَرديَّة في العَلاقَةِ مع المُقرَّبين ٣٠٥

الفَصلُ الخَامِس : الحُبُّ النَّبَـويُّ والوَاقِعُ المُعاصِر ٣٠٩
تمهـــيد ٣١١
المَطلَبُ الأوَّلُ : الرَّسُولُ الزَّوجُ ٣١٣
المَطلَبُ الثَّـانِيُ : الرَّسُولُ الأَبُ ٣٢٥
المَطلَبُ الثَّـالِثُ : الرَّسُولُ والـجَـار ٣٣٣
المَطلَبُ الرَّابِـعُ : الرَّسُولُ الصَّاحِبُ ٣٤٠
المَطلَبُ الخَامِسُ : الرَّسُولُ القَائِدُ ٣٤٦
المَطلَبُ السَّادِسُ : الرَّسُولُ الـمُـرَبِّي ٣٥٦
المَطلَبُ السَّـابِعُ : الرَّسُولُ العَطُوفُ عَلَىٰ المَخلُوقَاتِ ٣٦٤
المَطلَبُ الثَّـامِنُ : الرَّسُولُ القُدوَة ٣٧٠
الخَـــاتِمَة ٣٧٥
النَّتَــائج ٣٧٦
التَّوصِــيات ٣٧٩
المراجــــع ٣٨٣
المواقع الالكترونية ٣٩٤
الـفـهـــرس ٣٩٥

التجهيز والإخراج

دار عوائد الخير للنشر والتوزيع ـ جدة ـ حي المحمدية
هاتف : ٠١٢ ٢٣٨ ٨١٢٠ ـ فاكس : ٠١٢ ٢٣٦ ٥٢٢٠ ـ جوال : ٠٥٥ ٤٣١ ٠٠٩٠
عوائد الخير